تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد السادس

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر

جَزَى ٱللَّهُ خَيْراً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ   وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ   وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخر

يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا   كُنْ وَافِياً لَنَا مُرَادَنَا
مِنْ شَرْحِ أَفْضَلِ ٱلْكِتَابِ   قَبْلَ حُلُوْلِنَا تَحْتَ ٱلتُّرَاب
وَأَصْلِحْ لَنَا ٱلأَقْوَالَ وٱلأَعْمَالَ   وَكَمِّلْ لَنَا ٱلْمَقْصُودَ والآمَالَ
يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا   يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا ٱسْتَجِبْ لَنَا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على إنعامه، والشكرُ له على إحسانه، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله، ما سطر المؤلفون أسطار الحكم بمداد الجود والكرم.

أما بعد: فلما فرغت بحمد الله من شرح الجزء الرابع من القرآن.. أخذت ـ بعون الله تعالى ـ في شرح الجزء الخامس منه فقلت:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ...﴾ إلى آخر الآيتين، مناسبتُهما لما قبلهما: أنهما[١] من تتمةِ ما قبلهما من جهة المعنى، فقَدْ ذكَرَ في أولاهما بقية ما

(١) المراغي.

يحرم من النساء، وحل سِوى من تقدم، ووجوب إعطاء المهور، وذكر في الآية الثانية حكم نكاح الإماء، وحُكم حدهن عند ارتكاب الفاحشة. لكن من قسموا القرآن ثلاثين جزءاً جعلوهما أولَ الجزء الخامس مراعاةً للفظِ دون المعنى؛ إذ لو راعوا المعنى.. لجعلُوا أولَ الجزء الخامس قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ لأنه كلام مستأنف.

أسبابُ النزول

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ...﴾ سببُ نزول هذه الآية: ما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري: (أن رسول الله ﷺ يوم حُنين بعث جيشاً إلى أوطاس، فلقُوا عدواً فقاتَلُوهم فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأن ناساً من أصحاب الرسول ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجْلِ أزواجهن من المشركين، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾؛ أي: فهن لكم حلال إذا انقضَتْ عدتهن. الحديثُ أخرجه الترمذي ـ وقال: حديث حسن صحيح ـ وأبو داود والنسائي والإمامُ أحمد وابن جرير.

وأخرج الطبراني[1] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت يوم حنين، لما فتَحَ الله حنيناً.. أصاب المسلمون نساءً من نساء أهل الكتاب لهن أزواجٌ، وكان الرجل إذا أراد أن يأتيَ المرأةَ قالت: إن لي زوجاً، فسُئِلَ ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ...﴾ الآيةَ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ...﴾ سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن معمر عن سليمان عن أبيه قال: زعم حضرمي أنَّ رجالاً كانوا يفرضون المهر ثُمَّ عسى أن تدرك أحدهم العسرةُ، فنزلت: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾.

---

(١) لباب النقول.

التفسير وأوجهُ القراءة

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ معطوف على قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾؛ أي: وحُرِّم عليكم أيها المؤمنون نكاحُ المتزوجات اللاتي أحصنَّ أنفسَهن من الزنا بالزواج، أو أزواجَهن من الزنا إن قرىء بكسر الصاد، أو ذاتِ الأزواج اللاتي أَحْصنهن الأزواجُ من الزنا، إنّ قرىء بفتح الصاد حالةَ كونهن من جميع النساء مسلماتٍ كُنّ أو كتابياتٍ. قال الشوكاني[1]: وقد قرىء المحصنات ـ بفتح الصاد وكسرها ـ فالفتح على أن الأزواج حصنوهن، والكسر على أنهن أحصن فروجهن من غير أزواجهن، أو أَحصَن أزواجَهن انتهى. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وأيديكم إما بسبي، فإنَّ المسبيَّات حلال لكم بعد ما استبرأْتُم أرحامَهن بحيضةٍ، وإن كان لهن أزواج في دار الحرب، أو بشراءٍ فإنَّها تحل للمشتري بعد الاستبراء ولو كانت مزوَّجة، وينفسخُ النكاح الذي كان عليها بخروجها عن ملكِ سيدها الذي زوَّجها.

والمعنى: وحُرِّم[2] عليكم نكاحُ المتزوجات إلا ما ملكت الأيمان والأيدي بالسبي في حُروب دينية، تدافعون بها عن دينكم، وأزواجُهن كفارٌ في دار الكفر، وقد رأيتُم من المصلحة أن لا تُعاد السبايا إلى أزواجهن، فحينئذ يَنْحَلُّ عَقْدُ زوجيَّتهنَّ، ويَكُنَّ حلالاً بالشروط المذكورة في كُتب الفقه.

والحكمةُ في حِلّيّة السبايا: أنه لما كان الغالبُ في الحروب أن يُقْتَل بعضُ أزواجهن، ويفر بعضهم الآخر ولا يعود إلى بلاد المسلمين، وكان من الواجب كفالةُ هؤلاء السبايا بالإنفاق عليهن، ومنعهن من الفِسق، كان من المصلحة لهن وللمجتمع أن يكون لكل واحدة منهن أو أكثر كافل يكفيها البحث عن الرزق؛ أيْ: عن طلب المؤنة، أو بذل العرض، وفي هذا ما لا يخفى من الشقاء على النساء. وقال الحنفية: إن من سبي معها زوجها.. لا تَحلُّ لغيره؛ إذْ لا بُدَّ من اختلاف الدار بَيْنَ الزوجين، دارِ الإسلام ودار الحرب.

---

(١) فتح القدير.

(٢) المراغي.

والإسلام لم يَفرُض السَّبْيَ، ولم يُحْرِّمه؛ لأنه قد يكون من الخير للسبايا أنفسِهن في بعض الأحوال، كما إذا استأصلَتْ الحرب جميعَ الرجال مِن قبيلة محدودةِ العدد، فإِنْ رَأَىْ المسلمون أنَّ من الخير أن تُردَّ السبايا إلى قومهن.. جاز لهم ذلك، عملاً بقاعدةِ «دَرْءُ المفاسد مقدم على جلب المصالح» وإن كانت الحرب لمطامع الدنيا، وحظوظِ المُلُوك.. فلا يباح فيها السبي.

والاسترقاقُ[1] المعروفُ في هذا العصر في بلاد السودان، وبلادِ الحجاز وغيرِها غير شرعي، وهو محرم لأن أولئك اللواتي تسترقفن حرائرُ من بناتِ المسلمين الأحرار، فلا يجوز الاستمتاع بهن بغيرِ عقدِ النكاح، والإسلامُ بَريء من هذا.

وقولُه: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قَيْدٌ جِيءَ به لإفادةِ التعميم، وبيانِ أنَّ المرادَ كلُّ متزوجة لا العفيفات والمسلمات، وقد جاء الإِحصان في القرآن لأربعةِ معان[2]:

١ ـ التزوّج كما في هذه الآية.

٢ ـ العفةُ كما في قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾.

٣ ـ الحريةُ كما في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾.

٤ ـ الإسلام كما في قوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾؛ أي: أسلَمْنَ على قراءة البناء للفاعل.

واختلف القراء[3] في كلمةِ ﴿المحصنات﴾ سواء كانت معرَّفة بأل أم نكرة، فقرأ الجمهور بفتح الصاد، والكسائي بكسرها في جميع القرآن، إلا التي في هذه الآية فإنهم أجمعوا فيها على الفتح، والمعنى: أحصنهن الأزواجُ بالتزوج؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

أعفوهن عن الوقوع في الحرام، والأولياءُ أعفُّوهن عن الفساد بالتزويج، وهن يحصن أزواجَهن عن الزنا، ويُحصن فروجَهن من غير أزواجهن بعفافهن.

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ مصدر مؤكد لمضمون قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ منصوب بعامل محذوف؛ تقديره: كَتَبَ الله عليكم تحريمَ هذه الأنواع المذكورة، كتاباً مؤكَّداً، وفرضه فرضاً ثابتاً محكماً لا هَوادَةَ فيه؛ لأنْ مصلحتكم فيه ثابتةٌ لا يدخلها شك ولا تغيير، أو المعنى: ٱلزموا كتاب الله وحُكْمه المذكور.

وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السميقع اليماني(١): ﴿كتب الله عليكم﴾ على صيغة الفعل الماضي الرافع ما بعده، وروي عن ابن السميقع أيضاً، أنه قرأ: ﴿كتب الله عليكم﴾ جمعاً ورفعاً؛ أي: هذه كتب الله عليكم؛ أي: فرائضه ولازماته.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ بالبناء للمفعول، عطفاً على قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَأَحَلَّ﴾ بالبناء للفاعل، عطفاً على كتاب الله؛ أي كتب الله عليكم تحريم هذه الأصناف السابقة، وأحل الله لكم ما وراء ذلكم؛ أي: ما سوى تلك المحرمات السابقة.

وظاهر هذه الآية يقتضي(٢) حل ما سوى المذكورات من المحرمات السابقة، لكن قد دل الدليل من السنة أو الكتاب على تحريم أصناف أخرى سوى ما ذكر، فمن ذلك أنه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، ومن ذلك المطلقة ثلاثاً لا تحل لزوجها الأول حتى تنكح زوجاً غيره، ومن ذلك نكاح المعتدة، فلا تحل للأزواج حتى تنقضي عدتها، ومن ذلك أن من كان في نكاحه حرة لم يجز له أن يتزوج بالأمة، والقادر على طول الحرة لم يجز له أن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.

يتزوج بالأمة، ومن ذلك أن من كان عنده أربع نسوة حرم عليه أن يتزوج بخامسة، ومن ذلك الملاعنة فإنها محرمة على الملاعن على التأبيد، ومن ذلك بعض أصناف محرمات الرضاع، فهذه أصناف من المحرمات سوى ما ذكر في الآية، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ورد بلفظ العموم، لكن العموم دخله التخصيص، فيكون عاماً مخصوصاً. وقوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ في محل رفع على البدل من ما على القراءة الأولى بدل اشتمال.

والمعنى: وأحل لكم ما سوى المحرمات السابقة أن تبتغوه وتطلبوه؛ أي: أحل لكم ابتغاء ذلك السوى وطلبه بأموالكم التي تدفعونها مهراً للزوجة، أو ثمناً للأمة، أو في محل نصب على البدل أيضاً على القراءة الثانية، والمعنى وأحل الله لكم ما سوى تلك المحرمات السابقة، أن تبتغوه بأموالكم؛ أي: أحل لكم ابتغاءَهُ وطلبه بأموالكم المصروفة في المهور، في النكاح وفي الأثمان وفي التسري، حالة كونكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾؛ أي: متعففين أنفسكم من الزنا، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾؛ أي: غير زانين، وهذا تكرير للتأكيد، لأن الإحصان لا يجامع السفاح؛ أي: عافين أنفسكم من الزنا، ومانعين لها من الاستمتاع بالمحرم، باستغناء كل منكما بالآخر؛ إذ الفطرة تدعو الرجل إلى الاتصال بالأنثى، والأنثى إلى الاتصال بالرجل، ليزدوجا وينتجا، وإنما اقتصر هنا على غيرمسافحين، ولم يقل متخذي أخدان؛ لأنه في الحرائر المسلمات، وهنَّ إلى الخيانة أبعد من بقية النساء، وزاد فيما بعد ﴿مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ لأنه في الإماء، وهن إلى الخيانة أقربُ من الحرائر المسلمات، فالإحصان هو هذا الاختصاص الذي يمنع النفس أن تذهب أي مذهب، فيتصلُ كل ذكر بأي امرأة، وكل امرأة بأيِّ رجل، إذ لو فعلا ذلك.. لما كان القصد من هذا إلا المشاركة في سفح الماء الذي تفرزه الفطرة، إيثاراً للذة على المصلحة؛ إذ المصلحة تدعو إلى اختصاص كل أنثى بذكر معين، حتى تتكون بذلك الأسرة، ويتعاون الزوجان على تربية أولادهما.

فإذا انتفى هذا المقصد.. انحصرت الداعية الفطرية في سفح الماء وصبه، وذلك هو البلاء العام الذي تصطلي بناره الأمة كلها، فإن بعض الدول الأوروبية

التي كثر فيها السفاح، وقلّ النكاح بضعف الدين وقلته، وقف نموها، وقلّ نسلها، وضعفت حتى اضطرت إلى الاعتزاز بمحالفة بعض الدول الأخرى.

وفي الآية: دليل على أن الصداق لا يتقدر بشيء، فيجوز على القليل والكثير، لإطلاق قوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾.

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾؛ أي: فأي امرأة انتفعتم بها بالعقد عليها، أو تلذذتم بوطئها من تلك النساء الحلالات لكم، ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: فأعطوهن مهورهن التي فرضتم لهن ﴿فَرِيضَةً﴾ وقدرتموها لهن تقديراً، وسميتموها لهن في عقد النكاح، وإنما سمي المهر أجراً لأنه بدل المنافع، لا بدل الأعيان، كما يسمى بدل منافع الدار والدابة أجراً؛ أي: وأي امرأة من النساء اللواتي أُحِلِلْن لكم تزوجتموها فأعطوها الأجر، وهو المهر بعد أن تفرضوه في مقابلة ذلك الانتفاع.

وسر هذا: أن الله لما جعل للرجل على المرأة حق القيام، وحق رياسة المنزل الذي يعيشان فيه، وحق الاستمتاع بها.. فرض لها في مقابلة ذلك جزاءاً وأجراً تطيب به نفسها، ويتم به العدل بينها وبين زوجها.

والخلاصة: أن أي امرأة طلبتم أن تتمتعوا وتنتفعوا بتزوجها، فأعطوها المهر الذي تتفقون عليه عند العقد، حالة كونه فريضة فرضها الله عليكم، وذلك أن المهر يفرض ويعين في عقد النكاح، ويسمى ذلك إيتاءً وإعطاءً، فيتعين بفرضه في العقد، ويصير في حكم المعطى، وقد جرت العادة أن يعطى كله أو أكثره قبل الدخول، ولكن لا يجب كله إلا بالدخول، فمن طلق قبله وجب عليه نصفه لا كله، ومن لم يعط شيئاً قبل الدخول وجب عليه كله بعده، وقيل إن هذه الآية واردة في نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام، حيث كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً بثوب أو غيره، ويقضي منها وطره ثم يسرحها. وفي «الخازن»: وقال قوم: المراد من حكم هذه الآية نكاح المتعة، وهو أن ينكح امرأةً إلى مدة معلومة بشيء معلوم، فإذا انقضت تلك المدة.. بانت منه من غير طلاق، وتستبرىء رحمها بحيضة. وفي «القرطبي»: وقال ابن

العربي: وأما متعة النساء: فهي من غرائب الشريعة، لأنها أبيحت في صدر الإسلام، ثم حرمت يوم خيبر، ثم أبيحت في غزوة أوطاس، ثم حرمت بعد ذلك، واستقر الأمر على التحريم، وليس لها أخت في الشريعة إلا مسألة القِبْلَة، فإن النسخ طرأ عليها مرتين، ثم استقرت كما سيأتي ذلك كله مع بيان أدلة تحريمها.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ولا حرج ولا منع ولا تضييق عليكم ولا عليهن، ﴿فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: فيما اتفقتم عليه أيها الأزواج والزوجات من النقص في المهر، أو تركه كله، أو الزيادة فيه؛ أي: اتفقتم عليه، ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾، والتقدير أولاً في عقد النكاح: فلا جناح عليكم في الزيادة، ولا عليهن في الحط؛ أي: لا إثم عليكم في أن تهب المرأة للزوج مهرها، أو يهب الزوج للمرأة المطلقة قبل الدخول تمام المهر، أو فيما تراضيا عليه من النفقة ونحوها، من غير ذكر المقدار المعين في العقد؛ إذ ليس الغرض من الزوجية إلا أن يكونا في عيشة راضية، يستظلان فيها بظلال المودة والرحمة والهدوء والطمأنينة، والشارع الحكيم لم يصنع لكم إلا ما فيه سعادة الفرد والأمة، ورقي الشؤون الخاصة والعامة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرعه لهم، فلا يشرع الأحكامَ إلا على وفق الحكمة، وذلك يوجب التسليم لأوامره، والانقياد لأحكامه، وقد وضع لعباده من الشرائع بحكمته ما فيه صلاحهم ما تمسَّكوا به، ومن ذلك أنه فرض عليهم عقد النكاح الذي يحفظ الأموال والأنساب، وفرض على من يريد الاستمتاع بالمرأة مهراً يكافؤها به على قبولها قيامه ورياسته عليها، ثم أذن للزوجين أن يعملا ما فيه الخير لهما بالرضا، فيحطا المهر كله أو بعضه أو يزيدا عليه.

ونكاح المتعة: وهو نكاح المرأة إلى أجل معين ليوم أو أسبوع أو شهر، فإذا انقضت تلك المدةُ.. بانت منه بغير طلاق، ويستبرىء رحمها وليس بينهما ميراث. وكان مرخصاً فيه في بدء الإسلام، وأباحه النبي ﷺ لأصحابه في بعض

الغزوات؛ لبعدهم عن نسائهم، فرخص فيه مرة أو مرتين خوفاً من الزنا، فهو من قبيل ارتكاب أخف الضررين، ثم نهى عنه نهياً مؤبداً ـ كما مر ـ لأن المتمتع به لا يكون مقصده الإحصانُ، وإنما يكون مقصده المسافحةُ ـ للأحاديث المصرحة بتحريمه تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة:

فمنها: ما أخرجه مسلم عن سَبْرة بن معبد الجهني ـ رضي الله عنه ـ أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وإنَّ الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء.. فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً».

ومنها: ما أخرجه الشيخان عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: (نهىٰ رسول الله ﷺ عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية).

ولنهي عمر في خلافته وإشادته بتحريمه على المنبر وإقرار الصحابة له على ذلك. وإلى هذا ذهب جمهور العلماء من الصحابة، فمن بعدهم؛ أي: إنَّ نكاح المتعة حرام. وقال قوم: المراد من حكم الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روي عن النبي ﷺ، أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلف لا يحتاج إليه، لأن النبي ﷺ أجاز المتعة أولاً ثم منع منها، فحرمها فكان قوله منسوخاً بقوله، وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة، لأنه تعالى قال فيها: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ فدل ذلك على النكاح الصحيح، فليس فيها دلالة على المتعة. ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ﴾؛ أي: ومن لم يقدر منكم أيها الأحرار ﴿طَوْلًا﴾؛ أي: مهراً يكون له وصلة وسبباً إلى ﴿أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ أي: إلى نكاح الحرائر ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بأن لم يجد ما يمهره للحرة، أو وجده ولم ترض به، لعيب في خُلقه أو خَلقه، أو عجزٍ عن القيام بغير المهر من حقوق المرأة الحرة، من النفقة وغيرها، فإن لها حقوقاً كثيرة، وليس للأمة مثل هذه الحقوق. ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾؛ أي: فلينكح أمة كائنة من الإماء اللاتي ملكتهن أيمانكم وأيديكم، حالة كونها ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ﴾؛ أي: من إمائكم ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

والمعنى: من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة.. فليتزوج الأمة المؤمنة دون

الكتابية، فلا يجوز نكاحها؛ لأن فيها نقصين: الرق والكفر. وقال الشوكاني: الطَّول: الغنى والسعة، ومعنى الآية: فمن لم يستطع منكم غنىً وسعةً في ماله، يقدر بها على نكاح المحصنات المؤمنات.. فلينكح من فتياتكم المؤمنات انتهى.

والفتيات جمع فتاة، وهي المرأة الحديثة السنِّ، ويقال للشابة: فتاة، وللغلام فتى، والأمة تسمى فتاة، سواء كانت عجوزاً أو شابة؛ لأنها كالشابة في أنها لا توقر توقير الكبير.

وعبر عن[1] الإماء بالفتيات تكريماً لهن، وإرشاداً لنا إلى أن لا ننادي بالعبد والأمة، بل بلفظ الفتى والفتاة. وقد روى البخاري قوله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: عبدي أمتي، ولا يقل المملوك: ربي، ليقل المالك: فتاي وفتاتي، وليقل المملوك: سيدي وسيدتي، فإنكم المملوكون والرب هو الله عز وجل». ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعۡلَمُ﴾ منكم ﴿بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾؛ أي: بمراتبكم في الإيمان، وهو العليم بحقيقة الإيمان ودرجة قوته وكماله فرب أمة يفوق إيمانها إيمان الحرائر، فتكون أفضل منهن عند الله تعالى، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾، فاعملوا على الظاهر في الإيمان، فإنكم مكلفون بظواهر الأمور، والله يتولى السرائر والحقائق. والمعنى: فلا يشترط في نكاحها أن يُعلم إيمانُها علماً يقينياً، فإنَّ ذلك لا يطلع عليه إلا الله تعالى ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍۚ﴾؛ أي: أنتم وأرقائكم متناسبون، نسبكم من آدم ودينكم الإسلام وما أحسن قول عليّ رضي الله عنه:

ٱلنَّاسُ مِنْ جِهَةِ ٱلتَّمْثِيْلِ أَكْفَاءُ ... أَبُوْهُمُ آدَمُ وَٱلأُمُّ حَوَّاءُ

والمعنى: كلكم مشتركون في الإيمان، وهو أعظم الفضائل، فإذا حصل الاشتراك في ذلك.. كان التفاوت فيما وراءه غير معتبر، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء» فلا ينبغي أن تعدوا نكاح الأمة عاراً عند الحاجة إليه، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى قد رفع شأن الفتيات المؤمنات، وساوى بينهن وبين

---

(١) المراغي.

الحرائر. ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾؛ أي: فاخطبوهن بإذن سادتهن، واطلبوا منهم نكاحهن، فقد اتفق العلماء على أن نكاح الأمة بغير إذن سيدها باطل؛ لأن الله تعالى جعل إذن السيد شرطاً في جواز نكاح الأمة.

وقال بعضُ الفقهاء: المرادُ من الأهل من لهم عليهن ولاية التزويج، ولو غير المالكين كالأب والجد والقاضي والوصي، إذ لكل منهم تزويج أمة اليتيم. ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: وأعطوهن مهورهن، وأدوها إليهن بإذن أهلهن، أو أدوها إلى مواليهن، وأجمعوا إلا مالكاً على أن المهر للسيد؛ لأنه ملكه، وإنما أضيف إيتاء المهر إلى الإماء لأنه ثمن بضعهن.

وقال مالك[1]: المهرحق للزوجة على الزوج، وإن كانت أمة فهو لها لا لمولاها، وإن كان الرقيق لا يملك شيئاً لنفسه، لأن المهر حق الزوجة تصلح به شأنها، ويكون تطييباً لنفسها في مقابلة رياسة الزوج عليها، وسيد الأمة مخير بين أن يأخذه منها بحق الملك، أو يتركه لها لتصلح به شأنها، وهو الأفضل الأكمل.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: أعطوهن مهورهن بالمعروف؛ أي: من غير ضرار، ولا مطل ولا نقصان، وقيل: معناه وآتوهن مهور أمثالهن، اللاتي يساوينهن في الحال والحسب. وقوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ حال من مفعول فانكحوهن؛ أي: فانكحوهن حال كونهن محصنات؛ أي: عفائف من الزنا ندباً بناء[2] على المشهور من جواز نكاح الزواني، ولو كن إماء وقيل المعنى: أعطوهن أجورهن حالة كونهن متزوجات لكم، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾؛ أي: غير مجاهرات بالزنا؛ أي: غير مؤجرة نفسها مع أي رجل أرادها كالمومسات، ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾؛ أي: غير متخذات أخلاء معينين يزنون بهنَّ سراً، وهو حال مؤكدة كالذي قبله، لأن الإحصان لا يجامع السفاح كما مر.

والمسافحون[3] هم الزانون المبتذلون، وكذلك المسافحات هن الزواني

---

(١) المراغي.
(٢) خطيب.
(٣) البحر المحيط.

المبتذلات، اللواتي هن سوق الزنا، ومتخذوا الأخدان هم الزناة المتسترون، الذين يصحبون واحدة واحدة، وكذلك متخذات الأخدان هن الزواني المتسترات، اللواتي يصحبن واحداً واحداً، ويزنين خفية، وهذان نوعان كانا في الجاهلية، قاله ابن عباس والشعبي والضحاك وغيرهم. وقد كان الزنا في الجاهلية قسمين: سرياً وعلنياً، فالسري: يكون خاصاً، فيكون للمرأة خدن يزني بها سراً، ولا تبذل نفسها لكل أحد، والعلني: يكون عاماً، وهوالمراد بالسفاح، قاله ابن عباس، وكان البغايا من الإماء ينصبن الرايات الحمر لتعرف منازلهن، ولا تزال هذه العادة متبعةً إلى الآن في بلاد السودان والحبشة والصومال وغيرها، فتوجد بيوت خاصة لشراب المسكر، وفيها البغاء العلني.

وروي عن ابن عباس[١]: أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما ظهر من الزنا، ويقولون: إنه لؤم، ويستحلون ما خفي، ويقولون إنه لا بأس، وقد نزل في تحريم النوعين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. وهذان النوعان فاشيان في بلاد الإفرنج، والبلاد التي تقلدهم في شرورهم، كمصر والصومال وجيبوتي وبعض بلاد الهند، بل عم الآن كل من النوعين مشارق الأرض ومغاربها، تقليداً للإفرنج، فيا لها من مصيبة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقصارى القول: أن الله فرض في نكاح الإماء مثل ما فرض في نكاح الحرائر، من الإحصان والعفة لكل من الزوجين، لكن جعل الإحصان وعدم السفاح في نكاح الحرائر من قبل الرجال، فقال: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ لأن الحرائر ولا سيما الأبكار أبعد من الرجال من الفاحشة، وأقل انقياداً لطاعة الشهوة، على أن الرجال هم الطالبون للنساء والقوامون عليهن.

وجعل قيد الإحصان في جانب الإماء، فاشترط على من يريد أن يتزوج أمة أن يتحرى فيها أن تكون محصنة، مصونة في السر والجهر، فقال: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ وذلك أن الزنا كان غالباً في الجاهلية على الإماء،

(١) المراغي.

وكانوا يشترونهن للاكتساب ببغائهن، حتى إن عبد الله بن أبيٍّ كان يكره إماءه على البغاء، بعد أن أسلمن، فنزل في ذلك: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ على أنهن لذلهن وضعفهن وكونهن مظنة للانتقال من يد إلى أخرى، لم تمرن نفوسهن على الاختصاص برجل واحد، يرى لهن عليه من الحقوق ما تطمئن به نفوسهن في الحياة الزوجية، التي هي من شؤون الفطرة.

﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالبناء للفاعل، ومعناه: حفظن فروجهن، وقيل معناه أسلمن، كما قال عمرو بن مسعود، والشعبي والنخعي والسدي، قالوا: الإحصان هنا[1] الإسلام، والمعنى: أن الأمة المسلمة عليها نصف حد الحرة المسلمة، وقد ضعف هذا القول، بأن الصفة لهن بالإيمان قد تقدمت في قوله من فتياتكم المؤمنات، فكيف يقال في المؤمنات فإذا أسلمن، قاله إسماعيل القاضي. وقرأ الباقون بالبناء للمفعول إلا عاصماً فاختلف فيه ومعناه زُوِّجن. ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ﴾؛ أي: فإن فعلن ﴿بِفَاحِشَةٍ﴾؛ أي: بالزنا ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾؛ أي: فعلى الإماء اللاتي زنين ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: نصف ما على الحرائر الأبكار، إذا زنين من العقاب؛ أي: من الجلد، فيجلدن خمسين جلدة، ويجلد العبد للزنا إذا زنى خمسين جلدة، ولا فرق في المملوك بين المتزوج وغير المتزوج، فإنه يجلد خمسين مطلقاً، ولا رجم عليه، هذا قول أكثر العلماء.

والمعنى: أنّ الإماء إذا زنين بعد إحصانهن بالزواج.. فعليهن من العقاب نصف ما على المحصنات الكاملات، وهنَّ الحرائر إذا زنين، وهذا العقاب ما بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ فتجلد الأمة المتزوجة خمسين جلدة، وتجلد الحرة مائة، ولا ترجم لأن الرجم لا يتنصف.

والحكمة في ذلك: ما قدمناه فيما سلف، وهو كون الحرة أبعد عن داعية الفاحشة، والأمة ضعيفة عن مقاومتها، فرحم الله ضعفها وخفف العقاب عنها.

---

(١) البحر المحيط.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ذاك الذي ذكرنا لكم، من إباحة نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر جائز، ﴿لِمَنْ خَشِيَ﴾ وخاف ﴿ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾؛ أي: خاف الوقوع في الزنا بسبب العزوبة وشدة الشهوة، والمعنى: ذلك لمن خاف أن تحمله شدة الغلمة وشدة الشهوة على الزنا، وإنما سمي الزنا بالعنت لما يعقبه من المشقة، وهو الحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة، فأباح الله تعالى نكاح الأمة بثلاثة شروط: عدم القدرة على نكاح الحرة، وخوف العنت، وكون الأمة مؤمنة. ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟﴾ عن نكاح الإماء متعففين، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من نكاحهن كي لا يكون الولد رقيقاً. والمعنى[1]: وصبركم عن نكاح الإماء خير لكم من نكاحهن، لما في ذلك من تربية قوة الإرادة، وتنمية ملكة العفة، وتغليب العقل على عاطفة الهوى، ومن عدم تعرض الولد للرق، وخوف فساد أخلاقه، بإرثه منها المهانة والذلة؛ إذ هي بمنزلة المتاع والحيوان، فربما ورث شيئاً من إحساسها ووجدانها وعواطفها الخسيسة.

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إذا نكح العبد الحرة.. فقد أعتق نصفه، وإذا نكح الحر الأمة.. فقد أرق نصفه. ورحم الله القائل:

إِذَا لَمْ تَكُنْ فِيْ مَنْزِلِ ٱلْمَرْءِ حُرَّةٌ   تُدَبِّرُهُ ضَاعَتْ مَصَالِحُ دَارِهِ

وسر هذا: ما شرحناه من قبل، من أن معنى الزوجية حقيقة واحدة مركبة من ذكر وأنثى، وكل منهما نصفها فهما شخصان صورةً واحدةً، اعتباراً بالإحساس والشعور والوجدان والمودة والرحمة، ومن ثم ساغ أن يطلق على كل منهما لفظ: زوج؛ لاتحاده بالآخر، وإن كان فرداً في ذاته ومستقلاً في شخصه.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾؛ أي: غفار لمن صدرت منه الهفوات، كاحتقار الإماء المؤمنات، والطعن فيهن عند الحديث في نكاحهن، وعدم الصبر على معاشرتهن بالمعروف، وسوء الظن بهن، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده حيث رخص لهم فيما رخص فيه بإباحته لهم نكاح الإماء، وإن كان يؤدي إلى إرقاق الولد، مع أن

---

(١) المراغي.

هذا يقتضي المنع لاحتياجهم إليه، فكان ذلك من باب المغفرة والرحمة.

وهذه الجملة[1] كالتوكيد لما تقدم، يعني أنه تعالى غفر لكم،ورحمكم حيث أباح لكم ما أنتم محتاجون إليه.

الإعراب

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: الواو: عاطفة. ﴿المحصنات﴾: معطوف على ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾، من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ على كونه نائب فاعل لـ﴿حُرِّمَ﴾. ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿المحصنات﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ملكته أيمانكم. ﴿كِتَٰبَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف تقديره: كتب الله ذلك عليكم كتاباً، وهومضاف. ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بالفعل المحذوف، لا[2] بالمصدر المذكور؛ لأن المصدر هنا فضلة، وقيل: هو متعلق بنفس المصدر؛ لأنه نائب عن الفعل، حيث لم يذكر معه، فهو كقولك: مروراً بزيد؛ أي: أمرر به، والجملة المحذوفة مستأنفة، مسوقة لتأكيد مضمون جملة قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾؛ لأنه لمّا قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ..﴾ علم أن ذلك مكتوب، فأكده بهذه الجملة.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾.

﴿وَأُحِلَّ﴾: الواو عاطفة. ﴿أحل﴾: فعل ماض مغيرالصيغة. ﴿لَكُم﴾: متعلق به. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾. ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾: ظرف ومضاف

---

(١) الخازن. (٢) العكبري.

إليه، والظرف صلة لما، أو صفة لها. ﴿أَن تَبۡتَغُواْ﴾: فعل وفاعل وناصب، والمصدر المؤول من الجملة مرفوع على كونه بدل اشتمال من ما الموصولة، ومفعول تبتغوا محذوف، تقديره: أن تبتغوه، عائد على ما الموصولة، والتقدير: أحل لكم ما وراء ذلكم ابتغاؤهُ بأموالكم. ﴿بِأَمۡوَٰلِكُم﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَبۡتَغُواْ﴾. ﴿مُّحۡصِنِينَ﴾: حال من فاعل تبتغوا. ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾: حال مؤكدة، ومضاف إليه.

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾.

﴿فَمَا﴾: الفاء: استئنافية. ما: موصولة في محل الرفع مبتدأ. ﴿ٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾: فعل، وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد ضمير به. ﴿مِنۡهُنَّ﴾ جار ومجرور حال من ضمير به. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾: الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من العموم. ﴿أتوهن﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَرِيضَةٗ﴾: حال من أجورهن، أو مصدر مؤكد؛ أي: فرض الله ذلك فريضة، أو صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: فآتوهن أجورهن إيتاءً مفروضاً.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾: الواو استئنافية. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار والمجرور متعلق بمحذوف خبر لا، وجملة لا من اسمها وخبرها: مستأنفة. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بما تعلق به الجار والمجرور قبله. ﴿تَرَٰضَيۡتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير به. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَرَٰضَيۡتُم﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله.

﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

﴿وَمَن﴾: الواو: استئنافية. ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم، أو اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَسْتَطِعْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها، أو صلة الموصول. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَسْتَطِعْ﴾. ﴿طَوْلًا﴾: مفعول به. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَنكِحَ﴾: منصوب بأن، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾: مفعول به. ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾: صفة للمحصنات، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام مقدرة، متعلقة بمحذوف صفة ﴿طَوْلًا﴾، تقديره: ومن لم يستطع منكم طولاً ومهراً كائناً لنكاح المحصنات المؤمنات.

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ﴾.

﴿فَمِن مَّا﴾: الفاء: رابطة الجواب، أو رابطة الخبر بالمبتدأ. ﴿من ما﴾: جار ومجرور متعلق بالجواب المحذوف، أو بالخبر المحذوف، تقديره: فلينكح، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مِنْ فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف، تقديره: مما ملكته. ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه حال من الضمير المحذوف في ملكته. ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾: صفة لفتياتكم. ﴿وَاللَّهُ﴾: الواو: استئنافية، أو اعتراضية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿بِإِيمَانِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بأعلم. ﴿بَعْضُكُمْ﴾: مبتدأ،

ومضاف إليه. ﴿مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، أومعترضة.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ﴾.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن من لم يستطع طول الحرة ينكح الإماء، وأردتم بيان كيفية نكاحها.. فأقول لكم: انكحوهن وآتوهن. ﴿انكحوهن﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة من محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بانكحوهن. ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة انكحوهن. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: متعلق بآتوهن، أو حال من أجورهن. ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾: حال من المفعول في فانكحوهن. ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾: حال ثانية مؤكدة للأولى. ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ﴾: الواو عاطفة. لا: زائدة، زيدت لتأكيد نفي ﴿غَيۡرَ﴾. ﴿مُتَّخِذَٰتِ﴾: معطوف على ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾، وهو مضاف. ﴿أَخۡدَانٖۚ﴾: مضاف إليه.

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾.

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾: الفاء: فاء الفصحية؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم جواز نكاح الإماء بالشرط المذكور، وأردتم بيان حكم ما إذا أتين بفاحشة.. فأقول لكم: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه. ﴿أُحۡصِنَّ﴾: فعل ونائب فاعل مبني بسكون على النون المدغمة في نون الإناث، ونون الإناث: في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ﴾: الفاء: رابطة لجواب إذا الشرطية. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿أَتَيۡنَ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: متعلق ﴿أَتَيۡنَ﴾.

﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾: الفاء: رابطة لجواب إن الشرطية. ﴿عليهن﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿نِصْفُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف. ﴿مَا﴾: في محل الجر، مضاف إليه. ﴿عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: جار ومجرور، صلة لما، أو صفة لها. ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير في الجار والمجرور، العامل[1] فيها هو العامل في صاحبها، ولا يجوز أن يكون حالاً من ما؛ لأنها مجرورة بالإضافة فلا يكون لها عامل لفظي، والجملة من المبتدأ والخبر: في محل الجزم جواب إن الشرطية، وجملة إن الشرطية: جواب إذا الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا الشرطية: في محل النصب مقول لجواب إذا، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة، أو معترضة.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور خبر له، والجملة مستأنفة. ﴿خَشِيَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿ٱلْعَنَتَ﴾: مفعول به. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستتر في خشي، والجملة الفعلية صلة من الموصولة، والعائد الضمير المستتر في ﴿خَشِيَ﴾. ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟﴾: فعل وفاعل وناصب، والجملة في تأويل مصدر مرفوع على الابتداءِ؛ تقديره: وصبركم. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر له. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ جمع محصنة بفتح الصاد، يقال: حصنت المرأة - بضم الصاد - حصناً وحصانة، إذا كانت عفيفة، فهي حاصن، وحاصنة وحَصَان بفتح الصاد، ويقال: أحصنت المرأة إذا تزوجت؛ لأنها تكون في حصن الرجل وحمايته، وأحصنها أهلها زوجوها.

---

(١) العكبري.

والحاصل: أن الفتح في المحصنات على وجهين:

أشهرهما: أنه أُسند الإحصان إلى غيرهن وهو: إما الأزواج أو الأولياء، فإن الزوج يحصن امرأته؛ أي: يعفَّها، والولي يحصنها بالتزويج، والله يحصنها بذلك.

والثاني: أن هذا المفتوح الصاد بمنزلة المكسور، يعني أنه اسم فاعل، وإنما شذ فتح عين اسم الفاعل في ثلاثة ألفاظ: أحصن فهو محصن، وأفلج فهو ملفج، وأسهب فهو مسهب، وأما الكسر فإنه أسند الإحصان إليهن؛ لأنهن يحصن أنفسهن بعفافهن أو يحصن فروجهن بالحفظ، أو يحصن أزواجهن. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ جمع مسافح، اسم فاعل من سافح من باب فاعل، وأصله من السفح وهو الصب، وإنما سمي الزنا سفاحاً لأن الزاني لا غرض له إلا صب النطفة، وقضاء الشهوة فقط. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ جمع أجر، وهو في الأصل الجزاء الذي يعطى في مقابلة شيء ما من عمل، أو منفعة، والمراد به هنا المهر.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ الاستطاعة: كون الشيء في طوعك، لا يتعاصى عليك، والطول: الغنى والفضل، من مال أو قدرة على تحصيل الرغائب، يقال: طال يطول طولاً، في الأفضال والقدرة، وفلان ذو طول؛ أي: ذو قدرة في ماله. والطول بالضم ضد القصر.

﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ الأخدان: جمع خدن بكسر أوله وسكون ثانيه، وهو الصاحب، ويطلق على الذكر والأنثى، وهو الصديق للمرأة يزني بها سراً، قال أبو زيد: الأخدان الأصدقاء على الفاحشة. وفي «المصباح» و«القاموس» الأخدان: جمع خدن بالكسر، كحمل وأحمال، وعدل وأعدال. ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ﴾ والعنت في الأصل انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر يعتري الإنسان، وأريد به هنا ما يجر إليه الزنا من العقاب الدنيوي والأخروي، يقال: عنت عنتاً من باب طرب إذا ارتكب الزنا، وفي «القاموس»: والعنت محركاً الفساد، والإثم والهلاك ودخول المشقة على الإنسان، ولقاء الشدة والزنا والوهن والانكسار واكتساب المآثم، وأعنته غيره، وعنته تعنيتاً إذا شدد عليه وألزمه ما يصعب عليه.

البلاغة

وقد تضمنت هاتان الآيتان أنواعاً من البلاغة:

منها: التكرار بلفظ المؤمنات في قوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وفي قوله: ﴿فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ﴾، وفي قوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ و﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ﴾، وبلفظ: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، في قوله: ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، وفي قوله: ﴿نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما تقدم من المحرمات، وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ﴾ إشارةً إلى تزويج الإماء.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ﴾؛ أي: فرض الله، استعار للفرض لفظ الكتاب لثبوته وتقريره، فدل بالأمر المحسوس على المعنى المعقول، وفي قوله: ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ استعار لفظ الإحصان، وهو الامتناع في المكان الحصين للامتناع بالعقاب، واستعار لكثرة الزنا السفح، وهو صب الماء في الأنهار والعيون، بتدفق وسرعة. وكذلك: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ استعار لفظ الأجور للمهور، والأجر: هو ما يدل على عمل، فجعل تمكين المرأة من الانتفاع بها كأنه عمل تعمله، وفي قوله: ﴿طَوْلًا﴾ استعارةُ للمهر يتوصل به إلى معالي الأمور.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾؛ لأن المحصن الذي يمنع فرجه، والمسافح الذي يبذله.

ومنها: الاحتراز في قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ إذ المحصنات قد يراد بها الأنفس المحصنات، فيدخل تحتها الرجال فاحترز عنه بقوله من النساء.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[١] أحكام النكاح فيما سلف على طريق البيان والإسهاب.. ذكر هنا عللها وأحكامها، كما هو دأب القرآن الكريم أن يعقب ذكر الأحكام التي يشرعها للعباد ببيان العلل والأسباب؛ ليكون في ذلك طمأنينة للقلوب، وسكون للنفوس لتعلم مغبة[٢] ما هي مقدمة عليه من الأعمال، وعاقبة ما كلفت به من الأفعال، حتى تقبل عليها وهي مثلجة الصدور، عالمة بأن لها فيها سعادةً في دنياها وأخراها، ولا تكون في عماية من أمرها، فتتيه في أودية الضلالة وتسير قدماً لا إلى غاية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[٣]: أنه تعالى لمَّا بيّن كيفية التصرف في النفوس بالنكاح.. بيَّن كيفية التصرّف في الأموال الموصلة إلى النكاح، وإلى ملك اليمين، وأن المهور والأثمان المبذولة في ذلك لا تكون مما

(١) المراغي.

(٢) المغبة: العاقبة.

(٣) البحر المحيط.

ملكت بالباطل، والباطل هو: كل طريق لم تُبحه الشريعة فيدخل فيه السرقة، والخيانة والغصب والقمار والملاهي وعقود الربا وأثمان البيوع الفاسدة كما سيأتي.

وقال المراغي[١]: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر فيما سلف كيفية معاملة اليتامى وإيتاء أموالهم إليهم عند الرشد وعدم دفع الأموال إلى السفهاء، ثم بيّن وجوب دفع المهور للنساء، وأنكر عليهم أخذها بوجه من الوجوه، ثم ذكر وجوب إعطاء شيءٍ من أموال اليتامىٰ إلى أقاربهم إذا حضروا القسمة.. ذكر هنا قاعدة عامة للتعامل في الأموال تطهيراً للأنفس في جمع المال المحبوب لها.

قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[٢]: أنه تعالى لمّا ذكر الوعيد على فعل بعض الكبائر.. ذكر الوعد على اجتناب الكبائر، والظاهر أن الذنوب تنقسم على قسمين؛ إلى كبائر وسيئات، وهي التي عبر عنها أكثر العلماء بالصغائر.

وقيل[٣]: المناسبة أنه لمّا نهى الله سبحانه وتعالى عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن قتل النفس، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد، وتوعد فاعل ذلك بأشد العقوبات.. نهى عن جميع الكبائر التي يعظم ضررها، وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها، ووعد من تركها بالمُدخَل الكريم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ هذه الآيات إلى قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ كأنها واقعة في جواب أسئلة مقدرة[٤]، تقديرها: ما الحكمة في هذه الأحكام، وما فائدتها للعباد، وهل من كان قبلنا من الأمم السالفة كلف بمثلها، فلم يبح

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

لهم أن يتزوجوا كل امرأة، وهل كان ما أمرنا الله به أو نهانا عنه تشديداً علينا أو تخفيفاً عنا؟

واللام[1] في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ زائدة مؤكدة لإرادة التبيين، كما زيدت في لا أبالك لتأكيد إضافة الأب، والمعنى: يريد الله سبحانه وتعالى بما شرعه لكم من الأحكام أن يبين لكم، ويوضح ما فيه مصالحكم ومنافعكم، وقيل يبين لكم ما يقربكم منه وقيل يبين لكم أن الصبر عن نكاح الإماء خير لكم.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: ويريد الله سبحانه وتعالى أن يرشدكم طرائق من تقدمكم، ومناهجهم من الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم وتقتفوا آثارهم، وتسيروا سيرتهم، فكلٌّ ما بيَّن الله تحريمه وتحليله لنا من النساء.. كان الحكم كذلك في جميع الشرائع والملل، فالشرائع والتكاليف وإن اختلفت باختلاف أحوال الاجتماع والأزمان كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.. فهي متفقة في مراعاة المصالح العامة للبشر.

فروح الديانات جميعاً وأساسها توحيد الله تعالى، وعبادته والخضوع له، على صور مختلفة، ومآل ذلك تزكية النفس بالأعمال التي تقوم بها، وتهذيب الأخلاق لتَبْتَعِدَ عن سيء الأفعال والأقوال، ﴿وَ﴾ يريد الله سبحانه وتعالى أن ﴿يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أن يرجعكم عن المعصية التي كنتم عليها إلى طاعته، ويوفقكم للتوبة عنها، قيل: إن الأحكام قبل البعثة لم تثبت فأين المعصية؟

أجيب: بأن المراد المعصية ولو صورةً، والمعنى: ويريد الله تعالى أن يجعلكم بالعمل بتلك الأحكام تائبين، راجعين عما كان قبلها من تلك الأنكحة الضارة التي كان فيها انحراف عن سنن الفطرة؛ إذ كنتم تنكحون ما نكح آباؤكم، وتقطعون أرحامكم، ولا تلتفتون إلى المعاني السامية التي في الزوجية، من تقوية روابط النسب، وتجديد قرابة الصهر، والسعادة التي تثلج قلوب الزوجين، والمودة والرحمة اللتين تعمر بهما نفوسهما. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾

---

(١) النسفي.

بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لهم من أمورهم؛ أي: فبعلمه المحيط بما في الأكوان شرع لكم من الدين ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم، وبحكمته لم يكلفكم بما يشق عليكم، وبما فيه الأذى والضرر لكم، وبها يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُرِيدُ﴾ بما كلّفكم به من تلك الشرائع ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أن يطهركم من الذنوب ويزكي نفوسكم من الأدناس، قال ابن عباس: معناه: يريد أن يخركم من كل ما يكرهُ إلى ما يحب ويرضى، وقيل: معناه يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم التي يغفر لكم بها ما سلف من ذنوبكم. ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ المحرمة ويستبيحونها ويفعلونها. قيل: هم[1] اليهود والنصارى، وقيل: هم اليهود خاصة؛ لأنهم يقولون: إن نكاح بنت الأخ من الأب حلال، وقيل: هم المجوس؛ لأنهم يستحلون نكاح الأخوات، وبنات الإخوة، فلما حرمهن الله تعالى.. قالوا: إنكم تحلون بنت الخالة، وبنت العمة، والخالة والعمة عليكم حرام، فانكحوا بنات الأخ والأخت، فنزلت هذه الآية، وقيل: هم الزناة يريدون أن تكونوا مثلهم. ﴿أَن تَمِيلُواْ﴾ وتعدلوا عن الحق، وقصد السبيل ﴿مَيْلًا﴾ بموافقتهم على اتباع الشهوات، واستحلال المحرمات ﴿عَظِيمًا﴾؛ أي: بيناً بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة، على ندور غير مستحل لها؛ أي: أن تخطئوا خطأً عظيماً بنكاح الأخوات من الأب ونحوها، لقولهم: إنه حلال في كتابنا، وبمشاركتهم في اتباع الشهوات، فإن الزاني يحب أن يشركه في الزنا غيره، ليفرق اللوم عليه وعلى غيره، ومتبعوا الشهوات هم الذين يدورون مع شهوات أنفسهم، وينهمكون فيها، فكأنها أمرتهم باتباعها فامتثلوا أمرها، فلا يبالون بما قطعوا من حقوق الأرحام، ولا بما أزالوا من مودة القرابة، فليس مقصدهم إلا التمتع باللذة.

وأما الذين يفعلون ما يأمر به الدين: فليس غرضهم إلا امتثال أوامره، لا اتباع شهواتهم، ولا الجري وراء لذاتهم، وقرأ الجمهور أن تميلوا بتاء الخطاب، وقرىء بالياء على الغيبة، فالضمير في ﴿يميلوا﴾ يعود على الذين يتبعون

---

(١) الخازن.

الشهوات. وقرأ الجمهور ﴿ميلاً﴾ بسكون الياء، وقرأ الحسن بفتحها. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾ أيها الأمة المحمدية، ويسَهل عليكم في جميع أحكام الشرع، كإباحة نكاح الأمة عند الضرورة، ونحوه من سائر الرخص، ولم يثقل التكاليف عليكم، كما ثقلها على بني إسرائيل، كما أخبره في كتابه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾، وكما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السهلة السمحة».

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾؛ أي: خلق الله جنس الإنسان حالة كونه ضعيفاً؛ أي: عاجزاً عن مخالفة هواه، غير قادر على مخالفة دواعيه، حيث لم يصبر عن النساء، وعن اتباع الشهوات، ولا يستخدم قواه في مشاق الطاعات، ولذلك خفف الله تكليفه، وقد ورد عن النبي ﷺ: «لا خير في النساء ولا صبر عنهن يغلبن كريماً ويغلبهن لئيم، فأحب أن أكون كريماً مغلوباً ولا أحب أن أكون لئيماً غالباً». وقيل: هو ضعيف في أصل الخلقة؛ لأنه خلق من ماء مهين.

وقد رحم الله عباده[1]، فلم يحرم عليهم من النساء إلا ما في إباحته مفسدة عظيمة، وضرر كبير، ولا يزال الزنا ينتشر حيث يضعف وازع الدين، ولا يزال الرجال هم المعتدين، فهم يفسدون النساء ويغرونهن بالأموال، ويحجر الرجل على امرأته ويحجبها، بينما يحتال على امرأة غيره ويخرجها من خِدرها، وإنه لغِرٌّ جاهلٌ، أفيظن أن غيره لا يحتال على امرأته كما احتال هو على امرأة سواه، فقلما يفسق رجل إلا يكون قدوةً لأهل بيته في الفسق والفجور، وفي الحديث: «عفوا تعف نسائكم وبروا آباءكم تبرّكم أبناؤكم» رواه الطبراني من حديث جابر.

وقد بلغ الفسق في هذا الزمن حداً صار الناس يظنونه من الكياسة، وزالت غيرتهم، وأسلسوا القياد لنسائهم كما يسلسن لقيادتهن، فوهت الروابط الزوجية، ونخر السوس في سعادة البيوت، ووجدت الرذيلة لها مرتعاً خصيباً في أجواء الأسر، حتى أصبح الرجل لا يثق بنسله، وكثرت الأمراض والعلل بشتى مظاهرها.

---

(١) المراغي.

أخرج البيهقي[1] في «شعب الإيمان» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ثماني آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، وعد هذه الآيات الثلاث: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، والرابعة: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، والخامسة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، والسادسة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، والسابعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، والثامنة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.. الآية.

وقال الراغب[2]: ووصف الإنسان بأنه خلق ضعيفاً إنما هو باعتباره بالملأ الأعلى، نحو: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، أو باعتباره بنفسه دون ما يعتريه من فيض الله ومعونته، أو اعتباراً بكثرة حاجاته، وافتقار بعضهم إلى بعض، أو اعتباراً بمبدئه ومنتهاه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ وأما إذا اعتُبر بعقله، وما أعطاه من القوة التي يتمكن بها من خلافة الله في أرضه، ويبلغ بها في الآخرة إلى جواره تعالى.. فهو أقوى ما في هذا العالم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

وقرأ ابن عباس ومجاهد: ﴿وخَلَقَ الإنسانَ ضعيفاً﴾ مبنياً للفاعل مسنداً إلى ضمير اسم الله، وانتصاب ضعيفاً على الحال.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ شروع في بيان بعض المحرمات المتعلقة بالأموال والأنفس، إثر بيان المحرمات المتعلقة بالأبضاع، وإنما خَصَّ الأكل بالذكر؛ لأن معظم المقصود من الأموال الأكل، فالمراد: النهي عن مطلق الأخذ، قيل: ويدخل فيه أكل مال نفسه، وأكل مال غيره، فأكل مال نفسه بالباطل إنفاقه في المعاصي.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

أي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدَّقوا بما جاء به محمد ﷺ لا تأكلوا أموالكم المتداولة بينكم بالوجه الباطل الممنوع في الشرع؛ أي: بالطريق الذي يخالف الشرع، كالغصب والسرقة والخيانة والقمار وعقود الربا وشهادة الزور والحلف الكاذب وجحد الحق، ونحو ذلك كالرُشا، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ منقطع؛ لأن التجارة عن تراضٍ ليست من جنس أكل المال بالباطل، فتكون ﴿إِلَّآ﴾ هنا بمعنى: لكن، والمعنىٰ: لكن أكلها بتجارة صادرة عن تراض منكم، وطيب نفس من المتعاقدين جائزِ لكم.

وخص التجارة[1] بالذكر دون غيرها كالهبة والصدقة والوصية؛ لأن غالب التصرف في الأموال بها ولأن أسباب الرزق متعلق بها غالباً، ولأنها أرفق بذوي المروءات، بخلاف الإيهاب وطلب الصدقات، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿تِجَـٰرَةً﴾ بالنصب على أن ﴿تَكُونَ﴾ ناقصة، واسمها ضمير مستتر يعود على[2] الأموال، تقديره: إلا أن تكون الأموال أموال تجارة صادرة عن تراض منكم، فيجوز أكلها، أو يعود على ﴿تجارة﴾ والتقدير: إلا أن تكون التجارة تجارة عن تراض منكم.

وقرأ الباقون بالرفع على أن تكون تامة، والمعنى: إلا أن توجد تجارة صادرة عن تراض منكم، فيجوز أكل الأموال المكتسبة بها.

واختلف العلماء في التراضي[3]، فقالت طائفة: تمامه، أي: تمام البيع وجوبه بافتراق الأبدان بعد عقد البيع، أو بأن يقول أحدهما لصاحبه اختر، كما في الحديث الصحيح: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا أو يقول أحدهما لصاحبه: اختر» أخرجه الشيخان عن ابن عمر، وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين، وبه قال الشافعي والثوري والأوزاعي والليث وابن عيينة وإسحاق وغيرهم. وقال

(١) كرخي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

مالك وأبو حنيفة: تمام البيع هو أن يعقد البيع بالألسنة، فيرتفع بذلك الخيار، وأجابوا عن الحديث بما لا طائل تحته.

فائدة: وفي قوله: ﴿بَيْنَكُم﴾ رمز[1] إلى أن المال المحرم يكون عادة موضع التنازع في التعامل بين الآكل والمأكول منه، كل منهما يريد جذبه إليه، والمراد بالأكل الأخذ على أي وجه، وعبر عنه بالأكل لأنه أكثر أوجه استعمال المال وأقواها.

وأضاف الأموال إلى الجميع، ولم يقل: لا يأكل بعضكم مال بعض، تنبيهاً إلى تكافل الأمة في الحقوق والمصالح، كأن مال كل واحد منها هو مال الأمة جميعها، فإذا استباح أحدهم أن يأكل مال الآخر بالباطل.. كان كأنه أباح لغيره أن يأكل ماله، فالحياة قصاص، وإرشاداً إلى أن صاحب المال يجب عليه بذل شيء منه للمحتاج وعدم البخل عليه به، إذ هو كأنما أعطاه شيئاً من ماله، وبهذا قد وضع الإسلام قواعد عادلة للأموال لدى من يعتنق مبادئه:

منها: أن مال الفرد مال الأمة، مع احترام الحيازة والملكية وحفظ حقوقها، فهو يوجب على ذي المال الكثير حقوقاً معينة للمصالح العامة، وعلى ذي المال القليل حقوقاً أخرى للبائسين وذوي الحاجات من سائر أصناف البشر، ويحث على البر والإحسان والصدقات في جميع الأوقات.

وبهذا لا يوجد في بلاد الإسلام مضطر إلى القوت أو عريان، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم؛ لأن الإسلام فرض على المسلمين إزالة ضرورة المضطر، كما فرض في أموالهم حقوقاً للفقراء والمساكين.

وكل فرد يقيم في بلادهم يرى أن مال الأمة هو مالُه، فإذا اضطر إليه.. يجده مذخوراً له، كما جُعل المال المفروض في أموال الأغنياء تحت سيطرة الجماعة الحاكمة من الأمة، حتى لا يمنعه من في قلبه مرض، وحثهم على البذل

---

(١) المراغي.

ورغبهم فيه، وذمهم على البخل، ووكل ذلك إلى أنفسهم؛ لتقوى لديهم ملكة السخاء والمروءة والرحمة.

ومنها: أنه لم يبح للمحتاج أن يأخذ ما يحتاج إليه من أيدي أربابه إلا بإذنهم، حتى لا تنتشر البطالة والكسل بين أفراد الأمة، وتوجد الفوضى في الأموال والضعف والتواني في الأحوال، ويدب الفساد في الأخلاق والآداب.

ولو أقام المسلمون معالم دينهم، وعملوا بشرائعه.. لضربوا للناس الأمثال، واستبان لهم أنه خير شريعة أخرجت للناس، ولأقاموا مدنية صحيحة في هذا العصر، يتأسى بها كل من يريد سعادة الجماعات، ولا يجعلها تَئِنُ تحت أثقال العوز والحاجة، كما هو حادث الآن من التنافر العام، والنظر الشزر من العمال إلى أصحاب رؤوس الأموال. ومعنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: لا تكونوا من ذوي الأطماع الذين يأكلون أموال الناس بغير مقابل لها من عين أو منفعة، ولكن كلوها بالتجارة التي قوام الحل فيها التراضي، وذلك هو اللائق بأهل المروءة والدين، إذا أرادوا أن يكونوا من أرباب الثراء.

وفي الآية إيماء إلى أنواع شتى من الفوائد:

منها: أن مدار حل التجارة على تراضي المتبايعين، فالغش والكذب والتدليس فيها من المحرمات.

ومنها: أن جميع ما في الدنيا من التجارة، وما في معناها، من قبيل الباطل الذي لابقاء له ولا ثبات، فلا ينبغي أن يشغل العاقل بها عن الاستعداد للآخرة، التي هي خير وأبقى.

ومنها: الإشارة إلى أن معظم أنواع التجارة يدخل فيها الأكل بالباطل، فإنَّ تحديد قيمة الشيء، وجعل ثمنه على قدره بالقسطاس المستقيم يكاد يكون مستحيلاً، ومن ثم يجري التسامح فيها إذا كان أحد العوضين أكبر من الآخر، أو إذا كان سبب الزيادة براعة التاجر في تزيين سلعته، وترويجها بزخرف القول من غير غش ولا خداع، فكثيراً ما يشتري الإنسانُ الشيء وهو يعلم أنه يمكنه شراؤه

من موضع آخر بثمن أقلّ، وما نشأ هذا إلاّ من خلابة التاجر وكياسته في تجارته، فيكون هذا من باطل التجارة الحاصلة بالتراضي، فيكون حلالاً، والحكمة في إباحة ذلك الترغيب في التجارة؛ لشدة حاجة الناس إليها، والتنبيه إلى استعمال ما أوتوا من الذكاء والفطنة في اختيار الأشياء، والتدقيق في المعاملة حفظاً للأموال، حتى لا يذهب شيء منها بالباطل؛ أي: بدون منفعة تقابلها.

فإذا ما وجد في التجارة الربح الكثير بلا غشٍ ولا تغرير، بل بتراض من الطرفين.. لم يكن في هذا حرج، ولولا ذلك ما رغب أحد في التجارة، ولا اشتغل بها أحد من أهل الدين، على شدة حاجة العمران إليها، وعدم الاستغناء عنها.

ولما كان المال عديل الروح، وقد نهينا عن إتلافه بالباطل، كنهينا عن إتلاف النفس؛ لكون أكثر إتلافهم لها بالمغامرات؛ لنهب الأموال، وما كان متصلاً بها، وربما أدى ذلك إلى الفتن التي ربما كان آخرها القتل. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾؛ أي: لا تفعلوا ما تستحقون به القتل، من قتل المؤمن بغير حق والردة والزنا بعد الإحصان، أو المعنى: لا يقتل بعضكم بعضاً، وإنما قال: ﴿أَنفُسَكُمْۚ﴾ لأنهم أهل دين واحد، فهم كنفس واحدة، وللإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحدتها، وقد جاء في الحديث: «المؤمنون كالنفس الواحدة»؛ ولأن قتل الإنسان لغيره يفضي إلى قتله قصاصاً أو ثأراً، فكأنه قتل نفسه.

وبهذا علمنا القرآن: أن جناية الإنسان على غيره جناية على نفسه، وجناية على البشر جميعاً، لا على المتصلين به برابطة الدين أو الجنس أو السياسة، كما قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ كما أنه أرشدنا باحترام نفوس الناس بعدها كنفوسنا، إلى أن نحترم نفوسنا بالأولى، فلا يباح بحال أن يقتل أحد نفسه؛ ليستريح من الغم وشقاء الحياة، فمهما اشتدت المصائب بالمؤمن.. فعليه أن يصبر ويحتسب، ولا ييأس من الفرج الإلهي، ومن ثَمَّ لا يكثرُ بَخْعُ النفس والانتحار إلا حيث يقل الإيمان، ويفشو الكفر والإلحاد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ سبحانه وتعالى كان بكم رحيماً حيث نهاكم عن كل ما تستوجبون به مشقة؛ أي: إنه سبحانه وتعالى بنهيكم عن أكل الأموال بالباطل وعن قتلكم أنفسكم كان رحيماً بكم؛ إذ حفظ دماءكم كما حفظ أموالكم، التي عليها قوام المصالح، واستمرار المنافع، وعلمكم أن تتراحموا وتتوادوا، ويكون كل منكم عوناً للآخر، يحافظ على ماله، ويدافع عن نفسه إذا جد الجد، ودعت الحاجة إلى الدفاع عنه.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ المنهي المذكور من أكل الأموال بالباطل، وقتل الأنفس، أو سائر المحرمات المذكورة من أول السورة إلى هنا، ﴿عُدۡوَٰنٗا﴾؛ أي: تعدياً[1] وعمداً لا خطأً، ﴿وَظُلۡمٗا﴾؛ أي: بغير حق لا قصاصاً، أو المعنى ﴿عُدۡوَٰنٗا﴾؛ أي:[2] تعدياً على الغير، ﴿وَظُلۡمٗا﴾؛ أي: لنفسه بتعريضها للعقاب، لا جهلاً ونسياناً وسفهاً، وقال المراغي[3]: العدوان هو التعدي على الحق، وهو يتعلق بالقصد، بأن يتعمد الفاعل الفعل، وهو عالم أنه قد تعدى الحق وجاوزه إلى الباطل، والظلم يتعلق بالفعل نفسه، بأن لا يتحرى الفاعل عمل ما يحل فيفعل ما لا يحل، والوعيد مقرون بالأمرين معاً، فلا بد من قصد الفاعل العدوان، وأن يكون فعله ظلماً لاحقاً، فإذا وجد أحدهما دون الآخر.. لم يستحق الفاعل هذا التهديد الشديد، فإذا قتل الإنسان رجلاً كان قد قتل أباه أو ابنه.. فهنا قد وجد العدوان ولم يوجد الظلم، وإذا سلب امرؤ مال آخر ظاناً أنه ماله الذي كان قد سرقه أو اغتصبه، ثم تبين أن المال ليس ماله، وأن هذا الرجل لم يكن هو الذي أخذ ماله.. فهاهنا قد وجد الظلم دون العدوان، وقرىء ﴿عِدواناً﴾ بالكسر، ﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ﴾؛ أي: فسوف ندخله في الآخرة ناراً هائلة شديدة العذاب، يصلى فيها، عقوبة له على جريمته ومدلول[4] ﴿نَارٗاۚ﴾ مطلق، والمراد ـ والله أعلم ـ تقييدها بوصف الشدة، أو ما يناسب هذا الجرم العظيم من أكل المال بالباطل وقتل الأنفس.

---

(١) النسفي.

(٢) بيضاوي جمل.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نُصْلِيهِ﴾ بضم النون، وقرأ النخعي والأعمش بفتحها من صلاه الثلاثية، ومنه شاة مصلية، وقرىء أيضاً ﴿نصلّيه﴾ مشدداً، وقرىء ﴿يصليه﴾، والظاهر أن الفاعل ضمير يعود على الله؛ أي: فسوف يصليه هو؛ أي: الله تعالى، وأجاز الزمخشري: أن يعود الضمير على ذلك، قال: لكونه سبباً للمصلي، وفيه بعد.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإصلاء والإدخال في النار ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ أي: يسيراً سهلاً هيناً على الله سبحانه وتعالى لا يمنعه منه مانع، ولا يدفعه عنه دافع، ولا يشفع فيه إلا بإذنه شافع، فلا يغترَّن الظالمون المعتدون بحلمه تعالى عليهم في الدنيا، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، فيظنوا أنهم بمنجاة من عقابه في الآخرة، ولا يكونن كأولئك المشركين الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾ وتتركوا ﴿كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ أي: عظائم ما نهاكم الله عنه من الذنوب، كالشرك والزنا وقتل النفس المحرمة مثلاً، وتفعلوا عزائم ما أمركم الله به، كالصلوات الخمس وصيام رمضان والزكاة والحج، ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾؛ أي: نمحُ عنكم صغائر الذنوب، ونغفرها لكم فلا نؤاخذكم بها، فتصير بمنزلة ما لم يعمل؛ لأن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر وفعل المأمورات، ولا تكفر كبارها إلا بالتوبة والإقلاع عنها، فمعنى تكفير السيئات: إزالة ما يستحق عليها من العقوبات، وجعلها كأن لم تكن، فالمراد بالسيئات هنا الصغائر، لأنهم قسموا الذنوب إلى قسمين: صغائر كالنظرة واللمسة والقبلة مثلاً، وكبائر كالزنا والسرقة، وقالوا: أكبر الكبائر الشرك بالله، وأصغر الصغائر حديث النفس. وإنما زدنا في تفسير الآية قيد وتفعلوا عزائم المأمورات؛ لأنه لابد من تقييد ما في هذه الآية من تكفير السيئات بمجرد اجتناب الكبائر، بما أخرجه النسائي وابن ماجه وابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه، والبيهقي في «سننه»، عن أبي هريرة وأبي سعيد: أن النبي ﷺ جلس على المنبر ثم قال: «والذي نفسي بيده، ما من عبد يصلي الصلوات الخمس،

---

(١) البحر المحيط.

ويصوم رمضان، ويؤدي الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع.. إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة، حتى إنها لتصفق»، ثم تلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، وقيل: لا يشترط ذلك بل تكفر الصغائر باجتناب الكبائر، فإنَّ اجتناب الكبائر من أعظم الطاعات، وهو المعتمد لظاهر الآية. ﴿وَنُدْخِلْكُم﴾ في الآخرة ﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾؛ أي: موضعاً طيباً ومنزلاً حسناً، أو ندخلكم مكاناً لكم فيه الكرامة عند ربكم، وهو الجنة التي تجري من تحتها الأنهار، ومعنى كونه كريماً أنه لا نكد فيه ولا تعب، بل فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، جعلنا الله سبحانه وتعالى من أهلها.

وقرأ ابن عباس وابن جبير[1]: ﴿إن تجتنبوا كبير﴾ على الإفراد، وقرأ المفضلُ عن عاصم: ﴿يُكفِّر﴾ ﴿ويدخلكم﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ ابن عباس: ﴿من سيئاتكم﴾، بزيادة (من)، وقرأ نافع: ﴿مَدْخَلاً﴾ هنا، وفي الحج بفتح الميم، ورُويت عن أبي بكر، وقرأ باقي السبعة بضمها.

واعلم: أنه قد اختلف العلماءُ في عدد الكبائر، وتحقيق معناها، فقال ابن مسعود: هي ثلاث: القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وروي عنه أيضاً أنها أربع، فزاد الإشراك بالله، وقال عليٌّ: هي سبع، الإشراك بالله، وقتل النفس، وقذفُ المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرارُ يوم الزحف، والتعرب بعد الهجرة، وقال عبيد بن عمير: الكبائر سبع كقول علي في كل واحدة منها آية من كتاب الله، وجعل الآية في التعرب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى...﴾ الآية.

والأحاديث الصحيحة[2] كما سيأتي مختلفة في عددها، ومجموعها يزيد على سبع، ومن ثم قال ابن عباس: لما قال له رجل: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى سبعين أقرب، وفي رواية عنه: هي إلى سبع مئة أقرب؛ إذ لا صغيرة مع

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار، ومراده أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس، من استشاطة غضب أو ثورة شهوة، وصاحبه متمكن من دينه، يخاف الله ولا يستحل محارمه، فهو من السيئات التي يكفرها الله تعالى، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس لم يكن ليجترحه تهاوناً بالدين، إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله، فهو إذ ذاك لأنْ يتوب عليه ويكفر عنه أقربُ، وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر، وعدم المبالاة بنظر الله إليه، ورؤيته إياه حيث نهاه، فهو مهما كان صغيراً في صورته أو في ضرره يعد كبيراً من حيث الإصرار والاستهتار، فتطفيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده، والهمز واللمز، وعيب الناس، والطعن في أعراضهم لمن تعوده، كل ذلك كبيرة ولا شك، وكان النبي ﷺ يذكر في كل مقام ما تمس إليه الحاجة ولم يرد الحصر والتحديد.

وأما في تحقيقها فقيل: إن الذنوب كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها: صغيرة بالنسبة إلى ما هو أكبر منها، كما يقال: الزنا صغيرة بالنسبة إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة بالنسبة إلى الزنا. وقال ابن عباس: الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، وقال ابن مسعود: الكبائر ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى ثلاث وثلاثين آيةً، وقال سعيد بن جبير: كل ذنب نسبه الله إلى النار فهو كبيرة، وقال جماعة من أهل الأصول: الكبائر كل ذنب رتب عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه، وقيل: كل ذنب عظم قبحه وعظمت عقوبته، إما في الدنيا بالحدود، وإما في الآخرة بالعذاب عليه، وقيل غير ذلك مما لا طائل في ذكره.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في الكبائر

فمنها: ما روي عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وشهادة الزور، وقول الزور»، وكان متكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. أخرجاه في «الصحيحين».

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: ذكر لنا رسول الله ﷺ الكبائر

فقال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس»، وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، قول الزور» أو قال: «شهادة الزور» متفق عليه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والزنا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» متفق عليه.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قال: قلت: إن ذلك لعظيم، ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» رواه البخاري.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»، وفي رواية، أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله»، قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس»، قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقتطع مال امرىء مسلم بيمين هو فيها كاذب» رواه البخاري.

وعنه ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم! يسب الرجل أبا الرجل أو أمه، فيسب أباه أو أمه»، وفي رواية: «من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» وذكر الحديث، متفق عليه.

الإعراب

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لتقرير ما سبق من

الأحكام، وكونها جارية على مناهج المهتدين من الأنبياء والصالحين. ﴿لِيُبَيِّنَ﴾: اللام لام كي، ولكنها زائدة، زيدت لتأكيد إرادة التبيين. ﴿يبينَ﴾: منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريد الله تبيينه لكم. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾: الواو: عاطفة. ﴿يهديكم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿يبينَ﴾ على كونها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريد الله بيانه لكم، وهدايته لكم. ﴿سُنَنَ الَّذِينَ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿وَيَتُوبَ﴾: معطوف أيضاً على ﴿يُبَيِّنَ﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، تقديره: وتوبته عليكم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان والجملة مستأنفة.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾: الواو عاطفة. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية؛ أعني: جملة يريد الله. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَتُوبَ﴾: منصوب بـ﴿أن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: والله يريد توبته عليكم. ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ﴾. ﴿يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَن تَمِيلُوا﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿مَيْلًا﴾: مفعول مطلق. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يُرِيدُ﴾؛ تقديره: ويريد الذين يتبعون الشهوات ميلكم ميلاً عظيماً.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف مصدر. ﴿يُخَفِّفَ﴾: منصوب بـ﴿أَن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿عَنكُم﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: يريد الله تخفيفه عنكم، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿ضَعِيفًا﴾: حال من الإنسان، وهي حال مؤكدة، والجملة مستأنفة، بمنزلة التعليل لقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ها: حرف تنبيه زائد زيد تعويضاً عما فات أي من الإضافة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع، أو في النصب صفة له، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة جواب النداء. ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿بَيْنَكُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَأْكُلُوٓا۟﴾، أو حال من ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: متعلق بـ﴿تَأْكُلُوٓا۟﴾.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء منقطع بمعنى لكن. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص. ﴿تِجَٰرَةً﴾: خبرها منصوب على قراءة النصب، واسمها ضمير يعود على المعاملة مثلاً، وعلى قراءة الرفع فتكون تامة، ﴿تجارةٌ﴾: فاعلها، وجملة ﴿تَكُونَ﴾ على كلا الإعرابين: صلة أن المصدرية، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف؛ تقديره: لكن كون المعاملة تجارة عن تراض منكم جائز، أو كون تجارة عن تراض منكم جائز، والجملة جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب. ﴿عَن تَرَاضٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿تِجَٰرَةً﴾. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿تَرَاضٍ﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟﴾: جازم وفعل وفاعل معطوف على جملة ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟﴾. ﴿أَنفُسَكُمْ﴾:

مفعول به ومضاف إليه. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الجلالة. ﴿بِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿رَحِيمًا﴾، وهو خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: الواو استئنافية. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما. ﴿يَفْعَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مفعول به. ﴿عُدْوَٰنًا﴾: حال من فاعل يفعل. ﴿وَظُلْمًا﴾: معطوف عليه، ولكن بعد تأويلهما بمشتق؛ تقديره: ومن يفعل ذلك حالة كونه متعدياً على غيره، وظالماً لنفسه، أو منصوبان على المفعول لأجله. ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب مقترناً بـ﴿سوف﴾.، ﴿سَوْفَ﴾: حرف تنفيس. ﴿نُصْلِيهِ﴾: فعل ومفعول أول. ﴿نَارًا﴾: مفعول ثان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، ولم يجزم لفظه لاقترانه بحرف التنفيس، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَسِيرًا﴾ وهو خبر كان، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، مجزوم بحذف النون. ﴿كَبَآئِرَ مَا﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿تُنْهَوْنَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد ضمير عنه. ﴿نُكَفِّرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿أن﴾ على كونه جواب الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله،

وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿عَنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نُكَفِّرْ﴾. ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَنُدْخِلْكُم﴾. معطوف على ﴿نُكَفِّرْ﴾ مجزوم على كونه جواب ﴿إِنْ﴾: الشرطية، و﴿الكاف﴾: مفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مُّدْخَلًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بندخل. ﴿كَرِيمًا﴾: صفة له، ويصح نصبه على المصدرية، والمدخول فيه على هذا محذوف، تقديره: وندخلكم الجنة إدخالاً كريماً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، السنن جمع سنة، كغرف وغرفة، والسنة: الطريقة، ويقال: تاب إلى الله توبة وتوباً ومتاباً، من باب قال، إذا رجع من معصيته إلى طاعته، وتاب الله عليه إذا غفر له، ورجع عليه بفضله، والمعنى هنا: ويغفر لكم، ومعناه في الموضع الثاني أعني قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ التوفيق للهداية، والرجوع إلى الطاعة، ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: جمع شهوة، كهفوات جمع هفوة، وهي المستلذات المحرمة، يقال: شها الشيء يشهو من باب دعا، ويقال: شهي يشهى ـ من باب رضي يرضى ـ شهوةً إذا أحبه ورغب فيه رغبة شديدة، ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ يقال: مال يميل من ـ باب باع ـ ميلاً وتميالاً وميلاناً وميلولةً إلى المكان عدل إليه، أو إلى الشيء، أو إلى الشخص، إذا رغب فيه أو أحبه، ومال عن الطريق إذا حاد عنه، ومال الحاكم في حكمه إذا جار وظلم، ومال الحائط إذا زال عن استوائه، والمراد هنا الميل عن الطريق المستقيم.

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ والضعيف: صفة مشبهة من ضعف يضعف ضعافة وضعافية ضد قوي، وهو من باب فعل المضموم كشرف، يجمع على ضعاف وضعفاء وضعفة وضعفى مؤنثه ضعيفة. ﴿أموالَكم﴾: جمع مال، والمال هو ما ملكته من جميع الأشياء، وهو عند أهل البادية يطلق على النعم والمواشي كالإبل والغنم، يذكر ويؤنث فيقال: هو المال، وهي المال، سمي به لميل القلب إليه، ويقال: مال يمول مولاً ومؤولاً من باب قال، يقال: مال زيد إذا صار ذا مال أو

كثر ماله، وموَّله إذا صيره ذا مال، ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الباطل: ضد الحق، يجمع على أباطيل، يقال: بطل يبطل ـ من باب نصر ـ بطلاً وبطولاً، إذا ذهب خسراً وضياعاً فهو باطل، وفي «المراغي»: الباطل من البطل، والبطلان وهو الضياع والخسار، وفي الشرع: أخذ المال بدون عوض حقيقي يعتد به، ولا رضى ممن يؤخد منه، أو إنفاقه في غير وجه حقيقي نافع، فيدخل في ذلك الغصب والغش والربا والغبن وإنفاق المال في الوجوه المحرمة والإسراف بوضع المال فيما لا يرضى به العقلاء، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ﴾: اجتنب من باب افتعل، والاجتناب: ترك الشيء جانباً، والكبائر جمع كبيرة ككريمة وكرماء، وهي المعصية العظيمة، ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ والسيئات: جمع سيئة، وهي الفعلة التي تسوء صاحبها عاجلاً أو آجلاً، والمراد بها هنا الصغائر، كما هو مذهب الجمهور. ﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾: وفي «السمين»: قرأ[1] نافع وحده هنا، وفي الحج ﴿مَدخلاً﴾ بفتح الميم، والباقون بضمها، ولم يختلفوا في ضم التي في الإسراء كما مرَّ.

فأما المضموم الميم فإنه يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه مصدر، وقد علم أن المصدر الميمي من الرباعي فما فوقه، كاسم المفعول منه، والمدخول فيه على هذا محذوف؛ أي: وندخلكم الجنة إدخالاً كريماً.

والثاني: أنه اسم مكان الدخول.

وفي نصبه حينئذ احتمالان:

أحدهما: أنه منصوب على الظرف، وهو مذهب سيبويه.

والثاني: أنه مفعول به، وهو مذهب الأخفش، وهكذا كل مكان مختص بعد دخل، فإن فيه هذين المذهبين، وهذه القراءة واضحة، لأن اسم المصدر والمكان جاريان على فعلهما، وأما قراءة نافع: فتحتاج إلى تأويل، وذلك لأن

---

(١) الفتوحات.

المفتوح الميم إنما هو من الثلاثي، والفعل السابق لهذا كما رأيت رباعي، فقيل: إنه منصوب بفعل مقدر مطاوع لهذا الفعل المذكور، والتقدير: وندخلكم فتدخلون مدخلاً، ومدخلاً منصوب على ما تقدم إما المصدرية وإما المكانية بوجهيها، وقيل: هو مصدر على حذف الزوائد، نحو أنبتكم من الأرض نباتاً على إحدى القراءتين انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبديع[1]:

منها: التكرار في اسم الله وفي قوله: ﴿يُرِيدُ﴾ في أربعة مواضع، وفي قوله: ﴿يَتُوبَ﴾، ﴿أَن يَتُوبَ﴾.

ومنها: إطلاق المستقبل على الماضي في قوله: ﴿يُرِيدُ﴾، وفي قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ لأن إرادة الله وبيانه قديمان؛ إذ تبيانه في كتبه المنزلة، والإرادة والكلام من صفات ذاته وهي قديمة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، وفي قوله: ﴿أَن تَمِيلُواْ﴾؛ لأنه استعار الاتباع والميل اللذين هما حقيقة في الإجرام؛ لموافقة هوى النفس المؤدي إلى الخروج عن الحق. وفي قوله: ﴿أَن يُخَفِّفَ﴾ لأن التخفيف أصله من خفة الوزن وثقل الجرم، وتخفيف التكاليف: رفع مشاقها من النفس، وذلك من المعاني. وفي قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ جعله ضعيفاً باسم ما يؤول إليه، أو باسم أصله.

ومنها: الزيادة في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، قال الزمخشري: تقديره: يريد الله أن يبين لكم، فزيدت اللام مؤكدة لإرادة التبيين، كما زيدت في لا أبا لك؛ لتأكيد إضافة الأب كما مر ذلك.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾؛ لأنه مجاز عن

---

(١) البحر المحيط.

مطلق الأخذ؛ لأن المراد النهي عن مطلق الأخذ، وإنما خص الأكل بالذكر؛ لأن معظم المقصود من الأموال الأكل.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ لأنه على تقدير إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه وتفعلوا الطاعات؛ لأن التكفير ليس مرتباً على الاجتناب فقط، بل لا بد معه من فعل الطاعات.

ومنها: قصد الدلالة على الثبوت في جملة، وعلى التجدد في أخرى، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ لأنه جاءت الجملة الأولى اسمية والثانية فعلية، لإظهار تأكيد الجملة الأولى؛ لأنها أدل على الثبوت، ولتكرير اسم الله تعالى فيها على طريق الإظهار والإضمار، وأما الجملة الثانية: فجاءت فعلية مشعرة بالتجدد؛ لأن إرادتهم تتجدد في كل وقت.

ومنها: إطلاق الكل وإرادة البعض في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم﴾ لأن إضافة الأموال إلى المخاطبين معناه أموال بعضكم، كما قال تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنه تعالى لما نهى عن أكل المال بالباطل، وعن قتل الأنفس، وكان ما نهى عنه مدعاة إلى التبسط في الدنيا والعلو فيها، وتحصيل حطامها.. نهاهم عن تمني ما فضل الله به بعضهم على بعض؛ إذ التمني لذلك سبب مؤثر في تحصيل الدنيا، وشوق النفس إليها بكل طريق، فلم يكتف بالنهي عن تحصيل المال بالباطل، وقتل الأنفس، حتى نهى عن السبب المحرض على ذلك، وكانت المبادرة إلى النهي عن السبب آكد لفظاعته ومشقته، فبدىء به، ثم أتبع بالنهي عن السبب حسماً لمادة المسبب، وليوافق العمل القلبي العمل الخارجي، فيستوي الباطن والظاهر في الامتناع عن الأفعال القبيحة.

وقال في «المراغي»[2]: المناسبة: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى عن أكل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

أموال الناس بالباطل، وعن القتل، وتوعد فاعلهما بالويل والثبور، وهما من أفعال الجوارح؛ ليصير الظاهر طاهراً عن المعاصي الوخيمة العاقبة.. نهى عن التمني، وهو التعرض لها بالقلب حسداً؛ لتطهر أعمالهم الباطنة، فيكون الباطن موافقاً للظاهر، ولأن التمني قد يجر إلى الأكل، والأكل قد يقود إلى القتل، فإن من يرتع حول الحمى.. يوشك أن يقع فيه انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ...﴾ قال أبو حيان[1]: مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما نهى عن التمني المذكور، وأمر بسؤال الله من فضله.. أخبر تعالى بشيء من أحوال الميراث، وأن في شرعه ذلك مصلحة عظيمة، من تحصيل مال للوارث لم يسع فيه، ولم يتعن فيه بطلب فرب ساع لقاعد.

وقال المراغي: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] نهى عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن تمني أحد ما فضل الله به غيره عليه من المال، حتى لا يسوقه التمني إلى التعدي، وهو وإن كان نهياً عاماً، فالسياق يعين المراد منه، وهو المال؛ لأن أكثر التمني يتعلق به، ثم ذكر القاعدة العامة في حيازة الثروة وهي الكسب.. انتقل إلى نوع آخر تأتي به الحيازة وهو الإرث.

قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ..﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها[3]: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى كلاً من الرجال والنساء عن تمني ما فضل الله به بعضهم على بعض وأرشدهم إلى الاعتماد في أمر الرزق على كسبهم، وأمرهم أن يؤتوا الوارثين أنصبتهم، وفي هذه الأنصبة يستبين تفضيل الرجال على النساء.. ذكر هنا أسباب التفضيل.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ...﴾ سبب نزوله[١]: ما رواه الترمذي والحاكم عن أم سلمة أنها قالت: يغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ...﴾، وأنزل فيها ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت: يا نبي الله للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل أفنحن في العمل هكذا، إن عملت المرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة، فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ...﴾ الآية أخرج[٢] أبو داود في سننه من طريق ابن إسحاق عن داود بن الحصين قال: كنت اقرأ على أم سعد ابنة الربيع، وكانت مقيمة في حجر أبي بكر فقرأت: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ فقالت: لا ولكن ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ﴾ وإنما نزلت في أبي بكر وابنه، حين أبى الإسلام، فحلف أبو بكر أن لا يورثه، فلما أسلم أمره أن يؤتيه نصيبه.

قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ...﴾ سبب نزوله: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تستعدي على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ: «القصاص»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ...﴾ الآية فرجعت بغير قصاص.

وروي أن سعد بن الربيع ـ كان نقيباً من نقباء الأنصار ـ نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد، فلطمها فأنطلق معها أبوها إلى رسول الله ﷺ، فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لتقتص منه»، فنزلت ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير» وأخرج[٣]

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

(٣) لباب النقول.

ابن جرير من طرق عن الحسن، وفي بعضها أن رجلاً من الأنصار لطم امرأته، فجاءت تلتمس القصاص، فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص فنزلت: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، ونزلت: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

وأخرج نحوه عن ابن جريج والسدي وأخرج ابن مردويه عن علي قال: أتى النبي ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله إنه ضربني، فأثر في وجهي، فقال رسول الله ﷺ: «ليس له ذلك» فأنزل الله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ...﴾ الآية، فهذه شواهد يقوي بعضها بعضاً.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: لا تغتبطوا أيها المؤمنون كون ما فضل الله وخص به بعضكم، ورفعه به على بعض آخر من الأمور الدنيوية أو الدينية، كالجاه والمال والعلم والطاعة لأنفسكم، ولا تنافسوا فيه؛ لأن ذلك[1] التفضيل قسمة من الله، صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما ينبغي لكل من بسط في الرزق أو قبض، فعلى كل واحد أن يرضى بما قُسم له، ولا يحسد أخاه على حظه، فالحسد أن يتمنى أن يكون ذلك الشيء له ويزول عن صاحبه، والغبطة أن يتمنى مثلما لغيره، وهو مرخص فيه، والأول منهي عنه.

والتمني[2]: هو التعلق بحصول أمر في المستقبل عكس التلهف؛ لأنه التعلق بحصول أمر في الماضي، فإن تعلق بانتقال ما لغيره له، أو لغيره مع زواله عنه، فهو حسد مذموم، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وفي ذلك قال الإمام أحمد بن حنبل:

أَلاَ قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِيْ حَاسِدَا ... أَتَدْرِيْ عَلَى مَنْ أَسَأْتَ ٱلأَدَبْ

(١) النسفي.

(٢) صاوي.

أَسَـأْتَ عَـلَـى ٱلـلَّـهِ فِـيْ فِـعْـلِـهِ   كَـأَنَّـكَ لَـمْ تَـرْضَ لِـيْ مَـا وَهَـبْ
فَـكَـانَ جَـزَاؤُكَ أَنْ خَـصَّـنِـيْ   وَسَـدَّ عَـلَـيْـكَ طَـرِيْـقَ ٱلـطَّـلَـبْ

وإن تعلق بمثل ما لغيره مع بقاء نعمته، فإن كان تقوى أو صلاحاً، أو إنفاق مال في الخير.. فهو مندوب، وهو المعني بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا في ٱثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها، ويعلمها الناس» وأما إن تمنى المال لمجرد الغنى.. فهو جائز.

قال ابن عباس[1]: لا يتمنى الرجل مال غيره، ودابته وامرأته ولا شيئاً من الذي ثبت له، كالجاه وغير ذلك مما يجري فيه التنافس، وذلك هو الحسد المذموم؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله تعالى صادرة عن حكمة وتدبير لائق بأحوال العباد، متفرع على العلم بجلائل شؤونهم ودقائقها، ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، وقولوا: اللهم ارزقنا مثله أو خيراً منه مع التفويض.

قيل: نزلت هذ الآية في حق أم سلمة زوج النبي ﷺ، حين قالت للنبي ﷺ: ليت الله كتب علينا ما كتب على الرجال لكي نؤجر كما يؤجر الرجال، فنهى الله عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ﴾؛ أي: الرجال ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: النساء، من الجماعة والجمعة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بين الله ثواب كل من الرجال والنساء باكتسابهم فقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ من الثواب والأجر ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؛ أي: على ما اكتسبوا، وعملوا من الخيرات، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنفقة على النساء. ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾؛ أي: ثواب ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾؛ أي: على ما عملن من الخيرات في بيوتهن، كحفظ فروجهن وطاعة الله وأزواجهن، وقيامهن بمصالح البيت من الطبخ والخبز، وحفظ الثياب ومصالح المعاش وكالطلق والإرضاع.

أي: إن الله[2] سبحانه وتعالى كلف كلاً من الرجال والنساء أعمالاً، فما

(١) مراح.   (٢) المراغي.

كان خاصاً بالرجال لهم نصيب من أجره لا يشاركهم فيه النساءُ، وما كان خاصاً بالنساء لهن نصيب من أجره، لا يشاركهن فيه الرجال، وليس لأحدهما أن يتمنى ما هو مختص بالآخر، وقد أراد أن يختص النساء بأعمال البيوت، والرجالُ بالأعمال الشاقة التي في خارجها، ليتقن كل منهما عمله، ويقوم بما يجب عليه مع الإخلاص.

وعلى كل منهما أن يسأل ربه الإعانة، والقوة على ما نيط به من عمل، ولا يجوز أن يتمنى ما نيط بالآخر، ويدخل في هذا النهي تمني كل ما هو من الأمور الخلقية، كالعقل والجمال؛ إذ لا فائدة في تمنيها لمن لم يعطها، ولا يدخل فيه ما يقع تحت قدرة الإنسان من الأمور الكسبية؛ إذ يحمد من الناس أن ينظر بعضهم إلى ما نال الآخرون، ويتمنوا لأنفسهم مثله أو خيراً منه بالسعي والجد.

والخلاصة: أنه تعالى طلب إلينا أن نوجه الأنظار والأفكار إلى ما يقع تحت كسبنا، ولا نوجهها إلى ما ليس في استطاعتنا، فإنما الفضل بالأعمال الكسبية، فلا تتمنوا شيئاً بغير كسبكم وعملكم، فعلى المسلم أن يعتمد على مواهبه وقواه في كل مطالبه، بالجد والاجتهاد، مع رجاء فضل الله فيما لا يصل إليه كسبه، إما للجهل به وإما للعجز عنه، فالزارع مثلاً يجتهد في زراعته، ويتبع السنن والأسباب التي سنها الله تعالى لعمله، ويسأل الله أن يمنع الآفات والجوائح عنه.

روى عكرمة أن النساء سألن الجهاد فقلن: وددنا أن الله جعل لنا الغزو فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال، فنزلت: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى أيها المؤمنون والمؤمنات ما احتجتم إليه من حوائج الدين والدنيا، يعطكم ﴿مِن﴾ خزائن ﴿فَضْلِهِۦٓ﴾ وإحسانه وإنعامه، فإن خزائنه مملوءة لا تنفذ، ولا تتمنوا نصيب غيركم ولا تحسدوا من فضل عليكم.

قال الفخر الرازي[1]: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ تنبيه على أن

(١) الفخر الرازي.

الإنسان لا يجوز له أن يعين شيئاً في الطلب والدعاء، ولكن يطلب من فضل الله ما يكون سبباً لصلاحه في دينه ودنياه، على سبيل الإطلاق انتهى.

وقد ورد في الحديث[1]: «لا يتمنين أحدكم مال أخيه، ولكن ليقل: اللهم ارزقني اللهم أعطني مثله»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سلوا الله من فضله فالله يحب أن يسأل وإن من أفضل العبادة انتظار الفرج».

وقرأ ابن كثير والكسائي[2]: ﴿وسلوا﴾ بحذف الهمزة، وإلقاء حركتها على السين، وذلك إذا كان أمراً للمخاطب وقبل السين واو أو فاء، نحو ﴿فسل الذين يقرؤون الكتاب﴾ و﴿فسلوا أهل الذكر﴾، وقرأ باقي السبعة بالهمز. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ - ومنه محل فضله وسؤالكم - ﴿عَلِيمًا﴾؛ أي: عالماً به، ولذلك جعل الناس على طبقات، فرفع بعضهم على بعض درجات بحسب مراتب استعدادهم، وتفاوت اجتهادهم في معترك الحياة، ولا يزال العاملون يستزيدونه، ولا يزال ينزل عليهم من جوده وكرمه ما يفضلون به القاعدين الكسالى، حتى بلغ التفاوت بين الناس في الفضل حداً بعيداً، وكاد التفاوت بين الشعوب يكون أبعدمن التفاوت بين بعض الحيوان وبعض الإنسان؛ أي: فإنه[3] تعالى هو العالم بما يكون صلاحاً للسائلين، فليقتصر السائل على المجمل، وليحترز في دعائه عن التعيين، فربما كان ذلك محض المفسدة والضرر.

﴿وَلِكُلٍّ﴾ إنسان ﴿جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾؛ أي: أولياء وأقارب ورثة يرثون ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾؛ أي: يرثون من المال الذي تركه الوالدان والأقربون إن ماتوا، فيكون الوالدان والأقربون موروثين لا وارثين، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾؛ مبتدأ خبره ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾؛ أي: والحلفاء الذين عقدتم لهم عقد

---

(١) مراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراح.

الحلف والنصرة وصافحت أيمانكم أيمانهم عند العقد، فآتوهم وأعطوهم الآن؛ أي: في صدر الإسلام نصيبهم وحظهم الذي تعطونهم في الجاهلية وهو السدس، وكان الحليف في الجاهلية يرث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وهذا التفسير مرويٌّ عن ابن عباس. وقيل معنى الآية: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ﴾؛ أي: ولكل[1] من الرجال الذين لهم نصيبٌ مما اكتسبوا، ومن النساء اللاتي لهن نصيب مما اكتسبن جعلنا موالي مما ترك؛ أي: أقارب وأولياء لهم حق الولاية على ما يتركونه من كسبهم ومالهم ويرثونه منهم، ثم بيَّن هؤلاء الموالي فقال: ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾؛ أي: أولئك الموالي الذين يرثون كلاً من الفريقين هم الوالدان والأقربون والأزواج، الذين عقدت لهم أيمانكم؛ أي: إن هؤلاء الموالي هم جميع الورثة، من الأصول والفروع والحواشي والأزواج الذين عقدت أيمانكم، فإن كلاً من الزوجين له حق الإرث بالعقد، والمتعارف عند الناس في العقد أن يكون المصافحة باليدين، قاله أبو مسلم الأصفهاني.

﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾؛ أي: فأعطوهم هؤلاء الموالي نصيبهم المقدر لهم، ولا تنقصوهم منه شيئاً، وقيل: إن[2] لفظة كل واقعة على تركة، ومما ترك بيان لـ(كل)، والمعنى: ولكل تركة كائنة مما ترك الوالدان والأقربون، ومما ترك الزوج والزوجة الذين عقدت أيمانكم جعلنا موالي وورثة متفاوتة في الدرجة، يلونها ويحرزون منها أنصبائهم بحسب استحقاقهم، فالمراد بالذين عقدت أيمانكم الأزواج والزوجات، فالنكاح يسمى عقداً، وهو قول أبي مسلم الأصفهاني.

ويصح[3] أن تكون جملة جعلنا موالي صفة لكل، والضمير الراجع إليه محذوف، والكلام مبتدأ وخبر، والمعنى حينئذ: ولكل قوم جعلناهم وارثاً نصيب معين مغاير لنصيب قوم آخرين، مما ترك المورثون، فآتوهم نصيبهم من الميراث.

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) مراح.

وقيل: المراد من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ الحلفاء، وبقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ النصرة والنصيحة والمصافاة في العشرة، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ متضمن معنى الشرط، خبره ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾، وعلى هذه الوجوه فليست الآية منسوخة، بخلاف ما لو حمل الذين عقدت أيمانكم على الحلفاء في الجاهلية، وقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ على الميراث وهو السدس، فالآية حينئذ منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾، وكذا لو حمل على مؤاخاة النبي ﷺ أو على الأبناء الأدعياء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من أعمالكم وغيرها ﴿شَهِيدًا﴾؛ أي: مطلعاً عالماً بها، فهو عالم الغيب والشهادة؛ أي: إن الله رقيب شاهد على تصرفاتكم في التركة وغيرها، فلا يطمعنَّ من بيده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئاً، سواء أكان ذكراً أم أنثى، كبيراً أم صغيراً، وجاءت هذه الآية لمنع طمع بعض الوارثين في نصيب بعض.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ بالألف والمفعول محذوف؛ أي: عاقدتهم أيمانكم، وقرىء ﴿عَقَدَتۡ﴾ بغير ألف، والمفعول محذوف أيضاً هو والعائد تقديره: عقدت حلفهم أيمانكم، وروي عن حمزة أنه قرأ: ﴿عقّدت﴾ بتشديد القاف على التكثير؛ أي: والذين عقدت لهم أيمانكم الحلف.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾، أي: مسلطون ﴿عَلَى﴾ تأديب ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ تسليط الولاة على الرعايا ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾؛ أي: بسبب تفضيل الله تعالى إياهم عليهن بكمال العقل، وحسن التدبير ورزانة الرأي، ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خُصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر، والشهادة في جميع القضايا، ووجوب الجهاد والجمعة وغير ذلك، لكون الرجل يتزوج بأربع نسوة ولا يجوز للمرأة غير زوج واحد، ومنه زيادة النصيب في الميراث، وبيده الطلاق والنكاح والرجعة وإليه الانتساب، فكل هذا يدل على فضل الرجال على

---

(١) عكبري وشوكاني.

النساء، ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾؛ أي: وبسبب إنفاقهم عليهن من أموالهم في المهور والنفقات ومؤن النساء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد.. لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» أخرجه الترمذي.

أي: إن من[1] شأن الرجال أن يقوموا على النساء بالحماية والرعاية، وتبع هذا فرض الجهاد عليهم دونهن؛ لأن ذلك من أخص شؤون الحماية، وجعل حظهم من الميراث أكثر من حظهن؛ لأن عليهم من النفقة ما ليس عليهن، وسبب هذا: أن الله فضل الرجال على النساء في الخلقة، وأعطاهم ما لم يعطهن من الحول والقوة، كما فضلهم بالقدرة على الإنفاق على النساء من أموالهم، فإن في المهور تعويضاً للنساء، ومكافأة لهن على الدخول تحت رياسة الرجال، وقبول القيامة عليهن نظير عوض مالي يأخذنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِى عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾.

والمراد بالقيام: الرياسة التي يتصرف فيها المرؤوس بإرادة الرئيس واختياره؛ إذ لا معنى للقيام إلا الإرشاد والمراقبة في تنفيذ ما يرشد إليه وملاحظة أعماله، ومن ذلك حفظ المنزل، وعدم مفارقته إلا بإذنه، ولو لزيارة القربى وتقدير النفقة فيه، فهو الذي يقدرها بحسب ميسرته، والمرأة هي التي تنفذ على الوجه الذي يرضيه ويناسب حاله سعة وضيقاً.

ولقيام الرجل بحماية المرأة وكفايتها ومختلف شؤونها يمكنها أن تقوم بوظيفتها الفطرية، وهي الحمل والولادة وتربية الأطفال، وهي آمنة في سربها، مكفية ما يهمها من أمور أرزاقها. ثم فصل حال النساء في الحياة المنزلية، التي تكون المرأة فيها تحت رياسة الرجل، فذكر أنها قسمان: قسم صالحات مطيعات، وقسم عاصيات متمردات، فذكر القسم الأول بقوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾؛ أي: فالنساء اللاتي يراعين حقوق الله وحقوق العباد، ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

مطيعات لله ولأزواجهن ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾؛ أي: حافظات للسر الذي يجري بينهن وبين أزواجهن في الخلوة من الرفث ـ الجماع ـ والشؤون الخاصة بالزوجية، لا يطلعن أحداً على ذلك السر، ولو قريباً، وبالأولى يحفظن العرض من يد تلمس أو عين تبصر أو أذن تسمع، أو حافظات لما يجب حفظه عند غيبة أزواجهن عنهن، من حفظ نفوسهن وأموالهم، ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾؛ أي: بسبب تحفيظ الله إياهن ذلك السر، وأمره إياهن بحفظه، فهن يطعنه ويعصين الهوى، أو حافظات لغيب أزواجهن بحفظ الله لهن ومعونته وتسديده، أو حافظات بما استحفظهن الله من أداء الأمانة إلى أزواجهن، على الوجه الذي أمر الله به، أوحافظات له بحفظ الله لهن بما أوصى به الأزواج في شأنهن من حسن العشرة، وقرأ أبو جعفر: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهَ﴾ بنصب الاسم الشريف على حذف المضاف؛ أي: بسبب حفظهن حدود الله وأوامره، وفي الآية: أكبر زجر وعظة لمن تتفكه من النساء بإفشاء الأسرار الزوجية، ولا تحفظ الغيب فيها، وفي الحديث: «إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه».

وكذلك: عليهن أن يحفظن أموال الرجال، وما يتصل بها من الضياع، روى ابن جرير والبيهقي: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها». وقرأ الآية. وهذا القسم من النساء ليس للرجال عليهن سلطان التأديب، إذ لا يوجد ما يدعو إليه، وإنما سلطانهم على القسم الثاني، الذي ذكره الله تعالى، وذكر حكمه بقوله: ﴿و﴾ النساء ﴿اللاتي تخافون نشوزهن﴾؛ أي: تظنون عصيانهن لكم وخروجهن عن طاعتكم، برؤية أمارات النشوز عليها، قولاً كأن كانت تلبيه أولاً إذا دعاها، وتخضع له إذا خاطبها، فرفعت عليه صوتها، أو لم تجبه إذا دعاها أو فعلاً كأن كانت تقوم له إذا دخل عليها وتسرع إلى أمره إذا أمرها، فرأى منها خلاف ذلك، أو تعلمون نشوزهن كأن دعاها إلى فراشه فأبت منه بغير عذر، ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾؛ أي: فانصحوا لهن بالترهيب والترغيب، وذكروهن بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وخوفوهن عقوبة الله على النشوز، كأن يقول لها: اتقي الله وخافيه، فإن لي عليك حقاً وارجعي عما

أنت عليه، واعلمي أن طاعتي فرض عليك، ونحو ذلك فإن أصرت على ذلك.. هجرها في المضجع، كما قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾؛ أي: وأعرضوا عنهن في المراقد والمفارش، وحولوا عنهن وجوهكم في المضاجع، فلا تدخلوهن تحت اللحاف إذا حققتم منهن النشوز، ولم ينفعهن الوعظ والنصيحة بالقول، فإن أصرت على النشوز بعد الوعظ والهجران.. ضربها ضرباً غير مبرح، كما قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ إن لم ينجح الهجران ضرباً لا يكسر عظماً، ولا ينهر دماً، ولا يورث شيناً، والأولى ترك الضرب كما يستفاد من الأحاديث الصحيحة.

عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: «قلتُ يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». أخرجه أبو داود، قوله: «ولا تقبح»؛ أي: لا تقل قبحك الله.

وعن عبد الله بن زمعة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم لعله يجامعها ـ أو قال يضاجعها ـ من آخر اليوم» متفق عليه.

وعن عمرو بن الأحوص ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، وذكر في الحديث قصة فقال: «ألا فاستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً». أخرجه الترمذي، بزيادة قوله: «عوان» جمع عانية؛ أي: أسيرة، شبه المرأة ودخولها تحت أمر زوجها بالأسير، والضرب المبرح: الشديد الشاق.

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لا يسأل الرجل فيم ضرب امرأته». أخرجه أبو داود.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان عليها.. لعنتها الملائكة حتى تصبح». متفق عليه.

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه، فأبت عليه.. إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها». وفي رواية: «إذا باتت مهاجرة فراش زوجها.. لعنتها الملائكة حتى تصبح». وفي أخرى «حتى ترجع».

وعن طَلْقِ بن علي: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى حاجة، فلتأته وإن كانت على التنور» أخرجه الترمذي.

وله عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك إلينا».

وله عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة». ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾؛ أي؛ فإن رجعْن عن النشوز إلى طاعتكم عند هذا التأديب ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾؛ أي: فلا تطلبوا عليهن طريقاً إلى الضرب والهجران، على سبيل التعنت والإذاية، ولا تتعرضوهن بما وقع من النشوز، واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. أو المعنى: فإن أطعنكم بواحدة من هذه الخصال التأديبية.. فلا تبغوا ولا تتجاوزوا ذلك إلى غيرها، فابدؤوا بما بدأ الله به، من الوعظ ثم الهجر ثم الضرب ثم التحكيم، ومتى استقام لكم ظاهر حالها.. فلا تبحثوا عما في سرائرها من الحب والبغض.

ثم هدد وخوف من يظلم النساء ويبغي عليهن فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ عَلِيًّا﴾؛ أي: متصفاً بجميع صفات الكمال ﴿كَبِيرًا﴾؛ أي: متنزهاً عن جميع النقائص، والمعنى: إن الله تعالى مع علوه وكبريائه لا يكلفكم ما لا تطيقون، فكذلك لا تكلفوهن ما لا طاقة لهن من المحبة، وأنه تعالى مع ذلك يتجاوز عن سيئاتكم، فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند طاعتهن لكم.

فكأنه يقول لهم: إن سلطانه عليكم فوق سلطانكم على نسائكم، فإذا بغيتم

عليهن.. عاقبكم، وإن تجاوزتم عن هفواتهن كرماً.. تجاوز عنكم، وكفر عنكم سيئاتكم.

وليس بخاف أن الرجال الذين يستذلون نسائهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم؛ إذ هم يتربون على الظلم ويستسيغونه، ولا يكون في نفوسهم شيء من الكرامة ولا من الشمم والإباء، وأمّة تُخرج أبناءً كهؤلاءِ إنما تُربي عبيداً أذلاء، لا يقومون بنصرتها، ولا يغارون لكرامتها، فما أحراهم بأن يكونوا قطعاناً من الغنم تزدجِرُ من كل راعٍ، وتستجيب لكل ناعق.

استدراك في معنى قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ...﴾ الآية:

والحاصل: أن اللاتي[1] تأنسون منهن الترفع، وتخافون أن لا يقمن بحقوق الزوجية على الوجه الذي ترضونه.. فعليكم أن تعاملوهن على النهج الآتي:

١ ـ أن تبدؤوا بالوعظ الذي ترون أنه يؤثر في نفوسهن، فمن النساء من يكفيها التذكير بعقاب الله وغضبه، ومنهن من يؤثر في أنفسهن التهديد والتحذير من سوء العاقبة في الدنيا، كشماتة الأعداء، ومنعها بعض رغباتها كالثياب والحلي ونحو ذلك. وعلى الجملة: فاللبيب لا تخفى عليه العظات التي لها المحل الأرفع في قلب امرأته، فإن لم يجد ذلك.. فله أن يجرب:

٢ ـ الهجر والإعراض في المضجع، ويتحقق ذلك بهجرها في الفراش مع الإعراض والصد، وقد جرت العادة بأن الاجتماع في المضجع يهيج شعور الزوجية، فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر، ويزول ما كان في نفوسهما من اضطراب أثارته الحوادث قبل ذلك، فإذا هو فعل ذلك.. دعاها هذا إلى السؤال عن أسباب الهجر والهبوط بها من نشز المخالفة إلى مستوى الموافقة، فإن لم يفد ذلك.. فله أن يجرب:

---

(١) المراغي.

٣ ـ الضرب غير المبرح؛ أي: غير المؤذي إيذاء شديداً كالضرب باليد أو بعصا صغيرة.

وقد يستعظم بعض من قلد الإفرنج من المسلمين مشروعية ضرب المرأة الناشز، ولا يستعظمون أن تنشز وتترفع هي عليه، فتجعله وهو الرئيس مرؤوساً محتقراً، وتُصر على نشوزها، فلا تلين لوعظه ونصحه، ولا تبالي بإعراضه وهجره، فإن كان قد ثقل ذلك عليهم.. فليعلموا أن الإفرنج أنفسهم يضربون نسائهم العالمات المهذبات، بل فعل هذا حكماؤهم وعلماؤهم وملوكهم وأمراؤهم، فهو ضرورة لا يستغنى عنها، ولا سيما في دين عام للبدو والحضر من جميع أصناف البشر، وكيف يُستنكر هذا والعقل والفطرة يدعوان إليه، إذا فسدت البيئة ـ الحالة ـ وغلبت الأخلاق الفاسدة، ولم ير الرجل مناصاً منه، ولا ترجع المرأة عن نشوزها إلا به.

لكن إذا صلحت البيئة وصارت النساء يستجبن للنصيحة، أو يزدجرن بالهجر.. وجب الاستغناء عنه؛ إذ نحن مأمورون بالرفق بالنساء، واجتناب ظلمهن، وإمساكهن بمعروف، أو تسريحهن بمعروف.

والخلاصة: أن الضرب علاج مُرٌّ قد يستغني عنه الخير الكريم، ولكنه لا يزول من البيوت إلا إذا عم التهذيب الرجال والنساء، وعرف كلٌّ ما له من الحقوق، وكان للدين سلطان على النفوس، يجعلها تراقب الله في السر والعلن، وتخشى أمره ونهيه.

ثم بين الطريق السوي الذي يتبع عند حدوث النزاع وخوف الشقاق، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ والخطاب فيه لولاة الأمور، وصلحاء الأمة؛ أي: وإن علمتم أيها الولاة، أو أيها المؤمنون شقاقاً، ومخالفة واقعة بين الزوجين، ولم تعلموا من أيهما الشقاق.. ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾؛ أي: فأرسلوا أيها الولاة أو المؤمنون برضى الزوجين ـ وجوباً ـ إلى الزوج رجلاً عَدْلاً عارفاً بالحكم ودقائق الأمور، كائناً من أقارب الزوج ندباً؛ لأن الأقارب أعرف

بحاله من الأجانب، وأشد طلباً للإصلاح بينهما، ولأن قلبه أسكن إليهم إن وجد منهم، وإلا فمن الأجانب يستكشف عن حاله ليعلم أهو ظالم أو مظلوم، وأرسلوا إلى الزوجة رجلاً عدلاً عارفاً بالحكم من أقاربها، يستكشف عن حالها؛ ليعلم أهي ظالمة أو مظلومة، ثم بعد استكشاف الحكمين ما عند الزوجين يجتمعان، ويتشاوران فيما هو الأصلح للزوجين من الموافقة إن أمكنت، أو المفارقة إن لم تمكن الموافقة، ويوكل الزوج حكمه في طلاق وقبول عوض عليه وتوكل هي حكمها في الاختلاع فيجتهدان، ويأمران الظالم بالرجوع، أو يفرقان إن رأيا في الفراق مصلحة، كما قال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا﴾؛ أي: إن قصد الحكمان إصلاحاً، وتوفيقاً بين الزوجين، وقطعاً لخصومتهما.. ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾؛ أي: أوقع الله سبحانه وتعالى الموافقة بين الزوجين؛ أي: إن كانت نية الحكمين صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى.. أوقع الله الموافقة بين الزوجين، إما على الاجتماع، أو على الفراق، ببركة نية الحكمين، وسعيهما في الخير، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بموافقة الزوجين ومخالفتهما ﴿خَبِيرٗا﴾ ببواطن الزوجين، وسرائرهما كظواهرهما، فيعلم كيف يوفق بين المختلفين، ويجمع بين المتفرقين، وفيه وعد شديد للزوجين والحكمين إن سلكوا غير طريق الحق.

وعبارة المراغي في هذه الآية قوله[١]: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ...﴾ الآية، هذا الخطاب عام يدخل فيه الزوجان وأقاربهما، فإن قاموا بذلك فذاك، وإلا وجب على من بلغه أمرهما من المسلمين أن يسعى في إصلاح ذات بينهما، والخلاف بينهما قد يكون بنشوز المرأة، وقد يكون بظلم الرجل، فإن كان بالأول فعلى الرجل أن يعالجه بأقرب أنواع التأديب التي ذكرت في الآية التي سلفت، وإن كان بالثاني، وخيف من تمادي الرجل في ظلمه، أو عجز عن إنزالها عن نشوزها، وخيف أن يحول

(١) المراغي.

الشقاق بينهما دون إقامتهما لأركان الزوجية الثلاث، من السكون والمودة والرحمة.. وجب على الزوجين وذوي القربى أن يبعثوا الحكمين، وعليهم أن يوجهوا إرادتهم إلى إصلاح ذات البين، ومتى صدقت الإرادة، وصحت العزيمة.. فالله كفيل بالتوفيق بفضله وجوده. وبهذا تعلم شدة عناية الله بأحكام نظام الأسر والبيوت، وكيف لم يذكر مقابل التوفيق وهو التفريق؛ لأنه يبغضه، ولأنه يود أن يشعر المسلمين بأنه لا ينبغي أن يقع.

ولكن واأسفا لم يعمل المسلمون بهذه الوصية الجليلة إلا قليلاً حتى دب الفساد في البيوت، ونخر فيها سوس العداوة والبغضاء، ففتك بالأخلاق والآداب وسرى من الوالدين إلى الأولاد، ثم ذكر أن ما شرع من الأحكام جاء وفق الحكمة والمصلحة؛ لأنه من حكيم خبير بأحوال عباده، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾؛ أي: إنَّ هذه الأحكام التي شرعت لكم كانت من لدن عليم بأحوال العباد وأخلاقهم، خبير بما يقع بينهم وبأسبابه، ما ظهر منها وما بطن، ولا يخفى عليه شيء من وسائل الإصلاح بينهما.

وفي الآية: إرشاد إلى أن ما يقع بين الزوجين من خلاف، وإن ظن أنه مستعص يتعذر علاجه.. فقد يكون في الواقع على غير ذلك من أسباب عارضة، يسهل على الحكمين الخبيرين بدخائل الزوجين؛ لقربهما منهما أن يمحصا ما علق من أسبابه بقلوبهما، فيزيلاها متى حسنت النية وصحت العزيمة.

ولتعلم ـ أيها المؤمن ـ أن رابطة الزوجية أقوى الروابط التي تربط بين اثنين من البشر، فبها يشعر كل من الزوجين بشركة مادية ومعنوية، وبها يؤاخذ كل منهما شريكه على أدق الأمور وأصغرها، فيحاسبه على فلتات اللسان، وبالظنة والوهم وخفايا خلجات القلب، فيغريهما ذلك بالتنازع في كل ما يقصر فيه أحدهما من الأمور المشتركة بينهما، وما أكثرها وأعسر التوقي منها، وكثيراً ما يفضي التنازع إلى التقاطع، والعتاب إلى الكره والبغضاء، فعليك أن تكون حكيماً في معاملة الزوجة، خبيراً بطباعها، وبهذا تحسن العشرة بينكما، انتهى.

الإعراب

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾: الواو عاطفة أو استئنافية. ﴿لا تتمنوا﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم﴾ أو مستأنفة. ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾: ما موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير به، ﴿بَعْضَكُمْ﴾: مفعول ﴿فَضَّلَ﴾ ومضاف إليه. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: جار ومجرور متعلق بفضل، ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، ﴿نَصِيبٌ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة، ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَصِيبٌ﴾، ﴿ٱكْتَسَبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما اكتسبوه. ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله؛ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾، ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما اكتسبنه، ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقدير: حوائجكم. ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق باسألوا، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله، ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿عَلِيمًا﴾، وهو خبر كان، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة: مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ﴾.

﴿وَلِكُلٍّ﴾: الواو استئنافية ﴿لكل﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والتنوين في ﴿كل﴾ عوض عن كلمة محذوفة، أي: لكل قوم ﴿جعلنا﴾ صفة لقوم، ومفعول ﴿جعلنا﴾ الأول محذوف، أي جعلناهم. ﴿مَوَٰلِىَ﴾: مفعول

ثان لـ﴿جَعَلۡنَا﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿مَوَٰلِيَ﴾. ﴿تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾، الجملة الفعلية صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: مما تركه الوالدان والأقربون، والتقدير: وجعلنا موالي وأقرباء يرثون مما تركه الوالدان والأقربون لكل إنسان، وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب فلا نطيل الكلام بذكرها.

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره عاقدت حلفهم أيمانكم، ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ﴾: الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من العموم. ﴿أتوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿نَصِيبَهُمۡۚ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَهِيدًا﴾، وهو خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَوَّٰمُونَ﴾، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾ حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾: متعلق بـ﴿فَضَّلَ﴾، والجملة الفعلية صلة ما المصدرية، ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره بتفضيل الله بعضهم على بعض، والجار والمجرور متعلق بـ﴿قَوَّٰمُونَ﴾، ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾: الواو عاطفة، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿أَنفَقُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره وبما أنفقوه.

﴿مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من الضمير المحذوف.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية بمعنى الواو، ﴿الصالحاتُ﴾: مبتدأ، ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾: خبر والجملة مستأنفة، ﴿حَٰفِظَٰتٌ﴾: خبر ثان، ﴿لِّلۡغَيۡبِ﴾: متعلق به، ﴿بِمَا﴾: الباء حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ما المصدرية، ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، وتقديره: بحفظ الله؛ أي: بتحفيظ الله إياهن، والجار والمجرور متعلق بـ﴿حافظات﴾. ﴿وَٱلَّٰتِي﴾: الواو عاطفة، ﴿اللاتي﴾: مبتدأ، ﴿تَخَافُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر، ﴿عظوهن﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾، وكذلك جملة ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ معطوفة عليها.

﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾.

﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾؛ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حكم ما إذا نشزن، وأردتم بيان حكم ما إذا أطعنكم.. فأقول لكم: ﴿إن أطعنكم﴾: ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿أَطَعۡنَكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿فَلَا تَبۡغُواْ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَبۡغُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية، والجملة في محل الجزم على كونها جواباً لها. ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَبۡغُواْ﴾. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به، وجملة إن الشرطية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله، ﴿عَلِيّٗا﴾: خبر أول

لها، ﴿كَبِيرًا﴾ خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِنْ﴾: الواو استئنافية، ﴿إِن﴾ حرف شرط، ﴿خِفْتُمْ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بإن، ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿فَابْعَثُوا﴾: الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، ﴿ابعثوا﴾؛ فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿حَكَمًا﴾: مفعول به، ﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿حَكَمًا﴾. ﴿وَحَكَمًا﴾ معطوف على ﴿حَكَمًا﴾ الأول، ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾: صفة لـ﴿حَكَمًا﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يُرِيدَآ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿إِصْلَٰحًا﴾: مفعول به، ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بإن على كونه جواباً لها، ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُوَفِّقِ﴾، وجملة ﴿إن﴾: الشرطية مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على الله، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لكان، ﴿خَبِيرًا﴾ خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ﴿تَتَمَنَّوْا﴾: مضارع تمنى يتمنى تمنياً، من باب تفعل الخماسي، والتمني[1]: تشهي حصول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون، وبما لا يكون، وقيل التمني: تقدير الشيء في النفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين وظن، وقد يكون بلا روية، وأكثر التمني ما لا حقيقة له، وقيل: التمني عبارة عن إرادة ما يعلم أو يظن أنه لا يكون.

(١) الجمل.

﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ وفضله: إحسانه ونعمه المتكاثرة، ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ الموالي من يحق لهم الاستيلاء على التركة، واحده مولى، والمولى: الابن والعم وابن الابن وابن العم وكل قريب وعاصب.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ القوامون: جمع تصحيح لقوام، يقال هذا قيم المرأة وقوامها إذا كان يقوم بأمرها، ويهتم بحفظها، والقوام: هو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب، ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ يقال: فضله على غيره إذا حكم له بالفضل عليه، وصيره أفضل منه، والفضل: الزيادة والدرجة، يجمع على فضول، وما به الفضل قسمان:

فطري: وهو قوة مزاج الرجل وكماله في الخلقة، ويتبع ذلك قوة العقل، وصحة النظر في مبادىء الأمور وغاياتها.

وكسبي: وهو قدرته على الكسب والتصرف في الأمور، ومن ثم كلف الرجال بالإنفاق على النساء والقيام برياسة المنزل، ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ جمع قانتة، اسم فاعل من القنوت، وهو السكون والطاعة لله وللأزواج، ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾؛ أي اللاتي يحفظن ما يغيب عن الناس، ولا يقال إلا في حال الخلوة بالمرأة، كشؤون الجماع والاستمتاع فلا تخبرنه للناس، والغيب: السر يجمع على غياب وغيوب.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾؛ أي[1]: تظنون، فالخوف هنا بمعنى الظن، وربما يأتي بمعنى العلم، أصل النشوز الارتفاع إلى الشرور، ونشوز المرأة: بغضها لزوجها، وعصيانها لأمره، ورفع نفسها عليه تكبراً، وعبارة أبي السعود: النشوز من النشز وهو المرتفع من الأرض، يقال: نشزت الأرض إذا ارتفعت عما حواليها، ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾: يقال: هجره يهجره هجراً وهجراناً ـ من باب نصر ـ إذا صرمه وقطعه، ضد وصله، وهجر الشيء: تركه وأعرض عنه، وهجر زوجه: اعتزل عنها ولم يطلقها، و﴿المضاجع﴾: على زنة مفاعل، جمع مضجع ـ بفتح الجيم ـ موضع الضجوع، ﴿شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾: فيه وجهان[2]:

---

(١) الجمل.

(٢) الجمل.

أحدهما: أن الشقاق مضاف إلى بين ومعناها الظرفية، والأصل شقاقاً بينهما، ولكنه اتسع فيه، فأضيف الحدث إلى ظرفه، وظرفيته باقية، نحو ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

والثاني: أنه خرج عن الظرفية وبقي كسائر الأسماء، كأنه أريد المعاشرة والمصاحبة بين الزوجين، وقال أبو البقاء: البين هنا الوصل الكائن بين الزوجين، وسمي الخلاف شقاقاً؛ لأن المخالف يفعل ما يشق على صاحبه، أو لأن كلا منهما صار على شق؛ أي: جانب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من المعاني والبيان والبديع:

منها: الإطناب في قوله: ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ و﴿نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾، وفي قوله: ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؛ لأنه شبه استحقاقهم للإرث وتملكهم له بالاكتساب، واشتق من لفظ الاكتساب بمعنى الاستحقاق، اكتسبوا بمعنى استحقوا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ فقد كنى بذلك عن الجماع.

ومنها: التأكيد بصيغة المبالغة في قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾؛ لأن فعال من صيغ المبالغة، ومجيء الجملة اسمية لإفادة الدوام والاستمرار.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: لما كان الكلام[1] من أول السورة إلى هنا في وصايا عديدة، ونصائح حكيمة، كابتلاء اليتامى قبل تسليمهم أموالهم، والنهي عن إيتاء الأموال للسفهاء، وعن قتل النفس، والإرشاد إلى كيفية معاملة النساء، وطرق تأديبهن، تارة بالموعظة الحسنة، وأخرى بالقسوة والشدة، مع مراقبة الله عز وجل في كل ذلك.. ناسب بعدها التذكير بحسن معاملة الخالق، بالإخلاص له في الطاعة، وحسن معاملة الطوائف المختلفة من الناس، وعدم الضن عليهم بالمال في أوقات الشدة، مع قصد التقرب إلى الله تعالى، لا لقصد الفخر والخيلاء؛ لأن ذاك عمل

---

(١) المراغي.

من لا يرجو ثواب الله تعالى، ولا يخشى عقابه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: لما بين الله سبحانه وتعالى صفات المتكبرين وسوء أحوالهم، وتوعدهم على ذلك بأشد أنواع الوعيد.. زاد الأمر توكيداً وتشديداً.. فذكر أنه لا يظلم أحداً من العاملين بوصاياه لا قليلاً وكثيراً، بل يوفيه حقه بالقسطاس المستقيم، وفي هذا أعظم الترغيب لفاعلي البر والإحسان، وحفز لهممهم على العمل، وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧﴾.

وفي «الفتوحات» قوله[1]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة؛ لأنه تعالى لما أمر بعبادة الله وبالإحسان للوالدين ومن ذكر معهم، ثم أعقب ذلك بذم البخل والأوصاف المذكورة معه، ثم وبخ من لم يؤمن ولم ينفق في طاعة الله، وكان هذا كله توطئة لذكر الجزاء على الحسنات والسيئات.. أخبر تعالى بصفة عدله، وأنه تعالى لا يظلم أدنى شيء، ثم أخبر بصفة الإحسان فقال: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: لما وصف الله سبحانه وتعالى الوقوف بين يديه يوم العرض، والأهوال التي تؤدي إلى تمني الكافر العدم، فيقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾، والتي تجعله لا يستطيع أن يكتم الله حديثاً، وذكر أنه لا ينجو في ذلك اليوم إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان بالله والطاعة لرسوله.. وصف في هذه الآية الوقوف بين يديه في مقام الأنس وحضرة القدس المنجي من هول الوقوف في ذلك اليوم، وطلب فيه استكمال القوى العقلية وتوجيهها إلى جانب العلي الأعلى بأن لا تكون مشغولة بذكرى غيره، طاهرة من الأنجاس والأخباث؛ لتكون على أتم العدة للوقوف في ذلك الموقف الرهيب، مستشعرة تلك العظمة والجلال والكبرياء.

---

(١) الجمل.

أسباب النزول

قوله تعالى[1]: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كان علماء بني إسرائيل يبخلون بما عندهم من العلم، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير من طرق ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال: كان كردم بن زيد حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحري بن عمرو وحيي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت، يأتون رجالاً من الأنصار، يخالطونهم وينصحون لهم، فيقولون: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون، فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ إلى قوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم عن علي قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني فقرأت: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾.

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم وابن المنذر عن علي قال: نزلت هذه الآية ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ في المسافر تصيبه الجنابة فيتيمم ويصلي.

وأخرج بن مردويه عن الأسلع بن شريك قال: كنت أرحّل ناقة رسول الله ﷺ، فأصابتني جنابة في ليلة باردة، فخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) لباب النقول. (٢) لباب النقول.

﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ...﴾ الآية كلها.

وأخرج الطبراني عن الأسلع قال: «كنت أخدم النبي ﷺ، وأرحل له، فقال لي ذات يوم: يا أسلع قم فأرحل، فقلت: يا رسول الله أصابتني جنابة، فسكت رسول الله ﷺ، وأتاه جبريل بآية الصعيد، فقال رسول الله ﷺ: قم يا أسلع فتيمم، فأراني التيمم ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين، فقمت فتيممت ثم رحلت له».

وأخرج ابن جرير عن يزيد بن أبي حبيب: أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فيريدون الماء ولا يجدون ممراً إلا في المسجد، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ...﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار كان مريضاً، فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ ولم يكن له خادم يناوله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي قال[1]: نال أصحاب النبي ﷺ جراحة، ففشت فيهم، ثم ابتلوا بالجنابة، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ...﴾ الآية كلها.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى أيها الناس، بقلوبكم وجوارحكم: أي؛ أطيعوه فيما أمر به ونهى عنه، ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ شركاً جلياً ولا خفياً ﴿بِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿شَيْـًٔا﴾ من الأشياء، سواء أكان جماداً كالصنم، أو حيواناً حياً أو ميتاً، فقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ أمر بالطاعة، وقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ﴾ أمر بالإخلاص في العبادة فالثاني تأسيس لا تأكيد كما قيل.

فعبادة الله[2]: هي الخضوع له، وتمكين هيبته وعظمته من النفس، والخشوع لسلطانه في السر والجهر، وأمارة ذلك: العمل بما به أمر، وترك ما

---

(١) لباب النقول. (٢) المراغي.

عنه نهى، وبذا تصلح جميع الأعمال من أقوال وأفعال، فالعبادة هي الخضوع لسلطة غيبية وراء الأسباب المعروفة، يرجى خيرها، ويخشى شرها، وهذه السلطة لا تكون لغير الله تعالى، فلا يرجى غيره ولا يخشى سواه، فمن اعتقد أن غيره يشركه فيها.. كان مشركاً، وإذا نهى الله عن إشراك غيره معه.. فلأن ينهى عن إنكار وجوده وجحد ألوهيته أولى.

وقيل[(١)]: العبودية أربعة أنواع: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود.

والإشراك بالله ضروب مختلفة[(٢)]:

منها: ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن مشركي العرب من عبادة الأصنام، باتخاذهم أولياء وشفعاء عند الله، يقربون المتوسل بهم إليه، ويقضون الحاجات عنده، وقد جاء ذكر هذا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ومنها: ما ذكره عن النصارى من أنهم عبدوا المسيح عليه السلام، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

والخلاصة: وأخلصوا لله في العبادة، ولا تجعلوا له في الربوبية والعبادة شريكاً؛ لأن من عبد مع الله غيره، أو أراد بعمله غير الله.. فقد أشرك به، ولا يكون مخلصاً.

وعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار يقال له: عفير، أو اسمه يعفور، فقال: «يا معاذ، هل تدري ما حق الله

---

(١) النسفي.
(٢) المراغي.

على عباده، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال: لا تبشرهم؛ فيتكلوا» متفق عليه. إنما قال: لا تبشرهم فيتكلوا؛ لأنه ﷺ رأى ذلك أصلح لهم، وأحرى أن لا يتكلوا على هذه البشارة، ويتركوا العمل الذي ترفع لهم به الدرجات في الجنة، وبعد أن أمر الله بعبادته وحده لا شريك له، أعقبه بالوصية بالوالدين، فقال: ﴿و﴾ أحسنوا ﴿بالوالدين إحساناً﴾ وبراً وعطفاً بالقيام بخدمتهما، وبالسعي في تحصيل مطالبهما، والإنفاق عليهما بقدر الطاقة، وبعدم رفع الصوت عليهما، وعدم تخشين الكلام معهما، وعدم شهر السلاح عليهما، وعدم قتلهما، ولو كانا كافرين؛ لأنه ﷺ نهى حنظلة عن قتل أبيه أبي عامر الراهب وكان مشركاً.

وعن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ من اليمن استأذنه في الجهاد، فقال ﷺ: «هل لك أحد باليمن؟» فقال أبواي فقال: «أبواك أذنا لك؟» فقال: لا، فقال: «فارجع فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك». متفق عليه. وفي رواية قال: «أمك ثم أمك ثم أباك، ثم أدناك فأدناك»، قوله: «ثم أباك» فيه حذف تقديره: ثم بر أباك.

وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما، ثم لم يدخل الجنة».

وإنما قرن الله سبحانه وتعالى بر الوالدين بعبادته وتوحيده.. لتأكد حقهما على الولد.

والمعنى: أحسنوا بهما، ولا تقصروا في شيء مما يطلبانه؛ لأنهما السبب الظاهر في وجودكم وتربيتكم بالرحمة والإخلاص، وقد فصلت هذه الوصية في سورة الإسراء بقوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

والخلاصة: أنَّ العبرة بما في نفس الولد، من قصد البر والإحسان والإخلاص فيه، بشرط أن لا يحد الوالدان من حرية الولد واستقلاله في شؤونه الشخصية أو المنزلية، ولا في الأعمال الخاصة بدينه ووطنه، فإذا أراد أحدهما الاستبداد في شيء من ذلك.. فليس من البر العمل برأيهما اتباعاً لهواهما.

﴿و﴾ أحسنوا وصلوا ﴿بِذِي القُرْبَى﴾؛ أي: أحسنوا إلى صاحب القرابة لكم، وهو ذو رحمه من قبل أبيه وأمه، كأخ وعم وخال وغيرهم، وكرر الباء إشارة إلى تأكد حق الرحم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره.. فليصل رحمه». متفق عليه. قوله: ينسأ له في أثره يعني: يؤخر له في أجله وعمره، والمعنى: وأحسنوا معاملة أقرب الناس إليكم بعد الوالدين، وإذا أدى المرء حقوق الله، فصحت عقيدته، وصلحت أعماله، وقام بحقوق الوالدين.. صلح البيت، وحسن حال الأسرة، وإذا صلح البيت.. كان قوة كبيرة، فإذا عاون أهله ذوي القربى الذين ينسبون إليهم.. كان لكل منهم قوة أخرى تتعاون مع هذه الأسرة وبذا تتعاون الأمة جمعاء، وتمد يد المعونة لمن هو في حاجة إليها، ممن ذكروا بعد في قوله: ﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿اليتامى﴾ بالرفق بهم، وبمسح رأسهم، وبتربيتهم وحفظ أموالهم.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً». أخرجه البخاري.

وإنما أمر بالإحسان إليهم؛ لأن اليتيم قد فقد الناصر المعين وهو الأب مع صغره، وقلما تستطيع الأم مهما اتسعت معارفها أن تقوم بتربيته تربية كاملة، فعلى القادرين أن يعاونوا في تربيته، وإلا كان وجوده جناية وثقلاً على الأمة؛ لجهله وفساد أخلاقه، وكان خطراً على من يعاشرهم من لداته، وجرثومة فساد بينهم، ومعلوم أن اليتامى جمع يتيم، وهو صغير لا أب له، وإن كان له جد وأم كما سبق في البقرة.

﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿المساكين﴾ بالصدقة، أو بالرد الجميل، وهو جمع مسكين، وهو من التصقت يده بالتراب، فيشمل الفقير، وإنما أمر بالإحسان إليهم؛ لأنه لا ينتظم حال المجتمع إلا بالعناية بهم، وصلاح حالهم، وإلا كانوا وبالاً عليه.

والمساكين ضربان: مسكين معذور تجب مواساته، وهو من كان سبب عدمه الضعف والعجز، أو نزول آفة سماوية ذهبت بماله، ومثل هذا يجب عونه بمساعدته بالمال الذي يسد عوزه، ويستعين به على الكسب. ومسكين غير معذور في تقصيره، وهو من عدم المال بإسرافه وتبذيره، ومثل هذا يبذل له النصح ويدل على طرق الكسب، فإن اتعظ وقبل النصح فبها، وإلا ترك أمره إلى أولي الأمر، فهم أولى بتقويم إعوجاجه، وإصلاح ما فسد من أخلاقه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله»، وأحسبه قال: «وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر». متفق عليه.

﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿الجار ذي القربى﴾؛ أي: إلى الجار الذي قرب منكم جواره وداره، أو إلى الجار الذي له مع الجوار اتصال بكم في النسب، أوله[1] اتصال بكم في الدين، فقد روي عنه ﷺ: «الجيران ثلاثة: فجار له ثلاثة حقوق: حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام، وجار له حقان: حق الجوار وحق

(١) الجمل.

الإسلام، وجار له حق واحد: حق الجوار فقط، وهو المشرك من أهل الكتاب». رواه البزار وغيره.

وقرىء بالنصب[1] على الاختصاص تعظيماً لحقه؛ لأن له ثلاثة حقوق: حق القرابة وحق الجوار وحق الإسلام، كما قرىء ﴿والصَّلاةَ الْوُسْطَىٰ﴾ نصباً على الاختصاص.

﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿الجار الجَنْب﴾؛ أي: المجانب عنكم، أي البعيد داره عن داركم، أو الذي لا قرابة له منكم، فله حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وقرأ الأعمش والمفضل ﴿والجار الجنب﴾ بفتح الجيم وسكون النون؛ أي: ذي الجنب، وهو الناحية، وأنشد الأخفش: الناس جنب والأمر جنب. ذكره الشوكاني.

والجوار[2]: ضرب من ضروب القرابة، فهو قرب بالمكان والسكن، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسيب، فيحسن أن يتعاون الجاران، ويكون بينهما الرحمة والإحسان، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر.. فلا خير فيهما لسائر الناس.

وحدد الحسن البصري الجوار بأربعين داراً، من كل جانب من الجوانب الأربعة، والأولى عدم التحديد بالدور، وجعل الجار من تجاوره ويتراءى وجهك ووجهه في غدوك أو رواحك.

وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام، وزاده الإسلام تأكيداً بما جاء في الكتاب والسنة، ومن إكرامه إرسال الهدايا إليه ودعوته إلى الطعام، وتعاهده بالزيارة والعيادة، إلى نحو ذلك.

وقد حث الدين على الإحسان في معاملة الجار ولو غير مسلم، وعن ابن

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.

عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورِّثه». متفق عليه. وعن عائشة مثله.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما باباً منك». رواه البخاري.

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك». أخرجه مسلم. وفي رواية قال: أوصاني خليلي ﷺ قال: «إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، ثم انظر إلى أهل بيت جيرانك فأصبهم منها بمعروف».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه». متفق عليه.

ولمسلم: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»، البوائق: الغوائل والشرور.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا نساء المؤمنات، لا تُحقِّرَنَّ جارة لجارتها، ولو فرسن شاة». متفق عليه. معناه: ولو أن تهدي إليها فرسن شاة: وهو الظلف وأراد به الشيء الحقير.

وعنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فليقل خيراً أو ليصمت». متفق عليه.

﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿الصاحب بالجنب﴾، روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه الرفيق في السفر، والمنقطع إليك يرجو نفعك ورفدك، فهو إما رفيق في سفر، أو جار ملاصق، أو شريك في تعلم أو حرفة، أو قاعد بجنبك في مسجد أو مجلس، وقيل: هي المرأة، فإنها تكون معك وتضطجع إلى جنبك، وقيل: هو كل من صاحبته وعرفته، ولو وقتاً قصيراً، فيشمل صاحب الحاجة

الذي يمشي بجانبك، يستشيرك أو يستعين بك.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره». أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿ابن السبيل﴾؛ أي: إلى المسافر المنقطع عن بلده بالسفر، السائح الرحالة في غرض صحيح غير محرم.

والأمر بالإحسان إليه يتضمن الترغيب في السياحة والإعانة عليها، ويشمل اللقيط أيضاً، وهو أجدر بالعناية من اليتيم، وأحق بالإحسان إليه، وقد عني الأوروبيون بجمع اللقطاء وتربيتهم وتعليمهم، ولولا ذلك لاستطار شرهم، وعم ضرهم، وقد كنا أحق بهذا الإحسان منهم؛ لأن الله قد جعل في أموالنا حقاً معلوماً للسائل والمحروم.

وقال الأكثرون: المراد بابن السبيل الضيف يمر بك فتكرمه، وتحسن إليه؛ أي: وأحسنوا إلى الضيف بإكرامه، وله ثلاثة أيام حق، وما فوق ذلك صدقة.

وعن أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فليكرم ضيفه جائزته»، قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه». وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فليقل خيراً أو ليصمت». متفق عليه، زاد في رواية: «ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه»، قالوا: يا رسول الله وكيف يؤثمه؟ قال: «يقيم عنده ولا شيء له يقريه به»، قوله: «جائزته يومه وليلته» الجائزة: العطية؛ أي: يقري الضيف ثلاثة أيام، ثم يعطيه ما يجوز به من منهل إلى منهل، وقيل: هو أن يكرم الضيف، فإذا سافر.. أعطاه ما يكفيه يوماً وليلة، حتى يصل إلى موضع آخر، وقوله: أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه؛ أي: يوقعه في الإثم؛ لأنه إذا أقام عنده ولم يُقْرِهِ أثم بذلك.

﴿وَ﴾ أحسنوا إلى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وأيديكم من عبيدكم وإمائكم، ويشمل هذا تحريرهم وعتقهم، وهو أتم الإحسان وأكمله، ومساعدتهم على شراء أنفسهم دفعة واحدة، أو نجوماً وأقساطاً، وحسن معاملتهم في الخدمة، بأن لا يكلفوا ما لا يطيقون، ولا يؤذون بقول ولا بفعل.

وقيل: الآية[1] عامة فتشمل جميع الحيوانات من عبيد وإماء وغيرهم، فالحيوانات غير الأرقاء أكثر في يد الإنسان من الأرقاء، فغلب جانب الكثرة، فعبر عنه بـ﴿ما﴾، وأمر الله بالإحسان إلى كل مملوك آدمي وغيره. وقد روى الشيخان قوله ﷺ: «هم إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده.. فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، وإن كلفتموهم.. فأعينوهم عليه».

وقد أكد[2] النبي ﷺ الوصية بهم في مرض موته، وكان ذلك من آخر وصاياه، فقد روى أحمد والبيهقي من حديث أنس قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: «الصلاة: وما ملكت أيمانكم»، وقد أوصانا الله سبحانه وتعالى بهؤلاء، حتى لا يظن أن استرقاقهم يجيز امتهانهم، ويجعلهم كالحيوانات المسخرة، ثم ذكر ماهو علة للأمر السابق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾؛ أي: لا تفتخروا على هؤلاء المذكورين لأن الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُحِبُّ﴾؛ أي: يعاقب ﴿مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ في مشيته متكبراً عن أقاربه الفقراء وجيرانه الضعفاء وأصحابه لا يحسن عشرتهم، ﴿فَخُورًا﴾ بلسانه على الناس بما أعطاه الله تعالى من العلم والمال وغيرهما، فالمختال[3]: المتكبر الذي تظهر آثار الكبر في حركاته وأعماله، والفخور المتكبر: الذي تظهر آثار الكبر في أقواله، فتجده يذكر ما يرى أنه ممتاز به عن الناس زهواً بنفسه، واحتقاراً لغيره، والمختال الفخور مبغوض عند الله تعالى؛ لأنه احتقر جميع الحقوق التي

---

(١) الجمل.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

أوجبها الله للناس، وأوجبها لنفسه، من الشعور بعظمته وكبريائه، فهو كالجاحد لصفات الألوهية التي لا تليق إلا له.

فالمختال لا يقوم بعبادة ربه حق القيام؛ لأن العبادة لا تكون إلا عن خشوع للقلب، ومن خشع قلبه.. خشعت جوارحه، ولا يقوم بحقوق الوالدين ولا ذوي القربى لأنه لا يشعر بحق لغيره عليه، وبالأولى لا يشعر بحق لليتيم أو المسكين أو لجار قريب أو بعيد، فهو لا يرجى منه بر ولا إحسان، وإنما يتوقع منه إساءة وكفران.

ومن الكبر والخيلاء إطالة الثوب، وجر الذيل بطراً ومرحاً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾، وليس من الكبر والخيلاء أن يكون المرء وقوراً في غير غلظة، عزيز النفس مع الأدب والرقة.

روى أبو داود والترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، فقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمص الناس» بطر الحق: رده استخفافاً وترفعاً، وغمص الناس: احتقارهم والازدراء بهم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره خيلاء». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً». متفق عليه.

وعنه رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجِّل جمته، يختال في مشيته؛ إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة». متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل ممن

كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء.. خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة». أخرجه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الفخر والخيلاء في الفدادين من أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم». متفق عليه. الفدادون: هم الفلاحون والحراثون، وأصحاب الإبل والبقر، المتكثرون منها، المتكبرون على الناس بهما.

ثم بين الله سبحانه وتعالى المختال الفخور فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ والأظهر أن الموصول منصوب على الذم، أو مرفوع على الذم، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله كان مختالاً، وأن يكون مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أحقاء بكل ملامة، أو كافرون، والأوضح من هذه الأوجه كلها أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: هؤلاء المختالون الفخورون هم الذين يبخلون ويمنعون الناس ما منحوا به من المال والعلم، ويأمرون الناس غيرهم بالبخل، والامتناع من أداء ما يجب عليهم أداؤه من المال والعلم، ويحثونهم عليه.

روى ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس: كان جماعة من اليهود يأتون إلى الأنصار يتنصحون لهم، فيقولون: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ كما مر في أسباب النزول.

والمراد بالبخل في الآية[1]: البخل بالإحسان، الذي أمر به فيما تقدم، فيشمل البخل بلين الكلام، وإلقاء السلام، والنصح في التعليم، وإنقاذ المشرف على التهلكة.

وفي البخل أربع لغات: فتح الباء والخاء، وبها قرأ حمزة والكسائي،

---

(١) المراغي.

وبضمهما وبها قرأ الحسن وعيسى بن عمر، وبفتح الباء مع سكون الخاء وبها قرأ قتادة وابن الزبير، وبضم الباء وسكون الخاء وبها قرأ جمهور الناس.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يخفون ما أعطاهم الله سبحانه وتعالى، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانه من العلم والمال وسعة الحال، فيشمل اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ، وما عندهم من العلم، والأغنياء الذين كتموا الغنى، وأظهروا الفقر وبخلوا بالمال، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وضع[1] الظاهر موضع المضمر، إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله سبحانه وتعالى، ومن كان كافراً لنعمة الله فله عذاب يهينه، كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء.

أي وهيَّأنا[2] لهؤلاء بكبرهم وبخلهم وعدم شكرهم عذاباً يهينهم ويذلهم، فهو عذاب جامع بين الألم والذلة جزاءاً لهم على ما اقترفوا، وسماهم الله كفاراً للإيذان بأن هذه أخلاق وأعمال لا تصدر إلا من الكفور، لا من المؤمن الشكور. وفي الحديث الذي رواه أحمد أنه ﷺ قال: «إذا أنعم الله على عبده نعمة.. أحب أن يظهر أثرها عليه».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ معطوف على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، ووجه ذلك[3]: أن الأولين قد فرّطوا بالبخل، وبأمر الناس به، وبكتم ما آتاهم الله من فضله، وهؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم في غير مواضعها؛ لمجرد الرياء والسمعة، كما يفعله من يريد أن يتسامع الناس بأنه كريم، ويتطاول على غيره بذلك، ويشمخ بأنفه عليه، مع ما ضم إلى هذا الإنفاق الذي يعود عليه بالضرر من عدم الإيمان بالله ولا باليوم الآخر.

أي: وهم الذين يصرفون أموالهم في غير مصارفها، ليراهم الناس ويمدحوهم، ويقولوا فيهم: ما أسخاهم وما أجودهم، ولا يريدون بما أنفقوا وجه الله تعالى، ولا يصدقون بوحدانية الله تعالى، ولا بمجيء المعاد الذي فيه جزاء الأعمال.

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه». أخرجه مسلم.

الرئاء والرياء والمراءاة سواء، والحاصل: أن مانعي الإحسان من أهل الفخر والخيلاء فريقان: فريق يبخلون ويكتمون فضل الله عليهم، وفريق يبذل المال لا شكراً لله على نعمه، ولا اعترافاً لعباده بحق، بل ينفقونها مرائين الناس؛ أي: يقصدون أن يروهم فيعظموا قدرهم، ويحمدوا فعلهم.

والكبرياء كما تكون من شيء في نفس الشخص، تكون أيضاً بما يكون له من المال والنسب، والمرائي أقل شراً من البخيل؛ إذ هو يحمل الناس على قبول فخره واختياله في مقابلة ما يبذله لهم من مال، فكأنه رأى لهم عليه حقاً عوضاً من التعظيم والثناء الذي يطلبه بريائه، وأما البخيل: فقد بلغ من احتقاره للناس أنه لا يرى لهم عليه شيئاً من الحقوق فهو يكلفهم تعظيمه وأمواله مدخرة في الصناديق.

والمرائي بخيل في الحقيقة؛ إذ هو إنما يبذل المال لمن لا حق لهم عنده، ويبخل على أرباب الحقوق كالزوجة والولد والخادم والأقربين كالوالدين، ولا يتحرى في إنفاقه النفع العام ولا الخاص، وإنما يتحرى مواطن التعظيم والمدح، وإن كان الإنفاق ضاراً، كالمساعدة على فسق أو فتنة.. فهو تاجر يشتري تعظيم الناس له، وتسخيرهم للقيام بخدمته.

ومعنى قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ أي: إن المؤمنين المرائين في إنفاقهم يثقون بما عند الناس، من المدح والثناء والتعظيم والإطراء، ولا يثقون بما أعد الله لعباده من الثواب والجزاء، ويفضلون التقرب إليهم على التقرب إليه، فالله في نظرهم أهون من الناس، فمثل هؤلاء لا يعدون مؤمنين إيماناً حقيقياً بالله، ولا باليوم الآخر، بل إيمانهم ضرب من التخيل، ليس له ما يؤيده من أثر في القلب، ولا إذعان للنفس فهم لا يعرفون الله، وإنما يسمعون

الناس يقولون قولاً فيقلدونهم فيما يحفظونه منهم، فهم لا يعرفون أنه موجد الكائنات النافذ علمه وقدرته فيما في الأرض والسموات، ولو كانوا مؤمنين باليوم الآخر، وأن هناك حياة أبدية. . لما فضلوا عليها عرض هذه الحياة القصيرة.

ومن أمارات التفرقة بين المخلص والمرائي:

أن الأول قلما يتذكر عمله أو يذكره إلا لمصلحة كترغيب بعض الناس في البذل، كأن يقول: إني على ما بي من فقر قد أعطيت كذا درهماً في مصلحة كذا، فاللائق بمثلك أن يبذل كذا وكذا درهماً.

أما الثاني: فهو يلتمس الفرص والمناسبات للفخر والتبجح بما أعطى وما فعل، كما لا يبذل المال ولا يعمل العمل الصالح إلا بقصد الرياء والسمعة، إذ ليس له وراء حظوظ الدنيا أمل ولا مطلب.

فهؤلاء حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾؛ أي: ومن يكن الشيطان معيناً له في هذه الأفعال في الدنيا. . فساء قريناً؛ أي: فبئس الصاحب له في النار هو، فإن الله تعالى يقرن مع كل كافر شيطاناً في سلسلة في النار؛ أي: إن هؤلاء المتكبرين ما حملهم على ما فعلوا إلا وسوسة الشيطان، وهو بئس الصاحب والخليل، والمقصد من هذا أن حالهم في الشر كحال الشيطان. وفي الآية إيماء إلى تأثير قرناء المرء في سيرته، وأن الواجب اختيار القرين الصالح على قرين السوء، وتعريض بتنفير الأنصار من معاشرة اليهود الذين كانوا ينهونهم عن الإنفاق في سبيل الله، وبيان أنهم شياطين يعِدون الفقر، وينهون عن العرف.

أما القرين الصالح: فهو عون على الخير، مرغب فيه، منفر بسيرته ونصحه عن الشر، مبعد عنه، مذكر بالتقصير، مبصر بالعيوب، وكم أصلح القرين الصالح فاسداً، وكم أفسد قرين السوء صالحاً، وفي «الفتوحات»: لما ذكر الأوصاف المتقدمة من البخل، والأمر به، والكتمان والإنفاق رئاء الناس، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر. . ذكر سببها الذي تنشأ عنه وهو مقارنة الشيطان، ومخالطته وملازمته للمتصفين بالأوصاف المتقدمة، كما يؤخذ من «النهر» لأبي حيان.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: وما الذي يصيبهم من الضرر ﴿لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ ورسوله ﴿و﴾ بمجيء ﴿اليوم الآخر﴾ إيماناً صحيحاً يظهر أثره في العمل، ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ في الخيرات ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى ابتغاء وجه الله، وطلباً لمرضاته، وإنما[1] قدم الإيمان هنا وأخره في الآية الأخرى؛ لأن القصد بذكره إلى التحضيض ههنا والتعليل ثمة. وفي هذا الأسلوب إثارة تعجيب الناس من حالهم؛ إذ هم لو أخلصوا.. لما فاتهم منفعة الدنيا، ولفازوا مع ذلك بسعادة العقبى، فكثيراً ما يفوت المرائي ما يرمي إليه من التقرب إلى الناس، وامتلاك قلوبهم، ويظفر بذلك المخلص الذي لم يكن من همه أن أحداً يعرف ما عمل.

فجهله جدير بأن يتعجب منه؛ لأنه جهل بالله، وجهل بأحوال الناس، ولو آمن وأخلص ووثق بوعد الله ووعيده.. لكان في هذا سعادته، فالإيمان سلوى من كل فائت، وفقده عرضة لليأس من كل خير، وأما المؤمن فأقل ما يؤتاه في المصائب الصبر، الذي يخفف وقعها على النفس، وأكثره رحمة الله، التي بها تتحول النقمة إلى نعمة، بما يستفيد من الاختبار والتمحيص وكمال العبرة والتهذيب.

وقد يبتلي الله المؤمن ويمتحن صبره، فيعطيه إيمانه من الرجاء به ما تخالط حلاوته مرارة المصيبة حتى تغلبها، وقد يأنس بها أحياناً؛ لعظم رجائه وصبره، وهذا وإن كان نادراً فهو واقع حاصل، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِهِمْ﴾ وبأحوالهم المخفية ﴿عَلِيمًا﴾ يعني: لا يخفى عليه شيء من أعمال هؤلاء الذين ينفقون أموالهم لأجل الرياء والسمعة، فلا يثيبهم بما ينفقونه رئاء الناس، فينبغي للمؤمن أن يكتفي بعلم الله في إنفاقه، ولا يبالي بعلم الناس، فهو الذي لا ينسى عمل العاملين، ولا يظلمهم من أجرهم شيئاً.

وفي هذه الآيات الكريمة الهداية الكافية في معاملة الناس لربهم ولبعضهم بعضاً، ولكن المسلمين قصروا في اتباع هذه الأوامر، وأعرضوا عن مساعدة ذوي

(١) الخازن.

القربى والجيران واليتامى والمساكين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَظْلِمُ﴾ أحداً ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: وزن نملة حمراء صغيرة، أي: لا يظلم قليلاً ولا كثيراً، ونظم هذا الكلام مع الذي قبله: وماذا عليهم لو آمنوا وأنفقوا، فإن الله لا يظلم ولا يبخس ولا ينقص أحداً من ثواب عمله مثقال ذرة، وقال ابن عباس: الذرة رأس نملة حمراء، وقيل: الذرة كل جزء من أجزاء الهباء، الذي يكون في الكوة إذا كان فيها ضوء الشمس لا وزن لها، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأقل الأشياء، فخرج الكلام على أصغر شيء يعرفه الناس، وفي ذكره إيماء إلى أنه وإن صغر قدره عظم جزاءه.

والخلاصة: أن الظلم لا يقع من الله تعالى؛ لأنه من النقص الذي يتنزه عنه، وهو ذو الكمال المطلق والفضل العظيم، وقد شرع لهم من أحكام الدين وآدابه ما لا تستقل عقولهم بالوصول إلى مثله في هدايتهم وحفظ مصالحهم، وهي تسوق إلى الخير وتصرف عن الشر، وأيدها بالوعد والوعيد، فمن وقع بعد ذلك فيما يضره ويؤذيه.. كان هو الظالم لنفسه؛ لأن الله تعالى لا يظلم أحداً.

﴿وَإِن تَكُ﴾؛ أي: وإن يكن مثقال الذرة ﴿حَسَنَةً﴾ وأنث[1] الضمير لتأنيث الخبر، أو لإضافة المثقال إلى مؤنث، وحذف النون من غير قياس تخفيفاً وتشبيهاً بحروف العلة، وقرأ نافع وابن كثير ﴿حسنةٌ﴾ بالرفع على أن كان تامة بمعنى وإن حصلت حسنة، والباقون بالنصب. والمعنى: وإن تكن زنة الذرة حسنة، ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾؛ أي: يضاعف جزاء تلك الحسنة عشرة أمثالها، أو أضعافاً كثيرة إلى سبع مائة، كما جاء في آية أخرى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿يضعِّفْها﴾ بالتشديد من غير ألف، فكلاهما بمعنى واحد.

وقيل هذا عند الحساب فمن بقي له من الحسنات مثقال ذرة.. ضاعفها الله

---

(١) البيضاوي.

له إلى سبع مئة، وإلى أجر عظيم. قال قتادة: لأن تفضل حسناتي على سيئاتي بمثقال ذرة أحب إليَّ من الدنيا وما فيها. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر: فيعطى بحسنات قد عمل بها في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها». رواه مسلم.

﴿وَيُؤْتِ﴾؛ أي: يعط الله صاحب الحسنة ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾؛ أي: من عنده تعالى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثواباً جزيلاً فلا يقدر أحد قدره وهو الجنة.

أي: إنه تعالى لواسع فضله، لا يكتفي بجزاء المحسنين على إحسانهم فحسب، بل يزيدهم من فضله، ويعطيهم من لدنه عطاءً كبيراً، وسمي هذا العطاء أجراً ولا مقابل له من الأعمال؛ لأنه لما كان تابعاً للأجر على العلم سمي باسمه لمجاورته له، وفي ذلك إيماء إلى أنه لا يكون لغيرالمحسنين، إذ هو علاوة على أجور أعمالهم، فلا مطمع للمسيئين فيه، والفاء في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ فاء الفصيحة، والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع، أي: إذا كان الله لا يضيع من عمل العالمين مثقال ذرة.. فكيف يكون حال هؤلاء الكفار والمنافقين يوم القيامة، إذا جمعناهم والخلائق، وجئنا من كل أمة بشهيد يشهد عليهم؛ أي: نبي يشهد على فساد عقائدهم وقبح أعمالهم، فما من أمة إلا لها بشير ونذير، وهذه الشهادة عبارة عن عرض أعمال الأمم على أنبيائهم، لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين، ومقابلة عقائدهم وأعمالهم بعقائد الأنبياء وأعمالهم وأخلاقهم، فمن شهد لهم نبيهم بأنهم على ما جاء به وما أمر الناس بالعمل به.. فهم ناجون، ومن تبرأ منهم أنبياؤهم لمخالفة أعمالهم وعقائدهم لما جاؤوا به.. فأولئك هم الخاسرون، وإن ادعوا اتباعهم والانتماء إليهم.

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾؛ أي: وجئنا بك يا محمد حالة كونك

---

(١) الخازن.

شاهداً على هؤلاء الذين سمعوا القرآن، وخوطبوا به بما علموا؛ أي: شاهداً على من آمن بالإيمان، وعلى من كفر بالكفر، وعلى من نافق بالنفاق، والرسول ﷺ بسيرته وأخلاقه العالية وسنته المرضية يكون حجة على من تركها، وتساهل في اتباعها، وعلى من تغالى فيها، وابتدع البدع المحدثة من بعده، أو المعنى: وجئنا بك شاهداً على صدق هؤلاء الأنبياء الذين شهدوا على أممهم لعلمك بعقائدهم، واستجماع شرعك مجامع قواعدهم، وقيل: وجئنا بك مزكياً معدلاً لأمتك؛ لأن أمته ﷺ يشهدون للأنبياء على قومهم إذ جحدوا البلاغ.

وروى الشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إقرأ عليَّ القرآن» فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل! قال: «نعم أحب أن أسمعه من غيري»، قال: فقرأت عليه سورة النساء حتى إذاجئت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ قال: «حسبك الآن»، قال: فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. زاد مسلم: (شهيداً ما دمت فيهم)، أو قال: (ما كنت فيهم)، شك أحد رواته.

فانظر أيها الأخ الكريم كيف اعتبر بهذه الشهادة الشهيد الأعظم ﷺ، فبكى لتذكر هذا اليوم، وهل نعتبر كما اعتبر؟ وهل نستعد لهول ذلك اليوم باتباع سنته، ونجتهد في اجتناب البدع والتقاليد التي لم تكن في عهده، وبذا نكون أمة وسطاً لا تفريط عندها في الدين، ولا إفراط لا في الشؤون الجسمية، ولا في الشؤون الروحية، أو نظل في غوايتنا تقليداً للآباء، فنكون كما قال الكافرون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ جئنا من كل أمة بشهيد، ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: يتمنى الذين كفروا بالله ورسوله ﴿وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: خالفوا رسوله محمداً ﷺ، فيما أمر به ونهى عنه، ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: يتمنون لو دفنوا في الأرض، ويهال عليهم التراب، ويسوى عليهم كما يسوى على الموتى، أو يودون أنهم لم يبعثوا، وأنهم كانوا هم والأرض سواء، أو لم يخلقوا، وقال

الكلبي[1]: يقول الله تعالى للبهائم والوحوش والطيور والسباع: كوني تراباً، فتسوى بهن الأرض، فعند ذلك يتمنى الكافر لو يكون تراباً لعظم هول ذلك اليوم، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾؛ أي: لا يقدرون أن يكتموا ويخفوا عن الله سبحانه وتعالى حديثاً عن عقائدهم وأعمالهم؛ لأن جوارحهم تشهد عليهم.

أي: إنهم[2] يريدون الكتمان، أولاً لما علموا أن الله لا يغفر شركاً، فيقولون: ربنا والله ربنا ما كنا مشركين، رجاء غفران الله لهم، لكنهم تشهد عليهم الأعضاء والزمان والمكان، فلم يستطيعوا الكتمان، فهنالك يودون أنهم كانوا تراباً ولم يكتموا الله حديثاً.

قرأ نافع وابن عامر[3]: ﴿تَسَّوَّى﴾ بفتح التاء وتشديد السين، وقرأ حمزة والكسائي: بفتح التاء وتخفيف السين، وقرأ الباقون: بضم التاء وتخفيف السين، والمعنى على القراءة الأولى والثانية: أن الأرض هي التي تسوى بهم؛ أي: أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأض، فساخوا فيها، وقيل: الباء في قوله: ﴿بهم﴾ بمعنى على؛ أي: تسوى عليهم الأرض، وعلى القراءة الثالثة الفعل مبني للمفعول؛ أي: لو سوى الله بهم الأرض، فيجعلهم والأرض سواء، حتى لا يبعثوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: لا تقيموا الصلاة ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾؛ أي: حال كونكم نشاوى من شرب الشراب ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾؛ أي: إلى أن تعلموا قبل الشروع فيها ما تقولونه، بأن تفيقوا من السكر، ﴿وَلَا﴾ تقيموها حال كونكم ﴿جُنُبًا﴾؛ أي: متصفين بالجنابة ﴿إِلَّا﴾ حال كونكم ﴿عَابِرِي سَبِيلٍ﴾؛ أي: مسافرين، وقيل إلا اسم بمعنى (غير) صفة لـ﴿جنباً﴾، أي؛ ولا تقيموها حال كونكم جنباً غير مسافرين، ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ من الجنابة ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ مرضاً يمنع من استعمال الماء، ﴿أَوْ عَلَىٰ

(١) الخازن.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

سَفَرٍ﴾، أي: متلبسين بسفر طويل أو قصير، ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾؛ أي؛ جاء أحدكم موضع قضاء الحاجة، فأحدث بخروج شيء من أحد السبيلين، والمراد به جميع أسباب الحدث الأصغر وأصل الغائط المكان المطمئن من الأرض، وقرأ ابن مسعود من ﴿الغيط﴾، وخرج على وجهين:

أحدهما: أنه مصدر، إذ قالوا: غاط يغيط غيطاً.

والثاني: أن أصله فيعل ثم حذف كـ: مَيْتٍ، قاله أبو حيان.

﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ أي: أو ماسستم بشرتهن ببشرتكم، وبه استدل الشافعي - رحمه الله تعالى - على أن اللمس ينقض الوضوء، وقيل أو جامعتموهن، وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي المائدة ﴿لمستم﴾ واستعماله كناية عن الجماع أقل من الملامسة، ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً﴾ يجب استعماله تتطهرون به للصلاة بعد الطلب، ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا﴾؛ أي؛ فاقصدوا تراباً ﴿طَيِّبًا﴾؛ أي: طاهراً بعد دخول الوقت، فاضربوا به ضربتين، ﴿فَٱمۡسَحُواْ﴾ منه ﴿بِوُجُوهِكُمۡ﴾ بالضربة الأولى، ﴿وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ بالضربة الثانية، وحذف الممسوح به هنا وأظهره في آية المائدة، في قوله: ﴿منه﴾ فحمل عليه ما هنا، وقد أشرنا له بقولنا منه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ كالتعليل للترخيص المستفاد مما قبله؛ أي: كان كثير العفو والمحو لذنوب عباده عن صحف الملائكة، غفوراً: أي: كثير الغفر والستر لها عن أعين الملائكة، فلا يؤاخذهم بها، فلذلك يسَّر عليكم الأمر ورخص لكم في التيمم. وقال الشوكاني قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾؛ أي؛ عفا عنكم وغفر لكم تقصيركم، ورحمكم بالترخيص لكم والتوسعة عليكم انتهى.

واعلم أن الخطاب في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ موجه إلى المسلمين قبل السكر، بأن يجتنبوه إذا ظنوا أنهم سيصلون، ليحتاطوا فيجتنبوه في أكثر الأوقات، وقد كان هذا تمهيداً لتحريم السكر تحريماً باتاً لا هوادة فيه، إذ من يتقي أن يجيء عليه وقت الصلاة وهو سكران، يترك الشرب عامة النهار وأول الليل، لتفرق الصلوات الخمس في هذه المدة، فلم يبق للسكر إلاوقت النوم من

بعد العشاء إلى السحر، فيقل الشراب لمزاحمة النوم له، وأول النهار من صلاة الفجر إلى وقت الظهيرة وقت الكسب والعمل لأكثر الناس، ويقل أن يسكر فيه إلا أصحاب البطالة والكسل.

وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء، فلا يصبحون إلا وقد زال السكر، وصاروا يعلمون ما يقولون، وعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ ولم يقل ولا تقربوا الصلاة سكارى، مع أنه أخصر من الأول؛ لأن بين الأسلوبين فرقاً، الأول يتضمن النهي عن السكر الذي يخشى أن يمتد إلى وقت الصلاة، فيفضي إلى أدائها في أثنائه.

وخلاصة المعنى عليه: إحذروا أن يكون السكر وصفاً لكم عند حضور الصلاة، فتصلوا وأنتم سكارى، فامتثال هذا النهي إنما يكون بترك السكر في وقت الصلاة، وفيما يقرب منها، والثاني يتضمن النهي عن الصلاة حال السكر فحسب.

وأما نهيهم عن الصلاة جنُباً: فلا يتضمن نهيهم عن الجنابة قبل الصلاة؛ لأنها من سنن الفطرة، وإنما ينهاهم عن الصلاة في أثنائها حتى يغتسلوا؛ ولهذا قال جنباً، ولم يقل وأنتم جنب.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾؛ أي: ولا تقربوا الصلاة جنباً في أي حال، إلا حال كونكم عابري سبيل؛ أي: مجتازين الطريق. وقد روي أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، وكان يصيبهم الجنابة ولا يجدون ممراً إلا فيه، فرخص لهم في ذلك، ولم يأمر النبي ﷺ بسد تلك الأبواب والكوى إلا في آخر عمره الشريف، ولم يستثن إلا خوخة أبي بكر رضي الله عنه، الخوخة: الكوة والباب الصغير.

﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾؛ أي لا تقربوا الصلاة جنباً إلى أن تغتسلوا، إلا فيما رخص لكم فيه من حالة السفر.

وحكمة الاغتسال من الجنابة[1]: أن الجنابة تحدث تهيجاً في الأعصاب، فيتأثر البدن كله، ويحدث فتور وضعف فيه، يزيله الاغتسال بالماء، ومن ثم ورد: «إنما الماء من الماء» رواه مسلم.

والخلاصة: أن الدين طلب الصلاة حال العلم والفهم وتدبر القرآن والذكر، وذلك يتوقف على الصحو وترك السكر، كما طلب أن يكون الجسم نظيفاً نشيطاً، وذلك لا يكون إلا بإزالة الجنابة.

ولما كانت الصلاة فريضة موقوتة لا هوادة فيها؛ لأنها تذكر المرء وتعده للتقوى، وكان الاغتسال من الجنابة يتعسر في بعض الحالات، ويتعذر في بعضها الآخر.. رخص سبحانه وتعالى لنا في ترك استعمال الماء، والاستعاضة عنه بالتيمم، فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ المراد بالمرض: المرض الذي يخاف زيادته باستعمال الماء، كبعض الأمراض الجلدية، والقروح كالحصبة والجدري ونحو ذلك. والسفر يشمل الطويل والقصير، والمراد بالمجيء من الغائط الحدث الأصغر، بخروج شيء من أحد السبيلين القبل والدبر، أو بغيره من سائر أسباب الحدث الأصغر، وملامسة النساء التقاء البشرتين، أو غشيانهن على الخلاف المذكور فيه كما مر.

ففي هذه الحالات كلها ـ المرض، السفر، فقد الماء، عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء، والحدث الأكبر الموجب للغسل ـ اقصدوا وتحروا صعيداً طيباً؛ أي: تراباً طاهراً من الأرض لا قذارة فيه ولا أوساخ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ثم صلوا.

والخلاصة: أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة كحكم المحدث حدثاً أصغر، أو ملامس النساء ولم يجد الماء، فعلى كل هؤلاء التيمم فقط.

---

(١) المراغي.

روي أن هذه الآية نزلت في بعض أسفار النبي ﷺ، وقد انقطع عقد لعائشة فأقام النبي ﷺ يلتمسه، والناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فلما نزلت وصلوا بالتيمم.. جاء أسيد بن الحضير إلى مضرب عائشة، فجعل يقول ما أكثر بركتكم يا آل أبي بكر، وفي رواية يرحمك الله يا عائشة ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله للمسلمين فيه فرجاً.

ثم ذكر[1] منشأ السهولة واليسر، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ العفو التيسير والسهولة، ومنه قوله تعالى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، وقوله ﷺ: «قد عفوت عن صدقة الخيل والرقيق»؛ أي: أسقطتها تيسيراً عليكم، ومن عفوه وتيسيره وتسهيله أن أسقط في حال المرض والسفر وجوب الوضوء والغسل.

وفي ذلك إيماء إلى أن ما كان من الخطأ في صلاة السكارى، كقولهم: «قل يا أيها الكافرون أعبد ماتعبدون ونحن نعبد ما تعبدون» مغفور لهم، لا يؤاخذون عليه.

واعلم: أن التيمم من خصائص هذه الأمة، خصها الله تعالى به ليسهل عليهم أسباب العبادة، ويدل على ذلك ما روي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً، إذا لم نجد الماء» أخرجه مسلم.

فصول في أحكام تتعلق بالآية

الفصل الأول منها

إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى شيء من بدن المرأة، ولا حائل بينهما.. انتقض وضوئهما، وهو قول ابن مسعود، وابن عمر، وبه قال الزهري، والأوزاعي، والشافعي؛ لما روى الشافعي بسنده عن ابن عمر أنه قال: قُبلة

(١) المراغي.

الرجل امرأته وجَسُّهَا بيده من الملامسة، فمن قبَّل امرأته، أو جسها بيده فعليه الوضوء. أخرجه مالك في «الموطأ»، قال الشافعي: وبلغنا عن ابن مسعود مثله.

وقال مالك والليث بن سعد وأحمد وإسحاق: إذا كان اللمس بشهوة.. انتقض الوضوء، وإن لم يكن بشهوة.. فلا، ويدل عليه ما روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رسول الله ﷺ قبل امرأة من نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ، قال عروة: ومن هي إلا أنت فضحكت. أخرجه أبو داود.

وأجيب عن هذا الحديث بأنه ليس بثابت، قال الترمذي: إنه لا يصح إسناده بحال، وسمعت محمد بن إسماعيل يضعف هذا الحديث، وقال: حبيب بن ثابت لم يسمع من عروة، وضعف يحيى بن سعيد القطان هذا الحديث، وقال: هو شبه لا شيء، وفيه ضعف من وجه آخر، وهو أن عروة هذا ليس بعروة بن الزبير ابن أخت عائشة، إنما هو شيخ مجهول، قال البيهقي: يعرف بعروة المزني.

وإنما المحفوظ عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقبل وهو صائم، كذا رواه الثقات عن عائشة.

وقال أبو حنيفة: لا ينتقض الوضوء باللمس إلا أن يحدث الانتشار، وقال قوم: لا ينتقض بحال، وهو قول ابن عباس، وبه قال الحسن والثوري.

واحتج من لم يوجب الوضوء باللمس بما روى عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: (كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ، ورجلاي في قِبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي، فإذا قام بسطتهما، والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح). أخرجاه في «الصحيحين».

وأجاب من أوجب الوضوء باللمس عن هذا الحديث بأنه يحتمل أن يكون غمزه لها بحائل.

الفصل الثاني

اختلف قول الشافعي في لمس المحرم، كالأم والبنت والأخت أو أجنبية

صغيرة، فأصح القولين عنه: أنه لا ينتقض الوضوء به، والثاني: أنه ينتقض الوضوء به، ومأخذ القولين عند أصحاب الشافعي التردد بين التعلق بعموم الآية في قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، أو النظر إلى المعنى في النقض باللمس، وهو تحرك الشهوة، فإن أخذنا بعموم الآية.. فينتقض الوضوء بلمس المحارم، وإن أخذنا بالمعنى.. فلا ينتقض، وفي الملموس قولان، والملموس هو الذي لا فعل منه في المباشرة رجلاً كان أو امرأة، واللامس هو الفاعل للمس، وإن لم يقصد المباشرة.

فأحد القولين: أنه ينتقض وضوء اللامس والملموس لعموم الآية؛ لأنه لمس وقع بين الرجل والمرأة فينتقض وضوؤهما معاً.

والقول الثاني: أنه ينتقض وضوء اللامس دون الملموس؛ لما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فألتمسته فوضعت يدي على أخمص قدميه وهو ساجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». أخرجه مسلم.

فلو انتقض وضوؤه ﷺ لقطع الصلاة، ولو لمس شعر امرأة أو سنها أو ظفرها، فلا وضوء عليه.

الفصل الثالث في الحدث

وهو الخارج من السبيلين، عيناً كان كالبول والغائط، أو أثراً كالريح ونحوها، فإذا حصل شيء من ذلك.. فلا تصح صلاته، ما لم يتوضأ أو يتيمم عند عدم الماء؛ لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»، فقال رجل من أهل حضرموت: ما الحدثُ يا أبا هريرة؟ قال: فساء أو ضراط. أخرجاه في «الصحيحين».

أما خروج النجاسة من غير السبيلين، كالفصد والحجامة والرعاف والقيء

ونحوها: فذهب قوم إلى أنه لا وضوء من خروج هذه الأشياء، يروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس، وبه قال عطاء وطاووس، والحسن وابن المسيب، وإليه ذهب مالك والشافعي؛ لما روي عن أنس قال: احتجم رسول الله ﷺ، فصلى ولم يتوضأ، ولم يزد على غسل محاجمه. أخرجه الدارقطني.

وذهب قوم إلى إيجاب الوضوء من ذلك، منهم سفيان الثوري، وابن المبارك، وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق، واتفق هؤلاء على أن خروج القليل منه لا ينقض، ويدل على انتقاض الوضوء بخروج هذه الأشياء ما روي عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء: أن النبي ﷺ قاء فتوضأ، قال معدان: فلقيت ثوبان في مسجد دمشق، فذكرت له ذلك، فقال: صدق، أنا صببت له وضوءه، أخرجه الترمذي، وقال: هو أصح شيء في هذا الباب.

الفصل الرابع

من نواقض الوضوء: زوال العقل بجنون أو إغماء أو نوم؛ لما روي عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «العين وكاء السه، فمن نام.. فليتوضأ». أخرجه أبو داود وابن ماجه.

ويستثنى من ذلك النوم اليسير قاعداً مفضياً بمحل الحدث إلى الأرض، ويدل على ذلك ما روي عن أنس قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرون العشاء الأخيرة، حتى تخفق رؤوسهم، ثم يصلون ولا يتوضؤون. أخرجه أبو داود.

وذهب قوم إلى أن النوم لا ينقض الوضوء بكل حال، وهو قول أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما، وبه قال الحسن وإسحاق والمزني. وذهب قوم إلى أنه لو نام قائماً أو قاعداً أو ساجداً وهو في الصلاة.. فلا وضوء عليه حتى يضطجع، وبه قال سفيان الثوري، وابن المبارك، وأصحاب الرأي، لما روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ليس على من نام ساجداً وضوء، حتى يضطجع، فإنه إذا اضطجع استرخت مفاصله». أخرجه أحمد ابن حنبل وضعف بعضهم هذا الحديث.

الفصل الخامس

من نواقض الوضوء مس الفرج من نفسه أو غيره، فذهب قوم إلى أنه يوجب الوضوء، وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ وبه قال سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق، غير أن الشافعي قال: ينتقض الوضوء إذا لمس ببطن الكف، والرجل والمرأة في ذلك سواء، ويدل على ذلك ما روي عن بسرة بنت صفوان، أن رسول الله ﷺ قال: «من مس ذكره.. فلا يصلِّ حتى يتوضأ»، أخرجه الترمذي، وقال حديث صحيح ولأبي داود والنسائي نحوه.

وعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مس فرجه فليتوضأ». أخرجه ابن ماجه وصححه أحمد وأبو زرعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أفضى بيده إلى ذكره، وليس دونه ستر.. فقد وجب عليه الوضوء» أخرجه أحمد ابن حنبل.

وذهب قوم إلى أن مس الذكر لا يوجب الوضوء، وهو قول علي وابن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة، وبه قال الحسن: وإليه ذهب الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي، واحتجوا بما روي عن طلق بن علي قال: قدمنا على رسول الله ﷺ، فجاءه رجل كأنه بدوي، فقال: يا نبي الله، ما ترى في مس الرجل ذكره بعد ما توضأ؟ قال: «هل هو إلا مضغة منه؟» أو قال: «بضعة منه». أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي نحوه بمعناه.

وأجاب من أوجب الوضوء على من مس الذكر عن حديث طلق بن علي، بأن قدومه على رسول الله ﷺ كان في أول الهجرة، وهو يبني المسجد، وأبو هريرة رضي الله عنه من آخرهم إسلاماً وقد روى بانتقاض الوضوء بمس الذكر، فصار حديث أبي هريرة رضي الله عنه ناسخاً لحديث طلق بن علي، وأيضاً فإن حديث طلق يرويه عنه ابنه قيس بن طلق، وهو ليس بالقوي عند أهل الحديث.

الفصل السادس: في التيمم وأركانه

التيمم لغة: القصد، ومنه قول بعضهم:

تَيَمَّمْتُكُم لَمَّا فَقَدْتُ أُولِيْ ٱلنُّهَىٰ   وَمَنْ فَقَدَ ٱلْمَاءَ تَيَمَّمَ بِٱلتُّرْبِ

وشرعاً: إيصال التراب إلى الوجه واليدين بشرائط مخصوصة، وأركانه خمسة:

الأول: تراب طاهر خالص له غبار يعلق بالوجه واليدين، ويجوز بالرمل إذا كان عليه غبار.

الثاني: قصد الصعيد، فلو تعرض لمهب الريح.. لم يكفه، ولو يممه غيره بإذنه مع عجزه جاز، وإن كان قادراً فوجهان.

الثالث: نقل التراب إلى الوجه واليدين.

الرابع: نية استباحة الصلاة، فلو نوى رفع الحدث.. لم يصح، وأكمله أن ينوي استباحة الفرض والنفل.

الخامس: مسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين والترتيب.

ولا يصح التيمم لصلاة إلا بعد دخول وقتها، ولا يجوز الجمع بين صلاتي فرض بتيمم واحد، وهو قول علي وابن عباس وابن عمر، وبه قال الشعبي والنخعي وقتادة، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، وذهب جماعة إلى أن التيمم كالوضوء فيجوز تقديمه على الوقت، ويجوز أن يصلي به ما شاء من النوافل قبل الفرض وبعده إلى أن يدخل وقت الصلاة الأخرى، وأن يقرأ القرآن إن كان جنباً ويشترط طلب الماء في السفر؛ بأن يطلبه في رحله وعند رفقته، وإن كان في صحراء ولا حائل دون نظره.. نظر حواليه، وإن كان دون نظره حائل قريب من تل أو جدار أو نحوه.. عدل عنه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾، ولا يقال لم يجد إلا لمن طلب، ولا يشترط الطلب عند أبي حنيفة، فإن رأى الماء ولا يقدر عليه؛ لمانع من عدو، أو سبع يمنعه من الذهاب إليه، أو كان الماء في بئر وليس معه آلة الاستقاء.. فهو كالعادم، فيتيمم ويصلي ولا إعادة عليه. والله أعلم.

الإعراب

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة مسوقة[1] لبيان الأحكام المتعلقة بحقوق الوالدين والأقارب ونحوهم، إثر بيان الأحكام المتعلقة بحقوق الأزواج، وصدر بما يتعلق بحقوق الله عز وجل التي هي آكد الحقوق، وأعظمها تنبيهاً، على عظم شأن حقوق الوالدين بنظمهما في سلكها، كما في سائر المواقع. ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُشْرِكُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَاعْبُدُوا﴾. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُشْرِكُوا﴾، ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به منصوب؛ أي: لا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنماً أو غيره أو منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: لا تشركوا به شيئاً من الإشراك جلياً أو خفياً.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿بالوالدين﴾: جار ومجرور متعلق بفعل محذوف معطوف على جملة قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾، تقديره: وأحسنوا بالوالدين. ﴿إِحْسَانًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بذلك المحذوف. ﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه معطوف على قوله ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾. ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾: معطوفان على ﴿ذِي الْقُرْبَى﴾. ﴿وَالْجَارِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الجار﴾: معطوف على ﴿ذِي الْقُرْبَى﴾، صفة لـ﴿جار﴾، ومضاف إليه. ﴿وَالْجَارِ﴾: معطوف على ﴿ذِي الْقُرْبَى﴾. ﴿الْجُنُبِ﴾: صفة لجار؛ لأنه مشتق، لأنه اسم فاعل. ﴿وَالصَّاحِبِ﴾: معطوف على ﴿ذي القربى﴾. ﴿بِالْجَنْبِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿الصاحب﴾، تقديره حالة كونه ملتبساً بالجنب؛ أي: بالقرب بجنبه. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: معطوف على ﴿ذِي الْقُرْبَى﴾ ومضاف إليه.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر معطوفة على ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: وما ملكته أيمانكم. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المعللة لمحذوف تقديره: لا تفتخروا على هؤلاء المذكورين لأن الله لا يحب ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على من الموصولة. ﴿مُخْتَالًا﴾: خبر أول لـ﴿كَانَ﴾، ﴿فَخُورًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، والعائد الضمير المستتر في ﴿كَانَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم، عائد على ﴿مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾، وجمعه اعتباراً لمعناه، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره في محل النصب بدل من ﴿مَن﴾ الموصولة، في قوله: ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾. ﴿يَبْخَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يَبْخَلُونَ﴾. ﴿بِٱلْبُخْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَأْمُرُونَ﴾. ﴿وَيَكْتُمُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَبْخَلُونَ﴾. ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾: ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَكْتُمُونَ﴾، ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: ما آتاهم الله إياه؛ لأن آتى بمعنى أعطى، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿مَآ﴾ الموصولة، أو من الضمير المحذوف. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة

مستأنفة. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْتَدْنَا﴾. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿مُّهِينًا﴾: صفة له.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾؛ أي: وهم الذين ينفقون، ويجوز[1] أن يكون عطفاً على ﴿الكافرين﴾، بناء على إجراء التغاير الوصفي مجرى التغاير الذاتي. ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾. ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: مفعول لأجله ومضاف إليه، أو حال من فاعل ﴿يُنفِقُونَ﴾، بتأويله بمشتق تقديره: ينفقون حالة كونهم مرائين الناس، فـ﴿رِئَآءَ﴾: مصدر مضاف إلى المفعول. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾: صفة لـ﴿اليوم﴾.

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل ناقص واسمه مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونه فعل الشرط له. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿قَرِينًا﴾ وهو خبر ﴿يَكُنْ﴾. ﴿فَسَآءَ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط وجوباً؛ لكون الجواب جملة جامدية. ﴿سَآءَ﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ لشبهه بالمثل، تقديره: هو يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. ﴿قَرِينًا﴾: تمييز له، والجملة في محل الجزم جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية: مستأنفة، والمخصوص بالذم محذوف وجوباً تقديره: هو؛ أي: الشيطان أو القرين.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) كرخي.

﴿وَمَاذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبر. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، والجملة مستأنفة. ﴿لَوْ ءَامَنُوا﴾: ﴿لَوْ﴾ مصدرية. ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية، ﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، متعلق بما تعلق به ﴿عَلَيْهِمْ﴾، تقديره: وما الذي استقر عليهم في إيمانهم بالله واليوم الآخر، وفي المقام أوجه أخر من الإعراب فراجعها. ﴿وَأَنفَقُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنفِقُوا﴾. ﴿رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: إياه، وهو العائد على ﴿ما﴾ أو الرابط لها، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِمْ﴾: متعلق بقوله ﴿عَلِيمًا﴾، وهو خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿اللَّهَ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَظْلِمُ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إنْ﴾، وجملة ﴿إنْ﴾: مستأنفة. ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَإِن تَكُ﴾: الواو: استئنافية. ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، وعلامة جزمه سكون النون المحذوفة للتخفيف؛ لأن أصله: وإن تكون، فحذفت الضمة للجازم، والواو لالتقاء الساكنين، والنون للتخفيف، فالحذفان الأولان[1] واجبان، والثالث جائز، و﴿حَسَنَةٌ﴾: بالرفع فاعلها؛ لأنه من كان التامة؛ أي: وإن تحصل حسنة.. يضاعفها لصاحبها، من عشر إلى سبع مئة ضعف، وفي قراءة النصب ﴿حَسَنَةً﴾ خبر تكون، واسمها ضمير مستتر فيها جوازاً يعود على الذرة؛ أي: وإن تك الذرة حسنة.. يضاعفها، حتى يوافيها صاحبها يوم القيامة وهي كالجبل العظيم.

---

(١) الكواكب على المتممة.

﴿يُضَاعِفْهَا﴾: فعل ومفعول مجزوم على كونه جواب الشرط، والفاعل ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة، ﴿وَيُؤْتِ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُضَاعِفْهَا﴾، مجزوم بحذف حرف العلة، والفاعل ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، والمفعول الأول لآتى محذوف تقديره: ويؤت صاحبها، ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يؤتِ﴾. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان لآتى، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ﴿أَجْرًا﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

﴿فَكَيْفَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿كيف﴾: اسم للاستفهام التوبيخي والتقريعي، في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فكيف حالهم أو صنيعهم، والعامل[1] في إذا هو هذا المقدر، أو في محل النصب بفعل محذوف، تقديره: فكيف يكونون أو يصنعون، ويجري فيها الوجهان في نصبها: **إما** النصب على التشبيه بالحال، كما هو مذهب سيبويه، **أو** على التشبيه بالظرف، كما هو مذهب الأخفش، وذلك المحذوف هو العامل في إذا أيضاً، وجملة كيف مع العامل المحذوف مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿جِئْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾، والظرف متعلق بالعامل المحذوف في ﴿كيف﴾ كما مر آنفاً؛ أي: فكيف يكونون وقت مجيئنا. ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جِئْنَا﴾، أو حال[2] من ﴿شهيد﴾ على قول من أجاز تقديم حال المجرور عليه. ﴿بِشَهِيدٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جِئْنَا﴾، ﴿وَجِئْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جِئْنَا﴾ الأول. ﴿بِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جِئْنَا﴾. ﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَهِيدًا﴾، وهو حال من الكاف في ﴿بِكَ﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾.

---

(١) الجمل. (٢) العكبري.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية وهو مضاف. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل الجر مضاف إليه، مبني بسكون مقدر، منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين؛ لالتقائها ساكنة مع التنوين، والظرف متعلق بـ﴿يودُّ﴾. ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾. ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾: ﴿لَوْ﴾: مصدرية. ﴿تُسَوَّىٰ... ٱلْأَرْضُ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿بِهِمُ﴾: متعلق بـ﴿تُسَوَّىٰ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية، ﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يَوَدُّ﴾، تقديره: يودون تسوية الأرض بهم. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿حَدِيثًا﴾: مفعول ثان، والجملة إما معطوفة على جملة ﴿يَوَدُّ﴾ أو مستأنفة، والتقدير: وهم لا يكتمون الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: جملة ندائية مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء. ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة حال من فاعل ﴿تَقْرَبُواْ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَعْلَمُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى بمعنى إلى، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، تقديره: إلى علمكم ما تقولون، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَقْرَبُواْ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿تَعْلَمُواْ﴾، ﴿تَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تقولونه.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

﴿وَلَا جُنُبًا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿جُنُبًا﴾: حال من فاعل ﴿تَقْرَبُواْ﴾، فهو معطوف على جملة قوله ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فكأنه قيل: لا تقربوا

الصلاة سكارى ولا جنباً، وهو السر[1] في إعادة لا ليفيد النهي عن كل.
﴿إِلَّا﴾: اسم بمعنى غير صفة لـ﴿جُنُبًا﴾، ولكن نقل إعرابها إلى ما بعدها؛ لكونها على صورة الحرف. ﴿عَابِرِي﴾: صفة لـ﴿جُنُبًا﴾، منصوب بالياء وهو مضاف. ﴿سَبِيلٍ﴾: مضاف إليه، والتقدير: لا تقربوا الصلاة جنباً غير عابري سبيل؛ أي: غير مسافرين؛ أي: حالة كونكم جنباً مقيمين غير معذورين، وقيل: إنه منصوب على الحال، فهو استثناء مفرغ، والعامل فيها فعل النهي، والتقدير: لا تقربوا الصلاة في حال الجنابة إلا في حال السفر. ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن المضمرة، والمصدر المؤول من أن المقدرة وما بعدها مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، وهي متعلقة بـ﴿تَقْرَبُوا﴾، والتقدير: ولا تقربوا الصلاة جنباً إلى اغتسالكم إلا عابري سبيل. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف جزم. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾، ﴿مَّرْضَىٰ﴾: خبر كان. ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: جار ومجرور في محل النصب معطوف على خبر كان، والتقدير: وإن كنتم مرضى أو متلبسين بسفر.

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾.

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ معطوف على ﴿كُنتُمْ﴾. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَحَدٌ﴾. ﴿مِّنَ الْغَائِطِ﴾: متعلق بـ﴿جَاءَ﴾. ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم معطوف على ﴿كُنتُمْ﴾. ﴿فَلَمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَجِدُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾.، ﴿مَاءً﴾: مفعول به، ووجد هنا بمعنى وجدان الضالة، فيتعدى لواحد، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، معطوفة على قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾، على كونها فعل شرط لها.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

﴿فَتَيَمَّمُوا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب

(١) كرخي.

جملة طلبية. ﴿تَيَمَّمُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل. ﴿صَعِيدًا﴾: مفعول به. ﴿طَيِّبًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية: مستأنفة كما أشرنا إليه سابقاً. ﴿فَٱمۡسَحُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أمسحوا﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم معطوف على ﴿تَيَمَّمُواْ﴾، على كونها جواب الشرط. ﴿بِوُجُوهِكُمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿امسحوا﴾. ﴿وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾: معطوف على ﴿وجوهِكم﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَفُوًّا﴾: خبر أول لـ﴿كَانَ﴾، ﴿غَفُورًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها: في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المتعلقة بمعلول محذوف، تقديره: وإنما يسر عليكم، ورخص لكم في التيمم؛ لكونه عفواً غفوراً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: مؤنث الأقرب، كالفضلى مؤنث الأفضل، وهو من قرُب من باب فعل المضموم، ومعناه الجار القريب الجوار أو النسب، ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾: ﴿الجُنُبُ﴾: بضمتين صفة يستوي فيه المفرد والمثنى، والمجموع مذكراً كان أو مؤنثاً، ومعناه: والجار البعيد القرابة أو الجوار، ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾: ﴿الجَنْب﴾: بالفتح والسكون الناحية والجانب، ﴿مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ المختال: اسم فاعل من اختال يختال، إذا تكبر وأعجب بنفسه، وألفه منقلبة عن ياء؛ لأنه من خال يخيل، وفي «المصباح»: وسميت الخيل خيلاً لاختيالها، وهو إعجابها بنفسها مرحاً، ومنه يقال اختال الرجل وبه خيلاء، وهو الكبر والإعجاب انتهى.

﴿فَخُورًا﴾: صيغة مبالغة من الفخر، وهو عد مناقب الإنسان ومحاسنه، وفي «المصباح»: أيضاً فخرت به فخراً من باب نفع، وافتخر به مثله، والاسم الفخار، وهو المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب، وغير ذلك، إما في المتكلم أو في آبائه انتهى. فالمختال: ذو الخيلاء والكبر، يأنف من أقاربه

وجيرانه وأصحابه ومماليكه، أو لا يلتفت إليهم، والفخور الذي يعدد محاسنه من العلم والمال والجاه تعاظماً وتكبراً، ﴿مُّهِينًا﴾؛ أي: ذا الإهانة والذلة اسم فاعل من أهان الرباعي.

﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾: القرين: المصاحب الملازم، وهو فعيل بمعنى مفاعل، كالخليط والجليس، والقرين أيضاً الحبل؛ لأنه يقرن به بين البعيرين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: ظلم من باب ضرب، يتعدى لمفعول واحد، وذلك الواحد محذوف تقديره: لا يظلم أحداً، وينتصب مثقال على أنه نعت لمصدر محذوف؛ أي: ظلماً وزن ذرة، كما تقول: لا أظلم قليلاً ولا كثيراً، وقيل: ضمن معنى ما يتعدى لاثنين، فانتصب مثقال على أنه مفعول ثان، والأول محذوف كما قدرنا، والتقدير: لا ينقص أحداً مثقال ذرة من الخير أو الشر، كما ذكره أبو حيان، والمثقال، أصله المقدار الذي له ثقل مهما قل ثم أطلق على المعيار المخصوص للذهب وغيره، والذرة أصغر ما يدرك من الأجسام، ومن ثم قالوا: إنها النملة، أو رأسها أو الخردلة أو الهباء ما يظهر من نور الشمس الداخل من الكوة، ولذلك روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه أدخل يده في التراب، ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة.

﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾: السكارى ـ بفتح السين وضمها ـ جمع سكران، مؤنثه سكرى، ويقال في لغة بني أسد: سكرانة، وفعله سكر من باب طرب، والسكر لغة: السد، ومنه قيل لما يعرض للمرء من شرب المسكر؛ لأنه يسد ما بين المرء وعقله، وأكثر ما يقال السكر، لإزالة العقل بالمسكر، وقد يقال ذلك؛ لإزالته بالغضب، ونحوه من عشق وغيره، والسكر ـ بفتح السين وسكون الكاف ـ حبس الماء، وبالكسر نفس الموضع المسدود، وأما السكر ـ بفتحهما ـ فما يسكر به من المشروب، ومنه قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

﴿وَلَا جُنُبًا﴾: الجنب يطلق على المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، كما مر آنفاً؛ لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب، ويقال رجل جنب، ورجلان جنب، ورجال جنب، وامرأة جنب، وامرأتان جنب،

ونساء جنب، قاله الكرخي، ومثله أبو حيان، وهو المشهور في اللغة والفصيح، وبه جاء القرآن، وقد جمعوه جمع سلامة بالواو والنون، فقالوا: قوم جنبون، وجمع تسكير فقالوا: قوم أجناب، وأما تثنيته فقالوا: جنبان.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾: الغائط ـ بزنة فاعل ـ المنخفض من الأرض كالوادي، وأهل البادية والقرى الصغيرة يقصدونه عند قضاء الحاجة، للستر والاستخفاء عن الناس، ثم عبر به عن نفس الحدث، كناية للاستحياء عن ذكره، وفرقت العرب بين الفعلين منه، فقالت: غاط في الأرض إذا ذهب وأبعد، إلى مكان لا يراه إلا من وقف عليه، وتغوط إذا أحدث.

وقرأ ابن مسعود: ﴿من الغيط﴾ وفيه قولان:

أحدهما: وإليه ذهب ابن جني، أنه مخفف من فيعل، كهين وميت في هين وميت.

الثاني: أنه مصدر على وزن فعل يقال غاط يغيط غيطاً، وغاط يغوط غوطاً، وقال أبو البقاء: هو مصدر تغوط، فكان القياس غوطاً، فقلبت الواو ياء، وإن سكنت وانفتح ما قبلها لخفتها، كأنه لم يطلع على أن فيه لغة أخرى من ذوات الياء حتى ادعى ذلك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع(١):

منها: التجوز بإطلاق الشيء على ما يقاربه في المعنى، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾ أطلق الظلم على انتقاص الأجر، من حيث إن نقصه عن الموعود به قريب في المعنى من الظلم.

ومنها: التنبيه بما هو أدنى على ما هو أعلى في قوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾؛ إذ لم يبين فيه المضاعفة في الأجر.

ومنها: السؤال عن المعلوم لتوبيخ السامع أو تقريره لنفسه في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا﴾.

ومنها: العدول من بناء إلى بناء لمعنىً في قوله: ﴿بِشَهِيدٍ﴾، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿بِشَهِيدٍ﴾، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

ومنها: التجوز بإطلاق المحل على الحال فيه في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

ومنها: التقديم والتأخير في قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع مثل: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؛ أي: أحسنوا إلى الوالدين إحساناً، ذكره أبو حيان في «البحر المحيط».

ومنها: التعريض في قوله: ﴿مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ عرض بذلك إلى ذم الكبر المؤدي إلى احتقار الناس وإهانتهم.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾، ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حيث كرر الباء، بخلاف نظيره في سورة البقرة فإنه لم يكرر فيه الباء، وفائدة إعادتها ثانياً التأكيد؛ لأن[1] هذه الآية في حق هذه الأمة، فالاعتناء بها أكثر، وإعادة الباء تدل على زيادة التأكيد، فناسب ذلك هنا، بخلاف آية البقرة؛ فإنها في حق بني إسرائيل، والمراد بهذه الجملة الأمر بالإحسان، وإن كانت خبرية، كقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. اهـ «سمين».

ومنها: التغليب في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، حيث عبر بما دون

---

(١) الجمل.

﴿من﴾؛ لأنها لغير العاقل، نظراً لجانب الكثرة؛ لأن المملوك يشمل جميع الحيوانات من عبيد وإماء وغيرهم، فالحيوانات غير الأرقاء أكثر في يد الإنسان من الأرقاء، فغلب جانب الكثرة، وأمر الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى كل مملوك آدمي وغيره.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾؛ لأن مقتضى السياق أن يقال وأعتدنا لهم، فوضع الظاهر موضع المضمر، إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى، ومن كان كافراً بنعمته فله عذاب يهينه، كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء، فتلخص أن الكافرين هنا بمعنى الجاحدين.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ حيث كرر ﴿لا﴾، وكذلك الباء إشعاراً[1] بأن الإيمان بكل منهما منتف على حدته، فلو قلت: لا أضرب زيداً وعمراً.. احتمل نفي الضرب عن المجموع، ولا يلزم منه نفي الضرب عن كل واحد على انفراده، واحتمل نفيه عن كل واحد بانفراده، وإن قلت: ولا عمراً.. تعين هذا الثاني.

ومنها: تغليب الخطاب على الغيبة في قوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ لأن الضمير فيه عائد لكل من تقدم، من مريض ومسافر ومتغوط ولامس أو ملامس، وفيه تغليب للخطاب على الغيبة، وذلك أنه تقدم غيبة في قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾. وخطاب في: ﴿كُنتُم﴾ و﴿لمستم﴾، فغلب الخطاب في قوله ﴿كُنتُم﴾ وما بعده عليه، وما أحسن ما أتى به هنا بالغيبة لأنه كناية عما يستحيا منه، فلم يخاطبهم به، وهذا من محاسن الكلام، ومثله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الجمل.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ
(٤٤) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن
مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ
أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا
قَلِيلًا (٤٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ
وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا
(٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) ٱنظُرْ كَيْفَ
يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ
يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا (٥١)
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا
يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ
سَعِيرًا (٥٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا
لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا
(٥٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنه تعالى لما ذكر شيئاً من أحوال الآخرة، وأن الكفار إذ ذاك يودون لو تسوى بهم الأرض، ولا يكتمون الله تعالى حديثاً وجاءت هذه

(١) البحر المحيط.

الآية بعد ذلك كالاعتراض بين ذكر أحوال الكفار في الآخرة، وذكر أحوالهم في الدنيا، وما هم عليه من معاداة المؤمنين، وكيف يعاملون رسول الله ﷺ، الذي يأتي شهيداً عليهم وعلى غيرهم، ولما كان اليهود أشد إنكاراً للحق، وأبعد من قبول الخير، وكان قد تقدم أيضاً: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ. . .﴾، وهم أشد الناس تحليا بهذين الوصفين.. أخذ يذكرهم بخصوصيتهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: هو أنه تعالى لما رجاهم بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ . . .﴾ الآية. خاطب من يرجى إيمانه منهم بالأمر بالإيمان، وقرن بالوعيد البالغ على تركه؛ ليكون أدعى لهم إلى الإيمان والتصديق به، ثم أزال خوفهم من سوء الكبائر السابقة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ. . .﴾ الآية، وأعلمهم أن تزكيتهم أنفسهم بما لم يزكهم به الله تعالى لا ينفع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنه سبحانه وتعالى لما هدد اليهود على الكفر، وتوعدهم عليه بأشد الوعيد، كطمس الوجوه، والرد على الأدبار، ثم بين أن ذلك الوعيد واقع لا محالة بقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾.. ذكر هنا أن هذا الوعيد وشديد التهديد إنما هو لجريمة الكفر، فأما سائر الذنوب سواه فالله تعالى قد يغفرها، ويتجاوز عن زلاتها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[3] في الآية السالفة: أن ممن دعوا إلى التصديق بالأنبياء فريق نأى وأعرض عن اتباع الحق، ثم توعد من أعرض بسعير جهنم.. فَصَّل هنا الوعيد بذكر أحوال الفريقين، وما يلاقيه كل منهم من الجزاء يوم القيامة.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود، وإذا كلم رسول الله ﷺ.. لوى لسانه، وقال: أرعنا سمعك يا محمد حتى نفقهك، ثم طعن في الإسلام دعابة، فأنزل الله فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار اليهود، منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسيد، فقال لهم: «يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به الحق»، فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، فأنزل الله فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني، عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام، قال: «وما دينه؟»، قال: يصلي ويوحد الله، قال: «استوهب منه دينه، فإن أبى فابتعه منه»، فطلب الرجل ذلك منه فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: وجدته شحيحاً على دينه، فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم، ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ وأخرج ابن جرير نحوه عن عكرمة ومجاهد وأبي مالك وغيرهم.

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه أحمد وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة.. قالت قريش: ألا ترى إلى هذا الصنوبر - الرجل الفرد الضعيف الذليل بلا أهل وعقب وناصر - المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية، قال: أنتم خير منه، فنزلت فيهم: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾ وأنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾. وأخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة حيي بن أخطب وسلاَّم بن الحقيق، وأبا رافع، والربيع بن أبي الحقيق، وأبا عمارة، وهوذة بن قيس، وكان سائرهم من بني النضير، فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتب الأولى، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد، فسألوهم فقالوا: دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: قال أهل الكتاب: زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع وله تسع نسوة، وليس همه إلا النكاح، فأي ملك أفضل من هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ. . .﴾ الآية. وأخرج ابن سعد عن عمر مولى عمرة نحوه بأبسط منه.

التفسير وأوجه القراءة

بعد[١] أن ذكر الله سبحانه وتعالى في سابق الآيات كثيراً من الأحكام الشرعية، ووعد فاعلها بجزيل الثواب، وأوعد تاركها بشديد العقاب.. انتقل هنا إلى ذكر حال بعض الأمم، الذين تركوا أحكام دينهم، وحرفوا كتابهم، واشتروا الضلالة بالهدى، لينبه الذين خوطبوا بالأحكام المتقدمة إلى أن الله مهيمن عليهم، كما هيمن على من قبلهم فإذا هم قصروا.. أخذهم بالعقاب الذي رتبه على ترك

(١) المراغي.

أحكام دينه في الدنيا والآخرة، والمؤمنون بالله حقاً بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لا بد أن يأخذوا بهذه الأحكام على الوجه الموصل لهم إلى إصلاح الأنفس، وذلك هو الأثر المطلوب منها، ولن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها، لا بأخذها بصورها الظاهرة فحسب.

وقد اكتفى بعض الأمم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط، كبعض اليهود الذين يكتفون ببعض القرابين وأحكام الدين الظاهرة، وهذا لا يكفي في اتباع الدين، والقيام به على الوجه المصلح للنفوس كما أراده الله تعالى، فأرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى أن عمل الرسوم الظاهرة في الدين كالغسل والتيمم لا يغني عنهم شيئاً إذا لم يطهروا القلوب، حتى ينالوا مرضاته، ويكونوا أهلاً لكرامته، ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الأمم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كلام مستأنف[1]، مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء حالهم، والتحذير من موالاتهم، والخطاب فيه لكل من تتأتى منه الرؤية من المؤمنين، وتوجيهه إليه ﷺ هنا مع توجيهه فيما بعد إلى الكل للإيذان بكمال شهرة شناعة حالهم، وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها، والرؤية هنا بصرية؛ أي: ألم تنظر أيها المخاطب إلى حال هؤلاء الذين أعطوا حظاً يسيراً من علم التوراة، والمراد بهم أحبار اليهود حال كونهم ﴿يَشْتَرُونَ﴾؛ أي: يختارون لأنفسهم ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ - وهي البقاء على اليهودية - على الهدى بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة محمد ﷺ، وأنه هو النبي العربي المبشر به في «التوراة» و«الإنجيل»، أو يؤثرون تكذيب محمد ﷺ على تصديقه؛ ليأخذوا الرشا على ذلك، وتحصل لهم الرياسة كما قاله الزجاج، وإنما ذكر بلفظ الشراء لأنه استبدال شيء بشيء ﴿وَ﴾ حالة كونهم ﴿يُرِيدُونَ﴾، ويقصدون بما فعلوا من الكتمان، ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ أيها المؤمنون، وتخطئوا ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي: طريق الحق ودينه الذي لا طريق سواه، كما هم ظنوا، فتكونوا مثلهم، فهم

(١) الفتوحات.

دائبون على الكيد لكم، ليردوكم عن دينكم إن استطاعوا؛ أي: ويتوصلون إلى إضلال المؤمنين، والتلبيس عليهم لكي يخرجوا عن الإسلام؛ أي: لم يكفهم[1] أن ضلوا في أنفسهم، حتى تعلقت آمالهم بضلالكم أنتم أيها المؤمنون عن سبيل الحق؛ لأنهم علموا أنهم قد خرجوا من الحق إلى الباطل، فكرهوا أن يكون المؤمنون مختصين باتباع الحقِّ، فأرادوا أن تضلوا كما ضلوا هم، كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾، وقرأ النخعي: ﴿وتريدون﴾ بالمثناة الفوقية، قيل معناه: وتريدون أيها المؤمنون أن تضلوا السبيل؛ أي: تدعون الصواب في اجتنابهم، وتحسبونهم غير أعداء الله، وقرىء: ﴿أن يضلوا﴾ بالياء وفتح الضاد وكسرها.

والتعبير[2] بالشراء دون الاختيار للإيماء إلى أنهم كانوا فرحين بما عملوا، ظانين أن الخير كل الخير فيما صنعوا، والتعبير بالنصيب يدل على أنهم لم يحفظوا كتابهم كله، إذ هم لم يستظهروه زمن التنزيل كما حفظ «القرآن»، ولم يكتبوا منه نسخاً متعددة في العصر الأول كما فعلنا، حتى إذا ما فقد بعضها، قام مقامه بعض آخر، بل كان عند اليهود نسخةٌ من التوراة، هي التي كتبها موسى عليه السلام ففقدت، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

والخلاصة: أنهم لم يأخذوا الكتاب كله، بل تركوا كثيراً من أحكامه لم يعملوا بها، وزادوا عليها، والزيادة فيه كالنقص منه، فالتوراة تنهاهم عن الكذب وإيذاء الناس وأكل الربا، وكانوا يفعلون ذلك، وزاد لهم علماؤهم ورؤساؤهم كثيراً من الأحكام والرسوم الدينية، فتمسكوا بها، وهي ليست من التوراة، ولا مما يعرفونه عن موسى عليه السلام فالذي لم يعملوا به من التوراة قسمان:

أحدهما: ما أضاعوه ونسوه.

وثانيهما: ما حفظوا حكمه، وتركوا العمل به، وهو كثير أيضاً.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعۡلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾؛ أي: بمن هم أعداؤكم، فأنتم تظنون في المنافقين أنهم منكم، وما هم منكم، فهم يكيدون لكم في الخفاء، ويغشونكم في الجهر، فيبرزون لكم الخديعة في معرض النصيحة، ويظهرون لكم الولاء والرغبة والنصرة، والله أعلم بما في قلوبهم من العدواة والبغضاء، فهو تعالى يعلمكم ما هم عليه، ويخبركم به، وقد أخبركم بعداوتهم لكم، وما يريدون لكم؛ لتكونوا على حذر منهم، ومن مخالطتهم، أو هو أعلم بحالهم ومآل أمرهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وكفاكم الله سبحانه وتعالى عن غيره من جهة كونه ﴿وَلِيّٗا﴾ لكم؛ أي: متولياً لأموركم، ومتصرفاً فيها، ومن كان الله وليه فلا يضره أحد. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وكفاكم الله سبحانه وتعالى عن غيره من جهة كونه ﴿نَصِيرٗا﴾؛ أي: ناصراً لكم على أعدائكم، فهو تعالى ينصركم عليهم في كل موطن، فثقوا بولايته ونصرته.

أي: فهو[1] سبحانه وتعالى الذي يرشدكم إلى ما فيه خيركم وفلاحكم، وهو الذي ينصركم على أعدائكم، بتوفيقكم لصالح العمل، والهداية لأسباب النصر من الاجتماع والتعاون وسائر الوسائل، التي تؤدي إلى القوة، فلا تطلبوا الولاية من غيره، ولا النصرة من سواه، وعليكم باتباع السنن التي وضعها في هذه الحياة، ومنها: عدم الاستعانة بالأعداء، الذين لا يعملون إلا لمصالحهم الخاصة كاليهود وغيرهم.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بيان للمراد من الذين أوتوا الكتاب بأنهم يهود ونصارى، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾: وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ جملتان معترضتان بين البيان والمبين، ثم بين المراد من اشترائهم الضلالة بالهدى، فقال: من الذين هادوا ورجعوا عن عبادة العجل قوم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ المذكورة في التوراة ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾؛ أي: عن مواضع تلك الكلم؛ أي: يغيرون الكلم التي أنزل الله في التوراة عن مواضعها وهيأتها، التي ذكرها الله تعالى فيها، كتحريفهم في نعت

---

(١) المراغي.

النبي ﷺ أسمر ربعة، فوضعوا مكانه آدم طوال، وتحريفهم الرجم فوضعوا بدله الجلد. وقرىء: ﴿يحرفون الكِلْم﴾ بكسر الكاف وسكون اللام جمع كلمة تخفيف الكَلِمْ. وقرأ النخعي، وأبو رجاء: ﴿يحرفون الكلام﴾ وذكر الضمير في مواضعه مع عوده إلى الكلم، حملاً على معنى الكلم؛ لأنها جنس، قاله: العكبري.

فالتحريف يطلق على معنيين[1]:

أحدهما: تأويل القول بحمله على غير معناه الذي وضع له، كما يؤولون البشارات التي وردت في النبي ﷺ، ويؤولون ما ورد في المسيح، ويحملونه على شخص آخر، ولا يزالون ينتظرونه إلى اليوم.

وثانيهما: أخذ كلمة أو طائفة من الكلم من موضع من الكتاب ووضعها في موضع آخر، وقد حصل هذا في كتب اليهود، خلطوا ما يؤثر عن موسى بما كتب بعده بزمن طويل، وكذلك ما وقع في كلام غيره من أنبيائهم، واعترف بهذا بعض العلماء من أهل الكتاب، وقد كانوا يقصدون بهذا التحريف الإصلاح في زعمهم، وسبب هذا النوع من التحريف أنه وجدت عندهم قراطيس متفرقة من التوراة، بعد فقد النسخة التي كتبها موسى عليه السلام وأرادوا أن يؤلفوا بينها، فجاء فيها ذلك الخلط بالزيادة والتكرار، كما أثبت ذلك بعض الباحثين من المسلمين.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول هؤلاء اليهود للنبي ﷺ: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: خالفنا غيرك، وذلك أنهم كانوا إذا أمرهم النبي ﷺ بأمر.. قالوا في الظاهر: سمعنا قولك، وعصينا غيرك، وأما في الباطن: سمعنا قولك وخالفنا أمرك، وقيل إنهم كانوا يظهرون هذا القول عناداً واستخفافاً، وقد روي عن مجاهد أنهم قالوا للنبي ﷺ: سمعنا قولك ولكن لا نطيعك، وكذلك كانوا يقولون له: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾؛ أي: ويقولون في أثناء مخاطبة النبي ﷺ خاصة كلاماً ذا وجهين، محتملاً للخير والمدح وللشر والذم، فأما معناه في المدح فإنهم يقولون: واسمع منا كلامنا حالة كونك غير مسمع منا مكروهاً لا يوافقك،

---

(١) المراغي.

وأما معناه في الذم: فإنهم يقولون: واسمع منا كلامنا حالة كونك غير مسمع كلاماً أصلاً لصمم أو موت، وهو دعاء منهم عليه بالموت، أو بذهاب سمعه، أو غير مسمع جواباً يوافقك فكأنك ما أسمعت شيئاً؛ أي: يخاطبون النبي ﷺ استهزاء به، مظهرين للنبي ﷺ إرادة المعنى الأول؛ أعني: الخير وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الأخير؛ أعني: الشر والدعاء عليه.

وكذلك كانوا يقولون للنبي ﷺ في أثناء خطابهم له: ﴿وَرَاعِنَا﴾ وهي كلمة ذات وجهين، محتملة للخير إذا حملت على معنى اصرف سمعك إلى كلامنا، وأنصت لحديثنا وتفهم، أخذاً من المراعاة بمعنى المحافظة، وللشر إذا حملت على السب بالرعونة والحمق، بمعنى اشملنا وأفدنا رعونتك وحمقك، أو حملت على أنهم يريدون أنك يا محمد ترعى أغناماً لنا، بمعنى كن راعياً أغنامنا.

﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يقولون ذلك في مخاطبتهم له ﷺ لياً وفتلاً وصرفاً بألسنتهم عن الحق، الذي هو أطعنا واسمع وانظرنا إلى الباطل، الذي هو عصينا، واسمع غير مسمع، وراعنا وطعناً في الدين؛ أي: يقولون ذلك طعناً في دين الإسلام، بقولهم لأصحابهم إنما نشتمه ولا يعرف، ولو كان نبياً لعرف ذلك، فأطلعه الله تعالى على خبيث ضمائرهم، وما في قلوبهم من العداوة والبغضاء؛ أي: يقولون ذلك لصرف الكلام عن نهجه، وللقدح في دين الإسلام بالاستهزاء والسخرية، أو المعنى: هم[1] يلوون ألسنتهم فيجعلونها في الظاهر راعنا، وبلَيِّ اللسان وإمالته ـ راعينا ـ قصداً منهم للسباب والشتم والسخرية، أو جعله راعياً من رعاة الغنم، أو من الرعونة، أو من تحريف اللسان وليّه في خطابهم النبي ﷺ وتحيته بقولهم: السام ـ الموت ـ عليكم، يوهمون بفتل اللسان وليه أنهم يقولون له: السلام عليكم، وقد ثبت هذا في صحيح الأحاديث، كما ثبت أن النبي ﷺ بعد أن علم منهم ذلك كان يجيبهم بقوله: وعليكم؛ أي: الموت على كل أحد منكم.

قال ابن عطية[2]: وهذا اللي باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتى

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

الآن في بني إسرائيل، ويحفظ في عصرنا أمثلة إلا أنه لا يليق ذكرها بهذا الكتاب انتهى. وهو يحكى عن يهود الأندلس، وقد شاهدناهم وشاهدنا يهود ديار مصر على هذه الطريقة، وكأنهم يربون أولادهم الصغار على ذلك، ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين، مما ظاهره التوقير ويريدون التحقير.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا﴾ باللسان أو بالحال عند سماع شيء من أوامر الله تعالى ونواهيه: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك، بدل قولهم سمعنا وعصينا، لعلمهم بصدقك، ولوجود الأدلة والبينات المتظاهرة على ذلك، وكذلك لو قالوا ﴿وَاسْمَعْ﴾ منا ما نقول ﴿وَانْظُرْنَا﴾؛ أي: انظر إلينا أو أمهلنا وانتظرنا بمعنى أفهمنا، ولا تعجل علينا حتى نفهم عنك ما تقول، بدل قولهم: واسمع غير مسمع وراعنا، ﴿لَكَانَ﴾ قولهم هذا ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ من ذلك السابق عند الله سبحانه وتعالى، ﴿وَأَقْوَمَ﴾؛ أي: أصوب وأعدل مما قالوه، لما فيه من الأدب والفائدة وحسن العاقبة، وقال أبو حيان: والحاصل أنهم لو تبدلوا بالعصيان الطاعة، ومن الطاعة الإيمان بك، واقتصروا على لفظ اسمع، وتبدلوا براعنا قولهم وانظرنا، فعدلوا عن الألفاظ الدالة على عدم الانقياد، والموهمة إلى ما أمروا به، لكان؛ أي: ذلك القول خيراً لهم عند الله تعالى وأقوم؛ أي: أعدل وأصوب، وقرأ أبي: ﴿وأَنْظِرْنَا﴾ من الإنظار وهو الإمهال، ﴿وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: خذلهم وطردهم وأبعدهم عن الرحمة والطاعة والهدى، ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: بسبب كفرهم بالله وبمحمد ﷺ بذلك القول وبغيره؛ إذ مضت سنة الله في البشر بأن الكفر يمنع صاحبه من التفكر والتروي والأدب في الخطاب، ويجعله بعيداً من الخير والرحمة، فلا يمتُّ - يصل - إليهما بسبب، ولا يصل إليهما برحم ولا نسب.

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: فهم[1] لا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً غير نافع لهم لا يعتد به، فهو لا يصلح عملاً، ولا يطهر نفساً، ولا يرقي عقلاً، ولو كان

(١) المراغي.

إيمانهم بنبيهم وكتابهم إيماناً كاملاً.. لهداهم إلى التصديق بمن جاء مصدقاً لما معهم من الكتاب، وبين لهم ما نسوا منه، وما حرفوا فيه، كما جاء بمكارم الأخلاق، والسنن الكاملة في الاجتماع والتشريع، ولو اتبعوه.. كانوا على الهدى والرشاد، وعلى الحق والسداد، وقيل[1]: المعنى لا يؤمنون إلا زماناً قليلاً وهو زمان الاحتضار، فلا ينفعهم الإيمان وقتئذ، وبعضهم جعل قليلاً مستثنى من الهاء في لعنهم؛ أي: إلا نفراً قليلاً، فلا يلعنهم الله لأنهم لم يفعلوا ذلك، بل كانوا مؤمنين كعبد الله بن سلام وأصحابه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: يا أيها اليهود والنصارى، الذين أعطوا «التوراة» و«الإنجيل» ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا﴾؛ أي: صدقوا واتبعوا «القرآن»، الذي نزلنا على عبدنا محمد ﷺ، حالة كون «القرآن» المنزل على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾؛ أي: موافقاً «للتوراة» و«الإنجيل» اللذين معكم، في الدعوة إلى التوحيد، والأمر بالابتعاد عن الشرك، وفي القصص والمواعيد، والأمر بالعدل بين الناس، والنهي عن المعاصي والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، وتلك هي أصول الدين وأركانه، والمقصد الأسمى من إرسال جميع الرسل، ولا خلاف بينهم في ذلك، وإنما الخلاف في التفاصيل، وطرق حمل الناس عليها، وهدايتهم بها، وترقيتهم في معارج الفلاح، بحسب السنن التي وضعها الله تعالى في ارتقاء البشر، بتعاقب الأجيال واختلاف الأزمان.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾؛ أي: من قبل أن نمحو تخطيط صورها، من عين وحاجب وأنف وفم، وقرأ الجمهور: ﴿نَّطْمِسَ﴾ بكسر الميم، وقرأ أبو رجاء: بضمها وهما لغتان، ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾؛ أي: فنجعلها على هيئة أقفائها؛ أي: آمنوا من قبل أن يحل بكم العقاب، من طمس الوجوه، والرد على الأدبار، أو من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم، التي توجهتم إليها من كيد الإسلام، ونردها خاسرة إلى الوراء، بإظهار الإسلام ونصره عليكم، وقد كان لهم

---

(١) المراح.

عند نزول الآية شيء من المكانة والقوة والعلم والمعرفة.

وجعل بعضهم الرد على الأدبار حسياً؛ فقال: نردهم على أدبارهم بالجلاء إلى فلسطين والشام، وهي بلادهم التي جاءوا منها.

وخلاصة المعنى: آمنوا قبل أن نعمي عليكم السبيل، بما نبصِّر المؤمنين شؤونكم، ونغريهم عليكم، فتردوا على أدباركم بأن يكون سعيكم إلى ما ليس بخير لكم.

وقوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ فيه التفات؛ لأن الضمير فيه عائد على أهل الكتاب، والمعنى: يا أهل الكتاب آمنوا من قبل أن نلعنكم ونخذلكم بالمسخ والطرد عن رحمة الله، ﴿كَمَا لَعَنَّآ﴾ وخذلنا وطردنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ﴾ الذين اعتدوا بصيد السمك في يوم السبت، بمسخهم قردة وخنازير وطردهم عن رحمة الله تعالى، وقال ابن عطية: المراد بأصحاب السبت أصحاب أيلة الذين اعتدوا في السبت بالصيد، وكانت لعنتهم أن مُسخوا خنازير وقردة انتهى.

والخلاصة: آمنوا بما نزلنا على محمد ﷺ، من قبل أن تقعوا في الخيبة والخذلان، وذهاب العزة باستيلاء المؤمنين عليكم، وإجلائكم من دياركم، كما حدث لطائفة منكم، أو بالهلاك كما وقع بقتل طائفة أخرى وهلاكها، ثم هددهم وتوعدهم بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: قضاؤه بإيقاع شيء ما، كالعذاب واللعنة، أو المغفرة والرحمة، ﴿مَفْعُولًا﴾؛ أي: نافذاً لا محالة، وهذا إخبار عن جريان عادة الله في الأنبياء المتقدمين، أنه تعالى مهما أخبرهم بإنزال العذاب على الكفار فعل ذلك لا محالة.

والخلاصة: أنه يقول لهم: أنتم تعلمون أن وعيد الله للأمم السالفة قد وقع ولا محالة، فاحترسوا وكونوا على حذر من وعيده لكم، فإنه نافذ لا محالة، لا رادَّ لحكمه، ولا ناقض لأمره، فلا يتعذر عليه شيء يريد أن يفعله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾؛ أي: لا يغفر الإشراك والكفر به، سواء كان إشراك الربوبية، أو إشراك الألوهية أي: لا يغفر الإشراك لمن

اتصف به، ومات عليه بلا توبة ولا إيمان، وفي الآية كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد، وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ببيان استحالة المغفرة بدونه.

واعلم[1]: أن الشرك بالله ضربان:

١ ـ شرك في الألوهية، وهو الشعور بسلطة وراء الأسباب والسنن الكونية لغير الله تعالى.

٢ ـ شرك في الربوبية، وهو الأخذ بشيء من أحكام الدين بالتحليل والتحريم عن بعض البشر دون الوحي، وهذا ما أشار إليه الكتاب الكريم بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، وقد فسر النبي ﷺ اتخاذهم أرباباً، بطاعتهم واتباعهم في أحكام الحلال والحرام.

وقد سرى الشرك في الألوهية والربوبية إلى بعض المسلمين منذ قرون كثيرة، وفي الآية إيماء إلى تسمية أهل الكتاب بالمشركين، وكأنه يقول لهم: لا يغرنكم انتماؤكم إلى الكتب والأنبياء، وقد هدمتم أساس الدين بالشرك الذي لا يغفره الله تعالى بحال.

والحكمة في عدم مغفرة الشرك أن الدين إنما شرع لتزكية النفوس، وتطهير الأرواح، وترقية العقول، والشرك ينافي كل هذا؛ لأنه منتهى ما تهبط إليه العقول، ومنه تتولد سائر الرذائل، التي تفسد الأفراد والجماعات.

وبالتوحيد يعتق المرء من رق العبودية لأحد من البشر، أو لشيء من الأشياء السماوية أو الأرضية، ويكون حراً كريماً، لا يخضع إلا لمن خضعت لسننه الكائنات، بما أقامه من ربط الأسباب بالمسببات.

والخلاصة: أن أرواح الموحدين تكون راقية، لا تهبط بها الذنوب إلى

---

(١) المراغي.

الحضيض الذي تهوي إليه أرواح المشركين، إذ مهما عمل المشرك من الطيبات.. فإن روحه تبقى مظلمة بالعبودية والخضوع لغير الله، ومهما أذنب الموحدون.. فإن ذنوبهم لا تحيط بأرواحهم، إذ خيرهم يغلب شرهم، ولا يبعد بهم الأمد وهم في غفلة عن ربهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾، فهم يسرعون إلى التوبة، ويتبعون السيئة بالحسنة، حتى يذهب أثرها من النفس، وذلك هو غفرانها.

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾؛ أي: ويغفر سبحانه وتعالى ما دون ذلك الإشراك المذكور في القبح من المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة، عملية كانت أو قولية، تفضلاً منه وإحساناً ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ المغفرة له من عباده الذين أذنبوا ذنباً دون الشرك، ومشيئة الله سبحانه وتعالى تكون على وفق حكمته، وعلى مقتضى سنته في خليقته، وقد جرت سنته بأن لا يغفر الذنوب التي لا يتوب صاحبها ولا يتبعها بالحسنات، التي تزيل آثارها من نفس فاعلها.

وقصارى ذلك: أن الشرك لإفساده للنفوس يترتب عليه العقاب حتماً في الدنيا والآخرة، وما عداه لا يصل إلى درجته في إفساد النفوس، فمغفرته ممكنة تتعلق بها المشيئة الإلهية، فمنه ما يكون تأثيره السيء في النفوس قوياً، ومنه ما يكون ضعيفاً، يغفر بالتأثير بصالح العمل.

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن يجعل لغير الله شركة مع الله سبحانه وتعالى، قيوم السموات والأرض، سواء أكانت الشركة بالإيجاد، أو بالتحليل والتحريم، ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ﴾ واختلق وفعل ﴿إِثۡمًا عَظِيمًا﴾؛ أي: إثما كبيراً عظيم الضرر غير مغفور إن مات عليه، تُستصغر في جنب عظمته جميع الذنوب والآثام، فهو جدير بأن لا يغفر، وما دونه قد يمحى بالغفران.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾؛ أي: ألم تنظر إليهم يا محمد، أو أيها المخاطب استفهام تعجيب؛ أي: إيقاع المخاطب وحمله على التعجب من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان، والمراد بهم اليهود والنصارى، الذي يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه؛ أي: انظر واعجب يا محمد، أو أيها المخاطب من حال اليهود والنصارى، الذين يمدحون أنفسهم؛ أي:

تعجب من ادعائهم أنهم أزكياء بررة عند الله تعالى، مع ما هم عليه من الكفر وعظيم الذنب، أو من تكفير ذنوبهم، مع استحالة أن يغفر للكافر شيء من كفره أو معاصيه، وفيه تحذير من إعجاب المرء بنفسه وعمله، ويدخل في الآية كل من زكى نفسه، ووصفها بزيادة العمل والطاعة والتقوى، قال الشوكاني: واختلف[1] المفسرون في المعنى الذي زكوا به أنفسهم، فقال الحسن وقتادة: هو قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وقال الضحاك: هو قولهم: لا ذنوب لنا، ونحن كالأطفال، وقيل: هو قولهم: إن أباءهم يشفعون لهم، وقيل: ثناء بعضهم على بعض، ومعنى التزكية: التطهير والتنزيه، فلا يبعد صدقها على جميع هذه التفاسير وعلى غيرها، واللفظ يتناول كل من زكى نفسه بحق أو بباطل من اليهود وغيرهم.

واعلم[2]: أن تزكية النفس تارة تكون بالعمل الذي يجعلها زاكية طاهرة كثيرة الخير والبركة، بتنمية فضائلها وكمالاتها، ولا يكون ذلك إلا بابتعادها عن الشرور والآثام، التي تعوقها عن الخير، وهذه التزكية محمودة وهي التي عناها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾.

وتارة تكون بالقول بادعاء الكمال والزكاة، وقد اتفق العقلاء على استهجان تزكية المرء نفسه بالقول ولو حقاً، ومصدر هذه التزكية الجهل والغرور، ومن آثار هذه السيئة الاستكبار عن قبول الحق، والانتفاع بالنصح، وقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم دعواهم الزكاة والطهارة بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ إضراب عن محذوف تقديره: لا عبرة بتزكيتهم أنفسهم، بأن يقولوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وبأنهم لا يعذبون في النار؛ لأنهم شعب الله المختار، وبتفاخرهم بنسبهم ودينهم، ﴿بَلِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُزَكِّى﴾ ويطهر من الذنوب والرذائل من يشاء تطهيره من عباده، من أيِّ شعب كان، ومن أيِّ قبيلة كانت، فيهديهم إلى صحيح

(١) فتح القدير.

(٢) المراغي.

العقائد، وفاضل الآداب، وصالح الأعمال، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ معطوف على محذوف، تقديره: فهؤلاء الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم أنفسهم ادعاءً، ولا يظلمون وينقصون شيئاً من الجزاء على أعمالهم السيئة؛ أي: لا يظلمون في ذلك العقاب فتيلاً؛ أي: أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شق النواة، يضرب به المثل في القلة والحقارة، والفتيل في الأصل: الشيء المفتول، وسمي ما في شق النواة بذلك لكونه على هيأته، وقيل: الفتيل: ما تفتله بين أصابعك من وسخ وغيره، ويضرب به المثل في الشيء الحقير الذي لا قيمة له، وقد ضربت العرب المثل في القلة بأربعة أشياء اجتمعت في النواة وهي: الفتيل المذكور، والنقير وهو: النقرة التي في ظهر النواة، والقطمير وهو: القشر الرقيق فوقها، وهذه الثلاثة مذكورة في القرآن، والرابع: اليعروف وهو: ما بين النواة والقمع الذي يكون في رأس الثمرة كالعلاقة بينهما. اهـ. «سمين» فخذلانهم في الدنيا بالعبودية لغيرهم، وفي الآخرة بالعذاب والحرمان، من النعيم المقيم والثواب الجسيم، وما كان ذلك بظلم من الله سبحانه وتعالى لهم، بل كان بنقصان درجات أعمالهم وعجزها عن الصعود بأرواحهم إلى مستوى الرفعة والكرامة، لتزكيتهم إياها بالقول الباطل دون الفعل، فلم تصل بهم نفوسهم إلى مراتب الفوز والفلاح.

وقيل: الضمير[1] في ﴿يظلمون﴾ راجع إلى ﴿من﴾ في: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ باعتبار معناها، والتقدير: يثاب المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلاً، ولكن لا يساعده مقام الوعيد.

وفي الآية موضعان من العبرة[2]:

الأول: أن الله يجزى عامل الخير بعمله ولو كان مشركاً؛ لأن لعمله أثراً في نفسه يكون مناط الجزاء، فيخفف عذابه عن عذاب غيره، كما ورد في الأحاديث إن بعض المشركين يخفف عنهم العذاب بعمل لهم، فحاتم الطائي

---

(١) الجمل. (٢) المراغي.

بكرمه، وأبو طالب بكفالته النبي ﷺ ونصره إياه، وأبو لهب لعتقه جاريته ثويبة حين بشرته بمولد النبي ﷺ.

الثاني: أن يحذر المسلمون الغررو بدينهم، كما كان أهل الكتاب في عصر التنزيل وما قبله، وأن يبتعدوا عن تزكية أنفسهم بالقول، واحتقار من عداهم من المشركين، وأن يعلموا أن الله لا يحابي في نظم الخليقة أحداً، لا مسلماً ولا يهودياً ولا نصرانياً، ألا ترى أن خاتم النبيين قد شج رأسه، وكسرت سنه، وردي في حفرة، من جراء تقصير عسكره فيما يجب من اتباع أمر القائد، وعدم مخالفته، وأن يهتدوا بكتاب الله وبسنته في الأمم، وأن يتركوا وساوس الدجالين المخرفين، الذين يصرفونهم عن الاهتداء بهدي كتابهم، ويشغلونهم بما لم ينزل الله به عليهم سلطاناً، فإنه ما زال ملكهم وما ذهب عزهم.. إلا بتركهم لهدي دينهم، واتباعهم لأولئك الدجالين المخرفين، الذين جعلوا ما ليس من الدين ديناً لهم من العقائد الزائغة والمذاهب الفاسدة والطرائق المخترعة، كما هو كثير في بعض شعوب المسلمين، الذين أذلهم الاستئمار، وشتتهم الكفار؛ لتهاونهم في دينهم، وتساهلهم في عبادة ربهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بفتح الراء، وقرأ السلمي بسكونها إجراء للوصل مجرى الوقف، وقيل: هي لغة قوم لا يكتفون بالجزم بحذف لام الفعل، بل يسكنون بعده عين الفعل، وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ بالياء، وقرأت طائفة: ﴿ولا تظلمون﴾ بتاء الخطاب.

ثم أكد التعجيب من حالهم الذي فهم من الآية السابقة، فقال: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾؛ أي: انظر يا محمد، أو أيها المخاطب، متعجباً إلى حال هؤلاء اليهود، كيف يختلقون على الله الكذب، وينسبونه إليه في قولهم: نحن بررة أزكياء عند الله، ونحن أبناء الله وأحباؤه، وإن الله سبحانه يعاملهم معاملة خاصة بهم، لا كما يعامل سائر عباده، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾؛ أي: وكفى هذا الافتراء والكذب

---

(١) البحر المحيط.

عليه سبحانه وتعالى من جهة كونه: ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ أي: ذنباً ظاهراً، يستحقون به العقوبة الشديدة، والعذاب الأليم الدائم.

أي: إن تزكية النفس والغرور بالدين والجنس مما يبطىء النفس عن نافع العمل، الذي يثاب عليه الناس، وكفى به إثماً ظاهراً، لأنه لا أثر له من حق، ولا سمة عليه من صواب، فاللّٰه لا يعامل شعباً معاملة خاصة تغاير سننه التي وضعها في الخليقة، وما مصدر هذه الدعوى إلا الغرور والجهل، وكفى بذلك شراً مستطيراً، ويدخل في مفهوم هذه الآية ما وقع في بعض بلدان المسلمين، لبعض أولاد العلماء والصالحين، الذين يتساهلون في دينهم، ويستخدمون الناس، فلا يصلّون الصلوات الخمس، ويفعلون المحرّمات، ويقولون للعوام: نحن سادة أبناء سادة، وأولياء أبناء أولياء، تطوى لنا الأرض، ونصلي في مكة، ويختلطون مع الأجانب، ويذكرون أذكاراً شيطانية، ويخبرون عن المغيبات، ويذبحون أموال الناس للجن، ويأخذونها منهم غصباً، فما هؤلاء إلا طواغيت ومردة، فهم أشد ضرراً على المسلمين من اليهود والنصارى، فيا لها مصيبة ابتلي بها المسلمون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ هذا تعجيب من حالهم، بعد التعجيب الأول، وأجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت في اليهود، وسبب نزولها كما مر[1]: أن كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وجماعة معهما، جاؤوا مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا، وقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلاً أم محمد، فقال كعب: ماذا يقول محمد؟ قالوا: يأمرنا بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك، قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت، نسقي الحاج، ونقري الضيف، ونفك العاني، وذكروا أفعالهم، فقال: أنتم أهدى سبيلاً، قاله ابن عباس.

---

(١) البحر المحيط.

أي: ألم تنظر يا محمد ـ أو أيها المخاطب ـ متعجباً إلى حال هؤلاء اليهود، الذين أعطوا حظاً قليلاً من علم «التوراة»، يؤمنون ويسجدون للجبت، والأصنام والطاغوت والشيطان، الجبت: اسم للأصنام، والطاغوت: شياطين الأصنام، ولكل صنم شيطان يعبر فيها ويكلم الناس، فيغترُّون بذلك، وقيل الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر، وقيل غير ذلك.

والخلاصة: ألم تنظر إلى حال هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، كيف حرموا هدايته، وهداية العقل والفطرة، وآمنوا بالدجل والخرافات، وصدقوا بالأصنام والأوثان، ونصروا أهلها من المشركين على المؤمنين المصدقين بنبوة أنبيائهم، والمعترفين بحقية كتبهم، ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب؛ أي: اليهود، ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبمحمد ﷺ؛ أي: في حق الذين كفروا وشأنهم، يعني كفار مكة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: كفار مكة أبو سفيان وأصحابه؛ أي: أنتم يا هؤلاء ﴿أَهْدَىٰ﴾؛ أي: أصوب ديناً وأقوم طريقاً ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمحمد ﷺ؛ أي: أنتم أهدى من محمد وأصحابه، وذكرهم بلفظ الإيمان ليس من قبل القائلين بل من جهة الله تعالى، تعريفاً لهم بالوصف الجميل، وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح.

أي: يقولون: إن المشركين أرشد طريقة في الدين من المؤمنين، الذين اتبعوا محمداً ﷺ، ثم بين عاقبة أمرهم وشديد نكالهم، فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ القائلون: إن عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله تعالى، هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ تعالى؛ أي: طردهم الله تعالى، وأبعدهم عن رحمته، ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: ومن يطرده الله تعالى، ويبعده عن رحمته، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾؛ أي: لن تجد له أيها المخاطب ناصراً ينصره ويدفع عنه العذاب في الدنيا والآخرة، فهو تأكيد لما قبله.

والخلاصة: أولئك القائلون هم[1] الذين اقتضت سنن الله في خلقه أن

---

(١) المراغي.

يكونوا بعيدين عن رحمته، مطرودين من فضله وجوده، ومن يبعده الله تعالى من رحمته فلن ينصره أحد من دونه، إذ لا سبيل لأحد إلى تغيير سننه تعالى في خليقته، وهو قد جعل الخذلان نصيب من يؤمنون بالجبت والطاغوت؛ إذ هم قد جاوزوا سنن الفطرة، واتبعوا الخرافات والأوهام؛ لأنه إنما ينصر المؤمنين باجتنابهم ذلك، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم انتقل من توبيخهم على الإيمان بالجبت والطاغوت، وتفضيلهم المشركين على المؤمنين، إلى توبيخهم على البخل والأثرة، وطمعهم في أن يعود إليهم الملك في آخر الزمان، وأنه سيخرج منهم من يجدد ملكهم ودولتهم، ويدعو إلى دينهم، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ وخصت هذه الأشياء الحقيرة المذكورة بقوله: فتيلاً في قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وهنا بقوله: ﴿نَقِيرًا﴾ لوفاق النظير من الفواصل، ذكره أبو حيان. و﴿أم﴾ في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ بمعنى بل التي للاضراب الإبطالي، وهمزة الإنكار؛ لأن الكلام إنكار على اليهود، وإبطال لقولهم: نحن أولى بالملك والنبوة، فكيف نتبع العرب، وتكذيب لهم في زعمهم أن الملك يعود إليهم في آخر الزمان، فيخرج منهم من يجدد ملكهم ودولتهم، و﴿إذاً﴾ في قوله: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ﴾ حرف جواب وجزاء لشرط مقدر، ورُفع الفعل بعدها، وإن كان مرجوحاً عند النحاة، لأن القراءة سنة متبعة، والفاء: للسببية الجزائية لذلك الشرط المحذوف. وقرىء ـ شاذاً على الأرجح ـ: بحذف النون، فقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: بل ألهم نصيب من الملك، يعني ليس لليهود ملك، ولو كان لهم ملك.. إذاً لم يؤتوا أحداً شيئاً لشدة حرصهم وبخلهم؛ أي: إنهم لا حظ لهم من الملك، إذ هم فقدوه بظلمهم وطغيانهم، وإيمانهم بالجبت والطاغوت.

والمعنى[1]: ليس لهم من الملك شيء البتة، ولو كان لليهود نصيب منه، فيتسبب عن ذلك أنهم لا يعطون واحداً من الناس قدر ما يملأ النقير، وهو النقرة

---

(١) مراح.

التي على ظهر النواة، التي تنبت منها النخلة، وهذا بيان لعدم استحقاقهم له، بل لاستحقاقهم الحرمان منه؛ بسبب أنهم من البخل والدناءة بحيث لو أوتوا شيئاً من ذلك.. لما أعطوا الناس من أقل القليل، ومن حق من أوتي الملك أن يؤثر الغير بشيء منه، فالله تعالى وصفهم في هذه الآية بالبخل، ووصفهم بالجهل في الآية المتقدمة، ووصفهم بالحسد في الآية الآتية، وهذه الخصال كلها مذمومة، فكيف يدعون الملك وهي حاصلة فيهم.

والخلاصة[١]: أن اليهود ذوو أثرة وشح، يشق عليهم أن ينتفع بهم غير اليهودي، فإذا صار لهم ملك.. حرصوا على منع الناس أدنى النفع وأحقره، ومن كانت هذه حاله حرص أشد الحرص على أن لا يظهر نبي من العرب، يكون لأصحابه ملك يخضع لهم فيه بنو إسرائيل، ولا تزال هذه حالهم إلى اليوم، فإن تم لهم ما يسعون إليه من إعادة ملكهم إلى بيت المقدس وما حوله.. فإنهم يطردون المسلمين والنصارى من تلك الأرض المقدسة، ولا يعطونهم منها نقيراً، ولكن هل يعود الملك كما يريدون، ليس في الآية ما يثبت ذلك، ولا ما ينفيه، وإنما الذي فيها بيان طباعهم فيه لو حصل.

وقرأ عبد الله بن مسعود وابن عباس ﴿فإذاً لا يؤتوا﴾ بحذف النون على إعمال إذاً. ثم انتقل من توبيخهم بالبخل إلى توبيخهم بالحسد، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وأم هنا بمعنى همزة الإنكار، وبل التي للإضراب الانتقالي[٢]؛ لأنه انتقل من توبيخهم بما سبق إلى توبيخهم بالحسد الذي هو شر الرذائل وأقبحها؛ أي: بل أتريد اليهود أن يحسدوا الناس؛ أي: محمداً ﷺ وأصحابه على ما آتاهم الله تعالى؛ أي: على العطاء الذي أعطاهم إياه من النبوة والكتاب، وازدياد العز والنصر يوماً فيوماً، وكثرة النساء له ﷺ، وكانت له يومئذ تسع نسوة، فقالت اليهود: لو كان محمد نبياً.. لشغله أمر النبوة

---

(١) المراغي.

(٢) الجمل.

عن الاهتمام بأمر النساء، حالة كون ذلك العطاء ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانه سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تعليل للإنكار المفهوم من الاستفهام المضمن للهمزة المقدرة؛ أي: لا ينبغي لهم الحسد لمحمد وأصحابه، فإن حسدهم المذكور في غاية القبح والبطلان، لأنا قد آتينا وأعطينا من قبل محمد ﷺ آل إبراهيم، الذين هم أنبياء أسلافهم، وأبناء أعمام لمحمد ﷺ، ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: النبوة؛ أي: أعطينا بعض آل إبراهيم الكتاب والنبوة، كموسى وعيسى وداود عليهم السلام، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: وأعطينا بعضهم الآخر ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ لا يقادر قدره مع النبوة، كداود وسليمان ويوسف عليهم السلام، فكان لداود مئة امرأة مهرية، ولسليمان سبع مئة سرية، وثلاث مئة امرأة مهرية، وهؤلاء الثلاثة كانوا في بني إسرائيل، ولم يشغلهم أمر النبوة عن أمر الملك والنساء، فهم يعلمون بما آتيناهم، فلم يحسدوهم، وليس ما آتينا محمداً وأصحابه ببدع حتى يحسدوهم على ذلك، فلأي شيء يخصصون محمداً ﷺ بالحسد، دون غيره ممن أنعم الله عليهم من آل إبراهيم؟

والخلاصة: أنهم إن يحسدوه على ما أوتي.. فقد أخطؤوا؛ إذ ليس هذا ببدع منا؛ لأنا قد آتينا مثل هذا من قبل لآل إبراهيم، والعرب منهم فإنهم من ذرية إسماعيل ولده، فلم لم تعجبوا مما أوتي آل إبراهيم، وتعجبون مما أوتي محمد ﷺ؟ ولم لا يكون مستبعداً في حق هؤلاء، وكان مستبعداً في حق محمد ﷺ؟ وقوله: ﴿مُّلْكًا﴾ قال الرازي: الملك إما ظاهراً وباطناً وهو: ملك الأنبياء، وإما ظاهراً فقط وهو: ملك السلاطين، وإما باطناً فقط وهو: ملك العلماء، والثلاثة كلها موجودة في بني إسرائيل. وفي الآية[1] رمز إلى أنه سيكون للمسلمين ملك عظيم يتبع النبوة والحكمة، وقد ظهرت تباشيره عند نزول الآية بالمدينة، فقد قويت شوكتهم وأخذ أمرهم يعظم رويداً رويداً.

والحاصل: أن اليهود إما مغرورون مخدوعون، يظنون أن فضل الله لا

---

(١) المراغي.

يعدوهم ورحمته تضيق بغيرهم، وإما حاسبون أن ملك الكون في أيديهم، فهم لا يعطون أحداً منه ولو حقيراً كالنقير، وإما حاسدون للعرب على ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك، الذي ظهرت مبادؤه ومقدماته، ﴿فَمِنْهُم﴾؛ أي: فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم ﴿مَّنْ ءَامَنَ﴾، وصدق ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بما أوتي آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾؛ أي: من أعرض عن الإيمان بما أوتي آل إبراهيم، وكفر به، وأنت يا محمد لا تتعجب مما عليه هؤلاء القوم الحاسدون، فإن أحوال جميع الأمم مع جميع الأنبياء هكذا كانت، وهذا تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ، ليكون أشد صبراً على ما يناله من قبلهم من الأذى والجحود والإنكار، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن جبير وعكرمة وابن يعمر والجحدري: ﴿ومنهم من صُد عنه﴾ بضم الصاد مبنياً للمفعول، وقرأ أبي وأبو الحوراء وأبو رجاء والحوفي: بكسر الصاد مبنياً للمفعول، والمضاعف المدغم الثلاثي يجوز فيه إذا بنى للمفعول ما جاز في باع إذا بني للمفعول، فتقول: حُب زيد بضم الحاء، وحِب بكسرها، ويجوز الإشمام فيه أيضاً، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ﴾؛ أي: وكفى هؤلاء الكفار المتقدمين والمتأخرين عذاب جهنم، من جهة كونها ﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً مسعرة متقدمة عليهم في الآخرة.

والمعنى: إن نصرف عنهم بعض العذاب في الدنيا.. فكفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم في العقبى؛ لأنهم آثروا اتباع الباطل والعمل بما يزين لهم الشيطان، ولا يزال ذلك دأبهم حتى يرديهم في دار الشقاء والنكال، وهي جهنم وبئس القرار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: إن الذين جحدوا ما أنزلت على رسولي محمد ﷺ، من آياتي الدالة على توحيدي، وصدق رسولي محمد ﷺ، ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ وندخلهم ﴿نَارًا﴾ مسعرة تشويهم، وتحرق أجسامهم، حتى تفقدها الحس والإدراك. وقرأ حميد: ﴿نَصليهم﴾ بفتح النون من صليت، وقرأ سلام ويعقوب: ﴿نصليهُم﴾ بضم الهاء، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ واحترقت ﴿جُلُودُهُم﴾ وأجسامهم وفقدت التماسك الحيوي وبعدت عن الحس والحياة، ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾؛ أي:

بدلناهم جلوداً أخرى جديدة حية تشعر بالألم وتحس بالعذاب، بأن يجعل النضيج غير النضيج، فالذات واحدة، والمتبدل هو الصفة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع» متفق عليه.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر ـ أو قال: ناب الكافر ـ مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام»، رواه مسلم. ثم بين السبب في التبدل فقال: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: لكي يجدوا ألم العذاب، ويدوم لهم ذوق العذاب، لأن الإحساس يصل إلى النفس بواسطة الألم في الجلد.

وفي التعبير بـ﴿يذوقوا﴾ إيماء إلى أن إحساسهم بذلك العذاب يكون كإحساس الذائق المذوق، لا يدخل فيه نقصان ولا زوال بسبب ذلك الاحتراق.

قال الدكتور عبد العزيز[1] بن إسماعيل باشا رحمه الله تعالى في كتابه «الإسلام والطب الحديث»: والحكمة في تبديل جلود الكفار أن أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية: فالإحساس فيها ضعيف، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث ألماً شديداً، بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة؛ لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألماً كثيراً، فالله تعالى يقول لنا إن النار كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب.. نجدده كي يستمر الألم بلا انقطاع، ويذوقوا العذاب الأليم، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان، وكان الله عزيزاً حكيماً انتهى.

ثم أكد سابق الكلام وبين علته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَزِيزًا﴾؛ أي: قادراً غالباً لا يمتنع عليه شيء مما يريده مما توعد به أو وعد، ﴿حَكِيمًا﴾؛ أي: لا يفعل إلا الصواب، فيعاقب من يعاقبه على وفق حكمته، ومن حكمته أن ربط الأسباب بالمسببات، فلا يستطيع أحد أن يغلبه على أمره،

---

(١) المراغي.

فيبطل اطرادها، فهو كما جعل الكفر والمعاصي سبباً للعذاب كما تقدم في الآية.. جعل الإيمان والعمل الصالح سبباً للنعيم، وذلك ما بينه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما جاء به محمد ﷺ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: امتثلوا المأمورات، واجتنبوا المنهيات. ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: تسيل من تحت أشجارها، وبين قصورها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ من الماء، واللبن والخمر والعسل، حالة كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: مقدرين الخلود في تلك الجنات ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: مدة لا نهاية لها ولا انقضاء؛ لأن نعيم الجنة لا ينقطع كعذاب النار، وإنما عبر هنا بالسين في قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، وفي الكفار بسوف في قوله: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾.. إشعاراً بقصر مدة التنفيس على سبيل تقريب الخير من المؤمن وتبشيره به، وهذا الكلام راجع إلى قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ لف ونشر مشوش على حد قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ على عادته تعالى من ذكر الوعيد مع الوعد وعكسه.

والمعنى: أن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله سيدخلون جنات يتمتعون بنعيمها العظيم كفاء ما أخبتوا إلى ربهم، وقدموا من عمل صالح؛ لأن الإيمان وحده لا يكفي لتزكية النفس وإعدادها لهذا الجزاء، بل لا بد معه من عمل صالح يشعر به المرء بالقرب من ربه، والشعور بهيبته وجلاله، ﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾؛ أي: لهم في تلك الجنات أزواج مبرآت من العيوب الجسمانية، كالحيض والنفاس مثلاً، ومن العيوب الخلقية، فليس فيهن ما يوحشهم منهن، ولا ما يكدر صفوهم، وبذا تكمل سعادتهم، ويتم سرورهم في تلك الحياة، التي لا نعرف كنهها، وإنما نفهمها على طريق التمثيل وقياس الغائب على الشاهد، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾؛ أي: ظلاً كثيفاً كنيناً، لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم، ولا تنسخه شمس، أو المعنى: ونجعلهم في مكان لا حر فيه ولا قر، وفي ذلك إيماء إلى تمام النعمة والتمتع لهم برغد العيش، وكمال الرفاهية، فإن قلت[1]: إذا لم يكن في الجنة شمس يؤذي حرها، فما فائدة وصفها بالظل الظليل؟

---

(١) الخازن.

قلتُ: إنما خاطبهم بما يعقلون ويعرفون؛ وذلك لأن بلاد العرب في غاية الحرارة، فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة واللذاذة، فهو كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، ويقال: إن أوقات الجنة كلها سواء اعتدالاً لا حر فيها ولا برد.

وقرأ النخعي[١] وابن وثاب: ﴿سيدخلهم﴾ بالياء، وكذا ﴿ويدخلهم ظلاً﴾ فمن قرأ بالنون وهم الجمهور.. لاحظ قوله في وعيد الكفار: ﴿سوف نصليهم﴾، ومن قرأ بالياء.. لاحظ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، فأجراه على الغيبة.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التعجبي، ﴿لم ترَ﴾ فعل وجازم، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، أو على النبي ﷺ، ورأى هنا بصرية، تتعدى إلى مفعول واحد، وذلك الواحد عدت إليه بـ﴿إِلَىٰ﴾ لأنها ضمنت معنى النظر، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ﴿تَرَ﴾ متعلق به. ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿نَصِيبًا﴾: مفعول ثان، والجملة صلة الموصول، ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَصِيبًا﴾، ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿أُوتُوا۟﴾، أو من الموصول. ﴿وَيُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَشْتَرُونَ﴾. ﴿أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول به، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يُرِيدُونَ﴾؛ أي: ويريدون ضلالتكم السبيل.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين البيان الذي هو قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، وبين المبين الذين هو قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعۡلَمُ﴾. ﴿وَكَفَىٰ﴾: الواو عاطفة، ﴿كفى بالله﴾: فعل وفاعل والباء زائدة. ﴿وَلِيّٗا﴾: منصوب على التمييز أو حال، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ على كونها معترضة. ﴿وَكَفَىٰ﴾: الواو عاطفة. ﴿كفى بالله﴾: فعل وفاعل. ﴿نَصِيرٗا﴾: تمييز أو حال، والجملة معطوفة على كونها معترضة. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لمبتدأ محذوف، تقديره: من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم. ﴿هَادُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، والجملة صفة لمبتدأ محذوف، تقديره: قوم محرفون الكلم عن مواضعه كائن من الذين هادوا، والجملة في محل الجر بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾، وقوله: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا﴾: مقول محكي لـ﴿يقولون﴾ منصوب به، وإن شئت قلت: ﴿سَمِعۡنَا﴾: فعل وفاعل والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾، وكذلك جملة: ﴿وَعَصَيۡنَا﴾: معطوف عليه، ﴿وَٱسۡمَعۡ﴾: الواو عاطفة. ﴿اسمع﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿سَمِعۡنَا﴾، ﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾: حال ومضاف إليه، أعني: حالاً من فاعل ﴿اسمع﴾، ومفعول ﴿اسمع﴾، محذوف تقديره: اسمع منا كلامنا، وكذلك المفعول الثاني لـ﴿مسمع﴾ محذوف تقديره: غير مسمع مكروهاً، ﴿وَرَٰعِنَا﴾: الواو عاطفة. ﴿راعنا﴾: فعل أمر ومفعول به

مجزوم بحذف حرف العلة؛ لأنه من راعى يراعي مراعاة بمعنى راقبه وحفظه، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿سَمِعْنَا﴾. ﴿لَيًّا﴾: مفعول لأجله لـ﴿يقولون﴾، أو منصوب على الحالية من فاعل ﴿يقولون﴾، ولكن بعد تأويله بمشتق تقديره: حالة كونكم لاوين ألسنتكم، ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿لَيًّا﴾، ﴿وَطَعْنًا﴾: معطوف على ﴿لَيًّا﴾. ﴿فِي الدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿طعناً﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿أَنَّهُمْ﴾: ﴿أنَّ﴾ حرف نصب ومصدر، والهاء اسمها. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ تقديره: قائلون، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لفعل محذوف هو فعل الشرط لـ﴿لو﴾، تقديره: ولو ثبت قولهم؛ لأن ﴿لو﴾ الشرطية لا يليها إلا الفعل. ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿سَمِعْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، وكذلك جملة ﴿وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾: معطوفات على ﴿سَمِعْنَا﴾، ﴿لَكَانَ﴾: اللام رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية. ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على القول الثاني، ﴿خَيْرًا﴾: خبر كان، وجملة كان جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾، ﴿وَأَقْوَمَ﴾: معطوف على ﴿خَيْرًا﴾. ﴿وَلَكِنْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لكن﴾ حرف استدراك، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب، ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿لعن﴾، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع؛ لكون ما قبلها علة لما بعدها، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَعَنَهُمُ﴾، على كونها جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿قَلِيلًا﴾:

مستثنى من واو ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ منصوب، وعلى اعتبار قول البعض: (قليلاً منهم): جار ومجرور صفة لـ﴿قَلِيلٗا﴾، وفي هذا[1] الوجه أنه كان المختار حينئذ الرفع على حد قول ابن مالك:

ما ٱستثنَتِ (إلاَّ) مَعْ تَمَامٍ يَنتَصِبْ   وَبَعْدَ نَفْيٍ أَوْ كَنَفْيٍ ٱنتُخِبْ
إِتْباعُ مَا اتَّصَلَ وَٱنصِبْ ما ٱنْقَطَعْ   وَعَنْ تَمِيْمٍ فِيْهِ إِبْدَالٌ وَقَعْ

وبعضهم جعله مستثنى من ضمير ﴿لَّعَنَهُمُ﴾، وبعضهم جعله صفة لمصدر محذوف؛ أي: إلا إيماناً قليلاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء؛ أي: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء مستأنفة، ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل ومفعول ثان، والجملة صلة الموصول، ﴿ءَامِنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامِنُواْ﴾، ﴿نَزَّلۡنَا﴾: فعل وفاعل والمفعول محذوف تقديره نزلناه، وهو العائد على ما الموصولة، والجملة صلة لما أو صفة لها، ﴿مُصَدِّقٗا﴾: حال من ما الموصولة أو من الضمير المحذوف، ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُصَدِّقٗا﴾، ﴿مَعَكُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لما أو صفة لها، ﴿مِّن قَبۡلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿أَن نَّطۡمِسَ﴾: ناصب وفعل مضارع منصوب وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿وُجُوهٗا﴾: مفعول به والجملة الفعلية في تأويل مصدر مضاف إليه لـ﴿قَبۡلِ﴾، تقديره آمنوا من قبل طمسنا وجوهاً منكم، ﴿فَنَرُدَّهَا﴾: الفاء عاطفة، ﴿نردها﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿نَّطۡمِسَ﴾، تقديره فردّنا إياها، ﴿عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿نرد﴾، ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾: فعل

(١) الجمل.

ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿نَّطْمِسَ﴾، ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾ حرف جر، ﴿ما﴾ مصدرية. ﴿لَعَنَّآ﴾: فعل وفاعل، ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة ما المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كلعننا أصحاب السبت، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نلعن﴾، ﴿وَكَانَ﴾: الواو استئنافية، ﴿كان أمر الله﴾: فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، ﴿مَفْعُولًا﴾: خبرها والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَغْفِرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿أَن يُشْرَكَ﴾: ناصب وفعل مغير، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إن الله لا يغفر الإشراك به. ﴿وَيَغْفِرُ﴾: الواو استئنافية، ﴿يَغْفِرُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَغْفِرُ﴾، ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يغفر﴾، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، والمفعول محذوف، تقديره لمن يشاء غفرانه، والجملة صلة من الموصولة. ﴿وَمَن﴾: الواو استئنافية. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُشْرِكْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُشْرِكْ﴾، ﴿فَقَدِ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ وجوباً؛ لكون الجواب مقروناً بـ﴿قد﴾، ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿ٱفْتَرَىٰٓ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿إِثْمًا﴾: مفعول

﴿ٱفْتَرَىٰٓ﴾، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة للاستفهام التعجبي. ﴿لم تر﴾: فعل مضارع وجازم، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرَ﴾، ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿بَلِ﴾ حرف للإضراب الإبطالي، أضرب به على محذوف تقديره ولا عبرة بتزكيتهم أنفسهم بل الله يزكي من يشاء، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿يُزَكِّى﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾: والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ذلك المحذوف، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والمفعول محذوف تقديره من يشاء تزكيته، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَلَا﴾: الواو عاطفة أو استئنافية، ﴿لا﴾ نافية. ﴿يُظْلَمُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿فَتِيلًا﴾: مفعول ثان أو صفة لمصدر محذوف تقديره: ظلماً قدر فتيل، والجملة الفعلية إما معطوفة على محذوف تقديره: فيعاقبون ولا يظلمون فتيلاً أو مستأنفة.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿ٱنظُرْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على كل مخاطب، والجملة مستأنفة، ﴿كَيْفَ﴾: اسم للاستفهام التعجبي في محل النصب بـ﴿يَفْتَرُونَ﴾، مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، ونصبه إما على التشبيه بالحال كما هو مذهب سيبويه، أو على التشبيه بالظرف كما هو مذهب الأخفش، ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مفعول ﴿ٱنظُرْ﴾، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَفْتَرُونَ﴾، ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول ﴿يَفْتَرُونَ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾: فعل وفاعل، والباء زائدة والجملة مستأنفة، ﴿إِثْمًا﴾: منصوب على التمييز أو على الحال، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الهمزة للاستفهام التعجبي، ﴿لم تر﴾: جازم وفعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، أو على المخاطب، والجملة جملة إنشائية مستأنفة. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرَ﴾، ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾: فعل ونائب فاعل ومفعول ثان، والجملة صلة الموصول، ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: صفة لـ﴿نَصِيبًا﴾. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿أُوتُوا۟﴾، ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: معطوف على الجبت. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾: مقول محكي لـ﴿يقولون﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول يقولون، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَهْدَىٰ﴾، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، ﴿سَبِيلًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ أعني هؤلاء منصوب باسم التفضيل أعني ﴿أَهْدَىٰ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة، ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما، ﴿يَلْعَنِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بمن على كونه فعل الشرط لها، والمفعول محذوف تقديره يلعنه، ﴿فَلَن﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب مقروناً بـ﴿لن﴾ ﴿لن تجد﴾ فعل وناصب وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على المخاطب، والجملة في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور في محل النصب على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿تَجِدَ﴾، ﴿نَصِيرًا﴾: مفعول أول له.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى همزة الإنكار وبل التي للإضراب الإبطالي أو الانتقالي، لما في الكلام من الانتقال من ذمهم بتزكيتهم أنفسهم، إلى ذمهم بادعائهم نصيباً من الملك، وبخلهم المفرط وشحهم البالغ، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿نَصِيبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة أو معطوفة[1] على محذوف، تقديره: أهم أولى بالنبوة ممن أرسلته، أم لهم نصيب من الملك؟ فإذن لا يؤتون الناس نقيراً، ﴿مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَصِيبٌ﴾، ﴿فَإِذًا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة سببية، ﴿إذا﴾: حرف جواب ملغاة هنا غير عاملة لدخول فاء العطف عليها، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿نَقِيرًا﴾: مفعول ثان. والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية؛ أعني قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب لشرط محذوف تقديره: إن كان لهم نصيب من الملك.. فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً، ﴿إذاً﴾: حرف نصب وجواب، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يُؤْتُونَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿إذاً﴾، وعلامة نصبه حذف النون الثابتة تبعاً للقراءة؛ لأن القراءة سنة متبعة، بدليل حذفها في القراءة الشاذة، و﴿الواو﴾ فاعل، وجملة الشرط المقدر مستأنفة.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة أيضاً، بمعنى همزة الإنكار وبل التي للإضراب الانتقالي، ﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَىٰ مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَحْسُدُونَ﴾، ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره إياه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المحذوف. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾ تعليلية.

(١) الشوكاني.

﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ءَاتَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: مفعول أول ومضاف إليه، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية، تقديره: ولا ينبغي لهم الحسد؛ لأنا قد آتينا آل إبراهيم فلم يحسدوهم، فلم حسدوا محمداً ﷺ، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مُّلْكًا﴾: مفعول ثان، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَا﴾ الأول.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَمِنْهُم﴾: ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع وفي الفتوحات قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ تفريع[1]، على أصل القصة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ انتهى. ويصح أن يقال: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أمرنا لهم بالإيمان بما نزلنا، وأردت بيان حالهم بعد ذلك.. فأقول لك: ﴿مِّنْهُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَّنْ﴾:اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنْ﴾، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿وَمِنْهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَّنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى، ﴿صَدَّ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنْ﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿عَنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿صَدَّ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ﴾: فعل وفاعل والباء زائدة، ﴿سَعِيرًا﴾: تمييز أو حال والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

---

(١) الجمل.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَفَرُوا﴾، ﴿سَوْفَ﴾: حرف تنفيس، ﴿نُصْلِيهِمْ﴾: فعل ومفعول أول، ﴿نَارًا﴾: مفعول ثان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿كُلَّمَا﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية مبني على السكون لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلق بالجواب، ﴿نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿كُلَّمَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿جُلُودًا﴾: مفعول ثان، ﴿غَيْرَهَا﴾: ﴿غير﴾ صفة لـ﴿جُلُودًا﴾؛ لأنه بمعنى المغايرة، و﴿الهاء﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية جواب ﴿كُلَّمَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَآ﴾ مستأنفة، ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وجملة أن المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي، تقديره لذوقهم العذاب، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿عَزِيزًا﴾: خبر أول لها، ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾: فعل ومفعولان وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ولكنها سببية. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ضمير المفعول في ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، ﴿فِيهَا﴾: جار

ومجرور متعلق بـ﴿خَالِدِينَ﴾، ﴿أَبَدًا﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿خَالِدِينَ﴾، و﴿أَبَدًا﴾ ظرف مستغرق للزمان المستقبل إلى ما لا نهاية له، فليس المراد بالخلود طول المكث.

﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿أَزْوَٰجٌ﴾، وجوز مجيء الحال من النكرة تقدمها عليها. ﴿أَزْوَٰجٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: صفة لـ﴿أَزْوَٰجٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال ثانية من ضمير ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، أو صفة ثانية لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، ﴿ظَلِيلًا﴾: صفة مؤكدة لـ﴿ظِلًّا﴾، كـ: ليلٍ أليل ويوم أيوم وداهية دهياء، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: النصيب الحصة من الشيء والحظ، يقال: هذا نصيبي؛ أي: حظي، كأنه الشيء الذي رفع لك وأهدف لك، ويقال: ضرب فلان بنصيب؛ أي: فاز، ومنه اليانصيب عند المولدين، يجمع على أنصبة وأنصباء ونصب ذكره في «المنجد»، ﴿راعنا﴾: إما بمعنى أرقبنا وانظرنا نكلمك، من راعى يراعي مراعاة، بمعنى راقبه وحفظه، وإما بمعنى كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها وهي راعينا، من الرعونة: وهي الحمق وقلة العقل، ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾؛ أي: فتلاً بها، وصرفاً للكلام عن ظاهره إلى نسبة السب إليه.

وأصل ليَّاً: لوياً من لوى يلوي لوياً، كـ: رمى يرمي رمياً، فقلبت الواو ياء فأدغمت الياء في الياء، فصار ليَّاً مثل طي؛ لأنه مصدر طوى يطوي، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾: وصيغة التفضيل في خيراً وأقوم إما على بابها، واعتبار[1] أصل

---

(١) أبو السعود.

الفعل في المفضل عليه بناء على اعتقادهم، أو بطريق التهكم، وإما بمعنى اسم الفاعل، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾: أصل الطمس[1] محو الآثار وإزالة الأعلام بمحوها أو بإخفائها، كما تطمس آثار الدار وأعلام الطرق إما بأن تنقل حجارتها وإما بأن تسفوها الرياح، ومنه الطمس على الأموال في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾؛ أي: أزلها وأهلكها والطمس على الأعين في قوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ إما بإزالة نورها، وإما بمحو حدقتها، وفعله من باب فعل المفتوح، وفي مضارعه وجهان: الضم يقال: طمس يطمس طمساً وطموساً من باب نصر، والكسر: طمس يطمِس طمساً من باب ضرب، والوجه[2]: تارة يراد به الوجه المعروف، وتارة وجه النفس وهو ما تتوجه إليه من المقاصد، كما قال تعالى: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾، وقال: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾، والأدبار: جمع دبر وهو الخلف والقفا.

﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ يقال: افترى فلان الكذب ـ من باب افتعل ـ إذا اعتمله واختلقه، وأصله من الفري بمعنى القطع، يقال: فرى عليه الكذب ـ من باب رمى ـ فرياً وفرية إذا اختلقه عليه من عند نفسه، قال الراغب: الإثم والآثام اسم للأفعال المبطئة عن الثواب؛ أي: عن الخيرات التي يثاب المرء عليها، وقد يطلق الإثم على ما كان ضاراً انتهى. ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾: من زكّى الرباعي مزيد زكى بمعنى طهر ونما، يقال: زكى نفسه يزكي تزكية إذا مدحها، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ والظلم النقص، والفتيل ما يكون في شق نواة التمر مثل الخيط، وبه يضرب المثل في الشيء الحقير، كما يضرب بمثقال ذرة، فهو فعيل بمعنى مفعول.

﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ الجبت أصله الجبس[3]، وهو: الرديء الذي لا خير فيه، ويراد به هنا الأوهام والخرافات والدجل، والطاغوت: ما تكون

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

عبادته والإيمان به سبباً للطغيان والخروج من الحق، من مخلوق يعبد، ورئيس يقلد، وهوى يتبع.

﴿نَقِيرًا﴾: والنقير: النقرة التي في ظهر النواة، ومنها تنبت النخلة، يضرب بها المثل في الشيء الحقير التافه، كما يضرب المثل بالقطمير، وهو: القشرة الرقيقة التي تكون على النواة بينها وبين التمرة.

﴿يَحْسُدُونَ﴾ يقال: حسد فلان فلاناً ـ من باب نصر ـ إذا تمنى زوال نعمته عنه، فالحسد تمني زوال النعمة عن صاحبها المستحق لها، ﴿النَّاسَ﴾: والناس هنا محمد ﷺ ومن آمن معه.

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: والفضل: النبوة والكرامة في الدين والدنيا، ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الكتاب: العلم بظاهر الشريعة، والحكمة: العلم بالأسرار المودعة فيها، ﴿مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾ يقال: صد عن الشيء إذا أعرض عنه، وهو من المضاعف اللازم، الذي جاء بالوجهين في مضارعه: الكسر على القياس، والضم على الشذوذ، كما قال ابن مالك في «لامية الأفعال»:

قَسَّتْ كذا وَعِ وَجْهَيْ صَدَّ أثَّ وخَرْ رَ الصَّلْدُ حَدَّتْ وثَرَّتْ جَدَّ مَنْ عَمِلا

يقال: صد عن الشيء يصد بالكسر على القياس، ويصد بالضم على الشذوذ صدوداً، إذا أعرض عنه، كما بسطنا الكلام عليه في شرحنا «مناهل الرجال على لامية الأفعال»، ﴿سَعِيرًا﴾: فعيل بمعنى مفعلة؛ أي: مسعرة، يقال: نار مسعرة؛ أي: موقدة، ويقال: أوقدت النار وأسعرتها إذا صيرتها موقدة.

﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جمع آية، والمراد بالآيات[1]: الأدلة التي ترشد إلى أن هذا الدين حق، ومن أجلها القرآن؛ لأنه أول الدلائل، وأظهر الآيات وأوضحها، والكفر بها يعم إنكارها، والغفلة عن النظر فيها، وإلقاء الشبهات والشكوك، مع العلم بصحتها عناداً وحسداً ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ من أصلاه بالنار إصلاء إذا شواه بها، يقال: شاة مصلية؛ أي: مشوية، فهو بضم النون من باب

---

(١) المراغي.

أفعل الرباعي، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾؛ أي: احترقت وتهرأت وتلاشت، من قولهم: نضج الثمر واللحم ـ من باب فرح ـ نضجاً، إذا أدركا وطاب أكلهما، فهو ناضج ونضيج، واستنضج الكراع؛ أي: يد الشاة إذا طبخه، ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ يقال: ذاق الشيء يذوق ـ من باب قال ـ إذا أدركه بحاسة الذوق، والمعنى هنا؛ أي: ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع، كما تقول للعزيز: أعزك الله؛ أي: أدام لك العز وزادك فيه، ﴿كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ العزيز فعيل بمعنى فاعل، وهو القادر الغالب على أمره، لا يعجزه عنه شيء، والحكيم هو المدبر للأشياء وفق الحكمة والصواب، ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: اسم مفعول لمؤنث، من طهر المضعف؛ أي: منقاة من العيوب والأدناس الحسية والمعنوية، ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: وصف الظل بالظليل للمبالغة والتأكيد في المعنى، كقولهم ليل أليل ويوم أيوم؛ أي: ظلاً وارفاً لا يصيب صاحبه حرٌّ ولا سموم، ودائم لا تنسخه الشمس، وقد يعبر بالظل عن العز والمنعة والرفاهية، فيقال: السلطان ظل الله في أرضه، ولما كانت بلاد العرب غاية في الحرارة.. كان الظل عندهم أعظم أسباب الراحة، وكان ذلك عندهم رمزاً للنعيم المقيم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع(١):

منها: الاستفهام الذي يراد به التعجب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في الموضعين.

ومنها: التعجب بلفظ االأمر في قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ إذا فسر بالرسول محمد ﷺ، من باب ذكر الخاص باسم العام إشارة إلى أنه جمعت فيه كمالات الأولين والآخرين، على حد قول القائل: أنت الناس كل الناس أيها الرجل، وقول الآخر:

وَلَيْسَ عَلَىٰ ٱللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِيْ وَاحِدِ

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الخطاب العام الذي أريد به الخاص في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ وهو دعاء الرسول ﷺ ابن صوريا، وكعباً وغيرهما من الأحبار إلى الإيمان حسب ما في سبب النزول.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ وفي قوله: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أطلق اسم الذوق الذي هو مختص بحاسة اللسان وسقف الحلق على وصول الألم للقلب، وفي قوله: ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾؛ لأن أصل اللَّيِّ فتل الحبل، فاستعير الكلام الذي قصد به غير ظاهره، وفي قوله: ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ وهو عبارة عن مسخ الوجوه تشبيهاً بالصحيفة المطموسة التي عميت سطورها وأشكلت حروفها.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾، والوجه ضد القفا، وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وفي قوله: ﴿مَّنْ ءَامَنَ﴾ و﴿مَّن صَدَّ﴾ وهذا طباق معنوي.

ومنها: الاستطراد في قوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَغْفِرُ﴾، وفي: لفظ الجلالة، وفي: لفظ الناس، وفي: ﴿آتينا﴾ ﴿وآتيناهم﴾، وفي قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾، وفي قوله: ﴿جُلُودُهُم﴾ ﴿وجلودا﴾، وفي: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ ﴿وَنُدْخِلُهُمْ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ﴾، وفي قوله: ﴿لَا يَغْفِرُ﴾ ﴿وَيَغْفِرُ﴾، وفي قوله: ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿لَّا يُؤْتُونَ﴾ ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾ ﴿ءَاتَيْنَآ﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾، وفي قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾ ﴿وآمنوا أهدى﴾.

ومنها: تلوين الخطاب في قوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾ أقام المضارع مقام الماض، إعلاماً أنهم مستمرون على ذلك.

ومنها: الاستفهام الذي معناه التوبيخ والتقريع في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾، وفي: ﴿أم يحسدون﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾.

ومنها: التقسيم في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ عرض بشدة بخلهم.

ومنها: إقامة المنكَّر مقام المعرَّف لملاحظة الشيوع والكثرة في قوله: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾.

ومنها: الإطناب في مواضع.

ومنها: الحذف في مواضع

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه[1] لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة الأجر العظيم للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكان من أجلِّ تلك الأعمال أداء

---

(١) المراغي.

الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس لا جرم.. أمر بهما في هذه الآية.

وقال أبو حيان[1]: مناسبة هذه الآية لما قبلها هو: أنه تعالى لما ذكر وعد المؤمنين، وذكر عمل الصالحات.. نبه على هذين العملين الشريفين، اللذين من اتصف بهما كان أحرى أن يتصف بغيرهما من الأعمال الصالحة:

فأحدهما: ما يختص به الإنسان فيما بينه وبين غيره وهو أداء الأمانة، التي عرضت على السموات والأرض، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها.

والثاني: ما يكون بين اثنين من الفصل بينهما بالحكم العدل الخالي عن الهوى، وهو من الأعمال العظيمة التي أمر الله بها رسله وأنبياءه والمؤمنين، ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بحال غيره.. أمر بأداء الأمانة أولاً، ثم بعده بالأمر بالحكم بالحق انتهى.

وفي «الفتوحات» قوله تعالى[2]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ خطاب للمكلفين قاطبة، وهذه الآية مناسبة ومرتبطة بقوله سابقاً: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ إلخ، وذلك أن اليهود كانوا يعرفون الحق وأوصاف النبي ﷺ المذكورة في «التوراة»، وهي أمانة عندهم، ومع ذلك كتموها وأنكروها، وقالوا لأهل مكة أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه، فلما خانوا في هذه الأمانة الخاصة.. أمر الله تعالى عموم المكلفين بأداء جميع الأمانات بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ...﴾ إلخ، تأمل انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ..﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه لما أمر الولاة أن يحكموا بالعدل.. أمر الرعية بطاعتهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ..﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الجمل.

أوجب في الآية السالفة على جميع المؤمنين طاعة الله وطاعة الرسول.. ذكر في هذه الآية أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول، ولا يرضون بحكمه، بل يريدون حكم غيره.

وعبارة أبي حيان[1]: مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنه تعالى لما أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر.. ذكر أنه يعجب بعد ورود هذا الأمر من حال من يدعي الإيمان، ويريد أن يتحاكم إلى الطاغوت، ويترك الرسول انتهت.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما[2]: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أوجب فيما سلف طاعة الله وطاعة الرسول، وشنَّع على من رغب عن التحاكم إلى الرسول، وآثر عليه التحاكم إلى الطاغوت.. ذكر هنا ما هو كالدليل على استحقاق الرسول للطاعة، وعلى استحقاق المنافقين الذين لم يقبلوا التحاكم للمقت والخذلان؛ لأنهم لم يرضوا بحكم الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين فيما سلف أن الإيمان لا يتم إلا بتحكيم الرسول فيما شجر بينهم من خلاف مع التسليم والانقياد لحكمه.. ذكر هنا قصور كثير من الناس في ذلك؛ لوهن إسلامهم وضعف إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: لما أمر الله سبحانه وتعالى فيما سلف بطاعته وطاعة الرسول، ثم شنع على الذين تحاكموا إلى الطاغوت، وصدوا عن الرسول، ثم رغب في تلك الطاعة بقوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.. حث على الطاعة، وشوق إليها بذكر مزاياها، وبيان حسن عواقبها، وأنها منتهى ما تصل إليه الهمم، وأرفع ما تشرئب إليه الأعناق.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا...﴾ الآية، سبب نزولها[١]: ما رواه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة.. دعا عثمان بن طلحة، فلما أتاه قال: «أرني المفتاح» مفتاح الكعبة ـ فأتاه به، فلما بسط يده إليه.. قام العباس فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي اجمعه لي مع السقاية، فكف عثمان يده، فقال رسول الله ﷺ: «هات المفتاح يا عثمان»، فقال: هاك أمانة الله، فقام ففتح الكعبة، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم نزل عليه جبريل برد المفتاح، فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ حتى فرغ من الآية، وفي رواية زيادة: وأسلم عثمان، وقال الرسول ﷺ: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة، لا يأخذها منكم إلا ظالم». وقيل[٢]: نزلت عامة، وهو مروي عن أبي وابن عباس والحسن وقتادة.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية الحديث، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه.

وقد أخرج ابن جرير[٣]: أنها نزلت في قصة جرت لعمار بن ياسر مع خالد بن الوليد، وكان خالد أميراً فأجار عمار رجلاً بغير أمره، فتخاصما فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما

---

(١) لباب النقول.

(٢) البحر المحيط.

(٣) لباب النقول.

يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟...﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال: كان الجلاس بن الصامت، ومتعب بن قشير، ورافع بن زيد، وبشر يدَّعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدعوهم إلى الكهان حكام الجاهلية، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودي أحاكمك إلى أهل دينك، أو قال: إلى النبي؛ لأنه قد علم أنه لا يأخذ الرشوة في الحكم، واتفقا على أن يأتيا كاهناً في جهينة فنزلت.

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه الأئمة الستة عن عبد الله بن الزبير قال: خاصم الزبير رجلاً من الأنصار في شراج الحرة، فقال ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك»، فقال الأنصاري: يا رسول الله أن كان ابن عمتك، فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير ثم احبس الماء، حتى يرجع إلى الجدار، ثم أرسل الماء إلى جارك»، واستوعب للزبير حقه، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: ما حسبت هذه الآيات إلا نزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾.

وأخرج الطبراني في «الكبير»، والحميدي في «مسنده» عن أم سلمة رضي الله عنهما قالت: خاصم الزبير رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فقضى للزبير فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته، فنزلت: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ...﴾ الآية.

---

(١) لباب النقول.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ...﴾ الآية، قال: أنزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة، اختصما في ماء فقضى النبي ﷺ أن يسقي الأعلى ثم الأسفل.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الأسود قال: اختصم رجلان إلى رسول الله ﷺ، فقضى بينهما، فقال الذي قضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب فأتيا إليه فقال الرجل: قضى لي رسول الله ﷺ على هذا، فقال: ردنا إلى عمر، فقال: أكذاك قال؟ قال: نعم، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضي بينكما، فخرج إليهما مشتملاً على سيفه، فضرب الذي قال: ردنا إلى عمر، فأنزل الله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ الآية، وهذا مرسل غريب في إسناده ابن لهيعة.

وأخرج ابن جرير عن السدي قال: لما نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ...﴾ الآية، افتخر ثابت بن شماس ورجل من اليهود، فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم، فقتلنا أنفسنا، فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا اقتلوا أنفسكم لقتلنا أنفسنا، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ الآية، سبب نزولها ما أخرجه الطبراني وابن مردويه بسند لا بأس به عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك.. عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يردَّ النبي ﷺ شيئاً حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مسروق قال: قال أصحاب[1] محمد ﷺ: يا

(١) لباب النقول.

رسول الله، ما ينبغي أن نفارقك فإنك لو قدْ مِتَّ لرفعت فوقنا، ولم نرك، فأنزل الله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ...﴾ الآية.

وأخرج عن عكرمة قال: أتى فتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، إن لنا منك نظرة في الدنيا، ويوم القيامة لا نراك فإنك في الجنة في الدرجات العلى، فأنزل الله هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «أنت معي في الجنة إن شاء الله» وأخرج ابن جرير نحوه من مرسل سعيد بن جبير ومسروق والربيع وقتادة والسدي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ أيها المكلفون، ﴿أَن تُؤَدُّواْ﴾ وتسلموا ﴿ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ التي إئتمنتم عليها ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ ومستحقيها، وتردوها إليهم فوراً، لما حكى الله سبحانه وتعالى عن أهل الكتاب أنهم كتموا الحق حيث قالوا للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً.. أمر المؤمنين في هذه الآية بأداء الأمانات في جميع الأمور، سواء كانت تلك الأمور من باب المذاهب والديانات، أو من باب الدنيا والمعاملات؛ لأن الآية وإن نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة كما مر، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقرىء: ﴿أن تؤدوا الأمانة﴾ بالإفراد، كما ذكره أبو حيان.

والأمانة على ثلاثة أنواع[1]:

الأول: أمانة العبد مع ربه، وهي ما عهد إليه حفظه من الائتمار بما أمره به، والانتهاء عما نهاه عنه، واستعمال مشاعره وجوارحه فيما ينفعه ويقربه من ربه، وقد ورد في الأثر: «إن المعاصي كلها خيانة لله عز وجل».

والثاني: أمانة العبد مع الناس، ومن ذلك رد الودائع إلى أربابها، وعدم الغش وحفظ السر ونحو ذلك، مما يجب للأهل والأقربين وعامة الناس والحكام. ويدخل في ذلك عدل الأمراء مع الرعية، وعدل العلماء مع العوام،

---

(١) المراغي.

بأن يرشدوهم إلى اعتقادات وأعمال تنفعهم في دنياهم وأخراهم، من أمور التربية الحسنة وكسب الحلال، ومن المواعظ والأحكام التي تقوي إيمانهم، وتنقذهم من الشرور والآثام، وترغبهم في الخير والإحسان، وعدل الرجل مع زوجه بأن لا يفشي أحد الزوجين سراً للآخر، ولا سيما السر الذي يختص بهما، ولا يطلع عليه عادة غيرهما.

والثالث: أمانة الإنسان مع نفسه؛ بأن لا يختار لنفسه إلا ما هو الأصلح والأنفع له في الدين والدنيا، وأن لا يقدم على عمل يضره في آخرته أو دنياه، ويتوقى أسباب الأمراض والأوبئة بقدر معرفته، وما يعرف من الأطباء، وذلك يحتاج إلى معرفة علم الصحة ولا سيما في أوقات انتشار الأمراض والأوبئة.

فكل هذه الأنواع داخلة في الأمانة التي أمر الله سبحانه وتعالى بأدائها إلى أهلها.

وروى البغوي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قلما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

﴿و﴾ إن الله سبحانه وتعالى يأمركم ﴿إذا حكمتم بين الناس﴾ إذا أردتم الحكم بين الناس ﴿أَن تَحۡكُمُواْ﴾ بينهم ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾؛ أي: بالحكم الذي شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على لسان نبيه محمد ﷺ. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمٰن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». أخرجه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأدناهم عنده مجلساً، إمام عادل. وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر». أخرجه الترمذي.

والحكم بين الناس له طرق منها: الولاية العامة والقضاء وتحكيم المتخاصمين لشخص في قضية خاصة. والحكم بالعدل يحتاج إلى أمور:

الأول: فَهْم الدعوى من المدعي، والجواب من المدعى عليه؛ ليعرف موضع التنازع والتخاصم بأدلته من الخصمين.

والثاني: خلو الحاكم من التحيز والميل إلى أحد الخصمين.

والثالث: معرفة الحاكم الحكم الذي شرعه الله تعالى؛ ليفصل بين الناس على مثاله من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة.

والرابع: تولية القادرين على القيام بأعباء الأحكام.

وقد أمر المسلمون بالعدل في الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ثم بَيَّن حسن العدل وأداء الأمانة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾؛ أي: نعم الشيء الذي يعظكم به، والمخصوص بالمدح أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس؛ إذ لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة. قرأ الجمهور بكسر النون إتباعاً لحركة العين؛ لأن أصله: نعم على وزن شهد، وقرأ بعض القراء بفتح النون على الأصل، وقرأ أبو عمرو بكسر النون وسكون العين.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ سَمِيعًا﴾ لكل المسموعات، يسمع ذلك الحكم إذا حكمتم بالعدل، ﴿بَصِيرًا﴾ لكل المبصرات، يبصركم إذا أديتم الأمانة، فيجازيكم على ما يصدر منكم.

والمعنى: فعليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه، فإنه أعلم منكم بالمسموعات والمبصرات، فإذا حكمتم بالعدل.. فهو سميع لذلك الحكم، وإن أديتم الأمانة.. فهو بصير بذلك، فيجازيكم على كل الأفعال والأقوال، وفي هذا وعد عظيم للمطيع ووعيد شديد للعاصي.

وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه.. فإنه يراك» متفق عليه. وفيه أيضاً إيماء إلى الاهتمام بحكم القضاة والولاة؛ لأنه قد فوض إليهم النظر في مصالح العباد، وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بأداء

الأمانات إلى أهلها، وبالحكم بين الناس بالعدل، مخاطباً بذلك جميع الأمة، أمر بطاعة الله وطاعة الرسول وطاعة أولي الأمر، إذ لا تقوم المصالح العامة إلا بذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ واعملوا بكتابه فيما أمر به ونهى عنه، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ، واعملوا بسنته، فقد جرت سنة الله تعالى بأن يبلغ عنه شرعه رسل منا تكفل بعصمتهم، وأوجب علينا طاعتهم، ﴿و﴾ أطيعوا ﴿أولي الأمر﴾؛ أي: أصحاب أمر الأمة ومتولي شؤونهم بالأمر والنهي لهم حالة كونهم كائنين ﴿مِنكُمۡۖ﴾ أيها المؤمنون، وهم[1] الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند، وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة، فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه، بشرط أن يكونوا أمناء، وأن لا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله، التي عرفت بالتواتر، وأن يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر واتفاقهم عليه، وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الديني: فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد، بل إنما يؤخذ عن الله ورسوله فحسب، وليس لأحد رأي فيه إلا ما يكون في فهمه، فأهل الحل والعقد من المؤمنين إذا أجمعوا على أمر من مصالح الأمة ليس فيه نص عن الشارع، وكانوا مختارين في ذلك، غير مكرهين بقوة أحد ولا نفوذه.. فطاعتهم واجبة، كما فعل عمر - رضي الله عنه - حين استشار أهل الرأي من الصحابة في اتخاذ الديوان الذي أنشأه، وفي غيره من المصالح التي أحدثها برأي أولي الأمر من الصحابة، ولم تكن في زمن النبي ﷺ، ولم يعترض عليه أحد من علمائهم في ذلك.

وقال الشوكاني[2]: وأولو الأمر هم الأئمة والسلاطين والقضاة، وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية، والمراد طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه، ما لم تكن معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد

---

(١) المراغي. (٢) فتح القدير.

أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني». متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره، إلا أن يؤمر بمعصية الله، فإن أمر بمعصية الله.. فلا سمع ولا طاعة». متفق عليه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله» رواه البخاري.

وقال العلماء[١]: طاعة الإمام واجبة على الرعية ما دام على الحق، فإذا زال عن الكتاب والسنة.. فلا طاعة له، وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾؛ أي: فإن اختلفتم[٢] أيها المجتهدون ﴿فِي شَيۡءٖ﴾ من أمور دينكم، غير مذكور حكمه في الكتاب والسنة والإجماع ﴿فَرُدُّوهُ﴾؛ أي: فأرجعوا ذلك الشيء ﴿إِلَى﴾ كتاب ﴿اللَّهِ﴾ تعالى، ﴿و﴾ إلى ﴿الرسول﴾ محمد ﷺ، في حياته وإلى سنته المأثورة عنه بعد وفاته.

أي: فقيسوا ذلك الشيء المتنازع فيه على واقعة منصوص عليها في الكتاب والسنة، تشبهه في الصدرة، أي: في هيئة الصدور والوقوع والصفة، ويؤيد هذا[٣] المعنى الخبر والأثر:

أما الخبر: فهو أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن قُبلة الصائم فقال ﷺ «أرأيت لو تمضمضت»، والمعنى: أخبرني هل تبطل المضمضة الصوم أم لا؟، أي: فكما أن المضمضة مقدمة للأكل، فكذا القبلة مقدمة للجماع، فإذا كانت المضمضة لا تفسد الصوم.. فكذلك القبلة، ولما سألته ﷺ الخثعمية عن الحج عن أبيها.. قال: «أرأيت لو كان على أبيك دين، فقضيته عنه.. هل يجزىء ذلك

---

(١) الخازن.
(٢) المراح.
(٣) المراح.

عنه»؟ قالت: نعم قال: «فدين الله أحق بالقضاء».

وأما الأثر: فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: اعرف الأشباه والنظائر، وقس الأمور برأيك. فدل مجموع ما ذكر على أن قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ﴾ أمر برد الشيء المتنازع فيه إلى شبيهه، وهذا هو الذي يسميه الشافعي رحمه الله تعالى: قياس الأشباه، ويسميه أكثر الفقهاء: قياس الطرد.

وفي هذه الآية[1]: إشارة إلى أدلة الفقه الأربعة، فقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ إشارة إلى الكتاب. وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ إشارة إلى السنة. وقوله: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ إشارة إلى الإجماع. وقوله ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ...﴾ إلخ إشارة إلى القياس.

وعبارة المراغي هنا قوله[2]: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ أي: فإذا لم يوجد نص على الحكم في الكتاب ولا في السنة.. ينظر أولو الأمر فيه؛ لأنهم هم الذين يوثق بهم، فإذا اتفقوا وأجمعوا.. وجب العمل بما أجمعوا عليه، وإن اختلفوا وتنازعوا.. وجب عرض ذلك على الكتاب والسنة وما فيهما من القواعد العامة، فما كان موافقاً لهما علم أنه صالح لنا ووجب الأخذ به، وما كان مخالفاً لهما علم أنه غير صالح ووجب تركه، وبذا يزول التنازع وتجتمع الكلمة، وهذا الرد واستنباط الفصل في الخلاف من القواعد هو الذي يعبر عنه بالقياس، والأول هو الإجماع الذي يعتد به.

ومما تقدم تعلم أن الآية مبينة لأصول الدين في الحكومة الإسلامية، وهي أربعة:

الأصل الأول: القرآن الكريم، والعمل به هو طاعة الله تعالى.

والأصل الثاني: سنة رسول الله ﷺ والعمل بها طاعة الرسول ﷺ.

والأصل الثالث: إجماع أولي الأمر، وهم أهل الحل والعقد، الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء في الجيش والمصالح العامة كالتجار والصناع

---

(١) صاوي. (٢) المراغي.

والزراع ورؤساء العمال والأحزاب ومديري الصحف ورؤساء تحريرها، وطاعتهم هي طاعة أولي الأمر.

والأصل الرابع: عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة المعلومة في الكتاب والسنة، وذلك قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فهذه الأربعة الأصول هي مصادر الشريعة، ولا بد من وجود جماعة يقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة، ممن يختارهم أولو الأمر من علماء هذا الشأن، ويجب على الحكام الحكم بما يقررونه، وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين:

الأولى: الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن الهيئة التشريعية.

والجماعة الثانية: جماعة الحاكمين والمنفذين وهم الذين يسمون الهيئة التنفيذية. وعلى الأمة أن تقبل هذه الأحكام وتخضع لها سراً وجهراً، وهي بذلك لا تكون خاضعة لأحد من البشر؛ لأنها لم تعمل إلا بحكم الله تعالى، أو حكم رسوله ﷺ بإذنه، أو حكم نفسها الذي استنبطه لها جماعة أهل الحل والعقد والعلم والخبرة من أفرادها، الذين وثقت بإخلاصهم، وعدم اتفاقهم إلا على ما هو الأصلح لها.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ شرط جوابه محذوف معلوم مما قبله، تقديره: إن كنتم أيها المؤمنون تصدقون بوحدانية الله وبمجيء اليوم الآخر.. فردوا الشيء المتنازع فيه إلى الله ورسوله، بعرضه على الكتاب والسنة، فإن المؤمن لا يقدم شيئاً على حكم الله، كما أنه يهتم باليوم الآخر أشد من اهتمامه بحظوظ الدنيا، وفي هذا دليل على أن من لم يقدم اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحظوظه.. فإنه لا يكون مؤمناً حقاً.

وفي «الخازن» قال العلماء: في الآية دليل على أن من لا يعتقد وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ومتابعة السنة والحكم بالأحاديث الواردة عن النبي ﷺ لا يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر انتهى.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: رد الشيء المتنازع فيه إلى الله ورسوله ﴿خَيۡرٞ﴾ لكم من

التنازع والقول بالرأي، بالنظر إلى مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿وَأَحْسَنُ﴾ لكم ﴿تَأْوِيلًا﴾؛ أي: مالاً وعاقبة ومرجعاً وأجراً في الآخرة؛ لأنه أقوى الأسس في حكومتكم، والله أعلم منكم بما هو الخير لكم، ومن ثم لم يشرع لكم في كتابه وعلى لسان رسوله إلا ما فيه مصالحكم ومنافعكم، وما هو أحسن عاقبة؛ لما فيه من قطع عرق التنازع وسد ذرائع الفتن. والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام تعجيب للمخاطب؛ أي: ألم تنظر يا محمد أو أيها المخاطب ﴿إِلَى﴾ عجيب أمر هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾؛ أي: يدعون ويقولون بأفواههم قولاً كذباً؛ لأن الزعم مطية الكذب، ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من «القرآن» ﴿و﴾ بـ﴿ما أنزل من قبلك﴾ على الأنبياء من «التوراة» و«الإنجيل»، ومع ذلك الزعم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾ ويترافعوا ﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ أي: إلى الشخص الكثير الطغيان، الذي هو أبو برزة الأسلمي، أو كعب بن الأشرف، على الخلاف في سبب نزولها طلباً للحكم منه ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿قد أمروا﴾ في «القرآن» ﴿أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: بالطاغوت قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وقال أيضاً: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

والمعنى: انظر أيها المخاطب إلى عجيب أمر هؤلاء الذين يزعمون الإيمان بك وبمن قبلك من الرسل، ويأتون بما ينافي الإيمان، إذ الإيمان الصحيح بكتب الله ورسله يقتضي العمل بما شرعه الله تعالى على ألسنة أولئك الرسل، وترك العمل مع الاستطاعة دليل على أن الإيمان غير راسخ في نفس مدعيه، فكيف إذا عمل بضد ما شرعه الله، فهؤلاء المنافقون إذا هربوا من التحاكم إليك، وقبلوا التحاكم إلى مصدر الطغيان والضلال، من أولئك الكهنة والمشعوذين[1]، سواء أكان أبا برزة الأسلمي أم كعب بن الأشرف.. فحالهم هذا دليل على أن الإيمان ليس له أثر في نفوسهم، بل هي كلمات يقولونها بأفواههم، لا تعبر عما تلجلج

(١) **المشعوذين**: من الشعوذة، وهي خفة في اليد وأعمال كالسحر، تري الشيء للعين على غير ما هو عليه اهـ.

في صدورهم، وكيف يزعمون بالإيمان بك، وكتابك المنزل عليك يأمرهم بالكفر بالجبت والطاغوت في آيات كثيرة كما مرت، وهم يتحاكمون إليه؟ فألسنتهم تدعي الإيمان بالله وبما أنزله على رسله، وأفعالهم تدل على كفرهم بالله وإيمانهم بالطاغوت وإيثارهم لحكمه.

ويدخل في هؤلاء كل من يتحاكم إلى الدجالين، كالعرافين وأصحاب المندل[1] والرمل من أولياء الشياطين المخرفين الضالين المضلين.

وفي الآية إيماء إلى أن من رد شيئاً من أوامر الله أو أوامر الرسول ﷺ.. فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك، أو من جهة التمرد والعناد. وقرأ الجمهور: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ﴾ مبنياً للمفعول. وقرىء مبنياً للفاعل فيهما، وقرأ عباس بن الفضل ﴿أن يكفروا بها﴾ بهاء التأنيث على أن الطاغوت جمع، كقوله تعالى: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾ وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ عطف[2] على يريدون، داخل في حكم التعجيب؛ أي: ويريد الشيطان ﴿أَن يُضِلَّهُمْ﴾ ويبعدهم عن طريق الحق والهدى ﴿ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ أي: إضلالاً بالغاً النهاية، وأن يجعل بينهم وبين الحق مسافة بعيدة فهم لشدة بعدهم عن الحق لا يهتدون إلى الطريق الموصلة إليه.

والخلاصة: أن الواجب على المسلمين أن لا يقبلوا قول أحد، ولا يعملوا برأيه في شيء له حكم في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وما لا حكم له فيهما فالعمل فيه برأي أولي الأمر؛ لأنه أقرب إلى المصلحة.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ...﴾ الآية، تكملة[3] لمادة التعجيب، ببيان

---

(١) **المندل**: عند أصحاب التعزيم نوع من الرقى، وهو أن يخط المعزم دائرة على الأرض يجلسون داخلها إذا أرادوا دعوة الأرواح واستعلامها أمراً من الأمور، سموا أصحاب المندل لتبخيرهم المندل الذي هو نوع من الطيب الهندي عند إحضارهم الأرواح الذين هم نوع من الجن اهـ.

(٢) أبو السعود.

(٣) أبو السعود.

إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى كتاب الله ورسوله، إثر بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى الطاغوت؛ أي: وإذا قيل لأولئك الزاعمين للإيمان الذين يريدون التحاكم إلى الطاغوت ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ وأقبلوا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في «القرآن» لنعمل به، ونحكمه فيما بيننا ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، ليحكم بيننا بما أراه الله تعالى ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾؛ أي: رأيت يا محمد هؤلاء المنافقين الزاعمين للإيمان، وأبصرتهم حال كونهم يعرضون عن حكمك إعراضاً كلياً متعمداً منهم، فذكر المصدر للتأكيد، وهذه الآية مؤكدة لما دلت عليه الآية التي قبلها، من نفاق هؤلاء الذين يرغبون عن حكم الله وحكم رسوله إلى حكم الطاغوت من أصحاب الأهواء؛ لأن حكم الرسول لا يكون إلا حقاً متى بينت الدعوى على وجهها، وأما حكم غيره بشريعته فقد يقع فيه الخطأ، بجهل القاضي بالحكم، أو بجهل تطبيقه على الدعوى، وهي أيضاً دالة على أن من أعرض عن حكم الله متعمداً ولا سيما بعد دعوته إليه وتذكيره به، فإنه يكون منافقاً لا يعتقد ما يزعمه من الإيمان، ولا ما يدعيه من الإسلام.

وقرأ الحسن ﴿تعالوا﴾ بضم اللام على أنه حذف منه لام الفعل اعتباطاً بل تخفيفاً، ثم ضم اللام لمناسبة واو الضمير بناء على أن أصله ﴿تعاليوا﴾ من تعاليت، والوجه فتح اللام كقراءة الجمهور. والاستفهام في قوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ للتعجب؛ أي: فكيف حال هؤلاء المنافقين، أو كيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة من مصائب الدنيا والآخرة، ووقعت عليهم بلية وعقوبة لا يقدرون على دفعها، وقيل المصيبة: هي قتل عمر ذلك المنافق، ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ أي: بسبب ما عملته واقترفته أيديهم من الإعراض عن حكمك والتحاكم إلى غيرك، وأطلعك الله على شأنهم في إعراضهم عن حكم الله، وتبين أن عملهم يكذب دعواهم الإيمان، ﴿ثُمَّ﴾ اضطروا إلى الرجوع إليك لتكشف عنهم ما نزل بهم من المصيبة، و﴿جَآءُوكَ﴾ معتذرين عن صدودهم حالة كونهم ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يقسمون باسم الله تعالى، قائلين والله ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾؛ أي: ما قصدنا بالتحاكم إلى غيرك إلا إحساناً وإصلاحاً في معاملتنا، لا إساءة بك، وإلا توفيقاً بين الخصمين وقطعاً للمنازعة بينهما، لا مخالفة لك في

حكمك، وقيل: جاء[1] أولياء المنافق الذي قتله عمر، يطلبون عمر بدمه، وقد أهدره الله تعالى، يحلفون بالله كذباً للاعتذار قائلين ما أراد صاحبنا المقتول بالتحاكم إلى عمر إلا أن يصلح، ويجعل الاتفاق بينه وبين خصمه، ويأمر كل واحد من الخصمين بتقريب مراده إلى مراد صاحبه، حتى يحصل بينهما الموافقة، وما خطر ببالنا أنه يقتل صاحبنا، وأنت يا رسول الله لا تحكم إلا الحق المر، ولا يقدر أحد على رفع الصوت عندك، وفي الآية وعيد شديد لهم على ما فعلوا، وأنهم سيندمون حين لا ينفعهم الندم، ويعتذرون حين لا يقبل منهم الاعتذار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنافقون الموصوفون بالصفات السابقة، هم ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ من النفاق والغيظ والعداوة، وهذا الكلام من الأسلوب الذي يستعمل فيما يعظم من خير أو شر، مسرة أو حزن، فيقول الرجل لمن يحبه، ويحفظ وده: الله يعلم ما في نفسي لك؛ أي: إنه لكثرته وقوته لا يقدر على معرفته إلا الله تعالى، ويقول في العدو الماكر المخادع: الله يعلم ما في قلبه؛ أي: إن ما في قلبه من الخبث والخديعة بلغ حداً كبيراً لا يعلمه إلا علام الغيوب.

فالمعنى هنا: إنَّ ما في قلوبهم من الكفر والحقد والكيد، وتربص الدوائر بالمؤمنين، بلغ من الفظاعة مقداراً لا يحيط به إلا من يعلم السر وأخفى، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ولا تُقبل[2] عليهم بالبشاشة والتكريم؛ إذ هذا يحدث في نفوسهم الهواجس والخوف من سوء العاقبة، وهم لم يكونوا على يقين من أسباب كفرهم ونفاقهم، وكانوا يحذرون أن تنزل عليه سورة تنبئهم بما في قلوبهم، وإذا استمر هذا الإعراض عنهم.. ظنوا الظنون، وقالوا: لعله عرف ما في نفوسنا، لعله يريد أن يؤاخذنا بما في بواطننا، وقيل[3]: معنى ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: لا تقبل منهم ذلك العذر والحلف، ولا تظهر لهم أنك عالم بكنه ما في بواطنهم، فإن من هتك ستر عدوه.. فربما يجرئه ذلك على أن لا يبالي بإظهار العداوة،

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

فيزداد الشر، وإذا تركه على حاله.. بقي في وجل فيقل الشر ﴿وَعِظْهُمْ﴾؛ أي: وازجرهم عن النفاق والكيد والحسد والكذب، وخوفهم بعذاب الآخرة، وانصح لهم، وذكرهم بالخير على وجه ترق له قلوبهم، ويبعثهم على التأمل فيما يُلقى إليهم من العظات والزواجر، ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: خالياً بهم ليس معهم غيرهم؛ لأن النصيحة على الملأ تقريع، وفي الخلوة محض المنفعة.

وعبارة «الجمل» ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: في حق أنفسهم الخبيثة، وقلوبهم المنطوية على الشرور التي يعلمها الله تعالى، أو في أنفسهم حال كونك خالياً بهم، ليس معهم غيرهم مساراً بالنصيحة؛ لأنها في السر أنفع ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾؛ أي: مؤثراً في أنفسهم واصلاً إلى كنه المراد، مطابقاً لما سيق له من المقصود، يغتمون به اغتماماً، ويستشعرون منه الخوف، وهو التخويف بعذاب الدنيا، بأن يقول لهم: إن ما في قلوبكم من النفاق والكيد معلوم عند الله الذي لا يخفى عليه السر والنجوى، وإنه لا فرق بينكم وبين سائر الكفار وإنما رفع الله السيف عنكم؛ لأنكم أظهرتم الإيمان، فإن واظبتم على هذه الأفعال القبيحة.. ظهر لكل الناس بقاءكم على الكفر، وحينئذ يلزمكم السيف، وتسفك دماؤكم، وتسبى نساؤكم وذراريكم، وتسلب أموالكم. وفي الآية شهادة للنبي ﷺ بالقدرة على بليغ الكلام، وتفويض أمر الوعظ والقول البليغ إليه؛ لأن لكل مقام مقالاً، والكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين، كما أن فيها شهادة له بالحكمة ووضع الكلام في مواضعه، وهذا نحو ما وصف الله به نبيه داود: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

قال القاضي عياض في كتابه «الشفاء» في وصف بلاغته ﷺ: أما فصاحة اللسان وبلاغة القول: فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأرفع، والموضع الذي لا يجهل، قد أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موضع عن شرح كلامه وتفسير قوله، وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المعشار الهمداني، وطهفة النهدي، والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن انتهى.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾؛ أي: وما أرسلنا رسولاً من الرسل قط ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: ليتبع بأمر الله الناس باتباعه، ويقتدى به فيما أمر به ونهى عنه، فما نرسلهم إلا ليطاعوا بإذن الله، فمن خرج عن طاعتهم أو رغب عن حكمهم.. خرج عن حكمنا وسنتنا، وارتكب الآثام، فسنتنا في هذا الرسول كسنتنا في الرسل قبله، وجيء بقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ لبيان أن الطاعة الذاتية لا تكون إلا لله رب العالمين، لكنه قد أمر أن تطاع رسله، فطاعتهم واجبة بإذنه وإيجابه؛ لأن الله أذن في ذلك وأمر به قال تعالى ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وقيل: معنى بإذن الله، بعلم الله وقضائه؛ أي: طاعته تكون بإذن الله؛ لأنه أذن فيه، فتكون طاعة الرسول طاعة الله تعالى، ومعصيته معصية الله.

والمعنى: وما[1] أرسلنا من رسول إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليهم، وأنت يا محمد من الرسل الذين فرضت طاعتهم على من أرسلوا إليهم، ففيه توبيخ وتقريع للمنافقين، الذين تركوا حكم رسول الله ﷺ، ورضوا بحكم الطاغوت.

وهذه الآية[2] دالة على أنه لا رسول إلا ومعه شريعة ليكون مطاعاً في تلك الشريعة، ومتبوعاً فيها، ودالة على أن الأنبياء معصومون عن المعاصي والذنوب، ودالة على أنه لا يوجد شيء من الخير والشر والكفر والإيمان والطاعة والعصيان إلا بإرادة الله تعالى.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ﴾؛ أي: ولو أن هؤلاء المنافقين الذين تحاكموا إلى الطاغوت وأعرضوا عن حكمك ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت.. ﴿جَآءُوكَ﴾ يا محمد تائبين، من ذلك الذنب الذي هو النفاق، والتحاكم إلى الطاغوت، متنصلين مما ارتكبوا من المخالفة، ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: طلبوا من الله سبحانه وتعالى مغفرته لهم ذلك الذنب بالإخلاص، وبالغوا في الاعتذار إليك من إيذائك برد حكمك والتحاكم إلى غيرك، ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي وطلب لهم

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

الرسول محمد ﷺ من الله تعالى مغفرة ذنوبهم المذكورة، أو المعنى: سامح لهم الرسول ما فرطوا في حقه، فالسين والتاء فيه زائدتان؛ أي: سامحهم وعفا عنهم، وطلب لهم المغفرة؛ لأنه تعلق بهم حقان: حق لله، وحق لرسوله ﷺ، ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: لصادفوا الله سبحانه وتعالى حالة كونه ﴿تَوَّابًا﴾؛ أي: قابلاً لتوبتهم ﴿رَّحِيمًا﴾؛ أي: متفضلاً عليهم بالرحمة والغفران، يعني لو أنهم تابوا من ذنوبهم ونفاقهم، واستغفرت لهم.. لعلموا أن الله يتوب عليهم، ويتجاوز عنهم ويرحمهم.

والمعنى: ولو أن أولئك القوم حين ظلموا أنفسهم، ورغبوا عن حكمك إلى حكم الطاغوت.. جاؤوك فاستغفروا الله من ذنبهم، وندموا على ما فرط منهم، وتابوا توبة نصوحاً، ودعا لهم الرسول بالمغفرة لتقبل الله توبتهم، وغمرهم بإحسانه، فرحمته وسعت كل شيء.

وإنما قرن[1] استغفار الرسول باستغفارهم؛ لأن ذنبهم لم يكن ظلماً لأنفسهم فحسب، بل تعدى إلى إيذاء الرسول من حيث أنهم أعرضوا عن حكمه، وهو صاحب الحق في الحكم وحده، فكان لا بد في توبتهم وندمهم على ما فرط منهم أن يظهروا ذلك للرسول ليصفح عنهم؛ لأنهم اعتدوا على حقه، وليدعو لهم بالمغفرة إذ أعرضوا عن حكمه، وإنما التفت[2] عن الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ ولم يقل: واستغفرت لهم؛ لأن القياس يقتضي هذا، لقوله أولاً جاؤوك تفخيماً لشأنه، وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب، وإن عظم جرمه، ويشفع له، ومن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب، وأنهم إذا جاؤوه.. فقد جاؤوا من خصه الله تعالى برسالته، وأكرمه بوحيه، وجعله سفيراً بينه وبين خلقه.

وفي الآية[3]: إيماء إلى أن التوبة الصحيحة تقبل حتماً إذا استكملت

---

(١) المراغي.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراغي.

شرائطها، ومنها: أن تكون عقب الذنب مباشرة، وقد سمى الله ترك طاعة الرسول ظلماً للأنفس؛ أي: إفساداً لها لأن الرسول هو الهادي إلى مصالح الناس في الدنيا والآخرة، وهذا الظلم شامل للاعتداء والبغي والتحاكم إلى الطاغوت وغير ذلك.

والاستغفار لا يكون مقبولاً إلا إذا ناجى العبد ربه عازماً على اجتناب الذنب، وعدم العودة إليه، مع الصدق والإخلاص لله في ذلك. أما الاستغفار باللسان عقب الذنب دون أن يوجد هذا التوجه بالقلب فلا يكون استغفاراً معتداً به عند الله إذ لا بد أن يشعر القلب أولاً بألم المعصية، وسوء مغبتها ـ عاقبتها ـ وبالحاجة إلى التزكي من دنسها، مع العزم القوي على اجتناب هذا الدنس، ومتى أخلص الداعي.. أجاب الله دعاءه بإعطائه ما طلب، أو بغيره من الأجر والثواب.

و﴿لا﴾ في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ زائدة زيدت لتأكيد معنى القسم، كما زيدت في: ﴿لئلا يعلم﴾؛ لتأكيد وجوب العلم، أو مفيدة لنفي أمر سبق، والتقدير: ليس الأمر كما يزعمون من أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك، فوربك؛ أي: فأقسمت لك بربك يا محمد، لا يؤمن هؤلاء المنافقون إيماناً صحيحاً ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾؛ أي: حتى يجعلوك حاكماً بينهم ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: فيما اختلط والتبس وأشكل، ووقع بينهم من المخاصمات والمنازعات، فتقضي بينهم فيها ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: لا يحسوا في قلوبهم ﴿حَرَجًا﴾؛ أي: ضيقاً وشكاً ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ وحكمت به، ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾؛ أي: وينقادوا لك بظواهرهم انقياداً تاماً، بحيث لا يخالفونك في شيء ما. وقرأ أبو السمال: ﴿فيما شجر﴾ بسكون الجيم تخفيفاً فراراً من ثقل توالي الحركات، والمعنى: أنهم لا يؤمنون إيماناً صحيحاً مستوجباً للفوز بالثواب والنجاة من العذاب، وهو إيمانُ الانقيادِ ظاهراً وباطناً، إلا إذا كملت لهم ثلاث خصال:

الأولى: أن يحكموا الرسول في القضايا التي يشتجرون ويختصمون فيها، ولا يتبين لهم وجه الحق فيها.

والثانية: أن لا يجدوا حرجاً وضيقاً فيما يحكم به؛ أي: أن تذعن نفوسهم لقضائه وحكمه فيما شجر بينهم، بلا امتعاض من قبوله والعمل به؛ إذ المؤمن الكامل ينشرح صدره لحكم الرسول لأول وهلة؛ لأنه الحق، وأن الخير والسعادة في الإذعان له.

والثالثة: الانقياد والتسليم لذلك الحكم، فكثيراً ما يعرف الشخص أن الحكم حق، لكنه يتمرد عن قبوله عناداً أو يتردد في ذلك.

ويستفاد من هذه الآية شيئان:

الأول: عصمة النبي ﷺ، بمعنى أنه لا يحكم إلا بالحق المطابق لصورة الدعوى وظاهرها، لا بحسب الواقع في نفسه إذ الحكم في شريعته على الظاهر، والله يتولى السرائر، وقد قال ﷺ: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق مسلم.. فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها» رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن، ومن ثم كانوا يسألونه إذا أمر بأمر لم يظهر لهم أنه الرأي، أعن وحي هو، أم عن رأي، فإن كان عن وحي.. أطاعوا وسلموا، وإن كان عن رأي.. ذكروا ما عندهم، وربما يرجع إليهم كما حدث يوم أحد.

والثاني: أنهم لا يؤمنون إيماناً صحيحاً يعتد به إلا إذا كانوا موقنين بقلوبهم، مذعنين في بواطنهم بصدق الرسول في كل ما جاء به من أمور الدين. ومن أمارة ذلك: أن يحكموه فيما شجر من خلاف، وأن لا يجدوا ضيقاً وحرجاً في حكمه؛ إذ الضيق إنما يلازم قلب من لم يخضع، وأن ينقادوا انقياداً كاملاً بلا تمرد ولا عناد في قبوله، كما مر جميع ذلك كله آنفاً.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ وفرضنا وأوجبنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على هؤلاء المنافقين ﴿أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ بأن يقتل كل واحد نفسه، أو يقتل بعضهم بعضاً ﴿أَوِ﴾ أن ﴿اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ بالهجرة إلى دار أخرى، توبة من نفاقهم، كما كتبنا على بني إسرائيل القتل والخروج من مصر، ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾؛ أي: ما فعل هؤلاء المنافقون القتل والخروج المكتوب عليهم، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ فإن القليل منهم يفعل ذلك

المكتوب رياء وسمعة.

ومعنى الآية[١]: أنه تعالى لو فرض عليهم أن يقتلوا أنفسهم، إما بأن يقتل كل واحد نفسه، أو بقتل بعضهم بعضاً، أو أن يخرجوا من ديارهم بالهجرة إلى دار أخرى، كما فرض ذلك على بني إسرائيل، حين استتيبوا من عبادة العجل.. لم يطع منهم إلا القليل.

بين الله[٢] سبحانه وتعالى في هذه الآية أن صادق الإيمان هو الذي يطيع الله في كل ما يأمر به، في السهل والصعب، والمحبوب والمكروه، ولو كان ذلك بقتل النفس، والخروج من الديار، الجسم دار الروح والوطن دار الجسم، أما المنافق فيعبد الله على ما يوافق هواه وشهواته، فإن أصابه خير.. اطمأن به ورضي، وإن ناله أذى.. انقلب على وجهه، وارتد على عقبه، وباء بالخسران في الدنيا والآخرة.

قرأ أبو عمرو[٣] بكسر نون ﴿أن﴾ وضم واو ﴿أو﴾، وكسرهما حمزة وعاصم، وضمهما باقي السبعة، وأما ضم النون وكسر الواو فلم يقرأ به أحد، فالكسر على أصل التقاء الساكنين، والضم للاتباع للثالث؛ إذ هو مضموم ضمة لازمة، وإنما فرق أبو عمرو لأن الواو أخت الضمة. اهـ «سمين».

وقرأ الجمهور: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ بالرفع على البدل من الواو في فعلوه، وهو المختار؛ لأنه استثناء من كلام تام غير موجب، وقرأ أبي وابن وأبي إسحاق وابن عامر وعيسى بن عمر ﴿إلا قليلا﴾ بالنصب على الاستثناء بعد النفي، وهو مرجوح.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ ويكلفون به؛ أي: ولو أن هؤلاء المنافقين فعلوا ما أمروا به، وتركوا ما نهوا عنه.. ﴿لَكَانَ﴾ ذلك الفعل والترك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: أنفع لهم في الدنيا والآخرة ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لأقدامهم على الحق،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الجمل.

وأكثر تصديقاً وتحقيقاً لإيمانهم، وإنما سمى[1] الله سبحانه وتعالى ذلك التكليف وعظاً؛ لأن أوامر الله تعالى وتكاليفه مقرونة بالوعد والوعيد والثواب والعقاب، وما كان كذلك يسمى وعظاً، وإنما كان فعل ذلك أشد تثبيتاً لهم على إيمانهم؛ إذ الأعمال هي التي تطبع الأخلاق والفضائل في نفس العامل، وتبدد الأوهام والمخاوف من نفسه، فبذل المال ـ مثلاً ـ آية من آيات الإيمان، وقربة من أعظم القرب، فمن فعله.. كان مؤمناً إيماناً صادقاً، ومن آمن بذلك ولم يفعله.. كان علمه بمنافعه ومزاياه له وللأمة والدين علماً ناقصاً، فكلما دعى الداعي إلى البذل.. طاف به طائف البخل والإمساك، وعرض له شح الفقر والإملاق، أو نقصان المال عن مال بعض الأقران، لكنه إذا اعتدل البذل صار السخاء خلقاً له وسجية، وقلما امتنع من فعله حين تدعو الحاجة إليه، إذ الطاعة تدعو إلى مثلها فالمرء يطلب الخير أولاً، حتى إذا حصله.. طلب أن يكون الحاصل ثابتاً قوياً.

﴿و﴾ لو أنهم فعلوا هذا الخير العظيم، وامتثلوا ما أمروا به، وأخلصوا العمل.. ﴿إذاً لآتيناهم﴾؛ أي: إذا لأعطيناهم من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثواباً جسيماً وافراً في الجنة، وكيف لا يكون عظيماً وقد وصفه النبي ﷺ بقوله «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». و﴿إذاً﴾ واقعة في جواب شرط مقدر كما أشرنا إليه في الحل، وسيأتي بيانه في الإعراب، ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: ولأرشدناهم ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ أي: طريقاً قويماً موصلاً لهم إلى الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، كما ذكر ذلك سبحانه في الآية التالية، وهو دين الإسلام. وقيل: معنى صراطاً مستقيماً؛ أي: طريقاً[2] من عرصة القيامة إلى الجنة فحمل لفظ الصراط في هذا الموضع على هذا المعنى أولى؛ لأنه تعالى ذكره بعد ذكر الأجر، والدين الحق مقدم على الأجر، والطريق من عرصة القيامة إلى الجنة إنما يحتاج إليه بعد استحقاق الأجر. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ أو غيره من بقية الرسل؛ أي: ومن يمتثل الله سبحانه وتعالى ورسوله محمداً ﷺ بفعل ما أمرا

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

به، واجتناب ما نهيا عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المطيعون لهما، كائنون في الجنة ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ في الدنيا بالهداية والتوفيق؛ أي: يكون هذا المطيع يوم القيامة مرافقاً لأقرب عباد الله وأرفعهم درجات عنده، وهم الأصناف الأربعة الذين ذكرهم الله تعالى في الآية، وهم صفوة الله من عباده، وقد وجدوا في كل أمة، ومن أطاع الله ورسوله من هذه الأمة.. كان منهم، وحشر يوم القيامة معهم.

وقوله ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والمرسلين.. إلخ بيان للذين أنعم الله عليهم، وفي الآية سلوك التدلي، فإن منزلة كل واحد من الأصناف الأربعة أعلى من منزلة من بعده، ﴿والصدقين﴾؛ أي: السابقين إلى تصديق الرسل، فصاروا في ذلك قدوة لسائر الناس، وهم أفاضل أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، سموا بذلك لمبالغتهم في الصدق والتصديق ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ أي: القتلى في سبيل الله تعالى، أو الذين[1] يشهدون بصحة دين الله تعالى، تارة بالحجة والبيان، وتارة أخرى بالسيف والسنان، فالشهداء هم القائمون بالقسط، وأما كون الإنسان مقتول الكافر.. فليس فيه زيادة شرف لأن هذا القتل قد يحصل في الفساق ومن لا منزلة له عند الله، ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ غير الأصناف الثلاثة السابقة؛ لأن الأصناف الثلاثة صالحون أيضاً، وهم القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، وقيل: الصارفون[2] أعمارهم في طاعة الله، وأموالهم في مرضاته، وكل من كان اعتقاده صواباً وعمله غير معصية فهو صالح، ثم إن الصالح قد يكون بحيث يشهد لدين الله بأنه هو الحق، وأن ما سواه هو الباطل، وهذه الشهادة تارة بالحجة والدليل وأخرى بالسيف، وقد يكون الصالح غير موصوف بكونه قائماً بهذه الشهادة، فثبت أن كل من كان شهيداً كان صالحاً، ولا عكس فالشهيد أشرف أنواع الصالحين، ثم الشهيد قد يكون صديقاً وقد لا، ومعنى الصديق: هو الذي كان أسبق إيماناً من غيره، وكان إيمانه قدوة لغيره، فثبت أن كل من كان صديقاً كان شهيداً، ولا عكس، فثبت أن أفضل الخلق الأنبياء، وبعدهم الصديقون، وبعدهم من ليس له درجة إلا محض درجة الشهادة، وبعدهم من ليس له درجة إلا محض درجة الصلاح.

---

(١) المراح. (٢) المراح.

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: وحسن كل واحد من الأصناف الأربعة من جهة كونه ﴿رَفِيقًا﴾ في الجنة، بأن يستمتع فيها المطيع برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم، وإن كان مقرهم في الدرجات العالية بالنسبة إلى غيرهم، والمخصوص بالمدح هؤلاء المذكورون من الأصناف الأربعة، وفي هذه الجملة معنى التعجب، كأنه قال: وما أحسن أولئك رفيقاً في الجنة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي أعطى الله المطيعين من الأجر العظيم، ومن مرافقة هؤلاء المنعم عليهم، هو ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ والعطاء ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، تفضل به على من أطاع الله ورسوله، لا أنهم نالوه بطاعتهم؛ أي: إن هذا الذي ذكر من الجزاء لمن يطيع الله والرسول هو الفضل الذي لا يعلوه فضل، فإن السمُوَّ إلى إحدى تلك المنازل في الدنيا، ومرافقة أهلها في الأخرة، هو منتهى ما يأمله المرء من السعادة، وبه يتفاضل الناس، فيفضل بعضهم بعضاً، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾؛ أي: وكفى بالله سبحانه وتعالى من جهة كونه عليماً بالعصاة والمطيعين والمنافقين والمخلصين، ومن يصلح لمرافقة هؤلاء، ومن لا يصلح، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَحَسُنَ﴾ بضم السين وهي الأصل ولغة الحجاز، وقرأ أبو السمال: ﴿وحسْن﴾ بسكون السين وهي لغة بعض بني قيس.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على: ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة: ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً، ﴿أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع صلتها

(١) البحر المحيط.

في تأويل مصدر منصوب[1] على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾، تقديره: يأمركم تأدية الأمانات، أو منصوب بنزع الخافض، تقديره يأمركم بتأدية الأمانات؛ لأن حذفه مع أن وأن مطرد، كما قال ابن مالك:

نَـقْـلاً وَفِـي أَنَّ وَأَنْ يَـطَّـرِدُ   مَـعْ أَمْـنِ لَـبْـسٍ كَـعَـجِـبْـتُ أَنْ يَـدُوْا

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجردة عن معنى الشرط، ﴿حَكَمْتُم﴾: فعل وفاعل، ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿حَكَمْتُم﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، تقديره: وقت حكمكم بين الناس، والظرف متعلق بـ﴿تَحْكُمُواْ﴾ الآتي على مذهب الكوفيين المجيزين تقديم معمول الصلة على حرف مصدري، ويقال على مذهب البصريين المانعين ذلك إن المعمول هنا ظرف، والظروف يغتفر فيها ما لا يغتفر في غيرها، ﴿أَن تَحْكُمُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَحْكُمُواْ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية ﴿أن﴾: مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من قوله: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾، أو منصوباً بنزع الخافض، والتقدير: إن الله يأمركم تأدية الأمانات إلى أهلها وحكمكم بالعدل وقت حكمكم بين الناس، وفصل[2] هنا بين حرف العطف والمعطوف بـ﴿إذا﴾، وقد جوزه بعضهم، وجعله مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ وخص هذا أبو علي الفارسي بالشعر وليس بصواب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها، ﴿نِعِمَّا﴾: ﴿نِعْم﴾ فعل ماض من أفعال المدح، ﴿ما﴾ موصولة في محل الرفع فاعل، ﴿يَعِظُكُم﴾: فعل

---

(١) صاوي.   (٢) البحر المحيط.

ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة ما الموصولة، والعائد ضمير به، والتقدير: إن الله نعم الشيء الذي يعظكم به، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ نكرة موصوفة في محل النصب على التمييز، ويكون فاعل ﴿نعم﴾ مستتراً فيه وجوباً تقديره: نعم الشيء شيئاً يعظكم به، وجملة ﴿يَعِظُكُم﴾ على هذا الوجه: صفة لـ﴿ما﴾؛ لأنها نكرة موصوفة، وقد ذكر القولين ابن مالك بقوله:

وَ(مَا) مُمَيِّزٌ وَقِيلَ فَاعِلُ ... فِيْ نَحْوِ نِعْمَ مَا يَقُوْلُ ٱلْفَاضِلُ

والمخصوص بالمدح محذوف وجوباً تقديره: تأدية الأمانات والحكم بالعدل وجملة نعم في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿سَمِيعًا﴾: خبر أول لها. ﴿بَصِيرًا﴾: خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، و﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد، زيد تعويضاً عما فات أي من الإضافة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾: وجملة النداء مستأنفة، ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء، وكذلك ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَأُوْلِي﴾: معطوف على ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾: مضاف إليه، ﴿مِنكُمۡۖ﴾: جار ومجرور حال من ﴿أولي الأمر﴾.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.

﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية بمعنى الواو، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم على كونه فعل شرط لها، ﴿فِي شَيۡءٖ﴾: جار ومجرور

متعلق به، ﴿فَرُدُّوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، ﴿ردوه﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواب شرط لها، وجملة إن الشرطية مستأنفة، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ردوه﴾. ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾، ﴿تُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: معطوف على الجلالة، وجملة ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجواب إن الشرطية محذوف معلوم مما قبله، تقديره: إن كنتم تؤمنون بالله فردوه إلى الله ورسوله، وجملة إن الشرطية مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَحْسَنُ﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿تَأْوِيلًا﴾: منصوب على التمييز.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التعجبي، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو إلى المخاطب، والجملة الفعلية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرَ﴾، ﴿يَزْعُمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: ضمير الغائبين في محل النصب اسمها، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي زعم، ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة لما أو صفة لها، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الجر معطوفة على ما الأولى، ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ما، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾، وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلة لما أو صفة لها.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أو من واو ﴿يَزْعُمُونَ﴾، ﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريدون تحاكمهم إلى الطاغوت. ﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾، ﴿وَقَدْ﴾: الواو حالية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أُمِرُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾، ﴿أَن يَكْفُرُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَكْفُرُواْ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب، على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿أُمِرُوٓاْ﴾، تقديره: وقد أمروا كفرهم به، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يُرِيدُونَ﴾، ﴿أَن يُضِلَّهُمْ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ﴿ضَلَٰلًۢا﴾: مفعول مطلق، ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يريد﴾، تقديره: ويريد الشيطان إضلالهم ضلالاً بعيداً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: نائب فاعل محكي، وجملة قيل في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، وإن شئت قلت: ﴿تَعَالَوْاْ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَعَالَوْاْ﴾، ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله، وجملة ﴿تَعَالَوْاْ﴾ في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿رَأَيْتَ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب إذا، وجملة إذا مستأنفة، ﴿يَصُدُّونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنكَ﴾: متعلق به، ومفعوله محذوف تقديره: غيرهم، ﴿صُدُودًا﴾: منصوب على المصدرية، وجملة ﴿يَصُدُّونَ﴾ في

محل النصب حال من ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، على القول بأن رأى بصرية، أما على القول بأن رأى علمية، فجملة ﴿يَصُدُّونَ﴾ في محل النصب مفعول ثان لرأى.

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿كيف﴾: اسم استفهام في محل النصب على التشبيه بالمفعول به بفعل محذوف، تقديره: فكيف يصنعون، ويجوز جعل ﴿كيف﴾ خبراً مقدماً لمبتدأ محذوف تقديره: فكيف صنعهم، ﴿إِذَآ﴾: ظرف مجرد عن معنى الشرط، في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة جملة إنشائية مستأنفة، ﴿أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَصَٰبَتْهُم﴾، والباء للسبب، ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما قدمته أيديهم، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿جَآءُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض معطوفة على جملة ﴿أَصَٰبَتْهُم﴾، ﴿يَحْلِفُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿جَآءُوكَ﴾، ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿أَرَدْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿إِحْسَٰنًا﴾: مفعول به، ﴿وَتَوْفِيقًا﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿أَرَدْنَآ﴾ من الفعل والفاعل جواب القسم لا محل لها من الإعراب، كما قاله أبو حيان في «النهر».

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صلة لما، أو صفة لها، وجملة ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ صلة الموصول، ﴿فَأَعْرِضْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب بشرط محذوف، تقديره: إذا

كان حالهم كذلك فأعرض عنهم، وجملة الشرط المحذوف مستأنفة، ﴿أَعۡرِضۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم جواب للشرط المحذوف، ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾: معطوف على أعرض عنهم، وكذا قوله: ﴿وَقُل لَّهُمۡ﴾: معطوف عليه، ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿قل﴾، وقيل: يتعلق بـ﴿بَلِيغٗا﴾، ﴿قَوۡلَۢا﴾: منصوب على المصدرية، ﴿بَلِيغٗا﴾ صفة له.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿رَّسُولٍ﴾: مفعول به منصوب بفتحة مقدرة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿لِيُطَاعَ﴾: ﴿اللام﴾ لام كي، ﴿يطاع﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ونائب فاعله ضمير يعود على الرسول، ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يطاع﴾، أو حال من الضمير في ﴿يطاع﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي، تقديره: إلا لإطاعة الناس له، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾.

﴿وَلَوۡ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لو﴾: شرطية، ﴿أَنَّهُمۡ﴾ ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿والهاء﴾: اسمها، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، ﴿ظَّلَمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، والظرف متعلق بـ﴿جَآءُوكَ﴾ الآتي، ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿جَآءُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، تقديره: ولو أنهم جاؤوا إياك وقت ظلمهم أنفسهم، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لفعل محذوف فعل شرط لـ﴿لو﴾، تقديره: ولو

ثبت مجيؤهم إياك وقت ظلمهم أنفسهم، ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿استغفروا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿جَآءُوكَ﴾، ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾: فعل وفاعل وجار ومجرور متعلق بـ﴿استغفر﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾، ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿وجدوا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿تَوَّابٗا﴾: مفعول ثان، ﴿رَّحِيمٗا﴾: صفة له، أو عطف بيان منه، أو حال من الضمير المستتر في ﴿تَوَّابٗا﴾، وقيل: إن وجد متعد لواحد، و﴿تواباً﴾: حال من الجلالة، و﴿رحيماً﴾: صفة له، أو بدل منه، وجملة ﴿وجدوا﴾ جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد معنى القسم. ﴿وَرَبِّكَ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿ربك﴾ ﴿رب﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، ﴿والكاف﴾ مضاف إليه، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: فأقسم لك بربك يا محمد، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة، وفي ﴿لا﴾ هنا أربعة أقوال، ذكرها في «الفتوحات» لا نطيل الكلام بذكرها، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، تقديره: إلى تحكيمهم إياك، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾، ﴿شَجَرَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَجَرَ﴾، والجملة الفعلية صلة لما أو صفة لها، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَجِدُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾، ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَجِدُواْ﴾، تعلق الظرف بالفعل، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿حَرَجٗا﴾،

﴿حَرَجًا﴾: مفعول به لـ﴿وجد﴾، إن قلنا: إنها متعدية إلى واحد، أما إذا كانت متعدية لاثنين. فالجار والمجرور ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أحد المفعولين لها، ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حَرَجًا﴾، ﴿قَضَيۡتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: مما قضيت به، ويصح أن تكون ما مصدرية، ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾، ﴿تَسۡلِيمًا﴾: منصوب على المصدرية.

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: شرطية، ﴿أَنَّا﴾: أنَّ حرف نصب، ﴿نا﴾: اسمها، ﴿كَتَبۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: متعلق به، وجملة ﴿كَتَبۡنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، تقديره: ولو أنا كاتبون عليهم، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل شرط محذوف، تقديره: ولو ثبتت كتابتنا عليهم، ﴿أَنِ﴾، حرف نصب ومصدر، ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾، ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿كَتَبۡنَا﴾، تقديره: ولو أنا كتبنا عليهم قتلهم أنفسهم، ويجوز أن تكون أن مفسرة، لأنَّ ﴿كَتَبۡنَا﴾ قريب من معنى أمرنا أو قلنا، ﴿أَوِ﴾، حرف عطف، ﴿ٱخۡرُجُواْ﴾: فعل وفاعل في محل النصب معطوف على ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ﴾، ﴿مِن دِيَٰرِكُم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱخۡرُجُواْ﴾، ﴿مَّا﴾: نافية رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿فَعَلُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلٞ﴾: بالرفع بدل من واو ﴿فَعَلُوهُ﴾: بدل بعض من كل، وهو الراجح من نصبه على الاستثناء؛ لأن الاستثناء من كلام تام غير موجب، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿قَلِيلٞ﴾، وهو الرابط بين البدل والمبدل منه.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿أَنَّهُمْ﴾: ﴿أنَّ﴾ حرف نصب، ﴿والهاء﴾: اسمها، ﴿فَعَلُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿يُوعَظُونَ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿يُوعَظُونَ﴾ صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾، وجملة ﴿فَعَلُواْ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف، فعل شرط لـ﴿لو﴾، تقديره: ولو ثبت فعلهم ما يوعظون به، ﴿لَكَانَ﴾: اللام رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على المصدر المفهوم من ﴿فَعَلُواْ﴾، تقديره: هو؛ أي: لكان فعلهم ما يوعظون به، ﴿خَيْرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿لَّهُمْ﴾ متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾، ﴿وَأَشَدَّ﴾: معطوف على ﴿خَيْرًا﴾، ﴿تَثْبِيتًا﴾: منصوب على التمييز، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها جواب ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها، مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَإِذًا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذاً﴾: حرف نصب وجواب وجزاء، وهي ملغاة هنا عن عمل النصب، ﴿لَّآتَيْنَٰهُم﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿آتيناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿آتينا﴾، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، وجملة ﴿لَّآتَيْنَٰهُم﴾ معطوفة على جملة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ على كونها جواباً لـ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿هديناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿صِرَٰطًا﴾: مفعول ثان، ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾: صفة لـ﴿صِرَٰطًا﴾، وجملة ﴿لهديناهم﴾ معطوفة على جملة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ على كونها جواباً لـ﴿لو﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُطِعِ﴾: فعل مضارع مجزوم بمن على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾: معطوف على الجلالة، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: كائن مع الذين، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾، على كونها جواب الشرط لها، وجملة من الشرطية مستأنفة، ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِم﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنْعَمَ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾: معطوفات على ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ﴿وَحَسُنَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿حسن﴾: فعل ماض من أفعال المدح، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: فاعل، ﴿رَفِيقًا﴾: تمييز أو حال، والجملة مستأنفة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْفَضْلُ﴾: خبر، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْفَضْلُ﴾، والعامل فيه معنى الإشارة، ويجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿الفضلُ﴾: صفة له، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: خبراً، والجملة مستأنفة، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلِيمًا﴾: تمييز، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ هو مضارع أدى تأدية، من باب فعَّل المضعف، وهو هنا بمعنى أصل الفعل، والأمانات جمع أمانة، وهي مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: الشيء الذي يحفظ ليؤدى إلى صاحبه، ويسمى من يحفظها ويؤديها حفيظاً وأميناً ووفياً، ومن لا يحفظها ولا يؤديها خائناً، ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ العدل: مصدر لعدل من باب ضرب، وهو لغة: إيصال الحق إلى صاحبه من أقرب الطرق إليه،

وشرعاً: فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ لا الحكم بالرأي المجرد، ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم﴾: نِعْمَ بكسر النون إتباعاً لكسرة العين، وأصل النون مفتوحة، وأصل العين مكسورة، فأصله نَعِمَ بوزن عَلِمَ، ثم كسرت النون إتباعاً لكسرة العين.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ تنازع من باب تفاعل، والتنازع: التجاذب، والمنازعة: المجاذبة، والنزع: الجذب، كأن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويجذبها، والمراد الاختلاف والمجادلة، ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ التأويل: مصدر أول ـ من باب فعل ـ تأويلاً، إذا فسر وبين، ولكن هنا بمعنى المآل والعاقبة، لا بمعنى التفسير والتبيين فله إطلاقان.

﴿يَزۡعُمُونَ﴾ مضارع زعم، من باب نصر، والزعم بتثليث الزاي في أصل اللغة القول، حقاً كان أو باطلاً، ثم كثر استعماله في الكذب، قال الراغب: الزعم حكاية قول يكون مظنة للكذب، وقد جاء في القرآن ذم القائلين به، كقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾، وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾.

﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الطاغوت: الكاهن والشيطان والصنم وكل رئيس في الضلالة، يطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾: ليس مصدراً جارياً على يضلهم، ويحتمل أن يكون جعل مكان الإضلال، فوضع أحد المصدرين موضع الآخر، ويحتمل أن يكون مصدراً لثلاثي محذوف، تقديره: فيضلون ضلالاً بعيداً، ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾: يقال: صد عن الشيء يصد ـ من بابي ضرب ونصر ـ صداً وصدوداً، إذا أعرض عنه، وهو من المضاعف اللازم الذي جاء بالوجهين: الكسر على القياس، والضم على الشذوذ، لا من صد الذي هو المضاعف المعدى، فإنه بالضم على القياس لا غير، ومعناه المنع، يقال صده عن كذا إذا منعه وصرفه عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، فالصدود: مصدر سماعي له، وقياسه صد، على وزن فعل بسكون العين؛ لأنه من فعل المفتوح.

﴿إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا﴾؛ أي: في المعاملة بين الخصوم، وهو مصدر أحسن الرباعي، من باب أكرم، ﴿وَتَوۡفِيقًا﴾؛ أي: بينهم وبين خصومهم بالصلح والتوفيق، مصدر لوفق المضعف، والوفاق والوفق ضد المخالفة، ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي: في الأمر الذي أشكل، والتبس عليهم، واختلطت واختلفت فيه آراؤهم، ومنه الشجر لالتفاف أغصانه واختلاطها وتداخل بعضها في بعض، ومنه قول طرفة:

وَهُمُ ٱلْحُكَّامُ أَرْبَابُ ٱلْهُدَىٰ ... وَسُعَاةُ ٱلنَّاسِ فِيْ ٱلأَمْرِ ٱلشَّجَرْ

أي: المختلف، ومنه تشاجر الرماح؛ أي: اختلافها، يقال: شجر الأمر يشجر شجوراً وشجراً ـ من باب قعد ـ إذا التبس، وشاجر الرجل غيره في الأمر إذا نازعه فيه، وتشاجروا إذا تنازعوا، وخشبات الهودج يقال لها: شجار، لتداخل بعضها في بعض، ﴿حَرَجٗا﴾ الحرج: الضيق، وقيل: الشك، ومنه قيل للشجر الملتف: حرج وحرجة، وجمعها حراج، وقيل: الحرج الإثم، ﴿تَسۡلِيمٗا﴾: مصدر مؤكد لعامله.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبديع[1]:

منها: دخول حرف الشرط على ما ليس بشرط في الحقيقة في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾، وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، وفي قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾، وفي قوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾، وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾.

ومنها: الاستفهام المراد به التعجب في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ

(١) البحر المحيط.

﴿يَزۡعُمُونَ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾، وفي قوله: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾، وفي قوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾، وفي قوله: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ أصل المنازعة الجذب باليد، ثم استعير للتنازع في الكلام، وفي قوله: ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ استعار البعد المختص بالأزمنة والأمكنة للمعاني المختصة بالقلوب؛ لدوام القلوب عليها، وفي قوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ استعار ما اشتبك وتضايق من الشجر للمنازعة التي يدخل بها بعض الكلام في بعض، استعارة المحسوس للمعقول، وفي قوله: ﴿أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾ أطلق اسم الحرج الذي هو من وصف الشجر إذا تضايق على الأمر الذي يشق على النفس، للمناسبة التي بينهما وهو الضيق.

ومنها: التتميم وهو أن يتبع الكلام كلمة تزيد المعنى تمكناً وبياناً للمعنى المراد، وهو في قوله: ﴿قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾؛ أي: يبلغ إلى قلوبهم ألمه أو بالغاً في زجرهم.

ومنها: زيادة الحرف لزيادة المعنى في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ أتت ﴿مِّن﴾ لإفادة الاستغراق، إذ لو لم تدخل هي في الكلام لأوهم الواحد.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ﴿وَأَنفُسِهِمۡ﴾، وفي قوله: ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾، وفي لفظ الجلالة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

ومنها: التوكيد بالمصدر في قوله: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾.

ومنها: التقسيم البليغ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به، والإشعار بعلة الحكم.

ومنها[1]: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ حيث لم يقل: واستغفرت لهم، بل قال: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ تفخيماً لشأنه، حيث عدل عن خطابه إلى ما هو من عظيم صفاته، فهو على أسلوب حكم الأمير بكذا، مكان حكمت بكذا، ووجه التفخيم فيه أن شأن الرسول أن يستغفر لمن عظم ذنبه.

ومنها: إيراد الأمر بصورة الأخبار، وتصديره بإنَّ المفيدة للتحقيق في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ﴾ للتفخيم وتأكيد وجوب العناية والامتثال.

ومنها: الإطناب في مواضع.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الجمل.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن
لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ
فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا
(٧٣) ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا
وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) أَلَمْ تَرَ
إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ
قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ
الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَّا أَصَابَكَ
مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١)﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها هو[1]: أنه تعالى لما ذكر طاعته وطاعة رسوله، وكان من أهم الطاعات إحياء دين الله تعالى.. أمر بالقيام بإحياء دينه، وإعلاء دعوته، وأمرهم أن لا يقتحموا على عدوهم على جهالة، فقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، فعلمهم مباشرة الحروب، ولما تقدم ذكر المنافقين.. ذكر في هذه الآية تحذير المؤمنين من قبول مقالاتهم، وتثبيطهم عن الجهاد، فنادى أولاً باسم

(١) البحر المحيط.

الإيمان على عادته تعالى إذا أراد أن يأمر المؤمنين أو ينهاهم.

وقال المراغي: مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]؛ يعني قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾: أن الله سبحانه وتعالى، لما بين أولاً في هذه السورة كثيراً من الأمور الدينية، من عبادته تعالى وعدم الشرك به، والمدنية كمعاملة ذوي القربى والجيران واليتامى والمساكين، والشخصية كأحكام الزواج والمصاهرة والمواريث.. بين هنا في هذه الآيات بعض الأحكام الحربية والسياسية، ورسم لنا الطريق التي نسير عليها في حفظ ملتنا وحكومتنا المبنية على تلك الأصول من الأعداء انتهى.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما بين حال ضعفاء الإيمان، الذين يبطئون عن القتال في سبيله.. دلهم بهذه الآية على طريق تطهير نفوسهم من ذلك الذنب العظيم، ذنب القعود عن القتال، وأمر به إيثاراً لما عند الله من الأجر والثواب على ما في الدنيا من نعيم زائل وعرض يفنى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أنه لما أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أولاً بالنفر إلى الجهاد، ثم ثانياً بقوله: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ثم ثالثاً على طريق الحث والحض بقوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾.. أخبر في هذه الآية بالتقسيم، أن المؤمن هو الذي يقاتل في سبيل الله، وأن الكافر هو الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، ليبين للمؤمنين فرق ما بينهم وبين الكفار، ويقويهم بذلك، ويشجعهم ويحرضهم، وأن من قاتل في سبيل الله هو الذي يغلب؛ لأن الله هو وليه وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب، والطاغوت هنا الشيطان؛ لقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر، أولاً بأخذ الحذر والاستعداد للقتال والنفر له، وذكر حال المبطئين الذين ضعفت قلوبهم، وأمرهم بالقتال في سبيله، وفي سبيل إنقاذ المستضعفين. . ذكر هنا أن الإسلام كلفهم ترك ما كانوا عليه في الجاهلية، من تخاصم وتلاحم وحروب مستمرة، ولا سيما بين قبيلتي الأوس والخزرج، فإن الحروب بينهم لم تنقطع إلا بمجيء الإسلام، وأمرهم بكف أيديهم عن القتال والعدوان على غيرهم، وطلب إليهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما فيهما من تهذيب النفوس والعطف والرحمة، حتى خمدت من نفوس كثير منهم حمية الجاهلية، وحل محلها شرف العواطف الإنسانية، إلى أن اشتدت الحاجة إلى القتال للذود عن بيضة الإسلام، ودفع العدوان من أولئك المشركين الذين آذوا المسلمين، وأحبوا فتنتهم في دينهم، وردهم إلى ما كانوا عليه، ففرضه عليهم، فكرهه المنافقون والضعفاء، فنعىٰ ذلك عليهم، ووبخهم أشد التوبيخ، وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنه تعالى لما أمر بالقتال حين طلبوه. . وجب امتثال أمر الله فلما كعَّ ـ جبن ـ عنه بعضهم. . قال تعالى: ألا تعجب يا محمد من ناس طلبوا القتال، فأمروا بالموادعة، فلما كتب عليهم. . فَرقَ فريق وجزع، ذكره في «البحر المحيط» انتهى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ . . .﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه النسائي (ج ٦/ ص ٣) قال: أخبرنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، قال: أنبأنا أبي، قال الحسين بن واقد: عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن عبد الرحمٰن بن عوف الزهري

---

(١) المراغي.
(٢) النسائي.

وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا رسول الله إنا كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا.. صرنا أذلة، فقال: «إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا، فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال، فكفوا»، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.. الحديث أخرجه الحاكم أيضاً، وقال: رجاله رجال الصحيح.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما جاء به محمد ﷺ، ﴿خُذُوا۟﴾ أسلحتكم، والزموا ﴿حِذْرَكُمْ﴾؛ أي: احترازكم واحتراسكم من عدوكم، ولا تمكنوه من أنفسكم، واستعدوا لاتقاء شره وحربه، بأن تعرفوا حاله ومبلغ استعداده وقوته، وإذا كان لكم أعداء كثيرون.. فاعرفوا ما بينهم من وفاق وخلاف، واعرفوا الوسائل لمقاومتهم إذا هجموا عليكم، واعملوا بتلك الوسائل.

ويدخل في ذلك معرفة حال العدو، ومعرفة أرضه وبلاده، وأسلحته واستعمالها، وما يتوقف على ذلك من معرفة الهندسة والكيمياء وجر الأثقال، وبالجملة: يجب اتخاذ أهبة الحرب المستعملة فيها من طيارات وقنابل ودبابات وبوارج مدرعة ومدافع مضادة للطائرات إلى نحو ذلك، حتى لا يهاجمكم على غرة، أو يهددكم في دياركم، ويأخذ أراضيكم، وحتى لا يعارضكم في إقامة دينكم أو دعوتكم.

وقد كان النبي ﷺ والصحابة على علم بأرض عدوهم، كما لهم عيون وجواسيس يأتونهم بالأخبار، ولما أخبروه بنقض قريش للعهد وإخلالهم بشروط المعاهدة في صلح الحديبية.. استعدو لفتح مكة، ولم يفلح أبو سفيان في تجديد العهد مرة أخرى، وقد كان يظن أن المسلمين لم يعلموا بنكثهم له، وقد قال أبو بكر لخالد بن الوليد في حرب اليمامة: حاربهم بمثل ما يحاربونك به، السيف بالسيف والرمح بالرمح.

وما رواه الحاكم عن عائشة: «لا يغني حذر من قدر» لا يناقض أخذ

الحذر، فلا يعارض هذه الآية؛ لأن الأمر بالحذر داخل في القدر، فالأمر به لندفع عنا شرَّ الأعداء، لا لندفع القدر ونبطله؛ إذ القدر هو جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب على قدر المسببات، والحذر من جملة الأسباب، فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده.

﴿فَٱنفِرُواْ﴾؛ أي: فاخرجوا لقتال عدوكم، وانهضوا لمقاومته، ﴿ثُبَاتٍ﴾؛ أي: جماعات بعد جماعات، سرية بعد سرية، ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ﴾: واخرجوا إلى لقائه كلكم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين كوكبة واحدة، والتخيير فيه لولاة الأمور بحسب اجتهادهم، والمراد بادروا كيفما أمكن؛ أي: فانفروا جماعة إثر جماعة، بأن تكونوا فصائل وفرقا إذا كان الجيش كبيراً، أو موقع العدو يستدعي ذلك، أو تنفر الأمة كلها جميعاً إذا اقتضت الحال ذلك بحسب قوة العدو.

والخلاصة: أنكم إما أن تنفروا جماعات جماعات، وإما أن ينفر جميع المؤمنين على الإطلاق بحسب حال العدو.

وامتثال هذا الأمر يقتضي أن تكون الأمة على استعداد دائم للجهاد، بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب، ويتمرن عليها، وأن تقتني السلاح الذي تحتاج إليه في هذا النضال، وتتعلم كيفية استعماله في كل زمان بما يناسبه.

وبهذا تعلم أن الحكومة الإسلامية يجب عليها أن تقيم هذا الواجب بنفسها، لا أن تبقى عالة على غيرها وعلى الأمة أن تساعدها عليه، بل تلزمها إياه إذا قصرت فيه، بعكس ما نراه الآن من تراخي الأمم الإسلامية وضعفها وتوانيها في ذلك، حتى طمعت فيها كل الدول التي تجاورها، واجتاحتها من أطرافها، واجتثت كثيراً من أراضيها وأقاليمها، واستأمرت عليها واستعبدتها، وضربت عليها الخراج والجزية، كالشعوب الأرومية الإسلامية في شرق أفريقيا، استعبدها استئمار الحبوش، فعلى الأمة الإسلامية التي استعبدها الاستئمار أن يتوبوا إلى ربهم، ويتمسكوا بدينهم، ويعضوا عليه بالنواجذ، ويتوسلوا إلى ربهم بصالح أعمالهم، ويسألوا الله النصر على أعدائهم الشيوعية، ويستغيثوا بالأمم الإسلامية التي تجاورهم، وأن يأخذوا أهبة الحرب وسلاحها، ويتعلموا

استعمالها، كهولاً وشباناً وغلماناً، بدل ما استغرقوا أعمارهم في آلة الحراثة والزراعة كابراً عن كابر، أفلا تنتبهون أيتها الأمة المستأمرة من سِنة الغفلة والعبودية. أفلا تعلمون أنتم في الحياة البرزخية والحياة البهيمية، بل حياتها أحسن من حياتكم؛ لأنها محبوبة محترمة عند صاحبها، فيا مصيبة عليكم ما أعظمها وما أقبحها، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد شدد دين الإسلام الحنيف أيما تشديد في هذا الأمر، أعني الاستعداد للعدو، فجاء مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وجاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى.

والخطاب في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ لجماعة المؤمنين بحسب الظاهر الشامل للمنافقين وضعفاء الإيمان؛ أي: وإن من عسكر رسول الله ﷺ، ﴿لَمَنْ﴾ وعزتي وجلالي ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾؛ أي: ليتثاقلنَّ ويتأخرنَّ عن الجهاد، ويتخلَّفنَّ عن القتال معكم، وهم المنافقون وضعفاء الإيمان، فالمنافقون يرغبون عن الحرب؛ لأنهم لا يحبون أن يبقى الإسلام وأهله، ولا أن يدافعوا عنه ويحموا بيضته، فهم يبطئون عن القتال، ويبطئون غيرهم عن النفر إليه، والجبناء وضعفة الإيمان يبطئون بأنفسهم عن القتال خوراً وخوفاً من صليل السيوف ومن الكر والفر ومقابلة العدو وهو شاكي السلاح، ثم فصل أحوال هؤلاء الضعفاء فقال: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم﴾ أيها المؤمنون المجاهدون، ونزلت بكم ﴿مُّصِيبَةٌ﴾؛ أي: واقعة من قتل أو هزيمة أو جهد عيش، ﴿قَالَ﴾ ذلك المبطىء فرحاً بما فعل حامداً رأيه شاكراً ربه: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾ بالقعود وأكرمني بالسلامة، ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: حاضراً معهم في المعركة، فيصيبني مثل ما أصابهم من المصائب والشدة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ بالتشديد، وقرأ مجاهد ﴿ليبطئن﴾ بالتخفيف، والقرآتان يحتمل أن يكون الفعل فيهما لازماً؛ لأنهم يقولون: أبطأ وبطأ في معنى

---

(١) البحر المحيط.

بَطُؤَ، ويحتمل أن يكون متعدياً بالهمزة أو التضعيف من بطأ، فعلى اللزوم المعنى: أنه يتثاقل ويتثبط عن الخروج للجهاد، وعلى التعدي يكون: قد ثبط غيره عن الخروج، وأشار له بالقعود، وعلى التعدي أكثر المفسرين.

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن حصل لكم أيها المجاهدون فضل، ونعمة من الله سبحانه وتعالى، كفتح وغنيمة، فظفرتم بالعدو، وفتحتم البلاد، فغنمتم وأخذتم السبايا والأسرى.. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ذلك المبطىء والمنافق: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَهُۥ﴾؛ أي: وبين ذلك المبطىء ﴿مَوَدَّةٌ﴾؛ أي: محبة وصلة في الدين ومعرفة في الصحبة ولا مخالطة أصلاً، وجملة التشبيه معترضة بين الفعل الذي هو ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وبين مفعوله الذي هو قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾؛ أي: ليقولن قول حاسد نادم: يا هؤلاء أتمنى كوني غازياً معهم، ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ أي: فأصيب غنائم كثيرة معهم، وآخذ حظاً وافراً من السبايا، والغرض من جملة التشبيه التعجب[1] كأنه تعالى يقول: انظروا إلى ما يقول هذا المنافق، كأنه ليس بينكم أيها المؤمنون وبين المنافق صلة في الدين، ومعرفة في الصحبة، وقيل: الجملة التشبيهية حال من ضمير ﴿ليقولن﴾؛ أي: ليقولن مشبَّهاً بمن لا معرفة بينكم وبينه، وقيل: هي داخلة في المقول؛ أي: ليقولن المثبط للمثبطين من المنافقين وضعفة المؤمنين، كأن لم تكن بينكم وبين محمد معرفة في الصحبة، حيث لم يستصحبكم في الغزو، حتى تفوزوا بما فاز محمد: يا ليتني كنت معهم، وغرض المثبط حينئذ إلقاء العداوة بينهم وبين رسول الله ﷺ.

ونسبة[2] إصابة الفضل إلى جانب الله تعالى، دون إصابة المصيبة من العادات الشريفة التنزيلية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ وتقديم الشرطية الأولى على الثانية لما أن مضمونها لمقصدهم أوفق، وأثر نفاقهم فيها أظهر.

---

(١) المراح.
(٢) كرخي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ بفتح اللام، وقرأ الحسن ﴿ليقولن﴾ بضم اللام، أضمر فيه ضمير الجمع على معنى من، وقرأ ابن كثير وحفص ﴿كأن لم تكن﴾ بتاء التأنيث، والباقون بالياء، وقرأ الحسن ويزيد النحوي ﴿فأفوزُ﴾ برفع الزاي عطفاً على كنت، فتكون الكينونة معهم والفوز بالقسمة داخلين في التمني، أو على الاستئناف؛ أي: فأنا أفوز، وقرأ الجمهور بنصب الزاي وهو جواب التمني، والفاء في قوله: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ رابطة[2] الجواب بشرط مقدر، تقديره: إن لم يقاتل في سبيل الله هؤلاء المثبطون المنافقون.. فليقاتل في سبيل الله، فليجاهد لإعلاء كلمة الله تعالى المؤمنون المخلصون ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: الذين يبيعون الحياة الدنيا ولذاتها بالآخرة، ويبذلون أرواحهم لله تعالى، ويجعلون الآخرة وثوابها ثمناً لها وعوضاً منها.

ثم رغب في القتال بعد الأمر به بذكر الثواب عليه فقال: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعته ويجاهد لإعلاء كلمة الله، لا للحمية والمفاخرة ﴿فـ﴾ يظفر به عدوه و﴿يقتل﴾ شهيداً ﴿أَوْ﴾ يظفر هو بعدوه، و﴿يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾؛ أي: نعطيه في كلا الحالين ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثواباً جسيماً من عندنا في الآخرة، خالداً مخلداً في دار الجزاء والنعيم المقيم، وإذا كان الأجر حاصلاً له على كلا التقديرين.. لم يكن عمل أشرف من الجهاد، ونبه بقوله: ﴿فَيُقْتَلْ﴾ أو يغلب على أن المجاهد ينبغي له أن يثبت في المعركة، حتى يكرم نفسه بالشهادة، أو يعز الدين بالظفر والغلبة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة». متفق عليه وهذا لفظ مسلم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾ بسكون لام الأمر، وقرأت فرقة بكسرها على الأصل، وقرأ الجمهور: ﴿فَيُقْتَلْ﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ محارب بن دثار: ﴿فيقتل﴾ على بناء الفعل للفاعل، وأدغم باء يغلب في الفاء أبو عمرو والكسائي وهشام وخلاد بخلاف عنه، وأظهرها باقي السبعة، وقرأ الجمهور: ﴿نُؤْتِيهِ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش وطلحة بن مصرف ﴿يؤتيه﴾ بالياء.

ثم زاد ترغيباً فيه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والاستفهام فيه للتحريض والأمر بالجهاد؛ أي: وأيُّ عذر ثبت لكم أيها المؤمنون يمنعكم أن تقاتلوا في سبيل الله مع المشركين، لتقيموا التوحيد مقام الشرك، وتحلوا الخير محل الشر، وتضعوا العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة، ﴿و﴾ أي شيء منعكم أن تقاتلوا في تخليص ﴿المستضعفين﴾؛ أي: في فك الضعفاء إخوانكم في الدين من أيدي المشركين حالة كونهم ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ الضعفاء ﴿وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾؛ أي: الصبيان، وقيل المراد بالولدان العبيد والإماء، والمراد بالمستضعفين جماعة من المسلمين الذين بقوا بمكة وعجزوا عن الهجرة إلى المدينة، وكانوا يلقون من كفار مكة أذى شديداً، وكان النبي ﷺ يدعو لهم فيقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين»، قال ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان، ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾؛ أي: وفي تخليص المستضعفين الذين فقدوا النصير والمعين، وتقطعت بهم أسباب الرجاء، فاستغاثوا بربهم ودعوه ليفرج كربهم، ويخرجهم من تلك القرية ـ مكة ـ لظلم أهلها لهم، ويسخر لهم بعنايته من يتولى أمرهم، وينصرهم على من ظلمهم، فيتمكنوا بذلك من الهجرة إليكم، ويرتبطوا بكم بأقوى الروابط، وهي رابطة الإيمان، فهي أقوى من رابطة الأنساب والأوطان، فقالوا في دعوتهم واستغاثتهم: ﴿رَبَّنَآ﴾ ويا مالك أمرنا ﴿أَخْرِجْنَا﴾؛ أي: حولنا وانقلنا ﴿مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ وهذه البلدة يعنون مكة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾؛ أي: التي اتصف أهلها وساكنوها بالظلم؛ لأنهم كانوا مشركين، وكانوا يؤذون

(١) البحر المحيط.

المسلمين أشد الإيذاء، ويوصلون إليهم أنواع المكاره والتعذيب، وما أحد من المسلمين فيها قدر على الهجرة، لأنهم يصدونهم عنها، ويعذبون مريديها عذاباً شديداً، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا﴾ يا إلهنا ﴿مِن لَّدُنكَ﴾؛ أي: من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ من المسلمين يتولى أمورنا، ويقوم بمصالحنا، ويحفظ علينا ديننا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا﴾ يا خالقنا ﴿مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾؛ أي: ناصراً من المؤمنين ينصرنا على أعدائنا، وقد استجاب الله دعاءهم فيسر لبعضهم الخروج، وبقي بعضهم إلى أن فتحت مكة، وولى النبي ﷺ عتاب بن أسيد، وكان ابن ثماني عشرة سنة، فكان ينصر المظلومين على الظالمين، وينصف الضعيف من القوي، والذليل من العزيز، وكان الولي[1] هو رسول الله ﷺ، والنصير عتاب بن أسيد.

وما شُرع القتال إلا لعدم حرية الدين، وظلم المشركين للمسلمين، فالقتال قبيح ولا يجيزه العقل السليم إلا لإزالة قبيح أشد منه ضرراً، والأمور بمقاصدها وغاياتها، كما قال تشجيعاً للمجاهدين وترغيباً لهم في الجهاد. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا كلام مستأنف، سيق لترغيب المؤمنين في الجهاد؛ أي: إنما يقاتل الذين آمنوا لأجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ والشيطان؛ أي: إنما يقاتل الذين كفروا لنصرة دين الشيطان وكلمة الباطل، واتباعاً لوسوسته وتزيينه الكفر، فلو ترك المؤمنون القتال.. لغلب الطغيان وعم الفساد، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾. ثم حث مرة أخرى على القتال، وبين لهم ضعف عدوهم فقال: ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون وأولياء الرحمن ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ وأصحابه الذين زين لهم الشيطان بوسوسته وخداعه الباطل، وأن في الظلم وإهلاك الحرث والنسل شرفاً لهم أيما شرف، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ ومكره للمؤمنين ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ بالنسبة إلى مكر الله سبحانه وتعالى للكافرين، فالنصر والظفر لأوليائه، والهزيمة والخذلان للكافرين، فلا تخافوا أولياء الشيطان وخافون إن كنتم مؤمنين.

(١) المراح.

ألا ترى أن أهل الخير والدين يبقى ذكرهم الجميل على وجه الدهر، وإن كانوا حال حياتهم في غاية الفقر، وأما الملوك والجبابرة، فإذا ماتوا انقرض أثرهم، ولا يبقى في الدنيا رسمهم.

وقد جرت سنة الله أن الحق يعلو، والباطل يسفل، وأن الذي يبقى هو الأصلح والأمثل، فالذين يقاتلون في سبيل الله يطلبون ما تقتضيه سنة العمران، والذين يقاتلون في سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء في الأرض بغير الحق، وتسخير الناس لأغراضهم وشهواتهم، وسنن العمران تأبى ذلك، فلا يكون لذلك قوة ولا بقاء إلا لنومة أهل الحق عن حقهم، فإذا هم أفاقوا من غفوتهم.. تغلب الحق على الباطل، ورده خاسئاً محسوراً.

على أن الذين يقاتلون في تأييد الحق تتوجه هممهم إلى إتمام الاستعداد، ويكونون أجدر بالثبات والصبر، وفي ذلك من القوة ما ليس في كثرة العدد والعدد.

وهذا في الحروب الدينية التي قد تركها المسلمون منذ أزمان طويلة، ولو وجدت في الأرض حكومة إسلامية، تقيم القرآن، وتحوط الدين وأهله بما أوجبه الله من إعداد العدة للحرب.. لاتخذها أهل المدنية قدوة لهم وإماما في أعمالهم، وما كانت الحمية والعصبية والوطنية ديدناً لهم، فهم في أمد بعيد من النصر على أعدائهم، فيا مصيبة ابتلي المسلمون بها الآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ استفهام[1] تعجيب لرسول الله ﷺ من إحجامهم عن القتال، مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حرصاً عليه، بحيث كانوا يباشرونه كما ينبىء عنه الأمر بكف الأيدي، فإن ذلك مشعر بكونهم بصدد بسطها إلى العدو، والخطاب[2] فيه

(١) أبو السعود.

(٢) المراح.

لجماعة من المسلمين، منهم عبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وقدامة بن مظعون الجمحي، ومقداد بن الأسواد الكندي، وطلحة بن عبيد الله التيمي، كانوا مع النبي ﷺ بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة يلقون من المشركين أذى شديداً، فيشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ ويقولون: إئذن لنا في قتالهم، ويقول لهم رسول الله ﷺ: كفوا أيديكم عن القتل والضرب والاعتداء على الناس، فإني لم أؤمر بقتالهم، واشتغلوا بإقامة الصلاة، والخشوع لله، وإيتاء الزكاة، التي تمكن الإيمان في القلوب، وفيه دليل على أن فرض الصلاة والزكاة كان قبل فرض الجهاد، فلما هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمروا بقتالهم في وقعة بدر.. كرهه بعضهم، لا شكاً في الدين، بل نفوراً عن الإخطار بالأرواح، وخوفاً من الموت بموجب الجبلة البشرية، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾؛ أي: فرض ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾؛ أي: الجهاد في سبيل الله، في السنة الثانية من الهجرة، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: إذا جماعة من الذين سألوا أن يفرض عليهم الجهاد ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: يخافون الكفار أن يقتلوهم، ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: كخوفهم من الله تعالى؛ أي: كما يخافون أن ينزل عليهم بأسه، وإذا للمفاجأة جواب لما؛ أي: فلما كتب عليهم القتال.. فاجأ كَتب القتال خشيتهم من الناس، ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾؛ أي: بل يخافون من الناس خشية وخوفاً أشد وأقوى وأكثر من خشيتهم من الله تعالى، لما كان من طبع البشر من الجبن لا للاعتقاد، ثم تابوا وأهل الإيمان يتفاضلون فيه، ﴿وَقَالُوا۟﴾ خوفاً من الموت، لا لكراهتهم أمر الله بالقتال، وهذا عطف على جواب لما، وهو إذا الفجائية وما في حيزها، ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ﴾ وفرضت ﴿عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ والجهاد في هذا الوقت ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: هلا أخرتنا إلى أجل قريب ومدة قريبة، حتى نموت بآجالنا، ولا نقتل فيفرح بنا الأعداء، وذكر في حرف ابن مسعود: لولا أخرتنا إلى أجل قريب فنموت حتف أنفنا ولا نقتل فتسر بذلك الأعداء، ذكره أبو حيان في «البحر» وهذا القول استزادة في مدة الكف، ويجوز أن يكون هذا مما نطقت به ألسنة حالهم، من غير أن يتفوهوا به صريحاً، وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم شبهتهم فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد جواباً لهذا السؤال عن حكمة فرض القتال

عليهم، من غير توبيخ؛ لأنه لا للاعتراض لحكمه تعالى وترغيباً فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقي، ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: منفعة الدنيا ولذاتها ﴿قَلِيلٌ﴾ لأنه سريع الزوال، ووشيك الانصرام، وإن أخرتم إلى ذلك الأجل ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾؛ أي: ثوابها الباقي وجزاؤها، لا سيما المنوط بالقتال، ﴿خَيۡرٌ﴾ من ذلك المتاع الفاني، ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الله تعالى، وامتثل أوامره، واجتنب الكفر والفواحش؛ لأن نعم الآخرة كثيرة، ومؤبدة وصافية عن كدورات القلوب، ويقينية بخلاف نعم الدنيا؛ فإنها مشكوكة عاقبتها في اليوم الثاني، ومشوبة بالمكاره، ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾؛ أي: ولا تنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء، ولو كان قدر فتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قال في «التسهيل»: إن الآية في قوم من الصحابة كانوا قد أمروا بالكف عن القتال، فتمنوا أن يؤمروا به، فلما أمروا به.. كرهوه، لا شكاً في دينهم، ولكن خوفاً من الموت، كما مر هذا القول، وقيل: الآية في المنافقين، وهو أليق بسياق الكلام، واختار القرطبي وأبو حيان هذا القول وهو الأرجح، قال في «البحر»: الظاهر أن القائلين هذا هم منافقون؛ لأن الله تعالى إذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان، ولهذا جاء السياق بعده: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾، وهذا لا يصدر إلا من منافق انتهى.

وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير[1]: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ بالياء، وباقي السبعة بالتاء على الخطاب، وهو التفات، ثم رغبهم في القتال، وبين لهم أن الموت مصير كل شيء، فقال: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾؛ أي: في أي مكان وجدتم وحصلتم فيه، سواء كان براً أو بحراً، سفراً أو حضراً ﴿يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ أي: يأخذكم الموت الذي تكرهون لأجله القتال، زعماً منكم أنه من محله، ويقع بكم لا محالة، ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ﴾ متحصنين منه ﴿فِي بُرُوجٖ﴾ وحصون ﴿مُّشَيَّدَةٖۗ﴾؛ أي: مطولة مرتفعة قوية بالجص والنورة، فلا تخشوا القتال لأجله، ولا تتمنوا هذا التأخير الذي سألتم؛

---

(١) البحر المحيط.

لأنه لا فائدة فيه؛ لأنه لا منجا ولا ملجأ من الموت، سواء أكان بقتل أم بغيره، فلا فائدة في خور الطبع وحب الحياة، وقال زهير:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ ٱلْمَنَايَا يَنَلْنَهُ وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ ٱلسَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وقرأ طلحة بن سليمان[1]: ﴿يدركُكُم﴾ برفع الكافين، وخرجه أبو الفتح على حذف فاء الجواب؛ أي: فيدرككم الموت، أو على أنه كلام مستأنف، وأينما متصل بلا تظلمون، وهي قراءة ضعيفة.

والخلاصة[2]: أن الموت أمر محتم لا مهرب منه، فهو لا بد أن يدرككم في أي مكان، ولو تحصنتم في شواهق القصور التي يسكنها ذوو الثراء والنعمة، أو في القلاع والحصون التي تقطنها حامية الجند، وإذا كان الموت لا مفر منه، وكان المرء قد يقتحم غمار الوغى ولا يصاب بالأذى، وقد يموت المعتصم في البروج والحصون، وهو في غضارة العيش.. فلا عذر لكم أيها المثبطون المبطئون، ولماذا تختارون لأنفسكم الحقير على العظيم، ولماذا لا تدافعون عن الحق وتمنعون الشر أن يفشو، حتى تستحقوا مرضاة الله وسعادة الآخرة، ولماذا تكرهون القتال وتجبنون، وتخافون الناس وتتمنون البقاء، أليس هذا بضعف في الدين، وركة في العقل، وخوراً في العزيمة، تؤاخذون بها، وتقوم عليكم بها الحجة.

ثم ذكر سبحانه وتعالى شأناً آخر من شؤونهم، أشد دلالة على الحمق وضعف العقل ومرض القلب، فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾؛ أي: اليهود والمنافقين ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ أي: خصب ورخص السعر وتتابع الأمطار، ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ﴾ الحسنة ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، قال المفسرون: كانت المدينة مملوءة من النعم وقت مقدم رسول الله ﷺ، فلما ظهر عناد اليهود والمنافقين على دعائه إياهم إلى الإيمان.. أمسك الله عنهم بعض الإمساك، كما جرت عادته تعالى في جميع الأمم، فعند

---

(١) البحر المحيط والبيضاوي.

(٢) المراغي.

هذا قالوا: ما رأينا أعظم شؤماً من هذا الرجل، نقصت ثمارنا ومزارعنا، وغلت أسعارنا منذ قدم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: جدوبة وشدة وغلاء سعر.. ﴿يَقُولُوا﴾؛ أي: يقول اليهود والمنافقون ﴿هَٰذِهِ﴾ السيئة ﴿مِنْ عِندِكَ﴾؛ أي: هذه من شؤم محمد وأصحابه؛ أي: وإن تصبهم نعمة.. نسبوها إلى الله تعالى، وإن تصبهم بلية.. أضافوها إليك، كما حكى الله عن قوم موسى بقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ وعن قوم صالح بقوله: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، وهذا زعم باطل منهم، فكل من النعمة والبلية من عند الله تعالى، خلقاً وإيجاداً، يقع في ملكه بحسب السنن التي وضعها، والأسباب والمسببات التي أوجدها، ﴿قُلْ﴾ أجبهم يا محمد رداً لزعمهم الباطل، وإرشاداً لهم إلى الحق: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾؛ أي: كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقاً وإيجاداً، من غير أن يكون لي مدخل في وقوع شيء منهما بوجه من الوجوه كما تزعمون، بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلاً، ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلي عقوبة له، ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾؛ أي: وإذا كان الأمر كذلك.. فأي شيء حصل لهؤلاء اليهود والمنافقين؟ وماذا دهاهم في عقولهم حالة كونهم ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

أي: لا يقربون أن يفهموا حديثاً من الأحاديث أصلاً، فقالوا ما قالوه، إذ لو فهموا شيئاً من ذلك.. لفهموا أن الكل من عند الله تعالى، فالنعمة منه تعالى بطريق التفضل، والبلية منه تعالى بطريق العقوبة على ذنوب العباد، عدلاً منه تعالى، والاستفهام هنا تعجبي مضمن معنى الإنكار.

وإذا[1] كانوا قد حرموا هذا الفقه من كل حديث.. فما أحراهم أن يحرموه من حديث يبلغه الرسول عن ربه، في الإخبار عن نظم الاجتماع، وارتباط الأسباب بالمسببات، وعما أحاط الله به المصطفين الأخيار من وافر الفضل، وخصهم به من جميل الرعاية، فتلك الحكم العالية لا تُنال إلا بفضل الروية،

---

(١) المراغي.

وطول الأناة والتدبير، ومن وصل إلى هذا القدر من الفهم.. لا يقول إن السيئة تقع بشؤم أحد، بل ينسب كل شيء إلى سببه.

وفي الآية إيماء إلى أن حصيف الرأي يجب أن يطلب فقه القول دون الأخذ بالجمل والظواهر، إذ من قنع بذلك.. بقي في عماية، ويظل طول دهره غِراً جاهلاً بما يحيط به من نظم هذا العالم.

ووقف أبو عمرو والكسائي على قوله[1]: ﴿فما﴾، ووقف الباقون على ﴿اللام﴾ في قوله: ﴿فمال﴾ إتباعاً للخط، ولا ينبغي تعمد ذلك، لأن الوقف على ﴿فما﴾ فيه قطع عن الخبر، وعلى اللام فيه قطع عن المجرور دون حرف الجر، وإنما يكون ذلك لضرورة انقطاع النفس.

والخطاب في قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ للنبي ﷺ، ولكن المراد غيره؛ أي: أيُّ شيء أصابك وأتاك أيها الإنسان ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾؛ أي: من نعمة من النعم التي أنعم الله بها عليك ﴿فـ﴾ هي أتت ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى بالذات تفضلاً وإحساناً منه، من غير استيجاب لها من قبلك، ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾؛ أي: وأيُّ شيء أصابك وأتاك من بلية من البلايا ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾؛ أي: فتلك السيئة أتت من نفسك، بسبب اقترافك المعاصي الموجبة لها، وإن كان الخلق من الله، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها، وحتى انقطاع شسع نعله، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

وحاصل المعنى[2]: أن كل حسنة تصيبك أيها المؤمن فهي من فضل الله وجوده، فهو الذي سخر لك المنافع التي تتمتع بها وتحسن لديك، فقد سخر لك الهواء الذي يحفظ الحياة، والماء العذب الذي يمد كل الأحياء وأزواج النبات والحيوان وغيرهما من مواد الغذاء، وأنعم عليك بوسائل الراحة والهناء، وكل سيئة تصيبك فهي من نفسك، فإنك بما أوتيت من قدرة على العمل، واختيار في

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

درء المفاسد، وجلب المنافع، وترجيح لبعض المقاصد على بعض، قد تخطىء في معرفة ما يسوء وما ينفع؛ لأنك لا تضبط إرادتك وهواك، ولا تحيط علماً بالسنن والأسباب، فأنت ترجح بعضاً على بعض، إما بالهوى، أو قبل أن تحيط خبراً بمعرفة النافع والضار، فتقع فيما يسوء.

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم، وأن عصيانه مما يجلب النقم، وطاعته إنما تكون باتباع سننه، وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله، وهذه الآية أصل من أصول الاجتماع وعلم النفس، وفيها شفاء للناس من خرافات الوثنية، واستدراجات الطاغوتية، وكرامات الشيطانية، وارتفاع وتكريم للنفس الإنسانية.

وفي مصحف ابن مسعود[1]: ﴿فمن نفسك وإنما قضيتها عليك﴾، وحكى أبو عمرو أنها في مصحف ابن مسعود: ﴿وأنا كتبتها﴾، وروي أن ابن مسعود وأبياً قرأ: ﴿وأنا قدرتها عليك﴾، وعنى بالنفس هنا المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، وقرأت عائشة رضي الله عنها: ﴿فمَن نفسُك﴾ بفتح الميم ورفع السين، فـ﴿مَن﴾ استفهام معناه الإنكار؛ أي: فمن نفسك حتى ينسب إليها فعل، المعنى: ما للنفس في الشيء فعل.

فائدة: فإن قلت[2] إن قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ يعارض قوله: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ الواقع رداً لقول المشركين ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ . . .﴾ الآية؟

فالجواب: أن قوله: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ أي إيجاداً وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾؛ أي: من كسبك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

والحاصل: أنك إذا نظرت إلى الفاعل الحقيقي.. فالكل منه، وإذا نظرت

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

إلى الأسباب.. فما هي إلا من شؤم ذنب نفسك، يوصله إليك بسبب مجازاة وعقوبة لا من محمد ﷺ، وقال[1] بعض أهل العلم: والفرق بين ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أن من عند الله أعم، يقال: فيما كان برضاه وبسخطه وفيما يحصل وقد أمر به أو نهى عنه، ولا يقال: هو من الله إلا فيما كان برضاه وبأمره، وبهذا النظر قال عمر: إن أصبت.. فمن الله، وإن أخطأت.. فمن الشيطان انتهى.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: إلى الناس كافة حالة كونك ﴿رَسُولًا﴾؛ أي: مرسلاً إليهم بشريعتنا، بيان لجلالة منصبه ومكانته عند الله تعالى، بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه بناء على جهلهم بشأنه الجليل؛ أي: ليس لك إلا الرسالة والتبليغ وقد فعلت ذلك وما قصرت، وليس لك دخل فيما يصيب الناس من الحسنات والسيئات؛ لأنك لم ترسل إلا للتبليغ والهداية، لا للتصرف في نظم الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها، فما زعمه أولئك الجاهلون من أن السيئة تصيبهم بشؤمك محض خرافة، لا مستند لها من عقل أو نقل، ومخالف لما بينه الله تعالى من وظيفة الرسل.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ أي: وكفى الله سبحانه وتعالى شهيداً على جدك وعدم تقصيرك في أداء الرسالة وتبليغ الوحي، فأما حصول الهداية فليس إليك بل إلى الله تعالى، أو كفى الله شهيداً على أنك أرسلت للناس كافة بشيراً ونذيراً، لا مسيطراً ولا جباراً، ولا مغيراً لنظم الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ﴾ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فلا ينبغي لأحد من الناس، عربهم وعجمهم أن يخرج عن طاعتك واتباعك.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف

---

(١) البحر المحيط.

تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿خُذُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿حِذْرَكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿فَٱنفِرُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿ٱنفِرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿خُذُوا۟﴾. ﴿ثُبَاتٍ﴾: حال من واو ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ ولكن في تأويل مشتق، تقديره: حالة كونكم متفرفين، ﴿أَوِ﴾: حرف عطف، ﴿ٱنفِرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ الأول، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من واو ﴿ٱنفِرُوا۟﴾، ولكن بعد تأويله بمشتق، تقديره: حالة كونكم مجتمعين، والمعنى: بادروا إلى الخروج للقتال كيفما أمكن.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾.

﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾، ﴿لَمَن﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿من﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل النصب اسم إن مؤخر عن خبرها، تقديره: وإن من ليبطئن لكائن منكم، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿يبطئن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على ﴿من﴾، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، تقديره: وإن الذي أقسم والله ليبطئن لكائن منكم، وجملة القسم وجوابه صلة ﴿مَنْ﴾ إن قلنا ﴿مَنْ﴾ موصولة، أو صفة لها إن قلنا نكرة موصوفة، والعائد أو الرابط الضمير المستتر في ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ وبذلك[1] علم أن جملة القسم مع جوابها خبرية مؤكدة بالقسم، فلا يمتنع وقوعها صلة للموصول، أو صفة للموصوف، والإنشائية إنما هي جملة القسم، أعني: أقسم بالله، كما ذكره الشيخ سعد الدين، واللام في ﴿لَمَنْ﴾ لام ابتداء، دخلت على اسم ﴿إن﴾؛ لوقوع الخبر فاصلاً.

---

(١) الفتوحات.

﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

﴿فَإِنْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفصيل، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾، على كونه فعل شرط لها، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواب شرط لها، وفاعله ضمير يعود على من يبطئن، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مع جوابها معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ مفصلة لها، ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ. . .﴾ إلى أخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿عَلَيَّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنْعَمَ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب مبني على السكون، والظرف متعلق بـ﴿أَنْعَمَ﴾، ﴿لَمْ أَكُن﴾: جازم وفعل ناقص، واسمه ضمير يعود على المبطىء، ﴿مَّعَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَهِيدًا﴾: وهو خبر ﴿أَكُن﴾، وجملة الكون في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ﴾ فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿فَضْلٌ﴾، ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: لام القسم مؤكدة للاَّم الأولى، ﴿يقولنّ﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على المبطىء، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، تقديره: ولئن أصابكم فضل من اللَّه.. يقول: يا ليتني كنت معهم، وإنما جعلنا المذكور جواب القسم، وجعلنا جواب الشرط محذوفاً جرياً على القاعدة إنه إذا اجتمع شرط وقسم متواليان، ولم يتقدم عليهما ذو خبر.. جعل المذكور جواب المتقدم منهما، وقدر جواب المتأخر منهما، كما قال ابن مالك:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ
وَإِنْ تَوَالَيَا وَقَبْلُ ذُوْ خَبَرْ   فَٱلشَّرْطَ رَجِّحْ مُطْلَقاً بِلاَ حَذَرْ

﴿كَأَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً تقديره: كأنه، ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَكُنۢ﴾: مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، وقرىء بالتاء نظراً للفظ المودة، وبالياء؛ لأن المودة والود بمعنى واحد، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر لـ﴿تَكُن﴾ مقدم على اسمها، ﴿وَبَيْنَهُۥ﴾: معطوف على ﴿بَيْنَكُمْ﴾، والضمير فيه عائد على المبطىء، وجملة تكن في محل الرفع خبر ﴿كَأَن﴾، وجملة ﴿كَأَن﴾ من اسمها وخبرها: جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القول ومقوله، والتقدير: يقول يا ليتني، وقيل: ليس بمعترض بل هو محكي بالقول؛ أي: يقول كأن لم تكن، وحينئذ فالضمير في ﴿بَيْنَكُمْ﴾ عائد على المنافقين، وفي ﴿بينه﴾ عائد على محمد ﷺ، وقيل جملة ﴿كَأَن﴾ حال من ضمير الفاعل في: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، ﴿مَوَدَّةٌ﴾: اسم ﴿تَكُنۢ﴾ مؤخر. ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، والمنادى محذوف تقديره: يا قوم، وجملة النداء في محل النصب مقول القول، ﴿ليتني﴾ ﴿ليت﴾: حرف تمني ونصب، و﴿الياء﴾: اسمها، ﴿كُنتُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر كان، وجملة كان في محل الرفع خبر ليت، وجملة ليت في محل النصب مقول القول، ﴿فَأَفُوزَ﴾: الفاء عاطفة سببية، ﴿أفوز﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء السببية الواقعة في جواب التمني، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على المبطىء، ﴿فَوْزًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ﴿فَوْزًا﴾، وجملة ﴿أفوز﴾: صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى تقديره: أتمنى كوني معهم ففوزي فوزاً عظيماً، وقرىء ﴿فأفوزُ﴾ بالرفع على الاستئناف على تقدير: فأنا أفوز.

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾.

﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب شرط محذوف، تقديره: إن بطأ وتأخر

هؤلاء عن القتال.. فليقاتل في سبيل الله، و﴿اللام﴾: حرف طلب وجزم، ﴿يقاتل﴾: مجزوم باللام، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يقاتل﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر، في محل الرفع فاعل، والجملة في محل الجزم جواب للشرط المقدر، وجملة الشرط المقدر مستأنفة، ﴿يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَشْرُونَ﴾.

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب أو هما، ﴿يُقَٰتِلْ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿من﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُقَٰتِلْ﴾، ﴿فَيُقْتَلْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿يُقتَل﴾: فعل مضارع مغير الصيغة معطوف على ﴿يُقَٰتِلْ﴾ مجزوم بـ﴿من﴾، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع، ﴿يَغْلِبْ﴾: فعل مضارع مبني للفاعل معطوف على ﴿يُقتَل﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقتران الجواب بحرف التنفيس. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس للاستقبال البعيد. ﴿نُؤْتِيهِ﴾: فعل مضارع ومفعول أول مرفوع لعدم صلاحية لفظه للجواب لاقترانه بحرف التنفيس، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الجزم جواب ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والتقدير: أي شيء ثابت لكم، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تُقَٰتِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير المخاطبين، والعامل في هذه الحال الاستقرار المقدر، والتقدير: أيُّ شيء مستقر لكم حالة

كونكم غير مقاتلين، وفي «الفتوحات» وجملة قوله: ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيها وجهان.

أظهرهما: أنها في محل نصب على الحال؛ أي: ما لكم غير مقاتلين، أنكر عليهم أن يكونوا على غير هذه الحالة، وقد صرح بالحال بعد مثل هذا التركيب في قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ وقالوا في مثل هذه الحال: إنها حال لازمة؛ لأن الكلام لا يتم بدونها، وفيه نظر، والعامل في هذه الحال الاستقرار المقدر، كقولك مالك ضاحكاً.

والوجه الثاني: أن الأصل: وما لكم في أن لا تقاتلوا، فحذفت ﴿في﴾ فبقي أن لا تقاتلوا، فجرى الخلاف المشهور، ثم حذفت أن الناصبة، فارتفع الفعل بعدها، كقوله: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. اهـ. «سمين».

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: معطوف على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولكنه على تقدير مضاف تقديره: وفي تخليص المستضعفين من أيدي الكفار، ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿المستضعفين﴾، ﴿وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: معطوفان على ﴿ٱلرِّجَالِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿المستضعفين﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف وجملة النداء مقول القول، ﴿أَخْرِجْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة جواب النداء على كونها مقول القول، ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَخْرِجْنَا﴾، ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان منه، ﴿ٱلظَّالِمِ﴾: صفة للقرية، ﴿أَهْلُهَا﴾: مرفوع به على الفاعلية، وأل في ﴿ٱلظَّالِمِ﴾ موصولة بمعنى: التي ظلم أهلها، فالظالم موافق للقرية إعراباً ولما بعده معنى؛ لأنه نعت سببي. ﴿وَٱجْعَل﴾: فعل دعاء وفاعله ضمير يعود على الله، وهو معطوف على

﴿أَخْرِجْنَا﴾. ﴿لَّنَا﴾: جار ومجرور في محل المفعول الأول لـ﴿جعل﴾، ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿وَلِيًّا﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها فيعرب حالاً، ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول ثان لجعل، ﴿وَاجْعَل﴾: معطوف على ﴿أَخْرِجْنَا﴾. ﴿لَّنَا﴾: في محل النصب مفعول أول، ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: حال من ﴿نَصِيرًا﴾ وهو مفعول ثان لجعل.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ءَامَنُوا﴾: صلته، ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾: خبره والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿كَفَرُوا﴾: صلته، ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿فِى سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾. ﴿فَقَٰتِلُوٓا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره إذا عرفتم أن الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله. . . إلخ، وأردتم بيان ما هو لازم لكم. . فأقول لكم: ﴿قاتلوا﴾: فعل وفاعل. ﴿أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَٰنِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ﴾: ناصب ومنصوب ومضاف إليه، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على كيد الشيطان، ﴿ضَعِيفًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التعجبي، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على كل مخاطب، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرَ﴾، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿كُفُّوٓا أَيْدِيَكُمْ. . .﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾: نائب فاعل محكي، وجملة ﴿قِيلَ﴾: صلة الموصول، والعائد

ضمير لهم، وإن شئت قلت: ﴿كُفُّوٓاْ﴾: فعل وفاعل، ﴿أَيۡدِيَكُمۡ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على ﴿كُفُّوٓاْ﴾، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿كُفُّوٓاْ﴾.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَيۡهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡقِتَالُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿إِذَا﴾: حرف مفاجأة رابطة لجواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب على الأصح، كما هو مذكور في كتب النحو، ﴿فَرِيقٌ﴾: مبتدأ، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور صفة له، وهو المسوغ للابتداء، ﴿يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة ﴿كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لمصدر محذوف، تقديره: يخشون الناس خشية كائنة كخشية الله، وإضافة خشية إلى لفظ الجلالة من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ أي: كخشيتهم الله، ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف بمعنى بل، ﴿أَشَدَّ﴾، معطوف على ﴿خشية الله﴾ مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل، ﴿خَشۡيَةٗ﴾: تمييز له، أو ﴿أَشَدَّ﴾: معطوف على محل الجار والمجرور في ﴿كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾، و﴿خَشۡيَةٗ﴾: تمييز له، أو ﴿أَشَدَّ﴾: منصوب على الحال من ﴿خشية﴾ المذكور بعده؛ لأنه نعت نكرة قدمت عليها، و﴿خَشۡيَةٗ﴾: معطوف على محل الجار والمجرور في: ﴿كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾، والتقدير: يخشون الناس كخشية الله بل خشية أشد من خشية الله، ﴿وَقَالُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾. ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿لِمَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَتَبۡتَ﴾ وهو فعل وفاعل، ﴿عَلَيۡنَا﴾: جار ومجرور

متعلق بـ﴿كُتِبَ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿ٱلْقِتَالَ﴾: مفعول به لـ﴿كُتِبَ﴾.

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلاّ. ﴿أَخَّرْتَنَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿أَخَّرْتَنَآ﴾، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا﴾: إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿قَلِيلٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، ﴿لِّمَنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿ٱتَّقَىٰ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول والعائد ضمير الفاعل، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تُظْلَمُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿فَتِيلًا﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: تجزون فيها؛ أي: في الآخرة ولا تظلمون فتيلاً، والجملة المحذوفة مع المعطوفة عليها في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

﴿أَيْنَمَا﴾: ﴿أين﴾: اسم شرط جازم في محل النصب على الظرفية المكانية. ﴿ما﴾: زائدة، والظرف متعلق بـ﴿تَكُونُوا﴾، ﴿تَكُونُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿أَيْنَمَا﴾، على كونه فعل شرط لها، وكان هنا تامة، ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، مجزوم بـ﴿أَيْنَمَا﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿أَيْنَمَا﴾: مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾: الواو عاطفة، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بمحذوف خبر كان، وجملة كان فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لو﴾ معلوم مما قبله، تقديره: ولو كنتم في بروج مشيدة لأدرككم الموت، وجملة ﴿لو﴾

معطوفة على جملة محذوفة مثلها، تقديرها: لو لم تكونوا في بروج مشيدة لأدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة... إلخ.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿يَقُولُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مقول محكى وإن شئت قلت: ﴿هَٰذِهِ﴾: مبتدأ. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُوا﴾.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، مجزوم بـ﴿إن﴾، ﴿يَقُولُوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول القول، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿ما﴾: اسم استفهام تعجبي في محل الرفع مبتدأ. ﴿اللام﴾: حرف جر، وفصلت عن المجرور بها تبعاً لخط المصحف العثماني، وفي غير المصحف متصلة بمجرورها وجوباً صناعياً. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: في محل الجر بها، ﴿ٱلْقَوْمِ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان منه، الجار والمجرور في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، أو معترضة بين البيان والمبين، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَكَادُونَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يَفْقَهُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿حَدِيثًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَفْقَهُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿يَكَادُونَ﴾، وجملة

﴿يَكَادُونَ﴾ في محل النصب حال من اسم الإشارة، والعامل فيها ما في الظرف من معنى الاستقرار، **والمعنى**: وحيث كان الأمر كذلك فأيُّ شيء حصل لهم حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثاً. ويصح[1] أن تكون جملة ﴿لَا يَكَادُونَ﴾: مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال نشأ عن الاستفهام، كأنه قيل: ما بالهم وماذا يصنعون حتى يتعجب منه أو يسأل عن سببه فقيل لا يكادون يفقهون حديثاً من الأحاديث، فيقولون ما يقولون، إذ لو فهموا شيئاً من ذلك لفهموا هذا النص، وما في معناه، وما هو أوضح منه من النصوص الناطقة من أن الكل من عند الله تعالى، وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والإحسان، والبلية منه بطريق العقوبة على ذنوب العباد.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾.

﴿مَا﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما. ﴿أَصَابَكَ﴾: فعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿مَآ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿أَصَابَكَ﴾. ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية، ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو كائن من الله، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَآ﴾، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَآ﴾ الشرطية مستأنفة، وقال أبو البقاء[2]: ولا يصح أن تكون ﴿مَآ﴾ هنا موصولة؛ لأن ذلك يقتضي أن يكون المصيب لهم ماضياً مخصصاً، والمعنى على العموم، والشرط أشبه وأوفق، والتقدير: فهو من الله، والمراد بالأية الخصب والجدب، ولذلك لم يقل أصابت انتهى. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَآ﴾: اسم شرط، أو اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب الجار والمجرور الآتي. ﴿أَصَابَكَ﴾: فعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿مَآ﴾، وفاعله

---

(١) الفتوحات. (٢) العكبري.

ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، أو يقال: الجملة صلة الموصول إن قلنا ﴿مَآ﴾ موصولة. ﴿مِن سَيِّئَةٍ﴾: حال من فاعل ﴿أَصَابَكَ﴾، ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر المبتدأ إن قلنا ﴿ما﴾: موصولة، أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فهي كائنة من نفسك، والجملة في محل الجزم جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، إن قلنا إنها شرطية، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾. ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿رَسُولًا﴾: حال مؤكدة من كاف ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾؛ أي: ذا رسالة، ويجوز أن يكون مصدراً؛ أي إرسالاً. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل. ﴿شَهِيدًا﴾: حال من الجلالة والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ الحذر بكسر أوله وسكون ثانيه، والحذر بفتحتين كالمثل والمثل، كلاهما مصدر معناهما واحد: الاحتراس والاستعداد لاتقاء شر العدو، والتحفظ والتيقظ، وفي الكلام مبالغة، كأنه جعل الحذر آلة يقي بها نفسه، وقيل هو ما يحذر به من السلاح والخدم.

﴿فَٱنفِرُواْ﴾ النفر: الانزعاج والفزع من الشيء، وفي «المصباح»: نفر نفراً من باب ضرب في اللغة العالية، وبها قرأ السبعة، ونفر نفوراً من باب قعد لغة، وقرىء بمصدرها في قوله تعالى: ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ والنفير مثل النفور والاسم النفر بفتحتين انتهى.

﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع ثبة: وهي الجماعة من الرجال فوق العشرة إلى المئة، والسرية الجماعة أقلها مئة وغايتها أربع مئة، والمنسر من أربع مئة إلى ثمان مئة، والجيش من ثمان مئة إلى أربعة آلاف، والجحفل ما زاد على ذلك، وفي «السمين»: ﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع ثبة، ووزنها في الأصل فعلة كحطمة، فحذفوا لامها، وعوضوا عنها تاء التأنيث، وهل عينها واو ثبوة أو ياء ثبية؟ هناك قولان:

حجة القول الأول: أنها مشتقة من ثَبَا يَثْبُو، كحلا يحلو؛ أي: اجتمع.

وحجة الثاني: أنها مشتقة من ثبيت على الرجل إذا أثنيت عليه، كأنك جمعت محاسنه، ويجمع بالألف والتاء، وبالواو والنون، ويجوز في فائها حين جمع على ثبين الضم والكسر، وتصغيره ثبيوة على اللغة الأولى، كما تقول في سه سييهة، وعلى اللغة الثانية. ثبية.

﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ يقال: أبطأ وبطأ بمعنى؛ أي: تأخر وتثاقل، والثلاثي منه من باب قرب، والبطء التأخر عن الانبعاث في السير، وقد يستعمل أبطأ وبطأ بالتشديد متعديين، وعليه فالمفعول هنا محذوف؛ أي: ليبطئن غيره؛ أي: يثبطه ويجبنه عن القتال، ويقال أبطأ وبطؤ مثل أسرع وسرع مقابله، وبطآن اسم فعل بمعنى بطؤ.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سبيل الله هي تأييد الحق، والانتصار له بإعلاء كلمة الدين، ونشر دعوته، ودفاع الأعداء إذا هددوا أمتنا، أو أغاروا على أرضنا، أو نهبوا أموالنا، أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع الناس. ﴿يَشْرُونَ﴾: يبيعون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾، ﴿وَالْوِلْدَانِ﴾: جمع وليد، وهو الصبي الصغير، وفي «السمين» الولدان: جمع وليد، وقيل جمع ولد، والمراد بهم الصبيان، وقيل الأرقاء، يقال للعبد وليد، وللأمة وليدة، فغُلِّب المذكر على المؤنث لاندراجه فيه. ﴿بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾: البروج المشيدة - واحدها برج - القصور العالية المطلية بالشيد، وهو الجص، أو الحصون والقلاع المتينة التي تعتصم فيها حامية الجند، وفي «أبي السعود»: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾؛ أي: في حصون رفيعة أو قصور محصنة، وقال السدي وقتادة: بروج السماء، ويقال شاد البناء وأشاده وشيده؛ أي: رفعه، وشيد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجبس، وفي «المصباح»: الشيد الجص، وشدت البيت أشيده - من باب باع - بنيته بالشيد، فهو مشيد، وشيدته تشييداً إذا طولته ورفعته. ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ أي: شيء يحسن عند صاحبه كالرضا، والخصب والظفر بالغنيمة. ﴿سَيِّئَةٌ﴾ هي ما تسوء صاحبها كالشدة والبأساء والضراء والهزيمة والجرح والقتل. ﴿يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ يفهمون كلاماً يوعظون به.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع.

فمنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، وفي قوله: ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

ومنها: إسناد الفعل إلى ما لا يصح وقوعه منه حقيقة في: ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، و﴿أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ﴾.

ومنها: جعل الشيء من الشيء وليس منه لمناسبة في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾.

ومنها: الاعتراض على قول الجمهور في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، وفي قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لما يناله من النعيم في الآخرة وفي ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ استعار الطريق للاتباع وللمخالفة، وفي: ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ أطلق كف اليد الذي هو مختص بالإجرام على الإمساك عن القتال.

ومنها: الاستفهام الذي معناه الاستبطاء والاستبعاد في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾.

ومنها: الاستفهام الذي معناه التعجب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟﴾.

ومنها: التجوز بفي التي للوعاء عن دخولهم في الجهاد.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ في قراءة النون.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ﴾، و﴿يُقَٰتِلُونَ﴾، و﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، و﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ﴾، و﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾، وفي اسم ﴿الله﴾.

ومنها: الطباق اللفظي في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ومنها: المعنوي في قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طاعته، وفي قوله: ﴿سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ معصيته.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وفي ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

ومنها: التجوز بإسناد الفعل إلى غير فاعله في قوله: ﴿يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾، وفي ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ﴾، وفي قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: إيقاع أفعل التفضيل حيث لا مشاركة في قوله: ﴿خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ
طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟
فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى
ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً
حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[1] فيما تقدم بطاعة الله تعالى وطاعة الرسول، وبين جزاء المطيع، وأحوال الناس في هذه الطاعة بحسب قوة الإيمان وضعفه، ثم أمر بالقتال، وبين مراتب الناس في الامتثال له.. أعاد هنا الأمر بالطاعة، وبين أنها أولاً وبالذات لله تعالى ولغيره بالتبع، وبين ضروب مراوغة الضعفاء والمنافقين.

قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآية قبلها تثبيطهم عن القتال، واستطرد من ذلك إلى أن الموت يدرك كل أحد، ولو اعتصم بأعظم معتصم، فلا فائدة في الهرب من القتال، وأتبع ذلك بما أتبع من سوء خطاب

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

المنافقين للرسول عليه السلام، وفعلهم معه من إظهار الطاعة بالقول، وخلافها بالفعل، وبكتهم في عدم تأملهم ما جاء به الرسول عليه السلام من القرآن الذي فيه كتب عليهم القتال.. عاد إلى أمر القتال، وهكذا عادة كلام العرب تكون في شيء ثم تستطرد من ذلك إلى شيء آخر له به مناسبة وتعلق، ثم تعود إلى ذلك الأول.

قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما أمر[1] نبيه عليه السلام أن يحرض المؤمنين على الجهاد، وذكر أنه ليس عليه وزر من تمرد وعصى.. بين في هذه الآية أنهم حين أطاعوك، ولبوا دعوتك، أصابهم من هذه الطاعة خير كثير، وأن لك من هذا الخير نصيباً تستحق عليه الأجر؛ لأنك قد بذلت الجهد في ترغيبهم فيه، بجعل نفسك شفيعاً ونصيراً لهم في الوصول إلى تحصيل هذه الأغراض الشريفة.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها ظاهرة: وهي أنه تعالى لما ذكر أن الله كان على كل شيء حسيباً.. أردفه بالإعلام بوحدانية الله تعالى، والحشر والبعث من القبور للحساب، ذكره أبو حيان في «البحر».

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أحبني فقد أحب الله»، فقال بعض المنافقين: ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه رباً، كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم رباً، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه مسلم[3] عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) لباب النقول.

عنهما قال: لما اعتزل رسول الله ﷺ نساءه.. قال: دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصىٰ ويقولون طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب، قال عمر: لأعلمن ذلك اليوم، فذكر الحديث، وفيه ـ بعد استئذانه على رسول الله ﷺ ـ فقلت: أطلقتهن يا رسول الله؟ قال: «لا»، قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد، والناس ينكتون بالحصى يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فأنزل وأخبرهم أنك لم تطلقهن، قال: «نعم إن شئت»، فذكر الحديث، وفيه: فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ وكنت أنا استنبطت ذلك، وأنزل الله تعالى آية التخيير.

قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ...﴾ الآية، نزلت هذه الآية[1] في مواعدة رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وذلك أن رسول الله ﷺ واعده موسم بدر الصغرى بعد حرب أحد، وذلك في ذي القعدة، فلما بلغ الميعاد.. دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج، فكرهه بعضهم فأنزل تعالى هذه الآية: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني لا تدع جهاد العدو، والانتصار للمستضعفين من المؤمنين، لا تكلف إلا نفسك.

التفسير وأوجه القراءة

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ، ويوافقه فيما أمر به، ونهى عنه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ سبحانه وتعالى، وذلك لأنه سبحانه وتعالى هو الآمر والناهي في الحقيقة، والرسول ﷺ إنما هو مبلغ للأمر والنهي، فليست الطاعة له بالذات، وإنما هي لمن بلغ عنه، إذ قد جرت سنته سبحانه وتعالى أن لا يأمر الناس، ولا ينهاهم إلا بواسطة رسل منهم، يفهمون عنهم ما يوحيه تعالى إليهم ليبلغوه عنه.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: وهذه الآية تدل على أن كل تكليف كلف

---

(١) الخازن.

الله تعالى به عباده في باب الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر الأبواب في القرآن، ولم يكن ذلك التكليف مبيناً في القرآن، لا سبيل لنا إلى القيام بتلك التكاليف إلا ببيان الرسول عليه السلام، وإذا كان الأمر كذلك لزم القوم بأن طاعة الرسول عليه السلام عين طاعة الله تعالى، وروى مقاتل أن النبي ﷺ كان يقول: «من أحبني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله تعالى»، فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل، لقد قارف الشرك، قد نهى أن نعبد غير الله، ويريد أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فالمؤمن[1] حقاً لا يكون خاضعاً إلا لخالقه وحده دون أحد من خلقه، والخروج عن ذلك شرك وهو نوعان:

الأول: أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية، ومن ثم ترجو نفعها، وتخاف ضرها، وتدعوها وتذل لها، وذلك هو الشرك في الألوهية.

الثاني: أن ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحريم، كما فسر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.. بطاعتهم فيما يحللون ويحرمون، وذلك هو الشرك في الربوبية.

ذاك أن المؤمن يجب أن يكون أعز الناس نفساً، وأعظمهم كرامة، فلا يرضى أن يستعبده سلطان ظالم، ولا حاكم مستعبد، إذ يعلم علم اليقين أن الكل عبيد مسخرون لله تعالى، يخضعون لأمره، وأن ذلك منتهى سعادتهم في الدارين. هذا كله فيما يبلغه عن ربه، أما ما يقوله الرسول عليه السلام من تلقاء نفسه، وما يأمر به مما يستحسنه باجتهاده ورأيه من أمور المعيشة كتأبير النخل ـ تلقيحه بطلع الذكر ـ ونحوه، مما يسميه العلماء أمر إرشاد.. فطاعته فيه ليست من الفرائض التي فرضها الله تعالى؛ لأنه ليس ديناً ولا شرعاً عنه تعالى، فقد أمر النبي ﷺ

---

(١) المراغي.

بكيل الطعام، كالقمح وغيره من الحبوب، عند طحنه وعند عجنه، وهو من التدبير والاقتصاد في البيوت، وأكثر المسلمين أهملوه إلا من تعود منهم التدبير وحسن التقدير في المنازل، وكذلك أمر بأكل الزيت والادِّهان به.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا شكوا في الأمر أمن عند الله هو، أم من رأي الرسول واجتهاده، وكان لهم في ذلك رأي آخر.. سألوه فإن أجابهم بأنه من الله تعالى أطاعوه بلا تردد، وإن قال إنه من رأيه ذكروا رأيهم، وربما رجع النبي ﷺ عن رأيه إلى رأيهم، كما فعل في بدر وأحد، وجواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن طاعتك يا محمد التي هي طاعة الله تعالى محذوف، تقديره: فأعرض عنه، ولا تهتم به، ولا تحزن عليه، وليس لك أن تكرهه عليها. وقوله: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ تعليل لذلك المحذوف؛ أي: لأنَّا ما أرسلناك حفيظاً، تحفظ الناس عن المعاصي، ومسيطراً ورقيباً عليهم، ترقب أفعالهم وأقوالهم، فالإيمان والطاعة إنما يكونان بالاختيار بعد الإقناع والاختبار، وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً، فعليك البلاغ وعلينا الحساب، قال المفسرون: وكان هذا قبل أن يؤمر بالجهاد ثم نسخ ذلك بآية السيف.

وفي هذه الجملة تسلية له ﷺ؛ لأنه كان يشتد حزنه بسبب كفرهم وإعراضهم عن الإيمان. ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول المنافقون - الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية - إذا أمرهم النبي ﷺ بأمر.. أمرك يا محمد، ﴿طَاعَةٞ﴾؛ أي: مطاع مقبول عندنا، أو أمرنا طاعة، وشأننا طاعة لك؛ أي: إطاعة لك إظهاراً لكمال الانقياد والخضوع، ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾؛ أي: فإذا خرجوا من المكان الذين يكونون معك فيه إلى البراز والفضاء وهم منصرفون إلى بيوتهم.. ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾؛ أي: دبر جماعة منهم ليلاً قولاً غير الذي قالوا لك وأظهروه عندك نهاراً من الطاعة والسمع، وتكلموا فيما بينهم بعصيانك وتوافقوا عليه، وقيل: الضمير في تقول يعود على محمد ﷺ؛ أي: غير الذي تقوله يا محمد، وقرأ يحيى بن يعمر ﴿يقول﴾ بالياء ويحتمل أن يعود الضمير على الرسول عليه السلام، فيكون التفاتاً من الخطاب في: ﴿مِنۡ عِندِكَۖ﴾ إلى الغيبة، ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَكۡتُبُ﴾

ويبين لك يا محمد في كتابه ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ ويدبرون لك ليلاً، ويفضحهم بمثل هذه الآيات فيطلعك على أسرارهم، أو يثبت ذلك في صحائف أعمالهم، ليجازوا عليه، وفي هذا من التهديد الشديد ما لا يخفى.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يا محمد، ولا تهتم بما يبيتون، ولا تؤاخذهم بما أسروا ولم يعلنوا، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: واعتمد على الله تعالى، وفوض الأمر إليه، وثق به في جميع أمورك، فإن الله تعالى يكفيك شرهم، وينتقم لك منهم، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى من جهة كونه ﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: مفوضاً إليه، لمن توكل عليه فهو قادر على إيقاع الجزاء بهم، وعالم بمقدار ما يستحقون منه، لا يعجزه منه شيء، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؛ أي: أيعرضون عن القرآن، فلا يتأملون فيه، ليعلموا كونه من عند الله تعالى، بمشاهدة ما فيه من الشواهد التي من جملتها هذا الوحي الناطق بنفاقهم، وأصل[1] التدبر التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمل، سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه، وتدبر الكلام هو النظر والتفكر في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها، وعاقبة من يعمل به ومن يخالفه، والهمزة هنا للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف كما قدرنا، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أجهل هؤلاء المنافقون حقيقة الرسالة، وكنه هذه الهداية، فلا يتدبرون القرآن الذي يدل على حقيقتها، ولو تدبروه لعرفوا أنه الحق من ربهم، وأن ما وعد به المتقين الصادقين وما أنذر به الكافرين والمنافقين واقع لا محالة، فهو إذ صدق في الأخبار عما يبيتون في أنفسهم من القول، يصدق كذلك فيما أخبر عن سوء مصيرهم، والوبال والنكال في عاقبتهم. وقرأ الجمهور ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ بياء وتاء بعدها على الأصل، وقرأ ابن محيص بإدغام التاء على الدال. ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ تعالى بل كان من عندك كما يزعمون.. ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ﴾؛ أي: في هذا القرآن ﴿اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وتناقضاً جماً، من حيث[2] التوحيد والتشريك،

---

(١) المراغي.

(٢) النسفي.

والتحليل والتحريم، أو تفاوتاً من حيث البلاغة، فكان بعضه بالغاً حد الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه، يمكن معارضته، أو من حيث المعاني، فكان بعضه إخباراً بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم، وأما تعلق الملاحدة بآيات يدعون فيها اختلافاً كثيراً من نحو قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ فقد تقصى عنها أهل الحق، وستجدها مشروحة في كتابنا هذا في مظانها إن شاء الله تعالى.

والمعنى[1]: أنهم لو تدبروه حق تدبره.. لوجدوه مؤتلفاً غير مختلف، صحيح المعاني قوي المباني، بالغاً في البلاغة إلى أعلى درجاتها.

والخلاصة[2]: أن تدبر القرآن، وتأمل ما امتاز به، هو طريق الهداية القويم، وصراط الحق المستقيم، فإنه يرشد إلى كونه من عند الله، وإلى وجوب الاهتداء به، وإلى أنه معقول في نفسه موافق للفطرة، ملائم للمصلحة وفيه سعادة الخلق في الدنيا والآخرة.

ولو تدبر المسلمون القرآن واهتدوا به في كل زمان.. لما فسدت أخلاقهم وآدابهم، ولما ظلم واستبد حكامهم، ولما زال ملكهم وسلطانهم، ولما صاروا عالة في معايشهم على سواهم، فإن قلت: إن قوله: ﴿ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ يدل بمفهومه على أن في القرآن اختلافاً قليلاً، وإلا لما كان للتقييد بوصف الكثرة فائدة مع أن لا اختلاف فيه أصلاً.. قلت: بأن التقييد بالكثرة للمبالغة في إثبات الملازمة؛ أي: لو كان من عند غير الله تعالى لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً فضلاً عن القليل، لكنه من عند الله تعالى فليس فيه اختلاف لا كثير ولا قليل.

واعلم: أنه يدل على كون القرآن من عند الله سبحانه وتعالى لا من عند غيره أمور كثيرة:

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الأول: أن أي مخلوق لا يستطيع تصوير الحقائق كما صورها القرآن بلا اختلاف ولا تفاوت في شيء منها.

الثاني: أنه حكى عن الماضي الذي لم يشاهده محمد ﷺ ولم يقف على تاريخه، وعن الآتي، فوقع كما أنبأ به، وعن الحاضر فأخبر عن خبايا الأنفس ومكنونات الضمائر، كما أخبر عما بيتته هذه الطائفة مخالفاً لما تقول للرسول ﷺ، أو ما يقوله لها، فتقبله في حضرته، وترفضه في غيبته.

الثالث: أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله في سنن الاجتماع ونواميس العمران وطبائع الملل والأقوام، مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال وتكرار القصة الواحدة بالعبارات البليغة، تنويعاً للعبرة وتلويناً للموعظة، واتفاق كل ذلك وتوافقه على الصدق، وبراءته من الاختلاف والتناقض.

الرابع: أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله في بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع وسياسة الشعوب والقبائل، مع عدم الاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك.

الخامس: أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله فيما جاء به من فنون القول، وألوان العبر في أنواع المخلوقات في الأرض أو في السموات، فقد تكلم على الخلق والتكوين، ووصف جميع الكائنات، كالكواكب ونظامها والرياح والبحار والحيوان والنبات، وما فيها من الحكم والآيات، وكان في كل ذلك يؤيد بعضه بعضاً، لا تفاوت فيه ولا اختلاف بين معانيه.

السادس: أنه أخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة، وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء العادل، وكان في كل ذلك جارياً على سنة الله تعالى في تأثير الأعمال الاختيارية في الأرواح، مع الالتئام بين الآيات الكثيرة، وهو غاية الغايات في ذلك عند من أوتي الحكمة وفصل الخطاب.

هذا بالإضافة إلى أنه نزل منجماً بحسب الوقائع والأحوال، وكان النبي ﷺ عند نزول الآية أو الآيات يأمر بأن توضع في محلها من سورة كذا، وهو يحفظه حفظاً، وقد جرت العادة بأن من يأتي بكلام من عنده في مناسبات مختلفة لا

يتذكر جميع ما سبق له في السنين الطوال ولا يستحضره حتى يجعل الآخر موافقاً للأول، مع أن بعض الآيات كان ينزل في أيام المحن والكروب، وبعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام، إلى أن كرَّ الغداة ومرّ العشي لا يزيده إلا جدة، ولا يزيد أحكامه إلا ثباتاً ورسوخاً، وكلما اتسعت دائرة العلوم والمعارف، ونمت أحوال العمران.. زاد إيمان الناس به، إذ تتوثق روابط الصلة بين الدين والعلم، وتتظاهر أحكامه مع نواميس الاجتماع وشؤون الكون.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: وإذا جاء ضعفة المؤمنين الذين لا خبرة لهم بالشؤون العامة، وقيل: الضمير يعود إلى المنافقين ﴿أمرٌ﴾ من أمور المسلمين، وشأن من شؤونهم، سواء كان ذلك الأمر ﴿مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾ والبشارة والخير، كفتح وغنيمة ﴿أَوِ﴾ كان ﴿مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ والحزن والشر، كقتل وهزيمة.. ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: أفشى هؤلاء الضعفة أو المنافقون ذلك الأمر والخبر، وأشاعوه بين الناس، وذلك أن النبي ﷺ كان يبعث البعوث والسرايا، فإذا غَلبوا أو غُلبوا.. بادر هؤلاء الضعفة أو المنافقون يستخبرون عن حالهم، ثم يشيعونه، ويتحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله ﷺ، فيضعفون به قلوب المؤمنين، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ويستفاد من الآية: أنه لا ينبغي للعامة الذين لا خبرة لهم بالشؤون العامة أن تشيع أخبار الحرب وأسرارها، ولا أن تخوض في السياسة العامة للدولة، لأن ذلك مضرة لها، ومفسدة لشؤونها ومرافقها العامة، وعلاقاتها مع غيرها من الأمم، بالإضافة إلى أن في ذلك مشغلة لهم عن شؤونهم الخاصة، وضياع زمن كانوا فيه أحوج إلى العمل بما يفيدهم ويفيد الأمة، وهذا بيان لجناية ضعفاء الإيمان إثر بيان جناية المنافقين.

ثم بين ما ينبغي أن يفعل في مثل هذه الحال، فقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾؛ أي: ولو رد هؤلاء المذيعون من ضعفة الإيمان أو المنافقين هذا الخبر الذي تحدثوا به من الأمن أو الخوف، وفوضوا الكلام في الأمور العامة ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، وهو الإمام الأعظم، والقائد العام في الحرب ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: وإلى

أصحاب الرأي والعقل من أهل الحل والعقد ورجال الشورى ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من المؤمنين من كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ولم يتحدثوا به، حتى يكون هؤلاء هم الذين يظهرونه.. ﴿لَعَلِمَهُ﴾؛ أي: لعلم حقيقة ذلك الخبر هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ ويذيعونه بين الناس من أولئك الضعفة أو المنافقين الذين يبغون ويطلبون علم ذلك الخبر ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من الرسول ﷺ ومن أولي الأمر؛ أي: ولو أن هؤلاء الضعفاء أو المنافقين المذيعين، ردوا أمر الأمن أو الخوف وخبره إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر منهم، بأن سكتوا عن إذاعته، وطلبوا معرفة الحال فيه من جهة الرسول ﷺ وأولي الأمر.. لعلمه هؤلاء الضعفة أو المنافقون المذيعون من جهة الرسول ومن جهة أولي الأمر؛ أي: لوجدوا علم حقيقة ذلك الخبر عندهم؛ لأنهم هم الذين يعرفون مثل ذلك الخبر، ويستخرجون خفاياه بدقة نظرهم، إذ لكل طائفة منهم استعداد للإحاطة ببعض المسائل المتعلقة بسياسة الأمة دون بعض، ولا ينبغي أن تذيعه العامة لما في ذلك من الضرر بها من سائر الوجوه والاعتبارات، وقرأ أبو السمال ﴿لعلمه﴾ بسكون اللام، فيخرج على لغة تميم؛ لأن تسكين عين علم قياس مطرد عندهم.
ثم امتن الله سبحانه وتعالى على صادقي الإيمان من عباده فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وإحسانه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون بالإسلام والتوفيق والهداية، ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم ببعثة محمد ﷺ، وإنزال القرآن.. ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ وكفرتم بالله تعالى ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم، فإن[1] ذلك القليل بتقدير عدم بعثة محمد ﷺ، وعدم إنزال القرآن، ما كان يتبع الشيطان، وما كان يكفر بالله، وهم مثل قس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل وأضرابهم.

وخلاصة المعنى: أي[2] ولولا فضل الله تعالى عليكم ورحمته بكم، إذ هداكم لطاعته وطاعة رسوله ﷺ ظاهراً وباطناً، ورد الأمور العامة إلى الرسول ﷺ، وإلى أولي الأمر منكم.. لاتبعتم وسوسة الشيطان فيما يأمركم به

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

من الفواحش، كما اتبعته تلك الطائفة، التي تقول للرسول ﷺ: طاعة لك، وتبيت غير ذلك، والتي تذيع أمر الأمن والخوف، وتفسد على الأمة سياستها، ولأخذتم بآراء المنافقين فيما تأتون وما تذرون، ولم تهتدوا إلى الصواب إلا قليلاً منكم ممن استنارت عقولهم بنور الإيمان، وعرفوا الأحكام بالاقتباس من مشكاة النبوة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا أردت يا محمد الفوز والظفر على الأعداء.. فقاتل في سبيل الله؛ أي: جاهد في طاعة الله تعالى لإعلاء كلمته امتثالاً لأمره، وأنت ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾؛ أي: لا تكلف إلا أفعال نفسك، ولا تطالب إلا بها دون أفعال الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، والذين يقولون لك طاعة ويبيتون غير ذلك، فمن أطاع الله تعالى لا يضيره عصيان من عصاه، والمعنى: قاتل في سبيل الله ولا تنظر لكسلهم، حال كونك غير مكلف إلا نفسك، فلا يضرك مخالفتهم وتقاعدهم عن القتال، وقد كان رسول الله ﷺ في شدة الحرب لا يتغير وجهه أبداً، بل كان يبتسم إذ ذاك، ولا يكترث بملاقاة الأعداء، وكان من خصائصه إذا بدأ بالحرب لا يرجع حتى يحكم الله تعالى بينه وبين عدوه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ على صيغة الخبر مبنياً للمفعول، والجملة في موضع الحال أو مستأنفة، وقرىء: ﴿لا نكلف﴾ بالنون وكسر اللام، ويحتمل وجهي الإعراب الحال والاستئناف، وقرأ عبد الله بن عمر ﴿لا تكلف﴾ بالتاء وفتح اللام والجزم على جواب الأمر.

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: وحث يا محمد المؤمنين على الخروج معك للقتال، بذلاً للنصيحة لهم، ورغبهم في الثواب عليه، بذكر الآيات الواردة في فضل الجهاد، فإن تخلفوا بعد ذلك.. فلا يضرونك، وإنما وبالهم على أنفسهم؛

(١) البحر المحيط.

فإنهم آثمون بالتخلف؛ لأن القتال كان مفروضاً عليهم إذ ذاك، فإن فرضه في السنة الثانية، وهذه القضية في السنة الرابعة، كما روي أن رسول الله ﷺ واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى في ذي القعدة، فلما بلغ الميعاد.. دعا الناس إلى الخروج، فكرهه بعضهم، فنزلت هذه الآية.

وفي الآية إيماء إلى أنه ﷺ كلف قتال الكافرين الذين قاوموا دعوته بقوتهم وبأسهم، وإن كان وحده، كما أنه تدل على أنه ﷺ أعطي من الشجاعة ما لم يعطَ أحد من العالمين، وفي سيرته الشريفة أصدق الأدلة على ذلك، فقد تصدى لمقاومة الناس جميعاً، بدعوتهم إلى ترك ما هم عليه من الضلال، وحين قاتلوه قاتلهم، وقد انهزم عنه أصحابه في أحد، فبقي ثابتاً كالجبل لا يتزلزل. ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: حقق الله سبحانه وتعالى ﴿أَن يَكُفَّ﴾ ويمنع ويصرف عنك ﴿بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: شدتهم وصولتهم وشوكتهم، وقد فعل ذلك بإلقاء الرعب في قلب أبي سفيان حين تخلف عن الخروج إلى الموعد، ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَشَدُّ بَأْسًا﴾؛ أي: أقوى أخذاً وصولة وسلطة، من الذين كفروا، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾؛ أي: أشد عقوبة وتعذيباً منهم.

والمعنى: لا تخافوا بأس هؤلاء الكافرين وشدتهم، ولا يصدنكم ذلك عن طاعة الرسول ﷺ والعمل بتحريضه، فإن الله تعالى الذي وعد الرسول ﷺ بالنصر أشد منهم بأساً، وأشد منهم تنكيلاً، وقد جرت سنته أن تكون العاقبة للمتقين، ما استمسكوا بأوامره وتركوا نواهيه، وأعدوا العدة مع الصبر والثبات والتباعد عن أسباب الخذلان والفشل.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾؛ أي: من يشفع بين الناس شفاعة موافقة للشرع ﴿يَكُن لَّهُۥ﴾؛ أي: لذلك الشافع ﴿نَصِيبٌ﴾ وحظ من الأجر ﴿مِّنْهَا﴾؛ أي: بسببها، وقد بين النصيب في حديث: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب.. استجيب له، وقال الملك: ولك مثل ذلك». ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾؛ أي: مخالفة للشرع ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: نصيب من الوزر بسببها.

والغرض من هذه الآية[١]: بيان أنه ﷺ لما حرّضهم على الجهاد.. فقد استحق بذلك التحريض أجراً عظيماً، ولو لم يقبلوا أمره ﷺ.. لم يرجع إليه من عصيانهم شيء من الوزر، وذلك لأنه ﷺ بذل الجهد في ترغيبهم في الطاعة، ولم يرغبهم في المعصية البتة، فحقاً يرجع إليه من طاعتهم أجر، ولا يرجع إليه من معصيتهم وزر؛ فإن الشفاعة هي التوسط بالقول في وصول شخص إلى منفعة دنيوية أو أخروية، أو إلى خلاص من مضرة، كذلك من الشفع كأن المشفوع له كان فرداً فجعله الشفيع شفعاً.

وقال المراغي قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: من[٢] يجعل نفسه شفيعاً وزوجاً لك، ويناصرك في القتال، وقد أمرت به وحدك.. يكن له من شفاعته نصيب بما يناله من الفوز والشرف والغنيمة في الدنيا، عندما ينتصر الحق على الباطل، وبما يناله من الثواب في الأخرة في جميع الحالات، سواء أدرك النصر في الدنيا أم لم يدرك.

ووصف الشفاعة بالحسنة لأنها تأييد ونصر للحق، ومثل هذا كل من يعاون فاعل الخير ويساعده، ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: ومن ينضم إلى عدوك فيقاتل معه، أو يخذل المؤمنين عن قتاله.. يكن له نصيب من سوء العاقبة، بما يناله من الخذلان في الدنيا، والعقاب في الآخرة، وهذه هي الشفاعة السيئة؛ لأنها إعانة على السيئات، وسمى هذا النصيب كفلاً؛ لأنه نصيب مكفول للشافع إذ هو أثر عمله، أو محدود لأنه على قدره.

والخلاصة: أن من ينضم إلى غيره معيناً له في فعل حسن.. يكن له منه نصيب، ومن ينضم إلى غيره معيناً له في فعل سيء.. ينله منه سوء وشدة.

ويدخل في الآية شفاعة الناس بعضهم لبعض، وهي قسمان: حسنة وسيئة، فالحسنة: أن يشفع الشافع لإزالة ضرر ورفع مظلمة عن مظلوم، أو جر منفعة إلى مستحق ليس في جرها إليه ضرر ولا ضرار.

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.

والسيئة: أن يشفع في إسقاط حد أو هضم حق، أو إعطائه لغير مستحق، أو محاباة في عمل بما يوصل إلى الخلل والزلل، ولأجل هذا قال العلماء: الشفاعة الحسنة ما كانت فيما استحسنه الشرع، والسيئة فيما كرهه أو حرمه.

وفي الآية من العبرة لنا أن نتذكر أن الحاكم العادل لا تنفع الشفاعة عنده إلا بإخباره بما لم يكن يعلم من مظلمة المشفوع له، أو استحقاقه لما يطلب له، ولا يقبل الشفاعة لإرضاء الشافع فيما يخالف الحق والعدل ويخالف المصلحة العامة. أما الحاكم الظالم فتروج عنده الشفاعات؛ لأنه يحابي أعوانه المقربين منه ليكونوا شركاء له في استبداده، ليثبتوا على خدمته وإخلاصهم له، والحكومات التي تروج فيها الشفاعات وتعتمد عليها الرعية في كل ما تطلب تضيع فيها الحقوق، ويحل الظلم محل العدل، ويسري من الدولة إلى الأمة، فيعم فيها الفساد، ويختل نظام الأعمال. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾؛ أي: قادراً على إيصال الجزاء إلى الشافع، مثل ما يوصله إلى المشفوع فيه، وحافظاً للأشياء، شاهداً عليها، فهو عالم بأن الشافع يشفع في حق أو باطل، فيجازي كلاً بما علم منه.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى كان مقتدراً على كل شيء، فلا يعجزه أن يعطي الشافع نصيباً وكفلاً من شفاعته، على قدرها في النفع والضر، ويجازي كلاً بما يستحق، لأن سننه قد قضت بأن يربط الجزاء بالأسباب.

وبعد أن علَّم الله سبحانه وتعالى المؤمنين طريق الشفاعة الحسنة والسيئة، وهي من أسباب التواصل بين الناس.. علمهم سنة التحية بينهم وبين إخوانهم؛ ليؤدبهم بأدب دينه، ويزكيهم ويطهر نفوسهم من الغل والحسد، فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ﴾؛ أي: وإذا حياكم أحد بتحية، بأن قال لكم: السلام عليكم، أو قال: السلام عليكم ورحمة الله.. ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾؛ أي: فأجيبوه بتحية أحسن وأكمل وأزيد من تحية المسلِّم عليكم، إذا كان المسلِّم من أهل الإسلام، بأن تقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله، أو وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ويقال: لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام: وبركاته، بدليل أن هذا القدر هو

الوارد في التشهد، فالأحسن هو أن المسلِّم إذا قال السلام عليك.. زيد في جوابه الرحمة، وإن ذكر السلام والرحمة في الابتداء.. زيد في جوابه البركة، وإن ذكر الثلاثة في الابتداء.. أعيدت في الجواب، وجواب السلام إكرام للمسلِّم، وتركه إهانة، والإهانة ضرر، والضرر حرام، وإذا استقبلك واحد فقل: سلام عليكم، واقصد الرجل والملكين، فإنك إذا سلمت عليهما ردا السلام عليك، ومن سلم الملك عليه.. فقد سلم من عذاب الله تعالى. ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾؛ أي: أجيبوها بمثلها، بأن تقولوا: وعليكم السلام في المثال الأول، أو وعليكم السلام ورحمة الله في المثال الثاني، فمعنى رد السلام جوابه بمثله؛ لأن المجيب يرد قول المسلِّم، وفيه حذف مضاف؛ أي: ردوا مثلها، والتسليم سنة، والرد على الفور فريضة، والأحسن أفضل.

وقد يكون[1] حسن الجواب بمعناه، أو كيفية أدائه، وإن كان بمثل لفظ المبتدأ بالتحية، أو مساويه في الألفاظ أو أخصر منه، فمن قال لك: السلام عليك بصوت خافت، يشعر بقلة العناية، فقلت له: وعليكم السلام بصوت أرفع وبإقبال يشعر بالعناية، أو بزيادة الإقبال والتكريم.. كنت قد حييته بتحية أحسن من تحيته في صفتها، وإن كانت مثلها في لفظها.

والخلاصة: أن الجواب عن التحية له مرتبتان:

أدناهما: ردها بعينها.

وأعلاهما: الجواب عنها بأحسن منها، والمجيب مخير بينهما.

والتحية[2]: تفعلة من حيًّا، وأصلها من الحياة، ثم جُعل السلام تحية؛ لكونه خارجاً عن حصول الحياة، وسبب الحياة في الدنيا أو في الآخرة، والتحية أن يقال: حياك الله؛ أي: جعل اللّٰه لك حياة، وذلك إخبار، ثم جُعل دعاء، وهذه اللفظة كانت العرب تقولها، فلما جاء الإسلام.. بدل ذلك بالسلام، وهو

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

المراد به بالآية، يعني إذا سلم عليكم المسلِّم.. فأجيبوه بأحسن مما سلم به عليكم، وإنما اختير لفظ السلام على لفظة حياك الله؛ لأنه أتم وأحسن وأكمل، لأن معنى السلام السلامة من الآفات، فإذا دعا الإنسان بطول الحياة بغير سلامة.. كانت حياته مذمومة منغصة، وإذا كان في حياته سليماً.. كان أتم وأكمل، فلهذا السبب اختير لفظ السلام، ومن المطلوب المصافحة؛ لما ورد أنها تذهب الغل من القلوب، وأما تقبيل اليد فهو مكروه، إلا لمن ترجى بركته كشيخ أو والد، وأما المعانقة فمكروهة إلا لتشوق كقدوم من سفر ونحوه، ذكره الصاوي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾؛ أي[1]: محاسباً لكم على كل أعمالكم، وكافياً في إيصال جزاء أعمالكم إليكم، فكونوا على حذر من مخالفة هذا التكليف، وهذا يدل على شدة الاعتناء بحفظ الدماء؛ أي: إنه[2] تعالى رقيب عليكم في مراعاة هذه الصلة بينكم بالتحية، ويحاسبكم على ذلك، وفي هذا إشارة إلى تأكيد أمر هذه الصلة بين الناس، ووجوب رد التحية على من يسلم علينا ويحيينا، **والمعنى**: أنه تعالى على كل شيء من رد السلام بمثله أو بأحسن منه مجازٍ.

ذكر نبذة من أحكام السلام

فصل في فضل السلام والحث عليه

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف». متفق عليه. قوله: أي الإسلام خير معناه: أي خصال الإسلام خير. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم.. أفشوا السلام بينكم». أخرجه مسلم.

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح.

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: أمرنا نبينا ﷺ أن نفشي السلام، أخرجه ابن ماجه.

فصل في أحكام تتعلق بالسلام وفيه مسائل

المسألة الأولى: في كيفية السلام

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام.. قال: اذهب فسلم على أولئك ـ نفر من الملائكة جلوس ـ فاستمع ما يحيونك به، فإنها تحيتك، وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: عليك السلام ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله». متفق عليه، قال العلماء: يستحب لمن يبتدىء بالسلام أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيأتي بضمير الجمع، وإن كان المسلم عليه واحداً، ويقول المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فيأتي بواو العطف في قوله وعليكم، ليحصل الارتباط بين الجملتين.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فرد عليه ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ: عشر، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس فقال: عشرون، فجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فجلس، فقال: ثلاثون» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن. وقيل إذا قال المسلم: السلام عليكم.. يقول المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله، فيزيده ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله.. يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فيزيده وبركاته، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. يرد عليه السلام بمثله ولا يزيد عليه

وروي أن رجلاً سلم على ابن عباس فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم زاد شيئاً، فقال ابن عباس: إن السلام انتهى إلى البركة، ويستحب للمسلِّم أن يرفع صوته بالسلام، ليسمع المسلَّم عليه، فيجيبه، ويشترط أن يكون الرد على الفور، فإن أخره ثم رد.. لم يعد جواباً وكان آثماً بترك الرد.

المسألة الثانية: في حكم السلام

الابتداء بالسلام سنة مستحبة ليس بواجب، وهو سنة على الكفاية، فإن كانوا جماعة، فسلم واحد منهم.. كفى عن جميعهم، ولو سلم كلهم.. كان أفضل وأكمل. قال القاضي حسين من أصحاب الشافعي: ليس لنا سنة على الكفاية إلا هذا، وفيه نظر؛ لأن تشميت العاطس سنة على الكفاية أيضاً كالسلام، ولو دخل على جماعة في بيت أو مجلس أو مسجد.. وجب عليه أن يسلم على الحاضرين، لقوله ﷺ: «أفشوا السلام»، والأمر للوجوب، أو يكون ذلك سنة مؤكدة؛ لأن السلام من شعار أهل الإسلام، فيجب إظهاره أو يتأكد استحبابه.

أما الرد على المسلِّم: فقد أجمع العلماء على وجوبه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ والأمر للوجوب؛ لأن في ترك الرد إهانة للمسلِّم، فيجب ترك الإهانة، فإن كان المسلَّم عليه واحداً.. وجب عليه الرد، وإذا كانوا جماعة.. كان رد السلام في حقهم فرض كفاية، فلو رد واحد منهم.. سقط فرض الرد عن الباقين، وإن تركوه كلهم.. أثموا.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم». أخرجه أبو داود.

المسألة الثالثة: في آداب السلام

السنة أن يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير». متفق عليه.

وفي رواية للبخاري قال: يسلم الصغير على الكبير، والمار على القاعد، والقليل على الكثير، وإذا تلاقى رجلان.. فالمبتدىء بالسلام هو الأفضل، لما روي عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بالله عز وجل من بدأهم بالسلام». أخرجه أبو داود والترمذي، ولفظه قال: قيل: يا رسول الله، الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام، قال: «أولاهما بالله». قال الترمذي: حديث حسن.

ويُستحب أن يبدأ بالسلام قبل الكلام والحاجة، والسنة إذا مر بجماعة صبيان صغار أن يسلم عليهم؛ لما روي عن أنس رضي الله عنه: أنه مر على صبيان فسلم عليهم، وقال: كان رسول الله ﷺ يفعله. أخرجاه في «الصحيحين». وفي رواية لأبي داود أن النبي ﷺ: «مر على غلمان يلعبون فسلم عليهم».

وأما السلام على النساء: فإن كن جمعاً جالسات في مسجد أو موضع.. فيستحب أن يسلم عليهن، إذا لم يخف على نفسه أو عليهن فتنة، لما روي عن أسماء بنت يزيد قالت: «مر علينا رسول الله ﷺ في نسوة فسلم علينا». أخرجه أبو داود. وفي رواية للترمذي: «أن رسول الله ﷺ مر في المسجد يوماً وعصبة من النساء قعود فألوى بيده بالتسليم». قال الترمذي حديث حسن.

وإذا مر على امرأة مفردة أجنبية، فإن كانت جميلة.. فلا يسلم عليها، ولو سلم.. فلا ترد هي عليه؛ لأنه لم يستحق الرد، وإن كانت عجوزاً، لا يخاف عليه ولا عليها الفتنة.. سلم عليها، وترد هي عليه، وحكم النساء مع النساء كحكم الرجال مع الرجال في السلام، فيسلم بعضهن على بعض.

المسألة الرابعة: في الأحوال التي يكره فيها السلام

فمن ذلك الذي يبول أو يتغوط أو يجامع ونحو ذلك، لا يسلم عليه، فلو سلم.. فلا يستحق المسلِّم جواباً، لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجلاً مر ورسول الله ﷺ يبول، فسلم عليه، فلم يرد عليه. أخرجه مسلم. قال الترمذي: إنما يكره إذا كان على الغائط أو البول. ويكره التسليم على من في

الحمام، وقيل إن كانوا متزرين بالمآزر سلم عليهم وإلا فلا. ويكره التسليم على النائم والناعس والمصلي والمؤذن والتالي في حال الصلاة والأذان والتلاوة، ويكره الابتداء بالسلام في حال الخطبة؛ لأن الجالسين مأمورون بالإنصات للخطبة، ويكره أن يبدأ المبتدع بالتسليم عليه، وكذلك المعلن بفسق، وكذلك الظلمة ونحوهم، فلا يسلم على هؤلاء.

المسألة الخامسة: في حكم السلام على أهل الذمة اليهود والنصارى

واختلف العلماء فيه: فذهب أكثرهم إلى أنه لا يجوز ابتداؤهم بالسلام، وقال بعضهم: إنه ليس بحرام بل هو مكروه كراهة تنزيه، ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه». أخرجه مسلم.

وإذا سلم يهودي أو نصراني على مسلم فيرد عليه، ويقول: عليك، بغير واو العطف، لما روي عن أنس رضي الله عنه أن يهودياً أتى على رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: السام ـ الموت ـ عليكم، فرد عليه القوم، فقال رسول الله ﷺ: «هل تدرون ما قال»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم يا نبي الله، قال: «لا ولكنه قال كذا وكذا، ردوه عليَّ»، فردوه، فقال: «قلت: السام عليكم»، قال: نعم يا نبي الله، فقال ﷺ عند ذلك: «إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب.. فقولوا عليك؛ أي: عليك ما قلت». أخرجه الترمذي. فلو أتى بواو العطف وميم الجمع، فقال: وعليكم.. جاز؛ لأنَّا نجاب عليهم في الدعاء، ولا يجابون علينا، ويدل على ذلك ما روي عن جابر: أن رسول الله ﷺ مر عليه ناس من اليهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقال: «وعليكم»، فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا، قال: «بلى قد سمعت فرددت عليهم، وإنا نجاب عليهم، ولا يجابون علينا». أخرجه مسلم.

وإذا مر المسلم على جماعة فيهم مسلمون ويهود ونصارى.. يسلم عليهم، ويقصد بتسليمه المسلمين، لما روي عن أسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين واليهود فسلم عليهم. أخرجه الترمذي.

وبعد أن حث رسوله ﷺ على الجهاد، وأمر المسلمين بمشاركته فيه، وأمرهم بإظهار المودة وقت السلام.. بين أنهم مجزيون على كل هذا في يوم لا ريب فيه فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾: خبر، وهذه الآية نزلت في منكري البعث؛ أي: الإلٰه المعبود بحق سبحانه وتعالى مخبر عنه بعدم وجود إله معه، قال[1] بعضهم: كأنه تعالى يقول: من سلم عليكم.. فاقبلوا سلامه، وأكرموه بناء على الظاهر، فإن البواطن إنما يعرفها الله الذي لا إلٰه إلا هو، وإنما ينكشف بواطن الخلق للخالق في يوم القيامة ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: والله ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۗ﴾؛ أي: لا شك في يوم القيامة أنه كائن، والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ إنكاري؛ أي: لا أحد أصدق منه سبحانه وتعالى في إخباره ووعده ووعيده؛ لاستحالة الكذب عليه تعالى؛ لقبحه لكونه إخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه، والمقصود منه بيان أنه يجب كونه تعالى صادقاً، وأن الكذب والخلف في قوله تعالى محال، وأن القيامة كائنة لا شك فيها ولا ريب؛ إذ كلامه تعالى عن علم محيط بسائر الكائنات، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ فلا يمكن أن يكون خبره غير صادق بسبب النقص في العلم أو الغرض أو الحاجة؛ لأنه تعالى غني عن العالمين، أما كلام غيره فهو محتمل للصدق والكذب عن عمد وعلم أو عن سهو وجهل، وقد دل الدليل على أن القرآن كلام الله، فلم يبق عذر لمن قام عليه الدليل إذا آثر على قوله أقوال المخلوقين كما هو دأب الضالين، واعلم أن هذه الآية جمعت[2] التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء في الدار الآخرة، وهما الركنان الأساسيان للدين، وقد أرسل الرسل جميعاً لتبليغ الناس ما يجب عليهم من إقامتهما، وتأييدهما بصالح الأعمال والقرآن، قد يصرح بهما تارة معاً، وبالأول منهما تارة أخرى أثناء ذكر الأحكام، إذ هما العون الأكبر والباعث الأقوى على العمل بها، ولا سيما أحكام القتال، الذي يبذل المرء فيه نفسه ونفيسه للدفاع عن حرية الدين ونشر هدايته، وتأمين دعاته وأهله.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

والمعنى: الله لا إله إلا هو فلا تقصروا في عبادته، والخضوع لأمره ونهيه، فإن في ذلك سعادتكم وارتقاء أرواحكم وعقولكم، وتحريركم من رق العبودية لأمثالكم من البشر، بل من دونهم من المعبودات، التي ذل لها المشركون، وهو سبحانه سيجمعكم ويحشركم إلى يوم القيامة، وهو يوم لا ريب فيه، ولا فيما يكون فيه من الجزاء عن الأعمال. وقرأ حمزة[1] والكسائي ﴿أصدق﴾ بإشمام الصاد زاياً، وكذا فيما كان مثله من صاد ساكنة بعدها دال نحو ﴿يصدقون﴾ و﴿تصدية﴾ وأما إبدالها زاياً محضة في ذلك فهي لغة كلب وأنشدوا:

يَـزِيْـدُ زَادَ ٱلـلَّـهُ فِـيْ خَـيْـرَاتِـهِ   حَـامِـيْ ٱلـذِّمَـارِ عِـنْـدَ مَـزْدُوْقَـاتِـهِ

يريد عند مصدوقاته.

الإعراب

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿مَّن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة أو هما، ﴿يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب كما مر آنفاً. ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿ما﴾، لأنه من المواضع السبعة المجموعة في قول بعضهم:

إِسْـمِـيَّـةٌ طَـلَـبِـيَّـةٌ وَبِـجَـامِـدِ   وَبِـمَـا وَلَـنْ وَبِـقَـدْ وَبِـٱلـتَّـنْـفِـيْـسِ

(١) البحر المحيط.

﴿ما﴾: نافية، ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿حَفِيظًا﴾. ﴿حَفِيظًا﴾: حال من كاف المخاطب، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿طَاعَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمرك، أو أمرنا طاعة، أو مبتدأ خبره محذوف، تقديره: منا طاعة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿بَرَزُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الخفض بإضافة إذا على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿مِنْ عِندِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿بَرَزُوا۟﴾، ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿طَآئِفَةٌ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿يقولون﴾ ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿تَقُولُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿طَآئِفَةٌ﴾، والجملة صلة الموصول.

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿يَكْتُبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿يُبَيِّتُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يبيتونه. ﴿فَأَعْرِضْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك: أعرض. ﴿أعرض﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة

﴿توكل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة ﴿أعرض﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿توكل﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كفى بالله﴾: فعل وفاعل. ﴿وَكِيلًا﴾: حال أو تمييز، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾: داخلة على محذوف، تقديره: أيعرضون عن القرآن فلا يتدبرون فيه، ﴿الفاء﴾: عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿القرآن﴾، ﴿مِنْ عِندِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كان﴾، تقديره: كائناً، ﴿مِن﴾: حرف جر. ﴿عِندِ﴾: مضاف. ﴿غَيْرِ﴾: مضاف إليه. ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَوَجَدُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿وجدوا﴾: فعل وفاعل، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿وجدوا﴾، ﴿ٱخْتِلَٰفًا﴾: مفعول به، ﴿كَثِيرًا﴾: صفته، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَهُمْ أَمْرٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَمْرٌ﴾، ﴿أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَمْنِ﴾. ﴿أَذَاعُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: مستأنفة استئنافاً بيانياً أو نحوياً.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط، ﴿رَدُّوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على الجار والمجرور قبله، ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾، ﴿لَعَلِمَهُ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿علمه﴾ فعل ومفعول، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿إذا﴾. ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو من الضمير في ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لولا﴾: حرف دال على امتناع شيء لوجود غيره. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: **مبتدأ ومضاف إليه**، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: معطوف على ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، والخبر محذوف وجوباً؛ لقيام الجواب مقامه، تقديره: موجودان، والجملة الاسمية شرط لـ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿اتبعتم﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾: مفعول به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾: مستثنى من فاعل ﴿اتبعتم﴾ والجملة الفعلية جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة.

﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَقَٰتِلْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا أردت يا محمد الفوز والظفر على الأعداء.. فقاتل. ﴿قاتل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قاتل﴾ والجملة الفعلية جواب لـ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تُكَلَّفُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير

يعود على محمد، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿نَفْسَكَ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿فَقَاتِلْ﴾؛ أي: فقاتل حال كونك غير مكلف إلا نفسك وحدها، وقيل مستأنفة، أخبره تعالى أنه لا يكلفه غير نفسه. ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿حرض المؤمنين﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة ﴿قاتل﴾.

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

﴿عَسَى﴾: من أفعال الرجاء ترفع الاسم وتنصب الخبر. ﴿اللَّهُ﴾: اسمها. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَكُفَّ﴾: فعل مضارع منصوب، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، ﴿بَأْسَ الَّذِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، وجملة ﴿يَكُفَّ﴾ من الفعل والفاعل صلة ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه خبراً لـ﴿عَسَى﴾، ولكنه على حذف مضاف إما قبل الاسم تقديره: عسى أمر الله كف بأس الذين كفروا، أو قبل الخبر تقديره: عسى الله ذا كف بأس الذين كفروا، والكثير في كلامهم اقتران خبر ﴿عَسَى﴾ بـ﴿أن﴾ المصدرية، كما قال ابن مالك:

كَكَانَ كَادَ وَعَسَىٰ لَكِنْ نَدَرْ ... غَيْرُ مُضَارِعٍ لِهَذَيْنِ خَبَرْ
وَكَوْنُهُ بِدُوْنِ أَنْ بَعْدَ عَسَىٰ ... نَزْرٌ وَكَادَ ٱلأَمْرُ فِيْهِ عُكِسَا

واستشكل[1] على هذه القاعدة المطردة في ﴿عَسَى﴾ بأن ﴿أن﴾ المصدرية تؤول بالمصدر، فيكون التقدير في الآية: عسى الله كف بأس الذين كفروا، والمصدر اسم المعنى، فلا يخبر به عن الذات، وأجيب عنه: بأنه على حذف مضاف إما قبل الاسم أو قبل الخبر، كما مر بيانه آنفاً، ﴿وَاللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿أَشَدُّ﴾: خبره. ﴿بَأْسًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة مستأنفة، ﴿وَأَشَدُّ﴾: معطوف على ﴿أَشَدُّ﴾ ﴿تَنكِيلًا﴾: تمييز.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.

---

(١) حاشية الحمدون على الألفية.

﴿مَّن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما. ﴿يَشْفَعْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَّن﴾ على كونه فعل الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾. ﴿شَفَٰعَةً﴾: مفعول به، ﴿حَسَنَةً﴾: صفة له، ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص، مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿يَكُن﴾، ﴿نَصِيبٌ﴾: اسمها مؤخر، ﴿مِّنْهَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَصِيبٌ﴾ و﴿مِّن﴾ فيه بمعنى الباء السببية، وجملة ﴿مَّن﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر إما جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَشْفَعْ﴾: مجزوم بـ﴿مَن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿شَفَٰعَةً﴾: مفعول به. ﴿سَيِّئَةً﴾: صفة لـ﴿شَفَٰعَةً﴾. ﴿يَكُن﴾: جواب الشرط. ﴿لَّهُۥ﴾: خبر ﴿يَكُن﴾ مقدم على اسمها. ﴿كِفْلٌ﴾: اسمها مؤخر. ﴿مِّنْهَا﴾: صفة لـ﴿كِفْلٌ﴾ وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَّن﴾ الأولى. ﴿وَكَانَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كان الله﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُّقِيتًا﴾، ﴿مُّقِيتًا﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿حُيِّيتُم﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾: متعلق بها، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿فَحَيُّوا۟﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿حيوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿بِأَحْسَنَ﴾: متعلق بـ﴿حيوا﴾، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿أحسن﴾، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع، ﴿رُدُّوهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿حيوا﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل

ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿حَسِيبًا﴾، ﴿حَسِيبًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل إن، ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَا﴾ محذوف تقديره: موجود، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَۚ﴾: ضمير للمفرد المنزه بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ مع خبره مستأنفة. ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿يجمعنّكم﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، و﴿نون التوكيد﴾ حرف لا محل له من الإعراب، و﴿الكاف﴾ مفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة[1] القسمية إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب، أو خبر ثان للمبتدأ، أو هي الخبر و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ اعتراض اهـ. أبو السعود. ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يجمعنكم﴾. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن، ﴿رَيۡبَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾ وجملة ﴿لَا رَيۡبَ﴾ في محل النصب حال من يوم القيامة، ويجوز أن تكون صفة لمصدر محذوف؛ أي: جمعاً لا ريب فيه، والهاء تعود على الجمع. ﴿وَمَنۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنۡ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَصۡدَقُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَصۡدَقُ﴾، ﴿حَدِيثٗا﴾: تمييز محول عن المبتدأ.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ الطاعة اسم مصدر لأطاع الرباعي، يقال: أطاع يطيع

(١) الفتوحات.

إطاعة وطاعة، والطاعة: الموافقة وامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يقال: بيت يبيت تبييتاً، من باب فعل المضعف، قال[1] الأصمعي وأبو عبيدة وأبو العباس: كل أمر قضي بليل قيل: قد بيت، وقال الزجاج: كل أمر مكر فيه، أو خيض بليل، فقد بيت، وقال الشاعر:

أَتَوْنِي فَلَمْ أَرْضَ مَا بَيَّتُوْا وَكَانُوْا أَتَوْنِي بِأَمْرٍ نُكُرْ

وقيل: التبييت التبديل بلغة طيء قال شاعرهم:

وَتَبِيْتُ قَوْلِيْ عِنْدَ ٱلْمَلِـ ـيْكِ قَاتَلَكَ ٱللَّهُ عَبْدَاً كَفُوْرَا

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ مضارع تدبر - من باب تفعل الخماسي - يتدبر تدبراً، وتدبر الشيء تأمله والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تفكر ونظر، والدبر: المال الكثير، سمي بذلك؛ لأنه يبقى للأعقاب وللأدبار، قاله الزجاج وغيره.

﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ يقال: أذاع الشر، وأذاع به، إذا نشره وأشاعه بين الناس وأظهره لهم، فالإذاعة: إظهار الشيء وإفشاؤه، يقال: ذاع يذيع من باب باع وأذاع، ويتعدى بنفسه وبالباء، فيكون إذ ذاك أذاع في معنى الفعل المجرد، قال أبو الأسود:

أَذَاعُوْا بِهِ فِيْ ٱلنَّاسِ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ بِعَلْيَاءِ نَارٍ أُوْقِدَتْ بِثُقُوْبِ

وقال أبو البقاء[2]: الألف في أذاعوا بدل من الياء، يقال ذاع الأمر يذيع، والباء زائدة؛ أي: أذاعوه، وقيل: حمل على معنى تحدثوا به، انتهى. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ يقال: رد الشيء إلى الشيء رداً وردوداً إذا أرجعه وأعاده إليه، ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ والاستنباط: استخراج ما كان مستتراً عن الأبصار، والنبط: الماء يخرج من البئر أول ما تحفر، والإنباط والاستنباط إخراجه، والنبط: الذين يستخرجون المياه والنبات من الأرض، ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، التحريض: الحث على

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العكبري.

الشيء بتزيينه وتسهيل الأمر فيه، قال الراغب: كأنه في الأصل إزالة الحرض بضمتين وسكون ثانية؛ أي: الأشنان، والحرض في الأصل ما لا يعتد به، ولا خير فيه، ولذلك يقال للمشرف على الهلاك حرض، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾، ﴿بأساً﴾ والبأس: القوة، وفي «المصباح» وهو ذو بأس؛ أي: شدة وقوة. ﴿تَنكِيلًا﴾ التنكيل بوزن تفعيل، مصدر نكل المضعف من النكل وهو: القيد، ثم استعمل في كل عذاب، وفي «المصباح»: نكل به ينكل - من باب قتل - نكلة قبيحة إذا أصابه بنازلة، ونكل به بالتشديد مبالغة، والاسم النكال، انتهى. قال أبو حيان[1]: التنكيل الأخذ بأنواع العذاب وتنزيله على المعذب، وكأنه مأخوذ من النكل: وهو القيد.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ قال الراغب: الشفع ضم الشيء إلى مثله، والشفاعة الانضمام إلى آخر، ناصراً له وسائلاً عنه، ﴿نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ، ﴿كِفْلٌ﴾؛ أي: حظ، ولكن النصيب في الخبر أكثر استعمالاً، والكفل في الشر أكثر منه في الخير، ولقلة استعمال النصيب في الشر وكثرة استعمال الكفل فيه غاير بينهما في الآية الكريمة، حيث أتى بالكفل مع السيئة وبالنصيب مع الحسنة، ﴿مُّقِيتًا﴾؛ أي: مقتدراً أو حافظاً أو شاهداً، قال الراغب: وحقيقته قائماً عليه يحفظه ويعينه، وقال النحاس: هو مشتق من القوت، والقوت مقدار ما يحفظ به الإنسان من التلف، يقال: قاته يقوته إذا أطعمه قوته، وأقاته يقيته إذا جعل له ما يقوته، وفي «المختار»: أقات على الشيء إذا اقتدر عليه، ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ التحية مصدر حياه، إذا قال له: حياك الله، وأصله تحيية بوزن تفعلة كترضية وتسمية وتنمية، فأدغموا الياء في الياء بعد نقل حركة الياء الأولى إلى الحاء، وهي في الأصل الدعاء بالحياة، ثم صار اسماً لكل دعاء وثناء، كقولهم أنعم صباحاً، وأنعم مساء، وعم صباحاً وعم مساء، وجعل الشارع تحية المسلمين السلام عليكم، إشارة إلى أن الدين دين سلام وأمان. ﴿فَحَيُّوا۟﴾ أصله حييوا، استثقلت الضمة

(١) البحر المحيط.

على الياء، فحذفت الضمة، فالتقى ساكنان الياء والواو، فحذفت الياء وضم ما قبل الواو لمناسبتها، ﴿حسيباً﴾ الحسيب: المحاسب، فهو فعيل بمعنى مفاعل، كالجليس بمعنى المجالس، وقد يراد به المكافىء والكافي، من قولهم حسبك كذا إذا كان يكفيك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البيان والبديع[1]:

منها: الالتفات في قوله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ﴾، وفي قوله: ﴿بَيَّتَ﴾ و﴿يُبَيِّتُونَ﴾، وفي اسم الله في مواضع، و﴿أَشَدُّ﴾، وفي قوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿يُطِعِ﴾ و﴿أَطَاعَ﴾، وفي ﴿بَيَّتَ﴾ و﴿يُبَيِّتُونَ﴾، وفي قوله: ﴿حُيِّيتُم﴾ ﴿فَحَيُّواْ﴾،

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ و﴿وَكِيلًا﴾، و﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً﴾، و﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾.

ومنها: الاستفهام المراد به الإنكار في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾، وفي قوله: ﴿شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ و﴿شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾.

ومنها: التوجيه في قوله: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾.

ومنها: الاحتجاج النظري ويسمى المذهب الكلامي في قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: خطاب العين والمراد به الغير في قوله: ﴿فَقَٰتِلۡ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿أَن يَكُفَّ بَأۡسَ﴾.

ومنها: أفعل في غير المفاضلة في قوله: ﴿أَشَدُّ﴾.

ومنها: إطلاق كل على بعض في قوله: ﴿بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ واللفظ مطلق والمراد بدر الصغرى.

ومنها: الحذف في عدة مواضع تقتضيها الدلالة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ
ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا
تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا
تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ فَإِنِ
ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ
يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ
ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا
مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ
مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ
جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما ذكر أحكام القتال، وختمها ببيان أنه لا إلٰه غيره يُخشى ضرره، أو يُرجى خيره، فتترك هذه الأحكام لأجله.. ذكر هنا أنه لا ينبغي التردد في أمر المنافقين، وتقسيمهم فئتين، مع أن دلائل كفرهم ظاهرة جلية، فيجب أن تقطعوا بكفرهم، وتقاتلوهم حيثما وجدوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا...﴾ الآيات،

---

(١) المراغي.

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى لما بين أحكام قتال المنافقين، الذين يظهرون الإسلام خداعاً، ويسرون الكفر، ويساعدون أهله على قتال المؤمنين، والذين يعاهدون المسلمين على السلم، ويحالفونهم على الولاء والنصر، ثم يغدرون ويكونون عوناً لأعدائهم عليهم.. ذكر هنا قتل من لا يحل قتله من المؤمنين والمعاهدين والذميين، وما يقع منهم من ذلك عمداً أو خطأ.
قال أبو حيان: ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما رغب في مقاتلة الكفار.. ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالمحاربة، ومنها: أن يظن رجلاً حربياً فيقتله وهو مسلم، انتهى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما رواه الشيخان وغيرهما عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

وأخرج[3] سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن سعد بن معاذ قال: خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: «من لي بمن يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني»، فقال سعد بن معاذ: إن كان من الأوس.. قتلناه، وإن كان من إخواننا من الخزرج.. أمرتنا فأطعناك، فقام سعد بن عبادة فقال: ما بك يا ابن معاذ طاعة رسول الله ﷺ، ولقد عرفت ما هو منك، فقام أسيد بن حضير فقال: إنك يا ابن عبادة منافق، وتحب المنافقين، فقام محمد بن مسلمة فقال: اسكتوا يا أيها الناس فإن فينا رسول الله ﷺ، وهو يأمرنا فننفذ أمره، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ...﴾ الآية.

وأخرج[4] أحمد عن عبد الرحمٰن بن عوف: أن قوماً من العرب أتوا

---

(١) المراغي.
(٢) لباب النقول.
(٣) لباب النقول.
(٤) لباب النقول.

رسول الله ﷺ بالمدينة فأسلموا، وأصابهم وباء المدينة وحُمَّاها فأركسوا، وخرجوا من المدينة، فاستقبلهم نفر من الصحابة، فقالوا لهم: ما لكم رجعتم، قالوا: أصابنا وباء المدينة، فقالوا: أمالكم في رسول الله أسوة حسنة، فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ...﴾ الآية، في إسناده تدليس وانقطاع.

وروى[1] ابن جرير عن ابن عباس: أنها نزلت في قوم أظهروا الإسلام بمكة، وكانوا يعينون المشركين على المسلمين، فاختلف المسلمون في شأنهم وتشاجروا فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم[2] وابن مردويه عن الحسن: أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال: لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأُحد وأسلم من حولهم، قال سراقة: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج، فأتيته فقلت: أنشدك النعمة، بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك.. أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا.. لم يحسن تغليب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد فقال: «اذهب معه فافعل ما يريد»، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، وأنزل الله عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ وكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ في هلال بن عويمر الأسلمي، وسراقة بن مالك المدلجي، وفي بني جذيمة بن عامر بن عبد مناف، وأخرج أيضاً عن مجاهد أنها نزلت في هلال بن عويمر الأسلمي، وكان بينه وبين المسلمين عهد، وقصده ناس من قومه فكره أن يقاتل المسلمين، وكره أن يقاتل قومه.

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: كان الحارث بن يزيد من بني عامر بن لؤي يعذب عياش بن أبي ربيعة مع أبي جهل، ثم خرج الحارث مهاجراً إلى النبي ﷺ، فلقيه عياش بالحرة فعلاه بالسيف وهو يحسب أنه كافر، ثم جاء النبي ﷺ فأخبره، فنزلت ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا...﴾ الآية، فقرأها النبي ﷺ، قال له: قم فحرر.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير من طريق بن جريج عن عكرمة: أن رجلاً من الأنصار قتل أخا مقيس بن صبابة، فأعطاه النبي ﷺ الدية فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه فقتله، ولحق بمكة بعد ذلك وارتد عن الإسلام، فقال النبي ﷺ: لا أؤمنه في حل ولا حرم، فقتل يوم الفتح، قال ابن جريج: وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ أي: فأيُّ شيء ثبت لكم يا معشر المؤمنين حتى تفرقتم في شأن المنافقين، وصرتم في أمرهم ﴿فِئَتَيْنِ﴾؛ أي: فرقتين، فرقة ترى أنهم يعدون من الأولياء، ويستعان بهم على سائر المشركين المجاهرين لهم بالعداوة والكفر، وفرقة ترى أن يعاملوا كما يعامل غيرهم من المشركين المعلنين العداوة، ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه وتعالى قد أركسهم وصرفهم وردهم عن الحق الذي أنتم عليه من الإيمان والجهاد في سبيل الله، ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾؛ أي: بسبب ما اقترفوا من أعمال الشرك والنفاق، واجترحوا من المعاصي، حتى إنهم لا ينظرون إليكم نظرة المودة والإخاء، بل نظرة العداوة والبغضاء، ويتربصون بكم الدوائر، ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تَهْدُواْ﴾ وترشدوا إلى طريق الحق ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: من أراد الله تعالى إضلاله وغوايته؛ أي: أتقولون هؤلاء مهتدون والله تعالى أضلهم، وهذا خطاب للفئة التي دافعت عن المنافقين، والمراد بالهداية المنفية خلق الهداية في الخلق، وأما الهداية بمعنى الإرشاد والتبيين فهي للرسل، والاستفهام في الموضعين للإنكار مع

التوبيخ؛ أي: لا ينبغي لكم أن تختلفوا في قتلهم، ولا ينبغي لكم أن تعدوهم في المهتدين، والتوبيخ للفريق القائل للنبي ﷺ لا تقتلهم؛ أي: ينبغي لكم أن تجتمعوا على قتلهم لظهور كفرهم.

وقرأ عبد الله[1]: ﴿ركسهم﴾ ثلاثياً، وقرىء: ﴿ركَّسهم﴾ بالتشديد، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ومن يرد الله سبحانه وتعالى إضلاله عن طريق الحق ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ يا محمد أو أيها المخاطب ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الضال الذي أضله الله تعالى ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً تهديه فيها إلى الحق.

والمعنى: ومن[2] تقضي سننه تعالى في خلقه أن يكون ضالاً عن طريق الحق.. فلن تجد له سبيلاً يصل بسلوكها إليه، فإن للحق سبيلاً واحدة هي صراط الفطرة المستقيم، وللباطل سبلاً كثيرة، عن يمين سبيل الحق وعن شمالها، كل من سلك منها سبيلاً بَعُدَ عن سبيل الحق بقدر إيغاله في السبيل التي سلكها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وقد أوضح النبي ﷺ معنى الآية بالخطوط الحسية، فخط في الأرض خطاً فجعله مثالاً لسبيل الله تعالى، وخط على جانبيه خطوطاً لسبل الشيطان، وهذه الخطوط المستقيمة لا تلتقي مع الخط الأول.

وسبيل الفطرة تقتضي أن يعرض الإنسان جميع أعماله على ميزان الشرع وسنن العقل، ويتبع ما يظهر له أنه الحق الذي فيه منفعته عاجلاً وآجلاً، وفيه كماله الإنساني، وأكثر ما يصده عن هذه السبيل التقليد والغرور بالطواغيت، وظنه أنه ليس هناك ما هو أكمل مما هو فيه، وبهذا يقطع على نفسه طريق الحق، والنظر في النفع والضر والحق والباطل، وشبهته في ترك صراط الفطرة أن عقله قاصر عن التمييز بين الحق والباطل والخير والشر، فعليه أن يتبع ما وجد عليه الآباء والأجداد من زعماء عصره، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يجول في صدور أولئك المنافقين من أماني فقال: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

﴿تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾؛ أي: تمنى هؤلاء المنافقون كفركم بمحمد ﷺ وبالقرآن كفراً مثل كفرهم بهما، ﴿فَتَكُونُونَ﴾ أنتم وهم ﴿سَوَآءٗ﴾؛ أي: مستوين في الكفر؛ أي: إن هؤلاء لا يقنعون بما هم عليه من الضلال والغواية، بل يطمعون أن تكونوا أمثالهم، وتحذوا حذوهم، حتى يقضى على الإسلام الذي أنتم عليه، وهذا منتهى ما يكون من الغلو والتمادي في الكفر، حيث لا يكتفون بضلالهم بل يرجون إضلال غيرهم.

ثم حذر المؤمنين من غوائل نفاقهم فقال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وهذا جواب شرط محذوف، تقديره: إذا كان حال هؤلاء المنافقين ما ذُكر من ودادة كفركم، وطمعهم فيه.. فلا تجعلوا لكم منهم أولياء وأنصاراً يساعدونكم على المشركين، حتى يؤمنوا ويهاجروا من أوطانهم ويقاتلوا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله تعالى، والمراد بالهجرة هنا الخروج مع رسول الله ﷺ للقتال في سبيل الله تعالى، مخلصين صابرين محتسبين، وإنما قيد الهجرة بكونها في سبيل الله تعالى، لإخراج الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ومن شعار الكفر إلى شعار الإسلام لغرض من أغراض الدنيا كامرأة ينكحها أو دنيا يصيبها، فإن المعتبر وقوع تلك الهجرة لأجل أمر الله تعالى.

واعلم أن الهجرة ثلاثة أقسام[1]:

هجرة المؤمنين في أول الإسلام: وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ونحوهما من الآيات.

وهجرة المنافقين: وهي خروج الشخص مع رسول الله ﷺ صابراً محتسباً لأغراض الدنيا، وهي المرادة هنا.

وهجرة عن جميع المعاصي: وهي المرادة بقوله ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

---

(١) خطيب.

والمعنى: إذا كانت هذه حالهم.. فلا تتخذوا منهم أنصاراً يساعدونكم على المشركين حتى يؤمنوا ويهاجروا ويشاركوكم في سائر شؤونكم، فإن الصادقين في إيمانهم لا يدعون النبي ﷺ ومن معه عرضة للخطر، ولا يتركوا الهجرة إلا إذا عجزوا عنها، وإذاً فتركهم لها علامة على نفاقهم الذي اختلفتم فيه. ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ أي: أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله تعالى، والمراد بها القتال مع المسلمين مع الإخلاص والنصح؛ أي: فإن أعرضوا عن الهجرة، وأقاموا على ما هم عليه من النفاق، من غير هجرة، ومن غير صدق ونصح مع المسلمين، ولزموا مواضعهم في خارج المدينة.. ﴿فَخُذُوهُمۡ﴾ بالأسر إذا قدرتم عليهم ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾؛ أي: أينما وجدتموهم في الحل أو في الحرم، فإن حكمهم حكم سائر المشركين قتلاً وأسراً، وهذا مشكل من حيث إن المنافقين ينطقون بالشهادتين، ومن نطق بهما لا يجوز أسره ولا قتله إلا أن يحمل هذا على قوم من المنافقين ارتدوا وصرحوا بالكفر. ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ﴾ في هذه الحالة ﴿وَلِيّٗا﴾ يتولى شيئاً من مهام أموركم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصركم على أعدائكم، فإنهم أعداء، وقد استثنى الله سبحانه منهم من تؤمن غائلتهم بأحد أمرين:

أحدهما: ما ذكره بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ وهذا مستثنى من الأخذ والقتل فقط، وأما الموالاة فحرام مطلقاً، لا تجوز بحال، وعبارة الكرخي: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ استثناء من ضمير المفعول في: ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ لا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا﴾ وإن كان أقرب مذكور، لأن اتخاذ الولي منهم حرام بلا استثناء، بخلاف قتلهم، انتهت.

أي: فخذوهم واقتلوهم إلا الذين يتصلون بقوم معاهدين للمسلمين، فيدخلون في عهدهم، ويرضون بحكمهم، فيمتنع قتلهم مثلهم، لأنهم صاروا في أمانكم بواسطة التجائهم إلى المعاهدين، والمعنى: أن من دخل في عهد من كان داخلاً في عهدكم فهم أيضاً داخلون في عهدكم فلا يجوز أخذهم ولا قتلهم.

وثانيهما: ما ذكره بقوله تعالى: ﴿أَوۡ﴾ إلا الذين ﴿جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾؛ أي: أو إلا الذين جاؤوكم، وأتوكم حالة كونهم قد ضاقت صدورهم، وخافت قلوبهم عن قتالكم، وعن قتال قومهم، فلا تنشرح

صدورهم لأحد الأمرين، والمعنى: أنهم جاؤوا المسلمين مسالمين لا يقاتلونهم، ولا يقاتلون قومهم معهم، بل يكونون على الحياد، فهم لا يقاتلون المسلمين مع قومهم حفظاً للعهد، ولا يقاتلون قومهم مع المسلمين لأنهم أقاربهم.

والحاصل: أنه سبحانه وتعالى استثنى من المأمور بقتلهم فريقين:

أحدهما: من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين.

والآخر: من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين، فريق الإسلام وفريق قومهم، وقبول معذرة الفريقين موافق لما يبنى عليه الإسلام من التسامح والسماحة وعدم الاعتداء، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى تسليطهم عليكم وقتالهم لكم ﴿لَسَلَّطَهُمۡ﴾؛ أي: لسلط هؤلاء المعاهدين من الفريقين ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ ببسط صدورهم، وتقوية قلوبهم، وإزالة الرعب عنها، ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ ولم يكفوا عنكم، وهذا في الحقيقة جواب ﴿لو﴾، وما قبله توطئة له، وهذه اللام هي اللام التي في قوله تعالى: ﴿لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ وأعيدت تأكيداً، ولكنه لم يشأ فألقى في قلوبهم الرعب، وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ بألف المفاعلة وقرأ مجاهد وطائفة: ﴿فلقتلوكم﴾ على وزن ضربوكم، وقرأ الحسن والجحدري ﴿فلقتلوكم﴾ بالتشديد، **والمعنى**: أن ضيق صدوركم عن قتالكم إنما هو بقذف الله تعالى الرعب في قلوبهم، ولو قوى قلوبهم على قتال المسلمين.. لتسلطوا عليهم، والمقصود من هذا الكلام أن الله تعالى منَّ على المسلمين بكف بأس المعاهدين، فالله سبحانه بنظامه في الأسباب والمسببات، وسننه في الأفراد والجماعات جعل الناس في ذلك العصر أصنافاً ثلاثةً:

١ ـ سليمو الفطرة الذين حصفت[2] آراؤهم، فسارعوا إلى الإيمان، واستناروا بنور الإسلام.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) يقال: حَصُف حصافة ـ من باب ظرف ـ إذا كان جيد الرأي محكم العقل فهو حصيف.

٢ ـ المسالمون الذين رجحوا أن يكونوا على الحياد، لا مع المشركين ولا مع المؤمنين.

٣ ـ الموغلون في الضلال والشرك، والمحافظون على القديم وهم المحاربون.

﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾؛ أي: فإن ترك هؤلاء المعاهدون من الفريقين إياكم، وابتعدوا عن قتالكم، ولم يتعرضوا لكم ﴿فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ مع قومهم ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾؛ أي: الصلح والأمان، وأعطوا لكم زمام أمرهم بالانقياد للصلح والأمان، وقرأ الجحدري ﴿السلم﴾ بسكون اللام، وقرأ الحسن: بكسر السين وسكون اللام، ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾؛ أي: ما جعل لكم سبيلاً وطريقاً تسلكونها للاعتداء عليهم بالأسر والقتل، إذ من قواعد ديننا أن لا نعتدي إلا على من يعتدي علينا، ولا نقاتل إلا من قاتلنا.

قال بعض المفسرين[١]: هذا منسوخ بأية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ وقال بعضهم: هي غير منسوخة، لأنا إذا حملناها على المعاهدين، فكيف يمكن أن يقال إنها منسوخة؟ ثم بين تعالى جماعة آخرين وبالغ في ذمهم فقال: ﴿سَتَجِدُونَ﴾ أيها المؤمنون عن قريب قوماً ﴿ءَاخَرِينَ﴾ من المنافقين غير من سبق ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ﴾؛ أي: يأمنوا من قتالكم بإظهار الإسلام عندكم ﴿وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾؛ أي: من بأس قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم، فكانوا مذبذبين بين المؤمنين والكافرين، فهم قد غلت عليهم أرواحهم، ورخصت عليهم عقولهم، يظهرون لكل من الفئتين أنهم منهم أو معهم، ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ﴾؛ أي: كلما دعوا ﴿إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ﴾؛ أي: إلى الشرك وعداوة المؤمنين.. ﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾؛ أي: قلبوا في الفتنة أقبح قلب، وكبوا فيها على وجوههم أشد انكباب، وأوقعوا فيها أبلغ إيقاع، وكانوا فيها شراً من كل عدو شرير، وهذا استعارة لشدة إصرارهم على الكفر وعدواة المسلمين؛ لأن من وقع

(١) الخازن.

في شيء منكوساً يتعذر خروجه منه، فهم يريدون أن يأمنوا جانب المسلمين، إما بإظهار الإسلام، وإما بالعهد على السلم وترك القتال، ثم يفتنهم المشركون؛ أي: يحملونهم على الشرك أو على مساعدتهم على قتال المسلمين، فيرتكسون ويتحولون شرَّ التحول معهم، وهكذا يفعلون ذلك المرة بعد المرة، فهم مردوا على النفاق، وهم[1] قوم من أسد وغطفان، كانوا مقيمين حول المدينة، فإذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا وقالوا لأصحاب رسول الله ﷺ: إنا على دينكم ليأمنوا من قتال المسلمين، وإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا من قومهم، حتى كان الرجل منهم يقول له قومه: بماذا أسلمت، فيقول: آمنت بهذا القرد وبهذا العقرب والخنفساء. وقرأ ابن وثاب والأعمش: ﴿ردوا﴾ بكسر الراء لما أدغم نقل الكسرة إلى الراء، وقرأ عبد الله: ﴿ركسوا﴾ بضم الراء من غير ألف مخففاً، وقال ابن جني عنه: بشد الكاف.

وقد بين الله تعالى حكمهم بقوله ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾؛ أي: فإن لم يتركوا قتالكم، ﴿و﴾ لم ﴿يلقوا إليكم السلم﴾؛ أي: لم يطلبوا منكم الصلح، ﴿و﴾ لم ﴿يكفوا أيديهم﴾ عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: في أي محل وجدتموهم فيه من حل أو حرم، فلا علاج لهم غير ذلك، كما ثبت بالتجارب والاختبار، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الموصوفون بهذه الصفة ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على جواز قتلهم ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؛ أي: حجة واضحة وبرهاناً ظاهراً، وهي ظهور عداوتهم، وانكشاف حالهم في الكفر والغدر، وإضرارهم بأهل الإسلام، أو جعلنا لكم عليهم تسلطاً ظاهراً، حيث أذنَّا لكم في أخذهم وقتلهم، ﴿وَمَا كَانَ﴾ ينبغي، ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ ولا يليق به ولا يصح ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حق ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾؛ أي: إلا حالة كونه مخطئاً في قتله؛ أي: ليس المؤمن كالكافر الذي تقدم في إباحة دمه، فحينئذ لا يليق بمؤمن قتل مؤمن في حال من الأحوال، إلا في حالة كونه ملتبساً بخطأ، بأن قصد رمي غيره كصيد أو شجرة فأصابه، أو ملتبساً بشبه عمد كأن ضربه بما لا يقتل غالباً، كالعصا

---

(١) المراح.

الخفيفة والصفع واللطم، والمراد بالخطأ هنا: ما يشمل شبه العمد، فيقال حينئذ في ضبطه وتعريفه: هو ما لا يقارنه قصد إلى الفعل أو إلى الشخص، أو ما لا يقصد به زهوق الروح غالباً.

والمعنى: ليس[1] من شأن المؤمن ولا من خُلقه أن يقتل أحداً من المؤمنين، إذ الإيمان وهو صاحب السلطان على النفس والحاكم على الإرادة والمصرف لها يمنعه أن يجترح هذه الكبيرة عمداً، لكنه قد يفعل ذلك خطأ، ذلك أنه لا يكمل إيمان المؤمن إلا إذا شعر بحقوق الإيمان عليه، وهي حقوق الله تعالى وحقوق للعباد، ومن الثانية القصاص، لما في ذلك من الزجر من القتل، ولما في تركه من الاستهزاء بحقوق الدماء، ومن استهزأ بها.. كان قد انتهك أكبر حق من حقوق الأمة، وهدم ركناً من أركان الإيمان، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وسبب العقوبة على الفعل الخطأ كالقتل: أن الخطأ لا يخلو من التهاون وعدم العناية ومثله النسيان، إذ من شأنهما أن يعاقب الله تعالى عليهما، ومن ثم أمرنا الله تعالى أن ندعوه أن لا يؤاخذنا عليهما بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ كما ثبت بنص القرآن أن آدم نسي، وسمى مخالفته معصية وعوقب عليها، ولكن ورد في السنة قوله ﷺ: «وضع الله عن هذه الأمة ثلاثاً: الخطأ والنسيان، والأمر يكرهون عليه». رواه ابن ماجه. ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ بأن قصد رمي صيد أو غرض فأصاب مؤمناً، أو قصد رمي المشرك فأصاب مسلماً، أو ظن الشخص مشركاً فقتله فبان مسلماً، أو قتله شبه عمد، ويسمى عمد خطأ، وخطأ عمد، كأن ضربه بما لا يقتل عادة، كأن صفعه باليد، أو ضربه بعصا فمات، ولم يقصد قتله. ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: فالواجب عليه عتق نسمة من أهل الإيمان، لأنه لما أعدم نفساً مؤمنة كان كفارته أن يوجد نفساً،

(١) المراغي.

والعتق كالايجاد من العدم، ﴿وَ﴾ عليه من الجزاء مع عتق الرقبة ﴿دية مسلمة﴾؛ أي: مدفوعة ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾؛ أي: إلى أهل المقتول وورثته ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾؛ أي: إلا أن يعفوا أهل المقتول عن تلك الدية، ويسقطوها باختيارهم؛ لأنها إنما وجبت تطييباً لقلوبهم حتى لا تقع عداوة ولا بغضاء بينهم وبين القاتل، وتعويضاً عما فاتهم من المنفعة بقتله، فإذا هم عفوا.. فقد طابت نفوسهم، وانتفى المحذور، وكانوا هم ذوي الفضل على القاتل، وقد سمى الله تعالى هذا العفو تصدقاً، ترغيباً فيه وحثاً عليه وتنبيهاً على فضله، وفي الحديث: «كل معروف صدقة» وبينت السنة أنها مئة من الإبل، عشرون بنت مخاض، وكذا بنات لبون، وبنو لبون، وحقاق، وجذاع، وأنها على عاقلة القاتل، وهم عصبته، إلا الأصل والفرع، موزعة عليهم في ثلاث سنين: على الغني منهم نصف دينار، والمتوسط ربعٌ كل سنة، والحكمة في ذلك تقرير التضامن بين الأقربين، فإن لم يقوا.. فمن بيت المال ـ الوزارة المالية ـ فإن تعذر.. فعلى الجاني، وتجزىء قيمة الإبل إذا حصل التراضي بين الدافع والمستحق، ودية المرأة نصف دية الرجل؛ لأن المنفعة التي تفوت أهل الرجل بفقده أعظم من المنفعة التي تفوت بفقدها. وقد روي أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً جاء فيه: «إن من اعتبط ـ قتل بغير سبب شرعي ـ مؤمناً، قتلاً عن بينة، فإنه قود؛ أي: قصاص يقتل به إلا أن يرضى أولياء المقتول، وإن في النفس الدية، مئة من الإبل، ثم قال: وعلى أهل الذهب ألف دينار». وفي هذا دليل على أن دية الإبل على أهلها، إذا كانت هي رأس أموالهم، وأن الذين يتعاملون بالذهب كأهل المدن تكون من الذهب أو الفضة، وعلى أن هذا أصل لا قيمة للإبل.

فالدية ضابطها هو المال الواجب بالجناية على الحر في النفس، أو فيما دونها، ويعطى إلى ورثة المقتول، عوضاً عن دمه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَصَّدَّقُوا۟﴾ وأصله يتصدقوا فأدغمت التاء في الصاد،

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ الحسن وأبو عبد الرحمٰن وعبد الوارث عن أبي عمرو ﴿تصدقوا﴾ بالتاء على الخطاب، وقرىء: ﴿تصدقوا﴾ بالتاء وتخفيف الصاد، وأصله تتصدقوا، فحذف إحدى التاءين على الخلاف في أيهما هي المحذوفة، وفي حرف أبي وعبد الله: ﴿يتصدقوا﴾ بالياء والتاء.

﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول خطأ ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾؛ أي: من سكان دار الحرب، بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم، أو بأن أتاهم بعد أن فارقهم لمهم من المهمات، ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: المقتول ﴿مُؤْمِنٌ﴾ ولم يعلم القاتل بكونه مؤمناً، كالحارث بن يزيد كان من قريش، وهم أعداء النبي ﷺ، والمؤمنون في حرب معهم، ولم يعلم المسلمون إيمانه، لأن قد قتله عياش حين خروجه مهاجراً، وهو لم يعلم بذلك، ومثله كل من آمن في دار الحرب ولم يعلم المسلمون بإيمانه حين قتله، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: فالواجب على القاتل بسبب قتله الواقع على سبيل الخطأ هو عتق نسمة من أهل الإيمان فقط، وأما الدية فلا تجب، إذ لا وراثة بين المقتول وأهله؛ لأنهم أعداء يحاربون المسلمين، فلا يعطون من أموال المسلمين ما يستعينون به على قتالهم والتنكيل بهم، وأما الكفارة فإنها حق الله تعالى ليقوم المعتوق به مقام المقتول في المواظبة على العبادات.

﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول خطأ ﴿مِن قَوْمٍ﴾ كفرة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَهُم﴾؛ أي: وبين أولئك الكفرة ﴿مِّيثَٰقٌ﴾؛ أي: عهد مؤقت أو مؤبد على ترك القتال بينهم، كما هو حال الدول في العصر الحاضر يعقد بعضهم معاهدات ومواثيق مع بعض آخر على أن لا يقاتلوهم ولا يساعدوا عليهم عدواً، ﴿فَدِيَةٌ﴾؛ أي: فالواجب على قاتله دية ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾؛ أي: مؤداة ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: إلى أهل المقتول الكفار المعاهدين. وقرأ الحسن[1]: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق وهو مؤمن﴾ بزيادة: وهو مؤمن، وبه قال مالك، وقد اختلف الفقهاء في دية غير المسلمين، لاختلاف الرواية في ذلك، روى أحمد والترمذي أن النبي ﷺ قال: «عقل ـ دية ـ الكافر نصف دية المسلم»، وروي عن أحمد: أن

---

(١) البحر المحيط.

ديته كدية المسلم إن قتل عمداً، وإلا فنصف ديته، وذهب الزهري وأبو حنيفة: إلى أن ديته كدية المسلم لظاهر الآية في أهل الميثاق، وهم المعاهدون وأهل الذمة، وذهب الشافعي: إلى أن دية الكافر ثلث دية المسلم إن كان نصرانياً أو يهودياً تحل مناكحته، وثلثا عشرها إن كان مجوسياً أو كتابياً لا تحل مناكحته، وعلى الجملة فالروايات متعارضة ومن ثم اختلف الفقهاء فيها كما سيأتي بسط ذلك إن شاء الله تعالى. ﴿و﴾ على القاتل أيضاً ﴿تحرير رقبة مؤمنة﴾؛ أي: عتق نفس متصفة بالإيمان ولو صغيراً لحق الله تعالى، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة يعتقها في الكفارة، بأن لم يجد مالاً يشتريها به من مالكها ليحررها من الرق، أو لم يجد رقيقاً، ﴿فـ﴾ عليه ﴿صيام شهرين﴾ قمريين بدلاً عن عتق الرقبة ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾؛ أي: متواليين وجوباً بحيث لا يفصل يومين منهما إفطار في النهار بغير عذر شرعي، فإن أفطر يوماً بغير عذر شرعي، استأنفه وكان ما صامه قبل كأن لم يكن، أما الإفطار بعذر كحيض ونفاس فلا يضر، ولو كان كثيراً، ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: شرع الله سبحانه وتعالى ذلك التكفير توبة على القاتل خطأ، وتجاوزاً عن تقصيره في ترك الاحتياط، حيث لم يبحث عن المقتول وحاله، وحيث لم يجتهد حتى لا يخطىء، لأنه لو بالغ في الاحتياط.. لم يصدر منه ذلك الفعل الخطأ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بأحوال النفوس وما يطهرها، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرعه من الأحكام والآداب التي بها هدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة.

فائدة: حاصل[1] ما ذكره في الخطأ ثلاثة أقسام، لأن المقتول إما مؤمن أو كافر معاهد، والأول إما أن تكون ورثته مسلمين أو حربيين، فالمؤمن الذي ورثته مسلمون فيه الدية والكفارة، وكذا الكافر المُؤَمَّنُ، أما المؤمن الذي ورثته كفار حربيون ففيه الكفارة فقط.

(١) الفتوحات.

فصل في أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل

المسألة الأولى: في بيان صفة القتل

قال الشافعي: القتل على ثلاثة أقسام: عمد وشبه عمد وخطأ.

أما العمد المحض: فهو أن يقصد قتل إنسان بما يقتل به غالباً، فقتل به، ففيه القصاص عند وجود التكافؤ، أو دية حالة مغلظة في مال القاتل.

وأما شبه العمد: فهو أن يقصد ضرب إنسان بما لا يقتل بمثله غالباً مثل أن ضربه بعصا خفيفة، أو رماه بحجر صغير فمات، فلا قصاص عليه، وتجب عليه دية مغلظة على عاقلته مؤجلة إلى ثلاث سنين.

وأما الخطأ المحض: فهو أن لا يقصد قتله، بل قصد شيئاً آخر فأصابه، فمات منه، فلا قصاص عليه، وتجب فيه دية مخففة على عاقلته، مؤجلة إلى ثلاث سنين. ومن صور قتل الخطأ أيضاً: أن يقصد رمي مشرك أو كافر فيصيب مسلماً، أو يقصد قتل إنسان يظنه مشركاً، بأن كان عليه لباس المشركين أو شعارهم، فبان مسلماً، فالصورة الأولى خطأ في الفعل والثانية خطأ في القصد.

المسألة الثانية: في حكم الديات

فدية الحر المسلم مئة من الإبل، فإذا عدمت الإبل.. فتجب قيمتها من الدراهم أو الدنانير في قول، وفي قول بدل مقدر، وهو ألف دينار، أو اثنا عشر ألف درهم، ويدل على ذلك ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كانت الدية على عهد رسول الله ﷺ ثمان مئة دينار، أو ثمانية آلاف درهم، قال: وكانت دية أهل الكتاب يومئذ على النصف من دية المسلم، فكانت كذلك حتى استخلف عمر، فقام خطيباً، فقال: إن الإبل قد غلت، ففرضها عمر على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم، وعلى أهل البقر مئتي بقرة، وعلى أهل الشاء ألفي شاة، وعلى أهل الحلل مئتي حلة، قال: وترك دية أهل الكتاب، فلم يرفعها فيما رفع من الدية، أخرجه أبو داود.

وذهب قوم إلى أن الواجب في الدية مئة من الإبل، أو ألف دينار، أو اثنا عشر ألف درهم، وهو قول عروة بن الزبير، والحسن البصري، وبه قال مالك والشافعي.

وذهب قوم إلى أنها مئة من الإبل، أو ألف دينار، أو عشرة آلاف درهم، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

ودية المرأة نصف دية الذكر الحر، ودية أهل الذمة والعهد ثلث دية المسلم إن كان كتابياً، وإن كان مجوسياً فخمس الثلث ثمان مئة درهم، وهو قول سعيد بن المسيب وإليه ذهب الشافعي.

وذهب قوم إلى أن دية الذمي والمعاهد مثل دية المسلم، روي ذلك عن ابن مسعود، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي. وقال قوم: دية الذمي نصف دية المسلم، وهو قول عمر بن عبد العزيز، وبه قال مالك وأحمد، والأصل في ذلك ما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «دية المعاهد نصف دية الحر». أخرجه أبو داود. وعنه أن النبي ﷺ قال: «عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين وهم اليهود والنصارى» أخرجه النسائي. فمن ذهب إلى أن دية أهل الذمة ثلث دية المسلم أجاب عن هذا الحديث بأن الأصل في ذلك كان النصف، ثم رفعت زمن عمر دية المسلم ولم ترفع دية الذمي، فبقيت على أصلها وهو قدر الثلث من دية المسلمين.

والدية في قتل العمد وشبه العمد مغلظة فتجب ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفة في بطونها أولادها، وهذا قول عمرو بن زيد بن ثابت، وبه قال عطاء، وإليه ذهب الشافعي، لما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل متعمداً دُفع إلى أولياء المقتول، فإن شاؤوا قتلوا، وإن شاؤوا أخذوا الدية، وهي ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة، وما صولحوا عليه فهو لهم»، وذلك لتشديد العقل. أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب.

وعن عقبة بن أوس عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: خطب النبي ﷺ

يوم الفتح فقال: «ألا وإن قتيل العمد بالسوط والعصا والحجر مئة من الإبل، أربعون ثنية إلى بازل[1] عامها كلهن خلفة». وفي رواية أخرى: «ألا إن كل قتيل خطأ العمد أو شبه العمد قتيل السوط والعصا مئة من الإبل فيها أربعون في بطونها أولادها» أخرجه النسائي.

وذهب قوم إلى أن الدية المغلظة أرباع، خمس وعشرون بنت مخاض، وخمس وعشرون بنت لبون، وخمس وعشرون حقة، وخمس وعشرون جذعة، وهذا قول الزهري وربيعة، وإليه ذهب مالك وأحمد وأصحاب الرأي.

وأما دية الخطأ فمخففة، وهي أخماس بالاتفاق، غير أنهم اختلفوا في تقسيمها، فذهب قوم إلى أنها عشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون، وعشرون ابن لبون، وعشرون حقة، وعشرون جذعة، وهذا قول عمر بن عبد العزيز وسليمان بن يسار والزهري وربيعة، وبه قال مالك والشافعي، وأبدل قوم أبناء اللبون بأبناء المخاض يروون ذلك عن ابن مسعود، وبه قال أحمد وأصحاب الرأي.

والدية في قتل الخطأ وشبه العمد على العاقلة، وهم العصبات من الذكور، ولا يجب على الجاني منها شيء، لأن النبي ﷺ أوجبها على العاقلة. ودية الأعضاء والأطراف حكمها مبين في كتب الفقه، فلا نطيل الكلام بها، ودية أعضاء المرأة على النصف من دية أعضاء الرجل. والله أعلم.

المسألة الثالثة: في حكم الكفارة

الكفارة: إعتاق رقبة مؤمنة، وتجب في مال القاتل، سواء كان المقتول مسلماً أو معاهداً، رجلاً كان أو امرأة، حراً كان أو عبداً، فمن لم يجد الرقبة.. فعليه صيام شهرين متتابعين، فالقاتل إن كان واجداً لرقبة أو قادراً على تحصيلها بوجود الثمن، فاضلاً عن نفقته ونفقة عياله، وحاجته من مسكن ونحوه.. فعليه

---

(١) قوله بازل: يقال بزل ناب البعير يبزل بزولاً ـ من باب قعد ـ إذا طلع، وهو وهي بازل اهـ.

الإعتاق، ولا يجوز له أن ينتقل إلى الصوم، فإن عجز عن الرقبة، أو عن تحصيل ثمنها. . فعليه صوم شهرين متتابعين، فإن أفطر يوماً متعمداً في خلال الشهرين، أو نسي النية، أو نوى صوماً آخر. . وجب عليه استئناف الشهرين، وإن أفطر يوماً بعذر مرض أو سفر هل ينقطع التتابع؟ اختلف العلماء فيه:

فمنهم من قال: ينقطع التتابع وعليه استئناف الشهرين، وهو قول النخعي، وأظهر قولي الشافعي؛ لأنه أفطر مختاراً.

ومنهم من قال: لا ينقطع التتابع، وعليه أن يبني، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والشعبي.

ولو حاضت المرأة في خلال الشهرين أفطرت أيام الحيض، ولا ينقطع، فإذا طهرت. . بنت؛ لأنه أمر كتبه الله تعالى على بنات آدم، ولا يمكن الاحتراز عنه.

فإن عجز عن الصوم، فهل ينتقل عنه إلى الإطعام، فيطعم ستين مسكيناً؟. . فيه قولان:

أحدهما: أنه ينتقل إلى الإطعام كما في كفارة الظهار.

والثاني: لا ينتقل لأن الله تعالى لم يذكر له بدلاً، فقال: فصيام شهرين متتابعين توبة من الله، فنص على الصوم، وجعل ذلك عقوبة لقتل الخطأ والله أعلم.

ثم بين الله سبحانه وتعالى حكم القتل العمد وعقوبته الشديدة، فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ﴾ شخصاً ﴿مُؤْمِنًا﴾ بالله ورسوله، حالة كون القاتل ﴿مُتَعَمِّدًا﴾؛ أي: قاصداً قتله بما يقتل غالباً كالسيف مثلاً، عالماً بكونه مؤمناً ولو ظناً ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: فجزاء ذلك القاتل وعقوبته جهنم؛ أي: فجزاؤه وعقوبته على قتله أن يدخل جهنم حالة كونه ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾؛ أي: حالة كونه ماكثاً في جهنم مكثاً مؤبداً إن استحل قتله، أو ماكثاً مكثاً طويلاً إن لم يستحل ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: وسخط الله سبحانه وتعالى على ذلك القاتل سخطاً شديداً، يستلزم الانتقام منه، ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾؛ أي: وطرده الله تعالى من رحمته، وأبعده عنها في الدنيا والأخرة، ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ﴾؛ أي: وهيأ الله تعالى لذلك القاتل في جهنم ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾؛ أي: تعذيباً شديداً لا يقادر قدره إلا الله تعالى، جزاء على عمله الشنيع.

وللعلماء في توبة قاتل المؤمن عمداً آراء ثلاثة:

١ - يرى ابن عباس وفريق من السلف: أن قاتل المؤمن عمداً لا تقبل له توبة، وهو خالد في النار أبداً، ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد والنسائي عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً».

وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان على دم امرىء مسلم بشطر كلمة، كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله تعالى»، وروي عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال: «لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله تعالى من قتل مؤمن، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن.. لأدخلهم الله تعالى النار».

وعن ابن عمر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو أن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن.. لأكبهم الله تعالى على مناخرهم في النار، وإن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والآمر». وهؤلاء يرون أن التائب من الشرك وقد كان قاتلاً زانياً تقبل توبته، ولا تقبل توبة المؤمن الذي ارتكب القتل وحده، إذ الأول لم يؤمن بالشريعة التي تحرم هذه الأمور، فله شبه عذر إذا هو كان متبعاً لهواه بالكفر، وما يتبعه، ولم يكن ظهر له صدق النبوة، فلما ظهر له الدليل على أن ما كان عليه كفر وضلال وتاب وأناب وعمل صالحاً كان جديراً بالعفو، وأما المؤمن الموقن بصحة النبوة وحرمة القتل، فلا عذر له، إذ هو يعلم أن المؤمن أخ له ونصير، فكيف يعود بعد هذا إلى الاستهانة بأمر الله وحكمه، وتوهين أمر دينه بهدم أركان قوته، ومن ثم يهن المسلمون ويضعفون، ويكون بأسهم بينهم شديداً.

وإنك لترى أنه ما انحلت الرابطة بين المسلمين، وانفصمت عروة الوفاق بينهم، إلا بعد أن أقدم بعضهم على سفك دماء بعض، ورجحوا شهوة الغضب والانتقام على أمر الله تعالى، ومن رجح شهوات نفسه الضارة على أمر الله، وعلى مصلحة المؤمنين بغير شبهة.. فهو جدير بالخلود في النار والغضب واللعنة، إذ هؤلاء تجرؤوا على حدود دينه ولم يبق للشرع حرمة في قلوبهم.

قال في «الكشاف»: هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم، وخطب جليل، ومن ثم روي عن ابن عباس أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة، والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية، ويرون ما فيها، ويسمعون هذه الأحاديث التي تقدم ذكرها، وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة، واتباعهم هواهم، وما يخيل إليهم مُناهم أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ انتهى.

٢ - فريق آخر يرى: أن المراد بالخلود المكث الطويل، لا الدوام؛ لتظاهر النصوص القاطعة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم، وما في الآية إخبار من الله بأن جزاءه ذلك، لا بأنه يجزيه ذلك، كما جاء في قوله جل ذكره: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾ فإنه لو كان المراد منها أنه سبحانه يجزى كل سيئة بمثلها، لعارضه قوله جل شأنه: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ﴾ ومن ثم روي عن النبي ﷺ مرفوعاً أنه قال: «هو جزاؤه إن جازاه»، وبهذا قال جمع من العلماء، وقالوا: هو كما يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر: إن فعلت فجزاؤك القتل والضرب، وهو إن لم يجازه.. لم يكن كذاباً، وقد روي عن ابن عباس جواز المغفرة بلا توبة أيضاً، وقال في الآية: هي جزاؤه، فإن شاء.. عذبه، وإن شاء.. غفر له.

٣ - ويرى فريق ثالث: أن حكم الآية إنما هو للقاتل المستحل، وحكمه مما لا شك فيه جواب المبتدأ: حكمه، وعكرمة وابن جريج فسرا متعمداً مستحلاً في الآية؛ أي: ومن يقتل مؤمناً، متعمداً لقتله، مستحلاً له.. فجزاؤهُ جهنم خالداً فيها أبداً.

الإعراب

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم استفهام إنكاري في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبره، تقديره: فأي شيء ثابت لكم، والجملة

مستأنفة، ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ﴾: متعلق بصار المحذوف، ﴿فِئَتَيْنِ﴾: خبر لصار المحذوف، تقديره: فمالكم صرتم فئتين في المنافقين، وجملة صار المحذوفة حال من ضمير ﴿لَكُمْ﴾، والتقدير: فأي شيء ثبت لكم حال كونكم صائرين فرقتين في المنافقين.

وفي «السمين»: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾[1]: مبتدأ وخبر، و﴿فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه متعلق بما تعلق به الخبر وهو ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: أي شيء كائن لكم، أو مستقر لكم في أمر المنافقين.

والثاني: أنه متعلق بمعنى ﴿فِئَتَيْنِ﴾، فإنه في قوة مالكم تفترقون في أمور المنافقين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

والثالث: أنه متعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿فِئَتَيْنِ﴾؛ لأنه في الأصل صفة لها، تقديره: فئتين مفترقتين في المنافقين، وصفة النكرة إذا تقدمت عليها.. انتصبت حالاً. وفي ﴿فِئَتَيْنِ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه حال من الكاف والميم في ﴿لَكُمْ﴾، والعامل فيها الاستقرار الذي تعلق به ﴿لَكُمْ﴾، ومثله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ وقد تقدم أن هذه الحال لازمة؛ لأن الكلام لا يتم بدونها، وهذا مذهب البصريين في كل ما جاء من هذه التراكيب.

والثاني: وهو مذهب الكوفيين: أنه نصب على أنه خبر كان مضمرة، والتقدير: ما لكم في المنافقين كنتم فئتين، انتهى.

﴿وَاللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية أو استئنافية، ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾، أو مستأنفة، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أركس﴾، ﴿كَسَبُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾،

---

(١) الفتوحات.

أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما كسبوه، ﴿أَتُرِيدُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿تريدون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَن تَهْدُوا﴾: ناصب وفعل وفاعل والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: أتريدون هداية، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تَهْدُوا﴾، ﴿أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: من أضله الله، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿من﴾ على كون فعل شرط لها، ﴿فَلَن﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿لن﴾، ﴿لن تجد﴾: ناصب وفعل، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، أو أي مخاطب. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور، في محل المفعول الأول لـ﴿تَجِدَ﴾، ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿تَجِدَ﴾، وجملة ﴿تَجِدَ﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَدُّوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿لَوْ﴾: مصدرية، ﴿تَكْفُرُونَ﴾ فعل وفاعل، وجملة ﴿لَوْ﴾ المصدرية مع صلتها: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ودوا كفركم أيها المؤمنون، ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾ حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الكاف﴾، تقديره: ككفرهم، الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف، تقديره: ودوا كفركم كفراً كائناً ككفرهم. ﴿فَتَكُونُونَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿تكونوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿سَوَآءً﴾: خبره، ولكنه في تأويل اسم الفاعل؛ لأنه لا يخبر عن الذات باسم المعنى، فهو في تأويل مستوين، وجملة ﴿تكونون﴾ في محل النصب معطوفة على جملة

﴿تَكۡفُرُونَ﴾، والتقدير: ودوا كفركم ككفرهم فكونكم أنتم وهم مستوين في الشرك، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصحية؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا كان حالهم ما ذكر.. فأقول لكم لا تتخذوا منهم أولياء، وجملة الشرط المحذوف مستأنفة، ويصح كون ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع على قوله: ﴿وَدُّواْ﴾. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾، وهو من أخوات ظن تنصب مفعولين، ﴿مِنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الأول، ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، أو معطوفة على جملة ﴿وَدُّواْ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يُهَاجِرُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، بمعنى إلى، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَتَّخِذُواْ﴾، والتقدير: فلا تتخذوا منهم أولياء إلى مهاجرتهم في سبيل الله، ﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حكم ما إذا هاجروا، وأردتم بيان حكم ما إذا تولوا.. فأقول لكم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَخُذُوهُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿خُذُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾، على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة متسأنفة، ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿خُذُوهُم﴾، ﴿حَيۡثُ﴾: في محل النصب على الظرفية مبني على الضم، والظرف تنازع فيه كل من الفعلين قبله أعني ﴿خُذُوهُم واقتلوهم﴾، ﴿وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيۡثُ﴾. ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ﴾: جازم وفعل وفاعل، في محل الجزم معطوف على خذوهم، ﴿مِنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور في محل النصب على كونه مفعولاً أول لاتتخذ. ﴿وَلِيّٗا﴾: مفعول ثان له. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ معطوف على ﴿وَلِيّٗا﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر، في محل النصب على الاستثناء من هاء ﴿خُذُوهُم واقتلوهم﴾، ﴿يَصِلُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿إِلَىٰ قَوۡمِۭ﴾: متعلق بـ﴿يَصِلُونَ﴾، ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾: ظرف ومضاف إليه، ﴿وَبَيۡنَهُم﴾: معطوف على ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ والظرفان متعلقان بمحذوف خبر مقدم لقوله: ﴿مِّيثَٰقٌ﴾: وهو مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ﴿قَوۡمِۭ﴾، ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿يَصِلُونَ﴾ على كونه صلة الموصول.

﴿حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾.

﴿حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية دعائية لا محل لها من الإعراب، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿جَآءُوكُمۡ﴾ ولكنها على تقدير قد، وقيل[1]: لا حاجة إلى تقديرها؛ لأنه قد جاء الماضي حالاً بغير تقديرها كثيراً، فإن لم تقدر قد.. فهو دعاء عليهم، كما تقول: لعن الله الكافر. اهـ. «كرخي». وفي «السمين»: وإذا وقعت الحال فعلاً ماضياً.. ففيها خلاف هل يحتاج إلى اقترانه بقد أم لا، والراجح عدم الاحتياج لكثرة ما جاء منه، فعلى هذا لا تقدر قد قبل ﴿حَصِرَتۡ﴾ انتهى. ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف متعلق بـ﴿حَصِرَتۡ﴾ تقديره: حصرت صدورهم عن قتالهم إياكم.

﴿أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾.

﴿أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، معطوف على ﴿يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾. ﴿وَلَوۡ﴾. ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَسَلَّطَهُمۡ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿سلطهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود

---

(١) الفتوحات.

على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ جار ومجرور متعلقان بظرف محذوف ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، و﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ لعطفه على الجواب، ﴿قاتلوكم﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿لَسَلَّطَهُمۡ﴾، وفي «الجمل»: هذا[1] هو جواب ﴿لو﴾ في الحقيقة، وما قبله توطئة له، وهذه اللام هي اللام التي في قوله: ﴿لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، وأعيدت توكيداً. وفي «أبي السعود»، واللام جواب ﴿لو﴾ على التكرير، أو على الإبدال. ﴿فَإِنِ﴾ ﴿الفاء﴾: تفريعية. ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿لم يقاتلوكم﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ معطوف على ﴿ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾، ﴿وَأَلۡقَوۡاْ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم معطوف على ﴿ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾، ﴿إِلَيۡكُمُ﴾: متعلق بـ﴿ألقوا﴾، ﴿ٱلسَّلَمَ﴾: مفعول به، ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، لاقترانه بـ﴿ما﴾ النافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مفرعة على قوله: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾. ﴿لَكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ وهو في محل المفعول الأول لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: حال من ﴿سَبِيلٗا﴾؛ لأنه صفة نكرة تقدمت عليها. ﴿سَبِيلٗا﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلَ﴾.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾﴾.

﴿سَتَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿ءَاخَرِينَ﴾: مفعول أول، ﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مفعول ثان لوجد، وجملة وجد مستأنفة، ﴿أَن يَأۡمَنُوكُمۡ﴾: ناصب وفعل وفاعل، وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر

(١) الفتوحات.

منصوب على المفعولية لـ﴿يُرِيدُونَ﴾ تقديره: يريدون أمنهم إياكم، ﴿وَيَأْمَنُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَأْمَنُوكُمْ﴾، ﴿قَوْمَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والتقدير: وأمنهم قومهم، ﴿كُلَّ مَا﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون، والظرف متعلق بالجواب، ﴿رُدُّوٓا﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿أُرْكِسُوا﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿فِيهَآ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿كُلَّمَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَآ﴾ مستأنفة، ﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم حالهم هذه وأردتم بيان ما تفعلون بهم.. فأقول لكم: ﴿إن لم يعتزلوكم﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿وَيُلْقُوٓا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، ﴿إِلَيْكُمُ﴾: متعلق بـ﴿يلقوا﴾. ﴿ٱلسَّلَمَ﴾: مفعول به، ﴿وَيَكُفُّوٓا﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على ﴿يَعْتَزِلُوكُمْ﴾، ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿خذوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿خذوهم﴾، ﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان تنازع فيه ﴿خذوهم واقتلوهم﴾، ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿أولئكم﴾: مبتدأ ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الأول لـ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿سُلْطَٰنًا﴾؛ لأنه صفة نكرة تقدمت عليها، ﴿سُلْطَٰنًا﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة ﴿سُلْطَٰنًا﴾، وجملة جعل من الفعل والفاعل: في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكنه خبر سببي، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾ على اسمها، ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مؤمن﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿خَطَـًٔا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة مصدر محذوف، تقديره: إلا قتلاً خطأً، أو منصوب على الحال من فاعل ﴿يَقْتُلَ﴾، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها: في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً، والتقدير: وما كان قتل مؤمن مؤمناً جائزاً له إلا قتلاً خطأً، أو إلا حالة كونه مخطئاً.

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿قَتَلَ مُؤْمِنًا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿خَطَـًٔا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿فَتَحْرِيرُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿تحرير﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فالواجب عليه تحرير رقبة، ﴿رَقَبَةٍ﴾: مضاف إليه، ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾: صفة لـ﴿رَقَبَةٍ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَدِيَةٌ﴾: معطوف على ﴿تحرير﴾. ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾: صفة لـ﴿دية﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، ﴿أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل، في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء من عام الأحوال، تقديره: ودية مسلمة إلى أهله في جميع الأحوال إلا حال تصدقهم وعفوهم عنها، وإن شئت قلت: ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿أَهْلِهِۦٓ﴾، والتقدير: ودية مسلمة إلى أهله إلا حالة كونهم متصدقين وعافين عنها، تأمل.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع على محذوف تقديره: هذا الحكم إذا كان المقتول منكم. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾، واسمها ضمير يعود على المقتول، ﴿مِن قَوْمٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿عَدُوٍّ﴾: صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، ﴿لَّكُمْ﴾: صفة ﴿عَدُوٍّ﴾، وقيل[1]: يتعلق به؛ لأن عدواً في معنى معاد، وفعول يعمل عمل فاعل، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من اسم ﴿كَانَ﴾، ﴿فَتَحْرِيرُ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿تحرير رقبة﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾: صفة لـ﴿رَقَبَةٍ﴾، والخبر محذوف، تقديره: فتحرير رقبة مؤمنة واجب عليه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة ومفرعة على الجملة المحذوفة التي قدرناها آنفاً.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على المقتول، ﴿مِن قَوْمٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿وَبَيْنَهُم﴾ معطوف عليه، ﴿مِّيثَاقٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، ﴿فَدِيَةٌ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿دية﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بما بعده، ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾: صفة لـ﴿دية﴾، ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾، والخبر محذوف جوازاً تقديره: واجبة عليه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن

(١) العكبري.

﴿كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ على كونها معطوفة على جملة محذوفة قدرناها سابقاً، ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: معطوف على ﴿دية﴾، ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾: صفة لـ﴿رَقَبَةٍ﴾.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع على محذوف، تقديره: هذا الحكم في حق من وجد الرقبة. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما، ﴿لَّمْ يَجِدْ﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ومفعوله محذوف تقديره: فمن لم يجد الرقبة، وهو متعد إلى واحد؛ لأنه من وجدان الضالة، لا بمعنى علم، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَصِيَامُ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿صيام﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فالواجب عليه صيام وهو مضاف. ﴿شَهْرَيْنِ﴾: مضاف إليه، ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾: صفة لـ﴿شَهْرَيْنِ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: معطوفة مفرعة على ذلك المحذوف. ﴿تَوْبَةً﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: تاب الله عليكم توبة منه، حيث نقلكم من الأثقل الذي هو الإعتاق إلى الأخف الذي هو الصيام، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿تَوْبَةً﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَقْتُلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مُؤْمِنًا﴾: مفعول به، ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾: حال من فاعل ﴿يَقْتُلْ﴾، ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿جزاؤه﴾: مبتدأ ومضاف إليه،

﴿جَهَنَّمُ﴾: خبر، ﴿خَـٰلِدًا﴾: حال من ضمير ﴿جزاؤه﴾، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَـٰلِدًا﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة[1] على مقدر تدل عليه الجملة الشرطية دلالة واضحة، تقديره: حكم الله أن جزاءه ذلك وغضب عليه. ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿غضب﴾. ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿غضب﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِئَتَيْنِ﴾: تثنية فئة، والفئة الجماعة. ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾: من أركس الرباعي إركاساً، والإركاس[2] الرد والرجع، قيل: من آخره على أوله، والركس: بكسر أوله وسكون ثانيه الرجيع والروثة، ومنه قول النبي ﷺ في الروثة: «هذا ركس» وقال أمية بن أبي الصلت:

فَأُرْكِسُوا فِيْ حَمِيْمِ ٱلنَّارِ إِنَّهُمُ ... كَانُوْا عُصَاةً وَقَالُوْا ٱلإِفْكَ وَٱلزُّوْرَا

والركس[3]: بوزن النصر إرجاع الشيء منكوساً على رأسه، إن كان له رأس، أو متحولاً عن حال إلى أردأ منها، كتحول الطعام والعلف إلى الرجيع والروث، والمراد به هنا تحولهم إلى الغدر والقتال بعد أن أظهروا الولاء والتحيز إلى المسلمين.

وحكى الكسائي والنضر بن شميل[4]: ركس وأركس بمعنى واحد؛ أي:

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

رجعهم، ويقال: ركس مشدداً بمعنى أركس، وارتكس هو؛ أي: ارتجع، وقيل: أركسه إذا أوبقه، قال الشاعر:

بِشُؤْمِكَ أَرْكَسْتَنِيْ فِيْ ٱلْخَنَا ... وَأَرْمَيْتَنِيْ بِضُرُوْبِ ٱلْعَنَا

وقيل: أضلهم، وقال الآخر:

وَأَرْكَسْتَنِيْ عَنْ طَرِيْقِ ٱلْهُدَىٰ ... وَصَيَّرْتَنِيْ مَثَلاً لِلْعِدَا

وقيل: بمعنى نكسه، قاله الزجاج:

رُكِسُوْا فِيْ فِتْنَةٍ مُظْلِمَةٍ ... كَسَوَادِ ٱللَّيْلِ يَتْلُوْهَا فِتَنْ

وفي «المصباح»: ركست الشيء ركساً ـ من باب قتل ـ قلبته، ورددت أوله على آخره، وعن الكسائي وغيره: الركس والنكس قلب الشيء على رأسه، أوردُّ أوله على آخره، وقال الراغب: معناهما الرد والنكس أبلغ؛ لأن النكس ما جعل أسفله أعلاه، والركس ما جعل رجيعاً بعد أن كان طعاماً. اهـ.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾: وفي «المصباح»[1]: حصر الصدر حصراً ـ من باب تعب ـ إذا ضاق، وحصر القارىء إذا منع من القراءة، فهو حصير، والحصور الذي لا يشتهي النساء، وحصير الأرض وجهها، والحصير أيضاً الحبس، والحصير البادية، وجمعها حُصر، مثل بريد وبُرد، وتأنيثها بالهاء عامي. ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾: من باب افتعل الخماسي بمعنى ابتعد، وهو من مزيد الثلاثي؛ لأن ثلاثيه عزل: بمعنى بعد وانفصل عن القوم، ﴿سَبِيلًا﴾: السبيل الطريق، والمراد بها هنا طريق النجاة، ﴿وَلِيًّا﴾: الولي النصير والمعين.

﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾: الدية[2] ما غرِّم في القتل من المال، وكان لها في الجاهلية أحكام ومقادير، ولها في الشرع أحكام ومقادير سبق ذكر شيء منها، وأصلها مصدر أطلق على المال المأخوذ في القتل، ولذلك قال: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ والفعل لا يسلم بل الأعيان، تقول في تصريفه: ودىٰ يدي ودياً ودية،

---

(١) المصباح المنير.
(٢) البحر المحيط.

كما تقول: وشئ يشي وشياً وشية، ونظيره من صحيح اللام زنة وعدة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الأيات من البلاغة والبيان والبديع أنواعاً[1]:

منها: الاستفهام بمعنى الإنكار في قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وفي قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾، وفي قوله: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم﴾، وفي قوله: ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿خَطَـًٔا﴾ و﴿خَطَـًٔا﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم﴾، وفي قوله: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، وقوله ﴿سَبِيلًا﴾، وقوله ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ...﴾ الآية.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾.

ومنها: التكرار في مواضع.

ومنها: التقسيم في قوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا...﴾ إلى آخره.

ومنها: الحذف في مواضع.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ حيث أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: عتق نسمة مملوكة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ
ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ
كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا
﴿٩٤﴾ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ
فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ
عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ
فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا
يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾
۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة[(١)]: وهي أنه تعالى لما ذكر جزاء من قتل مؤمناً متعمداً، وأنه مأواه جهنم، وذكر غضب الله عليه ولعنته، وإعداد العذاب العظيم له.. أمر المؤمنين بالتثبت والتبين، وأن لا يقدم الإنسان على قتل من أظهر الإيمان، وأن لا يسفكوا دماً حراماً بتأويل ضعيف، وكرر ذلك آخر الآية تأكيداً أن لا يقدم عند الشبه والإشكال حتى يتضح له ما يقدم عليه، ولما كان خفاء ذلك منوطاً بالأسفار والغزوات.. قال: إذا ضربتم في الأرض، وإلا فالتثبت والتبين لازم في قتل من تظاهر بالإسلام في السفر وفي الحضر.

وقال المراغي: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

(١) البحر المحيط.

﴿فَتَبَيَّنُوا. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما بين في الآيات السابقة أنه ليس من شأن المؤمن أن يقتل مؤمناً إلا على سبيل الخطأ، وأن من قتل مؤمناً متعمداً فلا جزاء له إلا جهنم خالداً فيها أبداً. . أراد هنا أن ينبه المؤمنين إلى ضرب من ضروب قتل الخطأ كان يحصل في ذلك العهد عند السفر إلى أرض المشركين، حين انتشر الإسلام ولم يبق مكان في بلاد العرب وقبائلهم يخلو من المسلمين، أو ممن يميل إلى الإسلام، ويتحينون الفرص للاتصال بأهله، فأعلمهم أن لا يحسبوا كل من يجدونه في دار الكفر كافراً، وأن يتبينوا من تظهر عليهم علامات الإسلام كالشهادة والسلام الذي هو تحية المؤمنين، وأن لا يحملوا مثل هذا على الخداع، إذ ربما يكون الإيمان قد طاف على هذه القلوب وألم بها، وإن لم يكن قد تمكن فيها، ومن ثم أمر بالتثبت، ونهى عن إنكار إسلام من يدعي الإسلام ولو بإلقاء تحيته، فما بالك بمن ينطق بالشهادتين، وأبان أن الذي يدعوه إلى ظن هذا الظن إنما هو ابتغاء عرض الحياة الدنيا، وبهذا أرشد المؤمن إلى أن يتهم نفسه ويفتش عن قلبه، ولا يبني الظن على ميله وهواه، بل عليه أن يقبل الظاهر حتى يستبين له خلافه انتهى.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنه تعالى لما رغب المؤمنين في قتال ـ في سبيل اللَّه ـ أعداءِ اللَّه الكفار، واستطرد من ذلك إلى قتل المؤمن خطأ وعمداً بغير تأويل وبتأويل، فنهى أن يُقْدِم على قتله بتأويل أمر يحمله على الإسلام إذا كان ظاهره يدل على ذلك. . ذكر بيان فضل المجاهد على القاعد، وبيان تفاوتهما، وأن ذلك لا يمنع منه كون الجهاد مظنة أن يصيب المجاهد مؤمناً خطأ، أو من يلقي السلم فيقتله بتأويل، فيتقاعد عن الجهاد لهذه الشبهة، فأتى عقيب ذلك بفضل الجهاد وفوزه، بما ذكر في الآية من الدرجات والمغفرة والرحمة والأجر العظيم دفعاً لهذه الشبهة.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما[1] عاتب الله سبحانه وتعالى المؤمنين على ما صدر منهم، من قتل من تكلم بالشهادة.. ذكر هنا فضيلة الجهاد، وأن من نصب نفسه له.. فقد فاز فوزاً عظيماً، فعليه أن يحترز من الوقوع في الهفوات التي تخل بهذا المنصب العظيم، انتهت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: هي أنه تعالى لما ذكر ثواب من أقدم على الجهاد.. أتبعه بعقاب من قعد عن الجهاد، وسكن في بلاد الكفر، وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآية السالفة فضل المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عجز.. ذكر هنا حال قوم أخلدوا إلى السكون، وقعدوا عن نصرة الدين، وعذروا أنفسهم بأنهم في أرض الكفر، حيث غلبهم الكافرون، ومنعوهم من إقامة الحق، وهم عاجزون عن مقاومتهم، ولكنهم في الحقيقة غير معذورين؛ لأنه كان يجب عليهم الهجرة إلى المؤمنين الذي يعتزون بهم، إذ هم بحبهم لبلادهم وإخلادهم إلى أرضهم وسكونهم إلى أهليهم ومعارفهم ضعفاء في الحق، لا مستضعفون، وهم بضعفهم هذا قد حرموا أنفسهم بترك الهجرة من خير الدنيا مما أفاء الله به على المؤمنين، ومن خير الآخرة بإقامة الحق وإعلاء كلمة الدين. وظلمهم لأنفسهم هو بتركهم العمل بالحق خوفاً من الأذى، وفقد الكرامة عند ذوى قرابتهم من المبطلين، وهذا الاعتذار وما أشبهه مما يعتذر به الذين سايروا أهل البدع على بدعهم في عصرنا الحاضر، بحجة دفع الأذى عن أنفسهم بمدارة المبطلين، وذلك عذر لا يعتد به، إذ الواجب عليهم إقامة الحق مع احتمال الأذى في سبيل الله، أو الهجرة إلى حيث يتمكنون من إقامة دينهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ...﴾ الآية، في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة[2]:

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

منها: ما أخرجه البخاري والترمذي والحاكم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم، فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية.

ومنها: ما أخرجه أحمد والطبراني وغيرهما عن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي قال: بعثنا رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين، فيهم أبو قتادة ومحلم بن جثامة، فمر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي، فسلم علينا، فحمل عليه محلم فقتله، فلما قدمنا على النبي ﷺ وأخبرناه الخبر.. نزل فينا القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

وأخرج البزار من وجه آخر عن ابن عباس قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد، فلما أتوا القوم.. وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير، فقال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، فقتله المقداد، فقال النبي ﷺ: «كيف لك بلا إلٰه إلا الله غداً». وأنزل الله هذه الآية. وقيل غير ذلك.

ولا مانع من تعدد الوقائع قبل نزول الآية، وأن النبي ﷺ كان يقرؤها على أصحاب كل واقعة، فيرون أنهم سبب نزولها.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً، فجاءه بكتف فكتبها، وشكى ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾.

وقد روي[1]: أن الآية نزلت في كعب بن مالك من بني سلمة، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف، والربيع وهلال بن أمية من بني واقف، حين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه[١] البخاري عن ابن عباس أن أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، فيأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

وأخرجه بن مردويه وسمى منهم في روايته: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبا قيس بن الفاكهة بن المغيرة، والوليد بن عتبة بن ربيعة وغيرهم، وذكر في شأنهم أنهم خرجوا إلى بدر، فلما رأوا قلة المسلمين دخلهم شك، وقالوا: غر هؤلاء دينهم، فقتلوا ببدر.

وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس[٢] قال: إن سبب نزول هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أن قوماً من أهل مكة قد أسلموا، وكانوا يخفون الإسلام، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت الآية فكتبوا بها إلى من بقي منهم بمكة، وأنه لا عذر لهم فخرجوا، فلحق بهم المشركون ففتنوهم فرجعوا، فنزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فكتب إليهم المسلمون بذلك فتحزنوا فنزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ...﴾ الآية، فكتبوا إليهم بذلك، فخرجوا فلحقوهم، فنجا من نجا، وقتل من قتل.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآية، روى[٣] ابن جرير عن ابن جبير أنها نزلت في جندب بن ضمرة وكان بلغه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ...﴾ الآية، وهو بمكة حين بعث بها رسول الله ﷺ إلى مسلميها، فقال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي إلى الطريق، وإني لا أبيت الليلة بمكة، فحملوه على سرير وتوجهوا به إلى المدينة، وكان شيخاً كبيراً فمات بالتنعيم ـ موضع قرب المدينة ـ ولما

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

(٣) المراغي.

أدركه الموت.. أخذ يصفق بيمينه على شماله ويقول: اللهم هذه لك وهذه لرسولك ﷺ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك ﷺ، ولما بلغ خبر موته الصحابة رضي الله عنهم قالوا لبنيه: مات بالمدينة، فنزلت هذه الآية، وروي غير ذلك في سبب نزولها.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ أي: يا أيها الذين صدقوا الله تعالى وصدقوا رسوله محمداً ﷺ، واتبعوا الأوامر وتركوا النواهي، ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إذا سافرتم وسرتم لجهاد أعداء الله تعالى وأعدائكم لإعلاء كلمته ورفعة دينه، ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾؛ أي: اطلبوا البيان والتحقق واليقين، وتأنوا في قتل من اشتبه عليكم أمره فلم تعلموا أمسلم هو أم كافر، ولا تعجلوا في قتل أحد إلا إذا علمتم يقيناً أنه حرب لكم ولله تعالى والرسول ﷺ. وقرأ[1] حمزة والكسائي هنا في الموضعين وفي الحجرات ﴿فتثبتوا﴾ بالثاء المثلثة؛ أي: اطلبوا التثبت والباقون: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، وكلاهما تفعَّل بمعنى استفعل التي للطلب؛ أي: اطلبوا إثبات الأمر وبيانه، ولا تقدموا عليه من غير رويّة وإيضاح.

والمراد في الآية: فتأنوا واتركوا العجلة واحتاطوا ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ أيها المؤمنون المجاهدون بغير تأمل وتبين ﴿لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ﴾؛ أي: لمن حياكم بتحية الإسلام السلام عليكم ورحمة اللّه، أو لمن ألقى إليكم الاستسلام والانقياد بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، الذي هو أمارة على الإسلام، ولم يقاتلكم وأظهر أنه من أهل ملتكم ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾؛ أي: إنك لست بمؤمن حقاً، وإنما تقوله تقية وخوفاً من السيف، فتقتلوه حالة كونكم ﴿تَبْتَغُونَ﴾ وتطلبون بقتله ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومتاعها من الغنائم، قاصدين ماله الذي هو سريع النفاذ والزوال ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾؛ أي: أرزاق كثيرة ونعم لا تحصى ولا تعد، وثواب جسيم، فاطلبوها عنده تعالى

---

(١) البحر المحيط.

يغنمكموها، فتغنيكم عن قتل أمثاله لماله. وقرأ[1] عاصم وأبو عمرو وابن كثير والكسائي وحفص ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ بألف، قال الزجاج: يجوز أن يكون بمعنى التسليم، ويجوز أن يكون بمعنى الانقياد، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة وابن كثير من بعض طرقه، وجبلة عن المفضل عن عاصم بفتح السين واللام من غير ألف وهو من الاستسلام، وقرأ أبان بن زيد عن عاصم بكسر السين وإسكان اللام وهو الانقياد والطاعة، وقرأ الجحدري بفتح السين وسكون اللام، وقرأ أبو جعفر ﴿مؤمناً﴾ بفتح الميم؛ أي: لا نؤمنك في نفسك، وهي قراءة علي وابن عباس وعكرمة وأبي العالية ويحيى بن يعمر، ومعنى قراءة الجمهور: ليس لإيمانك حقيقة إنك أسلمت خوفاً من القتل، ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا الرجل الذي ألقى إليكم السلام، فقلتم له لست مؤمناً فقتلتموه، ﴿كُنتُم﴾ أنتم ﴿مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: في أول إسلامكم لا يظهر للناس منكم إلا مثل ما ظهر منه لكم من تحية الإسلام ونحوها، يعني[2] من قبل أن يعز الله تعالى دينه كنتم تستخفون أنتم بدينكم، كما استخفى هذا الذي قتلتموه بدينه من قومه حذراً على نفسه منهم، وقيل: معناه كذلك كنتم تأمنون في قومكم بهذه الكلمة، فلا تحقّروا من قالها ولا تقتلوه، وقيل معناه: كذلك كنتم من قبل مشركين. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ وتفضل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام والهداية، فلا تقتلوا من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقيل معناه: منَّ عليكم بإعلان الإسلام بعد الاختفاء، وقيل منَّ عليكم بالتوبة، وقيل قبل منكم تلك الكلمة، وعصم بها دماءكم وأموالكم، ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم؛ أي: إنكم أول ما دخلتم في الإسلام حقنت دماؤكم وأموالكم بالنطق بكلمة الشهادة، من غير نظر إلى معرفة أن ما في القلب موافق لما في اللسان، ومنَّ الله تعالى عليكم بذلك، فعليكم أن تعملوا مع الداخلين في الإسلام كما عمل معكم، وأن تعتبروا بظاهر القول، ولا تقولوا إن إقدامه على التكلم بهذه الكلمة إنما كان لأجل الخوف من السيف، ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾؛ أي: فكونوا على بيان ويقين من الأمر الذي تقدمون عليه، ولا تأخذوا بالظن، بل تدبروا ليظهر لكم أن

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

الإيمان المعتبر في حقن الدماء والأموال يكفي فيه ظاهر الحال، كما كفى معكم من قبل.

والمعنى: إذا كان الأمر كذلك.. فتبينوا، وقيسوا حاله بحالكم، وافعلوا به ما فعل بكم في أوائل أموركم، من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على تواطىء الظاهر والباطن، وفي إعادة التبين مرة أخرى المبالغة في التحذير من ذلك الفعل والوعيد عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ﴾ أزلاً وأبداً ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿خَبِيرًا﴾؛ أي: عالماً فيجازيكم بحسبها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فلا تتهاونوا في القتل، واحتاطوا فيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف، وقرىء بفتحها، على أن تكون معمولة لقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ أي: أنه تعالى[2] خبير بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء من البواعث التي حفزتكم على الفعل، فإن كانت ابتغاء حظ الحياة الدنيا فهو تعالى يجازيكم على ذلك، فلا تفعلوا بل تثبتوا وتبينوا، وإن كان محض الدفاع عن الحق فهو تعالى يثيبكم على ذلك، وفي هذا وعيد وتحذير شديد من الوقوع في مثل هذا الخطأ، وكذلك فيه إرشاد إلى أن لا نحكم بتكفير من يخالفنا من أهل القبلة، والعلم الصحيح، والدعوة إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، بمجرد المخالفة لنا في رأي أو عقيدة، فإنَّ مثل هذا لا يقدم عليه المسلم جزافاً، وعلينا أن ننظر بعد هذا كله إلى أن الإسلام منع قتل من يلقي السلم، ومن بينه وبين المسلمين عهد وميثاق، إما على النصر وإما على ترك القتال، ورغب عن ابتغاء عرض الدنيا بالقتال؛ وليكون لمحض رفع العدوان والبغي، وتقرير الحق والإصلاح.

وأين هذا مما تفعله الدول الآن من القتال للربح وجمع الأموال، وهم ينقضون العهد والميثاق مع الضعفاء، ولا يلتزمون حفظ المعاهدات إلا مع الأقوياء.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: لا يكون القاعدون عن الجهاد بأموالهم بخلاً بها وحرصاً عليها، وبأنفسهم إيثاراً للراحة والنعيم على التعب وركوب الأخطار، الذين هم غير أصحاب الضرر والعذر من مرض أو عاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها، وفي معناه العجز عن الأهبة؛ أي: لا يكون القاعدون الموصوفون بما ذكر مساوين للمجاهدين الذين يبذلون أموالهم في الاستعداد للجهاد بالسلاح والخيل والمؤنة، ويبذلون أنفسهم بتعريضها للقتل في سبيل الحق، ومنع تعدي حرب الطاغوت؛ لأن المجاهدين هم الذين يحمون الأمة والبلاد، والقاعدون لا يأخذون حذرهم ولا يعدون عدتهم للدفاع، ويكونون عرضة لتعدي غيرهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: بغلبة أهل الطاغوت عليها، ولكن النكوص عن الجهاد لا يكون مذمة وبخلاً إلا مع القدرة.

أما مع العجز والضرر كالعمى والزمانة والمرض فلا تبعة فيه، فحينئذ فالقاعدون أولو الضرر يساوون المجاهدين؛ لأن العذر أقعدهم عن الجهاد، روى مسلم عن جابر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فقال رسول الله ﷺ: «إن بالمدينة رجالاً، ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم المرض»، وروى البخاري عن أنس قال: رجعنا من تبوك مع النبي ﷺ، فقال: «إن أقواماً خَلفنا، ما سلكنا شعباً ولا وادياً.. إلا وهم معنا، حبسهم العذر». وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ بالرفع بدل من القاعدون، ونافع وابن عامر والكسائي والباقون: بالنصب على الحال من ﴿القاعدون﴾، والأعمش بالجر على الصفة للمؤمنين.

ثم بين[1] ما أجمله أولاً من التفاضل الذي بين الفريقين وعدم تساويهما فقال: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾؛ أي: إن الله سبحانه

---

(١) المراغي.

وتعالى رفع المجاهدين على القاعدين بغير عذر درجة لا يقدر قدرها ولا يدرك كنهها، وهي ما خولهم الله تعالى عاجلاً في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل ودفع شر الأعداء عن الأمة والبلاد، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: ووعد اللّه تعالى كلا ممن جاهد وقعد عن الجهاد عجزاً منه، مع تمني القدرة عليه، المثوبة الحسنى: وهي الجنة، فكل منهما كامل الإيمان، مخلص لله تعالى في العمل.

وقيل المعنى: وفضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أولي الضرر ﴿دَرَجَةً﴾؛ أي: فضيلة واحدة في الآخرة لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية، وأولو الضرر كانت لهم نية ولم يباشروا الجهاد، فنزلوا عن المجاهدين درجة، قال ابن عباس: أراد بالقاعدين هنا أولي الضرر، ﴿وَكُلًّا﴾ من المجاهدين والقاعدين مطلقاً ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ لهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الجنة بإيمانهم ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ في سبيل الله تعالى ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ الذين لا عذر لهم ولا ضرر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثواباً جزيلاً وأجراً وافراً، ثم فسر ذلك الأجر العظيم فقال: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ سبحانه وتعالى، وانتصاب أجراً عظيماً بنزع الخافض، أو على التمييز، ودرجات بدل منه، بدل كل من كل، ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على درجات؛ أي: وفضل الله سبحانه وتعالى المجاهدين في سبيل الله تعالى على القاعدين بلا عذر بأجر عظيم، وثواب وافر، بدرجات منه وبمغفرة ورحمة منه تعالى؛ أي: فضلهم عليهم بدرجات ومنازل بعضها فوق بعض، من منازل الكرامة، وبمغفرة للذنوب، وبرحمة لهم بنعيم الجنة. والمراد بهذه الدرجات[1] هي ما ادخره الله تعالى لعباده من المنازل الرفيعة التي يقصر الحصر عن عدها، كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ ودرجات الآخرة مبنية على درجات الدنيا، من قوة الإيمان بالله تعالى، وإيثار رضاه على الراحة والنعيم، وترجيح المصلحة العامة على الشهوات الخاصة، والمغفرة المقرونة بهذه الدرجات هي المغفرة لما يفرط منهم

---

(١) المراغي.

من الذنوب التي لا تكفرها سائر الحسنات التي يأتي بها القاعدون، والرحمة هي ما يخصهم به الرحمٰن زيادة على ذلك من فضله وإحسانه، وأخرج البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، وحج، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها»، قالوا: أو لا نبشر الناس بقولك، فقال: «إن في الجنة مئة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله.. فاسألوه الفردوس الأعلى، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمٰن، ومنه تفجر أنهار الجنة».

فإن قلت[1]: قد ذكر الله عز وجل في الآية الأولى درجة واحدة، وذكر في هذه الآية درجات، فما وجه الحكمة في ذلك؟

قلتُ: أما الدرجة الأولى: فلتفضيل المجاهدين على القاعدين بوجود الضرر والعذر، وأما الثانية: فلتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير ضرر ولا عذر، فُضِّلوا عليهم بدرجات كثيرة، وقيل: يحتمل أن تكون الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم في الدنيا، والدرجات درجات الجنة ومنازلها، كما في الحديث والله أعلم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب عباده المؤمنين ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم، يتفضل عليهم برحمته ومغفرته، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «أيما عبد من عبادي خرج مجاهداً في سبيل الله ابتغاء مرضاتي.. ضمنت له إن أرجعته أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة، وإن قبضته.. غفرت له ورحمته» أخرجه النسائي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ﴾؛ أي: تتوفاهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وتقبض أرواحهم حين انتهاء آجالهم، والمراد بالملائكة ملك الموت وأعوانه، وهم ستة: ثلاثة منهم يلون قبض أرواح المؤمنين، وثلاثة يلون قبض أرواح الكفار والمنافقين، وقيل: أراد به

---

(١) الخازن.

ملك الموت وحده، وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم، كما يخاطب الواحد بلفظ الجمع. وقرأ إبراهيم[1]: ﴿توفاهم﴾ بضم التاء، مضارع وفيت، والمعنى: أن الله تعالى يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها؛ أي: يمكنهم من استيفائها فيستوفونها، وقرىء توفتهم بتاء التأنيث على أنه فعل ماض، حالة كونهم ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بترك الهجرة، واختيارهم مجاورة الكفرة في دار الذل والظلم، الموجبة للإخلال في أمور الدين، حيث لا حرية لهم في أمورهم الدينية، ولا يتمكنون من إقامة دينهم ونصره وتأييده، وقد ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قالت الملائكة لهم حين القبض موبخين ﴿فِيمَ كُنتُمۡ﴾؛ أي: في أي شيء كنتم من أمر دينكم؛ أي: أكنتم من أصحاب محمد ﷺ أم كنتم مشركين، أو أكنتم في حرب محمد ﷺ أو في حرب أعدائه؛ أي: إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، والحال أن الملائكة تقول للمتوفين بعد قبض أرواحهم توبيخاً لهم: في أي شيء كنتم من أمر دينكم؛ أي: إنهم لم يكونوا في شيء منه، إذ هم قدروا على الهجرة ولم يهاجروا، ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال المتوفون للملائكة معتذرين اعتذراً غير صحيح: ﴿كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ﴾؛ أي: كنا مقهورين في أرض مكة، في أيدي الكفار، فعجزنا عن القيام بواجبات الدين بين أهل مكة، وهذه حجة لم تتقبلها الملائكة، ومن ثم ردوا عليهم المعذرة فـ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قالت الملائكة لهم توبيخاً مع ضرب وجوههم وأدبارهم: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ وترحلوا إلى قطر آخر من الأرض تقدرون فيه على إقامة الدين، وتحرروا أنفسكم من رق الذل الذي لا يليق بالمؤمن، ولا هو من خصاله؛ أي: إنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد، التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم، فبقيتم بين الكفار مع القدرة على الهجرة، فلكم مالهم، وقال ابن عباس: أي: ألم تكن المدينة آمنة فتهاجروا إليها، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتوفون الذين تقول الملائكة لهم ما ذكر ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ ومنزلهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ كما أن مأواهم في الدنيا دار الكفر، لتركهم الفريضة؛ أي: إن أولئك الذين فصلت حالهم الفظيعة نسكنهم في الآخرة جهنم؛

---

(١) البحر المحيط.

لتركهم ما كان مفروضاً عليهم، إذ كانت الهجرة واجبة في صدر الإسلام، فـ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: مبتدأ، و﴿جَهَنَّمُ﴾: خبره، والجملة خبر لـ﴿أولئك﴾، وهذه الجملة خبر إن، وقوله: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾ حال من الملائكة على تقدير قد، كما أشرنا إليه آنفاً، أو هو الخبر، والعائد منه محذوف؛ أي: قالوا لهم: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾؛ أي: وقبحت جهنم مصيراً لهم؛ لأن كل ما فيها يسوؤهم.

وفي هذا[1] إيماء إلى الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة دينه كما يجب، لبعض الأسباب، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله تعالى، وأدوم على العبادة. وجبت عليه الهجرة، أما المقيم في دار الكفر ولا يمنع ولا يؤذى إذا هو عمل بدينه، وأقام أحكامه بلا نكير، فلا يجب عليه أن يهاجر، كما هو مشاهد من المسلمين المقيمين في بلاد الإنكليز الآن، كما أن الإقامة فيها ربما كانت سبباً من أسباب ظهور محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه.

ثم استثنى أهل العذر ومن علم ضعفه منهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾؛ أي: فأولئك المذكورون مأواهم جهنم، إلا الذين صدقوا في استضعافهم ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ العجزة والزمنى، كعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام ﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾ كأم الفضل لبابة أم عبد الله بن عباس، ﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ كعبد الله المذكور وغيره، فإنه قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين في مكة، وإنما[2] ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم لقصد المبالغة في شأن الهجرة، وإيهام أنها تجب لو استطاعها غير المكلف، فكيف من كان مكلفاً، وقيل أراد بالولدان المراهقين والمماليك حالة كونهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾؛ أي: لا يقدرون على حيلة الخروج، ولا على نفقته، أو كان بهم مرض، أو كانوا تحت قهر قاهر، يمنعهم من تلك المهاجرة، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾؛ أي: لا يعرفون طريقاً، ولا يجدون من يدلهم على الطريق. واستطاعة[3] الحيلة: وجدان أسباب الهجرة، وما تتوقف عليه من مركوب وزاد. واهتداء السبيل: معرفة الطريق بنفسه أو بدليل، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المستضعفون الذين لم يهاجروا

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) الخازن.

للعجز وتقطع الأسباب ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: حقق الله سبحانه وتعالى ﴿أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ ولا يؤاخذهم بالإقامة في دار الكفر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَفُوًّا﴾؛ أي: كثير العفو والمحو للذنوب عن صحف الملائكة فلا يؤاخذ بها، ﴿غَفُورًا﴾؛ أي: كثير الغفر والستر لها عن أعين الملائكة، فلا يفضح صاحبها في الآخرة.

ثم رغب الله سبحانه وتعالى في أمر الهجرة، ونشط المستضعفين، لما جرت به العادة من أن الإنسان يتهيب الأمر المخالف لما اعتاده وأنس به، ويتخيل مصاعب ومشقات لا توجد إلا في خياله، وأن ما يتصوره بعض الناس من عسر الهجرة لا محل له، وأن عسرها إلى يسر، فقال: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ﴾؛ أي: ومن يرتحل من بلده الأصيلة إلى بلد آخر ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعته وطلب رضاه، لا لدنيا يصيبها، ولا لامرأة ينكحها مثلاً، ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يجد في الأرض التي هاجر إليها ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ﴾ في المعيشة؛ أي: يجد في تلك الأرض من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنوف أعدائه، الذين كانوا معه في بلدته الأصيلة، وذلك لأن من ارتحل إلى بلدة أجنبية وتحول إليها، فإذا استقام أمره في تلك البلدة، وتمكن فيها، ووصل خيره إلى أهل بلدته الأولى، خجلوا من سوء معاملتهم معه، وندموا عليه، ورغمت أنوفهم بسبب ذلك.

وقرأ[1] الجراح ونبيح والحسن بن عمران: ﴿مرغما﴾ على وزن مفعل كمذهب، قال ابن جني: هو على حذف الزوائد من راغم، وفي هذا وعد للمهاجرين في سبيله بتسهيل سبل العيش لهم، وإرغامهم أعداءهم، والظفر بهم، وبعد أن وعد سبحانه من هاجر في سبيل الله تعالى بالظفر بما يحب من وجدان السبل ميسورة أمامه، ومن سعة العيش.. وعد من يموت في الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم، الذي ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله تعالى، ونصرة رسوله ﷺ في حياته، وإقامة سننه بعد وفاته، وكان مستحقاً لهذا الأجر ولو مات بعد أن تجاوز عتبة بابه، ولو لم يصب تعباً ولا مشقة؛ فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه، كما في الحديث: «إنما الأعمال

---

(١) البحر المحيط.

بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»، فقال: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ﴾ ويرتحل منه حالة كونه ﴿مُهَاجِرًا﴾ ومتحولاً ﴿إِلَى﴾ محل فيه رضا ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ﷺ ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: يأته الموت ويأخذه قبل أن يصل إلى المقصد، وإن كان خارج بابه ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: فقد وجب أجر هجرته عند الله تعالى، بإيجابه على نفسه بمقتضى وعده وتفضله وكرمه، لا بحكم الاستحقاق، الذي لو لم يفعل لخرج عن الألوهية. وفي إبهام هذا الأجر وجعله حقاً واجباً عليه تعالى إيذان بعظم قدره، وتأكيد ثبوته ووجوبه، ولله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء، وليس لغيره أن يوجب عليه شيئاً، إذ لا سلطان فوق سلطانه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾ لما كان منه من القعود إلى وقت الخروج، ﴿رَّحِيمًا﴾ بإكمال أجر الهجرة له، فكذلك كل من قصد فعل طاعة ولم يقدر على إتمامها.. كتب الله تعالى له ثواباً كاملاً.

وقرأ النخعي وطلحة بن مصرف[1]: ﴿ثم يدركه﴾ برفع الكاف، قال ابن جني: هذا رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو يدركه الموت، فعطف الجملة من المبتدأ والخبر على الفعل المجزوم وفاعله، وخرج على وجه آخر وهو أن رفع الكاف منقول من الهاء، كأنه أراد أن يقف عليها، ثم نقل حركة الهاء إلى الكاف، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ونبيح والجراح: ﴿ثم يدركه﴾ بنصب الكاف، وذلك على إضمار أن المصدرية، قال ابن جني: هذا ليس بالسهل، وإنما بابه الشعر لا القرآن، ولك أن تقول: أجري ﴿ثم﴾ مجرى الواو والفاء، فكما جاز نصب الفعل بإضمار أن بعدهما، بين الشرط وجوابه، كذلك جاز في ﴿ثم﴾ إجراء لها مجراهما، وهذا مذهب الكوفيين، واستدلوا بهذه القراءة.

الإعراب

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه

---

(١) البحر المحيط.

زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صلة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ضَرَبۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿تبينوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بحذف النون، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل، معطوف على ﴿تبينوا﴾ على كونها جواب ﴿إذا﴾، ﴿لِمَنۡ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقُولُواْ﴾، ﴿أَلۡقَىٰٓ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿إِلَيۡكُمُ﴾: متعلق بـ﴿أَلۡقَىٰٓ﴾، ﴿ٱلسَّلَٰمَ﴾: مفعول ﴿أَلۡقَىٰٓ﴾، ﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾: مقول لـ﴿تَقُولُواْ﴾ محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَسۡتَ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُؤۡمِنٗا﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿تَقُولُواْ﴾، ﴿تَبۡتَغُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ مفعول به ومضاف إليه، ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ صفة لـ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَقُولُواْ﴾.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿عند اللَّه﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿مَغَانِمُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿كَثِيرَةٞۚ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بـ﴿الفاء﴾ التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف، تقديره: وإنما نهيتكم عن القول المذكور، وابتغاء عرض الدنيا، لكون مغانم كثيرة عند الله تعالى، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم على كان واسمها، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِّن قَبۡلُ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في خبر كان، والتقدير: كنتم كائنين كذلك الرجل حالة كونكم كائنين من قبل، وجملة كان مستأنفة، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ﴾

﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿منَّ اللَّه﴾: فعل وفاعل، معطوف على كان، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿منَّ﴾، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب لشرط مقدر، تقديره: إذا كان حالكم كحاله فتبينوا، ﴿تبينوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب إذا المقدرة، لا محل لها من الإعراب، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَبِيرًا﴾، ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: تعملونه، ﴿خَبِيرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾: ناف وفعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: حال من ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾. ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾: بالرفع بدل من ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾. وهو أرجح؛ لأن الكلام منفي، والبدل معه أرجح من النصب كما تقرر في كتب النحو، وقيل إنه بالرفع صفة لـ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، وبالنصب على الاستثناء من ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، أو على الحال، وبالجر صفة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿المجاهدون﴾. ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق أيضاً بـ﴿المجاهدون﴾. ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف على ﴿أموالهم﴾. ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان عدم الاستواء المفهوم من الجملة التي قبلها. ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿فَضَّلَ﴾. ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف على أموالهم. ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾: متعلق أيضاً بـ﴿فَضَّلَ﴾. ﴿دَرَجَةً﴾: منصوب على التمييز، أو بنزع الخافض؛ أي: بدرجة واحدة، أو على المصدرية؛ أي: فضلهم تفضيلة، وقيل غير ذلك. ﴿وَكُلًّا﴾: مفعول أول لـ﴿وَعَدَ﴾ مقدم عليه لإفادة الحصر ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: مفعول ثان له، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَضَّلَ﴾. ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿فَضَّلَ﴾

الأول. ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ متعلق بـ﴿فَضَّلَ﴾. ﴿أَجْرًا﴾: منصوب[1] على التمييز، وقيل على المصدرية؛ لأن ﴿فَضَّلَ﴾ بمعنى أجر، والتقدير: أجرهم أجراً، وقيل: مفعول لـ﴿فَضَّلَ﴾ لتضمنه معنى الإعطاء، وقيل منصوب بنزع الخافض، وقيل: على الحال من درجات مقدم عليها، ﴿عَظِيمًا﴾.

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿دَرَجَٰتٍ﴾: بدل من ﴿أَجْرًا﴾. ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿دَرَجَٰتٍ﴾. ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾: معطوفان على ﴿دَرَجَٰتٍ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول، ويجوز[2] أن يكون ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ فعلاً ماضياً، وإنما لم تلحق علامة التأنيث للفصل، ولأن التأنيث مجازي، ويدل على كونه فعلاً ماضياً قراءة ﴿توفتهم﴾ بتاء التأنيث، ويجوز أن يكون مضارعاً حذفت منه إحدى التاءين، والأصل: تتوفاهم، ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: حال من ضمير ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾، والإضافة فيه غير محضة، إذ الأصل ظالمين أنفسهم، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة حال من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ولكنها على تقدير قد؛ أي: حالة كون الملائكة قائلين لهم. ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿في﴾: حرف جر، ﴿م﴾: اسم استفهام في محل الجر بـ﴿في﴾ مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ما الموصولة، كما قال ابن مالك:

وَمَا فِيْ ٱلاسْتِفْهَامِ إِنْ جَرَّتْ حُذِفْ ... أَلِفُهَا وَأَوْلِهَا ٱلْهَا إِنْ تَقِفْ

الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدماً لكان، ﴿كُنتُمْ﴾

(١) الشوكاني. (٢) الفتوحات.

فعل ناقص واسمه، والتقدير: في أي شيء كائنين كنتم، وجملة كان في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والضمير عائد على المتوفين، والجملة الفعلية جواب الاستفهام لا محل لها من الإعراب. ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾: متعلق بـ﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾، وجملة كان في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والضمير عائد إلى ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة بعاطف مقدر على جملة قوله: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾، ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَكُنْ﴾: مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿أَرْضُ ٱللَّهِ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿وَٰسِعَةً﴾: خبرها. ﴿فَتُهَاجِرُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿تهاجروا﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب الاستفهام، والواو ضمير متصل فاعل، والجملة من الفعل والفاعل صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: ألم يثبت كون أرض الله واسعة فمهاجرتكم فيها، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿فِيهَاۚ﴾ متعلق بـ﴿تهاجروا﴾. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لخبر ﴿إِنَّ﴾ باسمها، لما في الاسم من العموم، ﴿أولئك﴾ في محل الرفع مبتدأ أول، ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: مبتدأ ثان ومضاف إليه، ﴿جَهَنَّمُۖ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل الرفع خبر لـ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَسَآءَتْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ساءت﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: هي، يعود إلى جهنم، ﴿مَصِيرًا﴾: تمييزه والمخصوص بالذم محذوف وجوباً، تقديره: هي، وجملة ﴿ساءت﴾ مستأنفة، مسوقة لبيان الذم والقبح.

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: مستثنى من الضمير في ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾، كأنه قيل فأولئك في جهنم إلا المستضعفين، فعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً، وقيل إن المستثنى منه إما كفار أو عصاة بالتخلف قادرون على الهجرة، فلم يندرج فيهم المستضعفون، فيكون الاستثناء منقطعاً، ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾. ﴿وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: معطوفان على ﴿ٱلرِّجَالِ﴾. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾. ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: جملة فعلية معطوفة على جملة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأنه من جملة الحيلة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿عَسَى﴾: من أفعال الرجاء تنصب الاسم وترفع الخبر. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿أَن﴾. حرف نصب، ﴿يَعْفُوَ﴾: فعل مضارع منصوب، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿عَنْهُمْۚ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه خبراً لـ﴿عَسَى﴾، ولكنه في تأويل اسم الفاعل؛ لأنه لا يخبر باسم المعنى عن الذات، تقديره: عسى الله عفواً عنهم، أو ذا العفو عنهم، وجملة ﴿عَسَى﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر بلام التعليل، المدلول عليها بالفاء التعليلية، والتقدير: وإنما استثنيناهم لتحقيق الله وإثباته العفو عنهم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿غَفُورًا﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يُهَاجِرْ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، ﴿يَجِدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به. ﴿مُرَٰغَمًا﴾:

مفعول ﴿يَجِدْ﴾. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة لـ﴿مُرَٰغَمًا﴾. ﴿وَسَعَةً﴾: معطوف على ﴿مُرَٰغَمًا﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يَخْرُجْ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿مَن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَخْرُجْ﴾، ﴿مُهَاجِرًا﴾ حال من فاعل ﴿يَخْرُجْ﴾، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يَخْرُجْ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على لفظ الجلالة، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونه معطوفاً على فعل الشرط، وتقدم لك بيان وجه رفعه ونصبه في مبحث القراءة، فلا عود ولا إعادة، ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾، ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواب الشرط لها، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿وَقَعَ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره: ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقال: ضرب في الأرض إذا سافر فيها، والضرب في الأرض السير فيها بالسفر للتجارة أو الجهاد؛ لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه أو بقوائم راحلته.

﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ تبين من باب تفعل الخماسي الذي هو من مزيد الثلاثي، وفي قراءة ﴿فتثبتوا﴾ بالثاء المثلثة، وهو من باب تفعل أيضاً، وفي «السمين»: وتفعل هنا على كلا القراءتين بمعنى استفعل الدال على الطلب؛ أي: اطلبوا التثبت أو البيان. اهـ.

﴿لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ ألقى هنا ماض اللفظ إلا أنه بمعنى المستقبل؛ أي: لمن يلقي؛ لأن النهي لا يكون عما وقع وانقضى، والماضي إذا وقع صلة.. صلح للمضي والاستقبال. اهـ. «سمين».

السلاَم بالألِفِ التحية، وقيل الاستسلام والانقياد، والسَلْم بفتح السين وسكون اللام الانقياد فقط، وكذا بالكسر والسكون، والمعنى: انقاد واستسلم لكم فلم يقاتلكم، ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: متاعها الحاضر الذي يأخذ منه البر والفاجر، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة مؤنث على وزن فعلى، مذكره الأدنى؛ أي: الحياة القريبة الزوال، أو الدنيئة الخسيسة لكثرة ما يكدرها، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ المغانم جمع مغنم ـ مفعل ـ من غنم الثلاثي، يصلح للزمان والمكان والمصدر، ويطلق على الغنيمة تسمية للمفعول بالمصدر؛ أي: المغنوم، وهو: ما يأخذه الرجل من مال العدو وفي الغزو قهراً، نحو قولهم هذا ضرب الأمير؛ أي: مضروبه، ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ الضرر يجمع على أضرار، ضد النفع والشدة والضيق وسوء الحال، والنقصان يدخل في الشيء، يقال: ضره يضره ضراً وضررا، من باب شد، فهو من المضاعف المعدى، ﴿دَرَجَةً﴾ الدرجة تجمع على درجات الطبقة والرتبة والمنزلة، ﴿أَجْرًا﴾ مصدر أجره أجراً؛ إذا أعطاه الأجر: وهو ما يعطى في مقابلة العمل الصالح.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ الحيلة: هي ما يتوصل به إلى المقصود بطريق خفي، يجمع على حيل، كفيلة تجمع على فيل ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾؛ أي: متحولاً[1] ينتقل إليه، فهو اسم مكان، وهو بمعنى المهاجر؛ أي: المكان الذي يهاجر إليه وعبر عنه بالمراغم؛ للإشعار بأنَّ المهاجر يرغم أنف قومه؛ أي: يذلهم، والرغم: الذل والهوان، وأصله لصوق الأنف بالرغام بفتح الراء، وهو التراب اهـ أبو السعود».

وقال أبو حيان: المراغم[2] مكان المراغمة: وهي أن يرغم كل واحد من المتنازعين، بحصوله في منعة منه أنف صاحبه، بأن يغلب على مراده، يقال:

(١) أبو السعود.
(٢) البحر المحيط.

راغمت فلاناً إذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك انتهى.

وفي «المصباح»: الرغام[1] ـ بالفتح ـ: التراب، ورغم أنفه رغماً من باب قتل كناية عن الذل، كأنَّه لصق بالرغام هواناً، ويتعدى بالألف فيقال: أرغم الله أنفه، وفعلته على رغم أنفه بالفتح والضم؛ أي: على كره منه، وأرغمته غاضبته، وهذا ترغيم له؛ أي: إذلال له، وهذا من الأمثال التي جرت في كلامهم بأسماء الأعضاء، ولا يراد أعيانها، بل وضعوها لمعان غير معاني الأسماء الظاهرة، ولا حظ لظاهر الأسماء من طريق الحقيقة، ومنه قولهم: كلامه تحت قدمي وحاجته خلف ظهري، يريدون الإهمال وعدم الاحتفال انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبديع[2]:

منها: الاستعارة في قوله: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استعار الضرب للسعي في قتال الأعداء، والسبيل لدينه، وفي قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ عبر به وهو حقيقة في المكان عن التساوي في المنزلة والفضيلة، وفي قوله: ﴿درجة﴾ حقيقتها في المكان، فعبر به عن المعنى، اقتضى التفضيل، وفي قوله: ﴿يُدْرِكْهُ﴾ استعار الإدراك الذي هو صفة من فيه حياة لحلول الموت، وفي قوله: ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ استعار الوقوع الذي هو من صفات الأجرام؛ لثبوت الأجر.

ومنها: التكرار في اسم الله تعالى، و﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ و﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿مغفرة﴾ و﴿غفورا﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ و﴿عَفُوًّا﴾ وفي قوله: ﴿يُهَاجِرْ﴾ و﴿مُهَاجِرًا﴾.

---

(١) المصباح المنير.

(٢) البحر المحيط.

ومنها: إطلاق الجمع على الواحد في قوله: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على قول من قال: إنه ملك الموت وحده.

ومنها: الاستفهام المراد به التوبيخ في قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾، وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وفي: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

ومنها: السؤال والجواب في قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ وما بعدها.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لمَّا(١) كان الكلام في سابق الآيات في الجهاد والحث عليه؛ لإقامة الدين وحفظه، وإيجاب الهجرة لأجل ذلك،

(١) المراغي.

وتوبيخ من لم يهاجر من أرض، لا يقدر على إقامة دينه فيها، والجهاد يستلزم السفر.. ذكر هنا أحكام من سافر للجهاد، أو هاجر في سبيل الله تعالى، إذا أراد الصلاة وخاف أن يفتن عنها، فبين أنه يجوز له أن يقصر منها، وأن يصلي جماعتها بالطريقة التي ذكرت في الآية الثانية من هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: لمَّا كان[١] الكلام فيما سلف في شأن الحرب وما يقع فيها، وبيان كيفية الصلاة في أثنائها وما يلاحظ فيها إذا كان العدو متأهباً للحرب، من اليقظة وأخذ الحذر، وحمل السلاح في أثنائها، وبين في أثناء السياق شدة عداوة الكفار لهم، وتربصهم غفلتهم، وإهمالهم ليوقعوا بهم.. نهى هنا عن الضعف في لقائهم، وأقام الحجة على كون المشركين أجدر بالخوف منهم؛ لأن ما في القتال من الألم والمشقة يستوي فيه المؤمن والكافر، ويمتاز المؤمن بأن له من الرجاء في ربه ما ليس عند الكافر، فهو يرجو منه النصر والمعونة، ويعتقد أنَّه قادر على إنجاز وعده، كما يرجو منه المثوبة على حسن بلائه في سبيله، وقوة الرجاء تخفف الآلام وتنسيه التعب والنصب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لمَّا[٢] حذر المؤمنين من المنافقين أعداء الحق، وأمرهم أن يستعدوا لمجاهدتهم خوف أن يطمسوا معالم الدين والحق، ويهلكوا أهله.. أمرهم هنا أن يقوا بحفظ الحق، وأن لا يحابوا فيه أحداً.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها[٣]: أنَّه لما صرح بأحوال المنافقين، واتصل بذلك أمرُ المحاربة وما يتعلق بها من الأحكام الشرعية.. رجع إلى أحوال المنافقين؛ فإنَّهم خانوا الرسول ﷺ على ما ينبغي، فأطلعه الله تعالى على ذلك، وأمره أن لا يلتفت إليهم.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جرير عن علي قال: سأل قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنَّا نضرب في الأرض فكيف نصلي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾. ثم انقطع الوحي، فلمَّا كان بعد ذلك بحول.. غزا النبي ﷺ، فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه ظهورهم هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها، فأنزل الله تعالى بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟. . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فنزلت صلاة الخوف.

وأخرج أحمد والحاكم وصححه البيهقي في «الدلائل» عن أبي عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي ﷺ الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ، فأخذوا السلاح، قال: فصففنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً.. الحديث، وروى الترمذي نحوه عن أبي هريرة، وابن جرير نحوه عن جابر بن عبد الله وابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ. . .﴾ الآية، أخرج البخاري عن ابن عباس قال نزلت ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ في عبد الرحمٰن بن عوف، كان جريحاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه الترمذي[2]

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

والحاكم وغيرهما، عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق ـ بشر وبشير ومبشر ـ وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب يقول: قال فلان كذا، وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنَّما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمك ـ الدقيق الأبيض ـ فجعله في مشربة له فيها سلاح ودرع وسيف، فعدي عليه من تحت، فنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي إنَّه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا وذهب بطعامنا وسلاحنا، فتجسسنا في الدار، وسألنا فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، فقال: بنو أبيرق ونحن نسأل في الدار، والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجل منا له صلاح وإسلام، فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق، والله ليخالطنكم هذا السيف، أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فأتيته فقلت: أهل بيت منا أهل جفاء، عمدوا إلى عمي فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، وأمَّا الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﷺ: سأنظر في ذلك، فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسير بن عروة، فكلموه في ذلك، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عَمَد إلى أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا تثبت، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير تثبت وبينة؟ فرجعت فأخبرت عمي فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ بني أبيرق ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ﴾؛ أي: مما قلت لقتادة إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾ فلمَّا نزل القرآن أتي رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة، ولحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَن

يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ...﴾ إلى قوله: ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

وأخرج ابن سعد في «الطبقات» بسنده عن محمود بن لبيد قال: عدا بشير بن الحارث على عُلِيَّة رفاعة بن زيد عم قتادة بن النعمان، فنقبها من ظهرها، وأخذ طعاماً له ودرعين بأداتهما، فأتى قتادة النبي ﷺ فأخبره بذلك، فدعا بشيراً فسأله، فأنكر ورمى بذلك لبيد بن سهل رجلاً من أهل الدار ذا حسب ونسب، فنزل القرآن بتكذيب بشير وبراءة لبيد: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ...﴾ الآيات، فلما نزل القرآن في بشير وعثر عليه.. هرب إلى مكة مرتداً، فنزل على سلافة بنت سعد، فجعل يقع في النبي ﷺ، وفي المسلمين فنزل فيه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ...﴾ الآية، وهجاه حسان بن ثابت حتى رجع، وكان ذلك في شهر ربيع سنة أربع من الهجرة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ﴾ وسافرتم أيها المؤمنون للغزو أو للتجارة أو غيرهما ﴿فِي﴾ بعض نواحي ﴿ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾ ولا حرج ولا إثم في ﴿أَن تَقۡصُرُواْ﴾ وتنقصوا، وتتركوا ركعتين ﴿مِنَ﴾ عدد ركعات ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الرباعية التي تصلونها في الحضر، بأن تصلوا الظهر والعصر والعشاء ركعتين ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ وخشيتم ﴿أَن يَفۡتِنَكُمُ﴾؛ أي: أن يقصدكم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ بفتنة وأذية، من قتل أو جرح أو أخذ في حال إتمامكم الصلاة، وذكر الخوف ليس للشرط والقيد، وإنَّما هو لبيان الواقع، حيث كانت أسفارهم لا تخلو من خوف العدو؛ لكثرة المشركين وقتئذ، ويؤيده حديث يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ وقد أمن؟ فقال: عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» رواه مسلم وأصحاب السنن. قال ابن كثير: وأمَّا قوله[1]: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ فقد يكون هذا خرج

---

(١) ابن كثير.

مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ . . الآية.

وقد تقرر بالسنة المطهرة: أن النبي ﷺ قصر مع الأمن، ففي الصحيحين أنه ﷺ: «سافر بين مكة والمدينة لا يخاف إلا الله عز وجل، فكان يصلي ركعتين» فالقصر[1] مع الخوف ثابت بالكتاب، والقصر مع الأمن ثابت بالسنة، ومفهوم الشرط لا يقوى على معارضة ما تواتر عنه ﷺ من القصر مع الأمن، فحينئذ فالقصر في السفر رخصة، سواء وجد خوف أم لا، ويدل على أن قيد الخوف لا مفهوم له قراءة أبي: ﴿أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا﴾ بسقوط: ﴿إنْ خفتم﴾ والمعنى على هذه القراءة: كراهية أن يفتنكم الذين كفروا. وقرأ[2] الزهري ﴿تقصّروا﴾ مشدداً، وقرأ ابن عباس ﴿أن تقصروا رباعيا﴾ وبه قرأ الضبي عن رجاله، وقرأ أبي وعبد الله: ﴿أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم﴾ بإسقاط إن خفتم، وهو مفعول من أجله من حيث المعنى؛ أي: مخافة أن يفتنكم، كما مر آنفاً.

ويؤخذ من قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أنه رخصة لا واجب، وعليه الشافعي، لأن ﴿لَا جُنَاحَ﴾ يستعمل في موضع التخفيف والرخصة، لا في موضع العزيمة، بخلاف أبي حنيفة فإن القصر واجب عنده.

﴿إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾؛ أي: ظاهري العداوة، فتحرزوا عنهم؛ أي: إن العداوة الحاصلة بينكم وبين الكافرين قديمة، والآن قد أظهرتم خلافهم في الدين، وازدادت عداوتهم، وبسبب شدة العداوة قصدوا إتلافكم إن قدروا، فإنْ طالت صلاتكم. . فربما وجدوا الفرصة في قتلكم، فلأجل هذا رخصت لكم

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

في قصر الصلاة، لئلا يجدوا إلى قتلكم واغتيالكم سبيلاً، وإنَّما قال: ﴿عَدُوًّا﴾ ولم يقل: أعداء؛ لأنه يستوي فيه الواحد والجمع.

فصل في أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل

المسألة الأولى في حكم القصر: قصر الصلاة في حالة السفر جائز بإجماع الأمة، وإنَّما اختلفوا في جواز الإتمام في حال السفر، فذهب أكثر العلماء إلى أن القصر واجب في السفر، وهو قول عمر وعلي وابن عمر وجابر وابن عباس، وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة، وهو قول مالك وأبي حنيفة، ويدل عليه ما روي عن عائشة قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين، ثم أتمها في الحضر، وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى. وفي رواية أخرى قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر، أخرجاه في «الصحيحين».

وذهب قوم إلى جواز الإتمام في السفر، ولكن القصر أفضل، يروى ذلك عن عثمان وسعد بن أبي وقاص، وإليه ذهب الشافعي وأحمد، وهو رواية عن مالك أيضاً، ويدل على ذلك ما روى البغوي بسند الشافعي عن عائشة قالت: كل ذلك قد فعله رسول الله ﷺ، قصر وأتم. وعن عائشة أنَّها اعتمرت مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، حتى إذا قدمت مكة.. قالت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي قصرت وأتممت، وصمت وأفطرت، قال: «أحسنت يا عائشة» وما عاب علي. أخرجه النسائي، وظاهر القرآن يدل على ذلك؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾. ولفظة ﴿لَا جُنَاحَ﴾ إنَّما تستعمل في الرخصة لا فيما يكون حتماً كما مر، وأجيب عن حديث عائشة (فرض الله الصلاة ركعتين) بأن معناه: فرضت ركعتين أولاً، وزيد في صلاة الحضر ركعتان على سبيل التحتم وأقرت صلاة السفر على جواز الاقتصار عليها، وثبت جواز الإتمام بدليل آخر، فوجب المصير إليه، ليمكن الجمع بين دلائل الشرع.

المسألة الثانية: اختلف في صلاة المسافر إذا صلى ركعتين، هل هي مقصورة أم غير مقصورة؟ فذهب قوم إلى أنَّها غير مقصورة؛ وإنَّما فرض صلاة المسافر ركعتان تمام غير قصر، يروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبد الله، وإليه ذهب سعيد بن جبير والسدي وأبو حنيفة، فعلى هذا يكون معنى القصر المذكور في الآية: هو تخفيف ركوعها وسجودها، ولكن يعارض هذا المعنى لفظة ﴿مِنَ﴾ في الآية أعني قوله: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لأن لفظة ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، وذلك يوجب جواز الاقتصار على بعض ركعات الصلاة، وذهب قوم إلى أنَّها مقصورة وليست بأصل، وهو قول مجاهد وطاوس، وإليه ذهب الشافعي وأحمد.

المسألة الثالثة: ذهب الشافعي ومالك وأحمد والجمهور إلى أنَّه يجوز القصر في كل سفر مباح، وشرط بعضهم كونه سفر حج أو عمرة أو جهاد، أو سفر طاعة كطلب العلم، ولا يجوز القصر في سفر المعصية، كسفر ناشزة وآبق وقاطع طريق، وقال أبو حنيفة والثوري: يجوز ذلك.

المسألة الرابعة :اختلف العلماء في مسافة القصر، فقال داود الظاهري وأهل الظاهر: يجوز القصر في قصير السفر وطويله، ويروى ذلك عن أنس أيضاً، وقال عمرو بن دينار: قال لي جابر بن زيد: أقصر بعرفة. وأما عامة أهل العلم فإنَّهم لا يجوِّزون القصر في السفر القصير، واختلفوا في حد الطويل الذي يجوز فيه القصر، فقال الأوزاعي: مسيرة يوم، وكان ابن عمر وابن عباس يقصران ويفطران في رمضان في مسيرة أربعة برد، وهي ستة عشر فرسخاً، وقدر هذه المسافة المرحوم أحمد الحسيني بك في كتابه «دليل المسافر» بنحو (٨٩ك م)، وإليه ذهب مالك وأحمد وإسحاق، وقول الحسن والزهري قريب من ذلك، فإنهما قالا: مسيرة يومين، وإليه ذهب الشافعي فقال: مسيرة ليلتين قاصدتين ستة عشر فرسخاً، كل فرسخ ثلاثة أميال، فتكون ثمانية وأربعين ميلاً بالهاشمي، والميل ستة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرين إصبعاً معترضة معتدلة، والأصبع ست شعيرات معترضات معتدلات، وقال الثوري وأبو حنيفة وأهل الكوفة: لا قصر في

أقل من ثلاثة أيام.

ثم شرع الله سبحانه وتعالى في بيان كيفية صلاة الخوف فقال: ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في جماعتك من المؤمنين في حالة خوفهم من الأعداء ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: فأردت أن تقيم الصلاة إماماً لهم، فاجعلهم طائفتين ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾؛ أي: فلتقف فرقة واحدة من الفرقتين منهم وراءك ليصلوا ﴿مَّعَكَ﴾ الركعة الأولى من الثنائية، ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو ليحرسوا المصلين معك، خوفاً من هجوم العدو على المصلين، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق، ﴿فلتقم﴾ بكسر اللام، ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾؛ أي: وليحمل الذين يقومون معك في الصلاة أسلحتهم التي لا تشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر، ولا يدعوها وقت الصلاة، فإن ذلك أقرب إلى الاحتياط، وأمنع للعدو من الإقدام عليهم ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾؛ أي: فإذا سجد الذين يقومون معك في الصلاة ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾؛ أي: فليكن الذي يحرسونكم ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾؛ أي: من خلفكم؛ أي: من خلف المصلين معك، إذ أحوج ما يكون المصلي للحراسة حين السجود؛ لأنَّه لا يرى من يهم به، ويجب حينئذ أن يكون الحارسون مستعدين للقيام مقام المصلين، ليصلوا مع النبي ﷺ الركعة الثانية، كما صلت الفرقة الأولى الركعة الأولى معه، أو المعنى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾؛ أي: فإذا سجد المصلون معك وأتموا صلاتهم بعد نية المفارقة.. ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾؛ أي: فلينصرفوا إلى مصاف أصحابهم بإزاء العدو للحراسة من ورائكم، ثم يبقى الإمام قائماً في الركعة الثانية ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: ولتجيء الطائفة الأخرى الذين ﴿لَمْ يُصَلُّواْ﴾ معك في الركعة الأولى لاشتغالهم بالحراسة. وقرأ أبو حيوة: ﴿وليأت﴾ بالياء التحتانية على تذكير الطائفة، واختلف عن أبي عمرو في إدغام التاء في الطاء. ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ في الركعة الثانية كما صلت الطائفة الأولى معك الركعة الأولى، ثم يجلس الإمام منتظراً لهم في التشهد إلى أن يصلوا ركعة ثانية، ثم يسلم الإمام بهم ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ﴾؛ أي: ولتأخذ هذه الطائفة الثانية حذرهم واحتياطهم للعدو، وانتباههم وتيقظهم له ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ معهم في الصلاة، كما فعل الذين من قبلهم، وإنَّما أمر بالحذر هنا؛

لأن العدو لم يتنبه للمسلمين في أول الصلاة، بل يظنون كونهم قائمين لأجل المحاربة والنزال، فإذا قاموا للركعة الثانية.. ظهر للكفار كونهم في الصلاة، فحينئذ ينتهزون الفرصة في الهجوم عليهم، فخص الله تعالى هذه الطائفة بزيادة الحذر من الكفار.

والمعنى: وليكونوا حذرين من عدوهم، متسلحين لقتالهم، وقد بين الله سبحانه وتعالى علة الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى في الصلاة بقوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: تمنى أعداؤكم الذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وبما أنزل عليكم ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ وتنشغلون وتعرضون ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ التي تقاتلونهم بها ﴿وَ﴾ عن ﴿أمتعتكم﴾ التي بها بلاغكم وحياتكم في سفركم، بأن تشغلكم صلاتكم عنها. وقرىء: ﴿وأمتعاتكم﴾ وهو شاذ، إذ هو جمع الجمع ﴿فَيَمِيلُونَ﴾ حينئذ ﴿عَلَيْكُم مَّيْلَةً﴾؛ أي: يهجمون ويحملون عليكم حملة واحدة وأنتم مشغولون بالصلاة واضعون للسلاح تاركون حماية المتاع والزاد فيصيبون منكم غرة، فيقتلون من استطاعوا قتله، وينتهبون ما استطاعوا نهبه، فلا تغفلوا عنهم.

والمعنى: تمنوا أن ينالوا منكم غرة في صلاتكم، فيشدون عليكم شدة واحدة، ويأخذونكم بالدفعة، وهذا بيان ما لأجله أمروا بأخذ السلاح، ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: ولا حرج ولا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾؛ أي: إذا أصابكم أذى من مطر تمطرونه، فيشق عليكم حمل السلاح مع ثقله في ثيابكم، وربَّما أفسد الماء السلاح إذ يجعله يصدأ ﴿أَوْ﴾ إن ﴿كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ بالجراح أو بغير الجراح من العلل في ﴿أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ على الأرض، وتتركوا حملها رخصة لكم في وضعها، إذا ثقل عليكم حملها بسبب مطر أو مرض؛ لأن السلاح يثقل على المريض، ويفسد في المطر، **والمعنى**: لا وزر عليكم في وضع الأسلحة، وترك حملها إنْ تعذر عليكم حملها، إما لثقلها بسبب مطر أو مرض، أو لإيذاء من في الجنب ﴿وَ﴾ لكن ﴿خذوا حذركم﴾؛ أي: احترازكم من عدوكم وراقبوه ولا تغفلوا عنه؛ أي: ولكن يجب عليكم في جميع الأحوال أن تأخذوا حذركم، ولا تغفلوا عن أنفسكم، ولا عن أسلحتكم

وأمتعتكم؛ فإن عدوكم لا يغفل عنكم، ولا يرحمكم، والضرورات تقدر بقدرها.

وهذه الآية تدل على وجوب الحذر عن جميع المضار المظنونة، وبهذا الطريق كان الإقدام على العلاج بالدواء، والاحتراز عن الوباء، وعن الجلوس تحت الجدار المائل واجباً والله أعلم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعَدَّ﴾ وهيأ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالى وبرسوله ﷺ ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾؛ أي: ذا إهانة وإذلال لهم في الدنيا، بأن يخذلهم وينصركم عليهم، فاهتموا بأموركم ولا تهملوا في مباشرة الأسباب، كي يحل بهم عذابه تعالى بأيديكم بالقتل والأسر والنهب، فهذا العذاب المهين هو عذاب غلب المسلمين، وانتصارهم عليهم، إذا قاموا بما أمرهم الله تعالى به، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

فصل في كيفية صلاة الخوف

واعلم: أنه دلت[1] هذه الكيفية التي ذكرت في هذه الآية على أن طائفة صلت مع الرسول ﷺ بعض صلاة، ولا دلالة فيها على مقدار ما صلت معه، ولا كيفية إتمامهم، وإنَّما جاء ذلك في السنة، ونحن نذكر تلك الكيفيات على سبيل الاختصار؛ لأنَّها مبينة ما أجمل القرآن:

الكيفية الأولى: صلت طائفة معه وطائفة وجاه العدو، وثبتت قائمة حتى تتم صلاتهم، ويذهبوا وجاه العدو، وجاءت هذه التي كانت وجاه العدو أولاً، فصلى بهم الركعة التي بقيت، ثم ثبت جالساً حتى أتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم، وهذه كانت بذات الرقاع.

الكيفية الثانية: كالأولى إلا أنَّه حين صلى بالطائفة الأخيرة ركعة سلم، ثم قضت بعد سلامه، وهذه مروية في ذات الرقاع أيضاً.

---

(١) البحر المحيط.

الكيفية الثالثة: صف العسكر خلفه صفين، ثم كبر وكبروا جميعاً، وركعوا معه، ورفعوا من الركوع جميعاً، ثم سجد هو بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا.. سجد الأخرون في مكانهم، ثم تقدموا إلى مصافّ المتقدمين، وتأخر المتقدمون إلى مصافّ المتأخرين، ثم ركعوا معه جميعاً، ثم سجد فسجد معه الصف الذي يليه، فلما صلى.. سجد الآخرون، ثم سلم بهم جميعاً، وهذه صلاته بعسفان، والعدو في قبلته.

الكيفية الرابعة: مثل هذه إلا أنَّه ينكص الصف المتقدم القهقرى حين يرفعون رؤوسهم من السجود، ويتقدم الآخر فيسجدون في مصاف الأولين.

الكيفية الخامسة: صلى بإحدى الطائفتين ركعة والأخرى مواجهة العدو، ثم انصرفوا وقاموا في مقام أصحابهم مقبلين على العدو، وجاء أولئك فصلى بهم ركعة، ثم سلم، ثم قضى بهؤلاء ركعة، وهؤلاء ركعة في حين واحد.

الكيفية السادسة: يصلي بطائفة ركعة، ثم ينصرفون تجاه العدو، وتأتي الأخرى، فيصلي بهم ركعة، ثم يسلم، وتقوم التي معه تقضي، فإذا فرغوا.. ساروا تجاه العدو، وقضت الأخرى.

الكيفية السابعة: صلى بكل طائفة ركعة، ولم يقض أحد من الطائفتين شيئاً زائداً على ركعة واحدة.

الكيفية الثامنة: صلى بكل طائفة ركعتين ركعتين، فكانت له أربع ولكل رجل ركعتان.

الكيفية التاسعة: يصلي بإحدى الطائفتين ركعة، إن كانت الصلاة ركعتين، والأخرى بإزاء العدو، ثم تقف هذه بازاء العدو وتأتي الأولى، فتؤدي الركعة بغير قراءة، وتتم صلاتها، ثم تحرس، وتأتي الأخرى، فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها، وكذا في المغرب، إلا أنَّه يصلي بالأولى ركعتين، وبالثانية ركعة.

الكيفية العاشرة: قامت معه طائفة، وطائفة أخرى مقابل العدو، وظهورهم إلى القبلة فكبرت الطائفتان معه، ثم ركع وركع معه اللذين معه، وسجدوا كذلك،

ثم قام، فسارت التي معه إلى إزاء العدو، وأقبلت التي كانت بإزاء العدو، فركعوا وسجدوا وهو قائم كما هو، ثم قاموا فركع ركعة أخرى، وركعوا معه وسجدوا معه، ثم أقبلت التي بإزاء العدو، فركعوا وسجدوا وهو قاعد، ثم سلم وسلم الطائفتان معه جميعاً، وهذه كانت في غزوة نجد.

الكيفية الحادية عشرة: صلى بطائفة ركعتين ثم سلم، ثم جاءت الطائفة الأخرى، فصلى بهم ركعتين وسلم، وهذه كانت ببطن نخل. واختلاف هذه الكيفيات يرد على مجاهد قوله: إنه ما صلى الرسول ﷺ إلا مرتين، مرة بذات الرقاع من أرض بني سليم، ومرة بعسفان والمشركون بضجنان بينهم وبين القبلة، وذكر ابن عباس: أنَّه كان في غزوة ذي قرد صلاة الخوف، وقال أبو بكر بن العربي: روي عنه ﷺ أنَّه صلى صلاة الخوف أربعاً وعشرين مرة؛ أي: كيفية. وقال ابن حنبل: لانعلم أنه روي في صلاة الخوف إلا حديث صحيح، فعلى أي حديث صليت أجزأ، وكذا قال الطبري. ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: فإذا أديتم صلاة الخوف على هذه الكيفية وفرغتم منها ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: فداوموا على ذكر الله تعالى في أنفسكم، بتذكر وعده بنصر من ينصرونه في الدنيا، ونيل الثواب في الآخرة، وبألسنتكم بالحمد والتكبير والدعاء حالة كونكم ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾؛ أي: قائمين وقاعدين ﴿و﴾ مضطجعين ﴿على جنوبكم﴾؛ أي: داوموا على ذكره تعالى في كل حال تكونون عليها، من قيام في المسايفة والمقارعة، وقعود للرمي أو المصارعة، واضطجاع من الجراح أو المخادعة، فذكر الله تعالى مما يقوي القلوب، ويعلي الهمم، ويجعل متاعب الدنيا حقيرة، ومشاقها سهلة، والثبات والصبر يعقبهما الفلاح والنصر، كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

والخلاصة: أننا إذا أمرنا بالذكر على كل حال نكون عليها في الحرب، كما يدل على ذلك السياق.. فأجدر بأن نؤمر به في حال السلم؛ لأن المؤمنين في جهاد مستمر وحروب دائمة، فهم تارة يجاهدون الأعداء، وأخرى يجاهدون

الأهواء، ومن ثم أمرهم الله تعالى بالذكر في كثير من الآي، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ لما في ذلك من تربية النفس وصفاء الروح، وتذكر جلال الله وعظمته، وأن كل شيء هين في سبيله، وابتغاء مرضاته.

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها جزاء معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر فإنَّ الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾؛ أي: بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. اهـ.

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾؛ أي: فإذا سكنت قلوبكم من الخوف، وأمنتم بعد أن تضع الحرب أوزارها ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: فأدوا الصلاة المفروضة بتعديل أركانها، ومراعاة شرائطها، ولا تقصروا من هيآتها المعهودة، كما أذن لكم في حال الحرب.

وقيل معنى الآية[1]: فإذا أردتم أداء الصلاة.. فصلوا قياماً حال اشتغالكم بالمسايفة والمقارعة، وقعوداً جاثين على الركب حال اشتغالكم بالمراماة، وعلى جنوبكم حال ما تكثر الجراحات فيكم فتسقطون على الأرض، فإذا زال الخوف عنكم بانقضاء الحرب.. فاقضوا ما صليتم في تلك الأحوال، وهذا ظاهر على مذهب الشافعي من إيجاب الصلاة على المحارب في حال المسايفة إذا حضر وقتها، وإذا اطمأنوا فعليهم القضاء.

وقال ابن عباس: أي فإذا فرغتم من صلاة الخوف.. فصلوا لله قياماً للصحيح، وقعوداً للمريض، وعلى الجُنوب للجريح والمريض، فإذا ذهب منكم الخوف، ورجعتم إلى منازلكم.. فأتموا الصلاة أربعاً.

ثم علل وجوب المحافظة على الصلاة حتى في وقت الخوف، ولو مع

---

(١) المراح.

القصر منها، فقال ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ﴾ في حكم الله تعالى ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾؛ أي: فرضاً مؤكداً عليهم في أوقات محدودة، لا بد من أدائها فيها بقدر الإمكان، فأداؤها في أوقاتها مع القصر بشرطه خير من تأخيرها لتؤدى تامة كاملة.

والحكمة في توقيتها في تلك الأوقات المعلومة: أن الأشياء إن لم يكن لها وقت معين لا يحافظ عليها الجم الغفير من الناس، إلى ما في هذا النوع من الذكر المهذب للنفس من التربية العملية للأمة الإسلامية بأن تلتزم أداء أعمالها في أوقات معينة، مع عدم الهوادة فيها، ومن قصر فيها في تلك الأوقات الخمسة في اليوم والليلة.. فهو جدير بأن ينسى ربه ويغرق في بحار الغفلة، ومن قوي إيمانه وزكت نفسه لا يكتفي بهذا القدر القليل من ذكر الله تعالى ومناجاته، بل يزيد عليه من النوافل ما شاء الله أن يزيد.

والخلاصة: أن الصلوات الخمس إنما كانت موقوتة؛ لتكون مذكرة للمؤمن بربه في الأوقات المختلفة، لئلا تحمله الغفلة على الشر، أو التقصير في الخير، ولمن يريد الكمال في النوافل والأذكار أن يختار الأوقات التي يرى أنها أوفق بحاله. ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾؛ أي: ولا تضعفوا أيها المؤمنون، ﴿فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾؛ أي: في طلب القوم الكفار الذين ناصبوكم وظاهروكم العداوة بل عليكم أن تستعدوا لقتالهم بعد الفراغ من الصلاة، مع أخذ الحذر وحمل السلاح عند أدائها، وهذا في معنى الأمر بالهجوم عليهم؛ أي: لا تعجزوا ولا تتوانوا في طلب الكفار بالقتال، نزلت[1] هذه الآية في شأن بدر الصغرى، وذلك لما بعث رسول الله ﷺ طائفة في طلب أبي سفيان وأصحابه، فشكوا الجراحات حين رجعوا من أحد.

وسر هذا: أن الذي يوجه همته إلى المهاجمة تشتد عزيمته، وتعلو همته، أما الذي يلتزم الدفاع فحسب.. فإنه يكون خاثر العزيمة ضعيف القوة، ﴿إِن تَكُونُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿تَأۡلَمُونَ﴾؛ أي: إن كنتم تتوجعون بالجراح ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾؛

---

(١) المراح.

أي: فإن الأعداء ﴿يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾؛ أي: يتوجعون بالجراح كما تتوجعون أنتم، فحصول الألم قدر مشترك بينكم وبينهم، فلم يكن خوف الألم مانعاً لهم من قتالكم، فكيف يكون مانعاً لكم من قتالهم؛ أي: إن ما ينالكم من الآلام ينالهم منه مثله، فهم بشر مثلكم، وهم مع هذا يصبرون، فمالكم لا تصبرون وأنتم أولى منهم بالصبر، وبين سبب هذا بقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ أي: وأنتم ترجون من الله ثوابه، وتخافون عذابه؛ لأنكم تعبدون اللّٰه تعالى والمشركون يعبدون الأصنام، فلا يصح منهم أن يرجوا منها ثواباً، أو يخافوا منها عقاباً، فيجب أن تكونوا أرغب منهم في الحرب، وأصبر عليها، أو المعنى[1]: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ من ظهور دينكم الحق على سائر الأديان الباطلة، ومن الثواب الجزيل، والنعم المقيم في الآخرة، كما أنه تعالى قد وعدكم إحدى الحسنيين، النصر أو الجنة بالشهادة إذا نصرتم دينه، ودافعتم عن حماه، وهذا الوعد من الرحمٰن مع خلوص الإيمان يدعوان إلى الرجاء والأمل، ويضاعفان العزيمة، ويحثان صاحبهما على العمل بصبر وثبات، أما اليائس من هذا الوعد الكريم فإنه يكون ضعيف العزيمة ميت الهمة، يغلب عليه الجزع والفتور، فإن تساويتم في الآلام فقد فضلتموهم في الثقة بحسن العاقبة، فأنتم أجدر منهم بالإقدام والجرأة، فإن أنفسكم قوية، لأنها ترى الموت مغنماً، وهم يرونه مغرماً، وقرأ الحسن[2]: ﴿تهنوا﴾ بفتح الهاء، وهي لغة، فتحت الهاء كما فتحت دال يدع، لأجل حرف الحلق. وقرأ عبيد بن عمير: ﴿ولا تهانوا﴾ من الإهانة، وقرأ الأعرج: ﴿أن تكونوا تألمون﴾ بفتح الهمزة على المفعول من أجله، وقرأ ابن المسيفع ﴿تِئْلمون﴾ بكسر التاء، وقرأ ابن وثاب ومنصور بن المعتمر: ﴿تسئلمون﴾ بكسر تاء المضارعة في الموضعين ويائها وهي لغة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بنياتكم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فلا يكلفكم شيئاً إلا بما هو عالم بأنه سبب لصلاحكم في دينكم ودنياكم، وقد ثبت في واسع علمه ومضت به سننه أن العاقبة للمتقين، والنصرة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

لهم على الكافرين، ما داموا عاملين بهديه سائرين على الطريق التي وضعها لنصرة الحق على الباطل، من الأخذ بالأسباب وكثرة العَدَد والعُدَد، فإذا هم فعلوا ذلك.. كانوا أشد منهم قتالاً، وأحسن منهم نظاماً، وبذا يفوزون بالمطلوب، وبحسن العاقبة، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: هذا القرآن حالة كونه متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بتحقيق الحق وبيانه، ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: لأجل أن تحكم بين الناس ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: بما أعلمك الله تعالى به في هذا الكتاب من الأحكام وأوحى به إليك، ﴿وَلَا تَكُن﴾ يا محمد ﴿لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾؛ أي: لا تكن مدافعاً ومخاصماً عن الخائنين، تجادل وتدافع عنهم، والمراد بهم طعمة بن أبيرق وجماعته، بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، كما أخرجه الترمذي من حديث قتادة بن النعمان؛ أي: لا تكن مخاصماً لمن كان بريئاً من الذنب والسرقة، وهو اليهودي زيد بن سمين، لأجل الدفع عن الخائنين، وهم طعمة وقومه، اعتماداً على شهادتهم بالزور بأن اليهودي هو السارق لا هم.

وخلاصة ذلك: أن عليك أن لا تتهاون في تحري الحق اغتراراً بلحن الخائنين، وقوة جدلهم في الخصومة، لئلا تكون خصيماً لهم، وتقع في ورطة الدفاع عنهم، ويؤيد هذا حديث أم سلمة: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً.. فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار».

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، مما هممت به من القضاء على اليهودي بقطع يده، تعويلاً على شهادتهم الكاذبة، أو المعنى: واستغفر الله مما يعرض لك من شؤون البشر وأحوالهم، بالميل إلى من تراه ألحن بحجته، أو الركون إلى مسلم لأجل إسلامه تحسيناً للظن به، فهذا ونحوه صورته صورة من أتى ذنباً يوجب الاستغفار، وإن لم يكن متعمداً للزيغ عن العدل والتحيز للخصم، وفي هذا من زيادة الحرص على الحق والتشديد فيه ما لا يخفى، حتى كأن مجرد الالتفات إلى قول المخادع يجب الاحتراس منه، كما أن فيه إيماء إلى أن

القاضي لا يساعد من يظن أنه صاحب الحق، بل عليه أن يساوي بين المتخاصمين في كل شيء، ثم رغبهم في المغفرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن استغفره واسترحمه.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾؛ أي: لا تخاصم يا محمد ولا تدافع ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: يخونون أنفسهم بالمعاصي. وسمى خيانة غيرهم خيانة لأنفسهم؛ لأن ضررها عائد إليهم، وهم طعمة ومن عاونه من قومه ممن علم كونه سارقاً. ووجه هذا الخطاب إلى النبي ﷺ، وهو أعدل الناس وأكملهم، مبالغة في التحذير من هذه الخلة المعهودة في كثير من الحكام.

وخلاصة المعنى: لا تدافع عن هؤلاء الخونة، ولا تساعدهم عند التخاصم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى يبغض و﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾؛ أي: كثير الخيانة ﴿أَثِيمًا﴾؛ أي: كثير الإثم فإن طعمة خان في الدرع، وأثم في نسبة اليهودي إلى تلك السرقة، وطلب من النبي ﷺ أن يدفع السرقة عنه، ويلحقها باليهودي، وهذا يبطل رسالة الرسول، ومن حاول إبطالها وإظهار كذبه.. فهو كافر، والمراد بعدم الحب البغض والسخط؛ أي: إن الله تعالى يبغض من اعتاد الخيانة، وألفت نفسه اجتراح السيئات، وضربت عليها، ولم يعد للعقاب الإلهي الرهبة والخشية، التي ينبغي أن يفكر مثله فيها، وإنما يحب الله سبحانه وتعالى أهل الأمانة والاستقامة، ثم بين أحوال الخائنين ونعى عليهم أفعالهم فقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: يستترون من الناس حياء وخوفاً من ضررهم، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يستترون من الله، أو لا يستحيون منه تعالى، ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه وتعالى مع أولئك الخائنين بعلمه ورؤيته وقدرته، ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾؛ أي: إذ يدبرون في الليل بينهم، ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ﴾ الله سبحانه، ولا يحبه ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: من الرأي الذي أداروه بينهم، وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي ﷺ، فإنه يسمع قول طعمة، ويقبل يمينه على أنه لم يسرق؛ لأنه مسلم، ولا يقبل قول اليهودي؛ لأنه كافر، فلم يرض الله ذلك منهم، فأطلع نبيه ﷺ على سرهم، وما هموا به وسمى تدبيرهم تبييتاً؛ لأن الغالب أن تكون إدارة الرأي بالليل، وسماه قولاً؛ لأنه لا يحصل إلا بعد المقاولة بينهم.

وحاصل المعنى: أن شأن هؤلاء الخوانين أنهم يستترون من الناس عند اجتراحهم الآثام، إما حياء، وإما خوفاً من ضررهم، ولا يستترون من الله، ولا يستحيون منه بتركها لضعف إيمانهم، إذ الإيمان يمنع من الإصرار وتكرار الذنب، ولا تقع الخيانة من صاحبه إلا عن غفلة، أو جهالة عارضة لا تدوم، فمن يعلم أن الله يراه في حنادس الظلمات.. لا بد أن يترك الذنب والخيانة، حياء منه تعالى، وخوفاً من عقابه، وهو تعالى شاهدهم حين يدبرون ليلاً ما لا يرضى من القول، تبرئة لأنفسهم، ورمي غيرهم بجريمتهم. ثم توعدهم على عظيم جرمهم فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾؛ أي: حافظاً لأعمالهم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات، ولا في الأرض، فلا سبيل إلى نجاتهم من عقابه، ثم حذر المؤمنين من مساعدة هؤلاء الخوانين والحدب عليهم فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ها حرف تنبيه، والخطاب فيه لقوم من المؤمنين، كانوا يذبون عن طعمة وقومه؛ أي: انتبهوا يا هؤلاء القوم الذي يذبون ويدافعون عن طعمة وقومه، أنتم ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ وخاصمتم ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن القوم الخائنين طعمة وقومه، وحاولتم تبرئتهم، وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب: ﴿عنه﴾ بالإفراد؛ أي: عن طعمة ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عند تعذيبهم بذنوبهم يوم الخصم، والحاكم هو الله تعالى المحيط بأعمالهم، وأحوالهم وأحوال الخلق كافة، ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾؛ أي: مجادلاً ومخاصماً، والوكيل في الأصل القائم بتدبير الأمور، والمعنى: من ذا الذي يقوم بأمرهم إذا أخذهم الله بعذابه، والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ؛ أي: فلا يمكن أن يجادل هناك أحد عنهم، ولا أن يكون وكيلاً بالخصومة لهم، فيدافع عنهم العذاب، فعلى المؤمنين أن يراقبوا الله تعالى في مثل ذلك، ولا يظنوا أن من أمكنه أن ينال الفوز والحكم له وأخذه من قضاة الدنيا بغير حق، يمكنه أن يظفر به في الآخرة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

وفي الآية[١]: إيماء إلى أن حكم الحاكم في الدنيا لا يجيز للمحكوم له أن

---

(١) المراغي.

يأخذ به، إذا علم أنه حكم له بغير حقه، كما أن فيها توبيخاً وتقريعاً لأولئك الذين أرادوا مساعدة أبيرق على اليهودي.

ثم رغّب في التوبة من الذنوب وحثَّ عليها فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾؛ أي: قبيحاً يسوء ويحزن به غيره، كما فعل طعمة من سرقة الدرع لقتادة، ومن رمي اليهودي بالسرقة، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بفعل معصية تختص به، كالحلف الكاذب ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ من ذلك السوء والظلم بالتوبة الصادقة، ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾؛ أي: غفاراً لذنوبه ﴿رَّحِيمًا﴾؛ أي: متفضلاً عليه بالعفو والمغفرة حيث قبل توبته، وهذه[1] الآية دلت على أن التوبة مقبولة من جميع الذنوب، سواء كانت كفراً أو قتلاً عمداً أو غصباً للأموال؛ لأن السوء وظلم النفس يعم الكل، والمراد بوجدان الله غفوراً رحيماً هو: أن التائب المستغفر يجد أثر المغفرة في نفسه، بكراهة الذنب وذهاب داعيته، ويجد أثر الرحمة بالرغبة في الأعمال الصالحة، التي تطهر النفس، وتزيل الدرن عنها.

وفي ذلك ترغيب وحث لطعمة وقومه في التوبة والاستغفار، كما أن فيها بياناً للمخرج من الذنب بعد وقوعه، وفيها تحذير من أعداء الحق والعدل الذين يحاولون هدمهما، وهما أسس الشرائع، ثم حذر من فعل الذنوب والآثام، وذكر عظيم ضررها فقال: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾؛ أي: يعمل ذنباً ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يتعدى ضرره إلى غيره، فليتحرز عن إقبال نفسه للعقاب عاجلاً وآجلاً، والكسب عبارة عما يفيد جر منفعة أو دفع مضرة، ولذلك لم يجز وصف الله تعالى بذلك، وهذا إجمال بعد تفصيل، والمعنى[2]: ومن يعمل الإثم وير أنه قد كسبه وانتفع به.. فإنما كسبه وبال على نفسه، وضرر لا نفع له فيه، كما يخطر على بال من يجهل عواقب الآثام في الدنيا والآخرة، من فضيحة للآثم ومهانة له بين الناس وعند الحاكم العادل، كما وقع لأصحاب هذه القصة الذين نزلت في شأنهم هذه الآيات، ومن خزي في الآخرة، يوم لا ينفع مال ولا بنون

---

(١) كرخي.
(٢) المراغي.

إلا من أتى الله بقلب سليم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بما في قلب عبده عند إقدامه على التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ تقتضي حكمته أن يتجاوز عن التائب، وأن لا يحمل نفساً وازرة وزر نفس أخرى، أو المعنى: إنه تعالى بعلمه الواسع حدد للناس شرائع يضرهم تجاوزها، وبحكمته جعل لها عقاباً يضر المتجاوز لها، فهو إذاً يضر نفسه، ولا يضر اللّه شيئاً.

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً﴾؛ أي: ومن يكسب ذنباً خطأً بلا تعمد أو صغيرة أو قاصرة على الفاعل، أو ما لا ينبغي فعله بالعمد أو بالخطأ، أو ذنباً بينه وبين الله تعالى، يعني يمينه الكاذبة. وقرأ معاذ بن جبل: ﴿ومن يكسب﴾ بكسر الكاف وتشديد السين، وأصله يكتسب. وقرأ الزهري ﴿خطية﴾ بالتشديد، ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾؛ أي: كبيرة، أو ما يتعدى إلى الغير، كالظلم والقتل، أو ما يحصل بالعمد، أو ذنباً بينه وبين الناس، يعني سرقته ورميه اليهودي، ﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ﴾؛ أي: يقذف بذلك الذنب شخصاً ﴿بَرِيٓـٔٗا﴾ منه كما فعل طعمة حين رمى اليهودي بالسرقة ولم يسرق. فإن قلت[1]: الخطيئة والإثم شيئان، فكيف وحد الضمير في قوله: ﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ﴾؟.

قلت: معناه ثم يرم بأحد هذين المذكورين بريئاً، وقيل: معناه ثم يرم بهما، فاكتفى بأحدهما عن الأخر، وقيل: إنه يعود الضمير إلى الإثم وحده؛ لأنه أقرب مذكور، وقيل: إن الضمير يعود إلى الكسب، ومعناه: ثم يرم بما كسب بريئاً؛ أي: ومن يكسب خطيئة أو إثماً، ثم يبرىء نفسه منه، وينسبه إلى شخص بريء منه، ويزعم أنه هو الذي كسبه.. ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾؛ أي: فقد كلف نفسه بحمل وزر البهتان والكذب العظيم، وحمل وزر الذنب المبين الظاهر بافترائه على البريء، واتهامه إياه؛ أي: فقد[2] أوجب على نفسه عقوبة بهتان عظيم، وعقوبة ذنب بين، فالبهتان أن ترمي أخاك بأمر منكر، وهو بريء منه،

---

(١) الخازن.

(٢) المراح.

فصاحب البهتان مذموم في الدنيا أشد الذم، ومعاقب في الآخرة أشد العقاب، فقوله: ﴿بُهْتَٰنًا﴾ إشارة إلى الذم العظيم في الدنيا، وقوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ إشارة إلى العقاب الشديد في الآخرة، ولما[1] كانت الذنوب لازمة لفاعلها.. كانت كالثقل الذي يحمل، فعبر عنه باحتمل، ومثله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

وقد فشا هذا بين المسلمين في هذا الزمان، ولم يكن لهذا من سبب إلا ترك هداية الدين، وقلة الوازع النفسي والغفلة عن الأوامر والنواهي التي جاءت به الشريعة.

وبعد أن ذكر المختانين أنفسهم، ومحاولتهم زحزحة الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن الحق.. بيَّن فضله ونعمته عليه، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وإحسانه ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد بالنبوة، والتأييد بالعصمة ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لك ببيان حقيقة الواقع وما هم عليه بالوحي، ﴿لَهَمَّت﴾ وقصدت ﴿طَّآئِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من الخائنين قوم طعمة ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾؛ أي: أن يخطئوك عن الحكم العادل المنطبق على حقيقة القضية في نفسها، ويوقعوك في الحكم الباطل، وذلك لأن قوم طعمة قد عرفوا أنه سارق، ثم سألوا النبي ﷺ أن يجادل عنه ويبرئه عن السرقة، وينسب تلك السرقة إلى اليهودي، ولكنه قبل أن يطمعوا في ذلك ويهموا به، جاءك الوحي ببيان الحق، وإقامة أركان العدل والمساواة فيه بين جميع الخلق ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: ما يضلون أحداً إلا أنفسهم بسبب تعاونهم على الإثم والعدوان، وشهادتهم بالزور والبهتان؛ لأن وبال ذلك عائد عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ﴾ يا محمد ﴿مِن شَىْءٍ﴾؛ لأنه سبحانه وتعالى هو عاصمك من الناس، فإنهم وإن سعوا في إلقائك في الباطل.. فأنت ما وقعت فيه؛ لأنك عملت بالظاهر، ولا ضرر عليك في الحكم به قبل نزول الوحي، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿و﴾ أوحى إليك

(١) الشوكاني.

﴿الحكمة﴾؛ أي: السنة؛ أي: فكيف يضلونك وقد أنزل الله تعالى إليك الكتاب والحكمة، وقيل: الحكمة فقه مقاصد الدين وأسراره، ووجه موافقتها للفطرة، وانطباقها على سنن الاجتماع البشري ومصالح الناس في كل زمان ومكان ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من أمور الدين، وأسرار الكتاب والحكمة، وأخبار الأولين، وحيل المنافقين ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ أرسلك للناس كافة، وجعلك خاتم النبيين، واختصك بنعم كثيرة، ومزايا لا تدخل تحت حصر، فيجب أن تكون أعظم الناس شكراً له، كما يجب على أمتك مثل ذلك؛ ليكونوا خير أمة أخرجت للناس قدوة لغيرهم في جميع الخيرات. وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف المناقب والفضائل، مع أن الله تعالى ما أعطى الخلق من العلم إلا القليل.

الإعراب

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ضَرَبْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، على كونه فعل شرط لها، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿فَلَيْسَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، لكون الجواب جملة جامدية، ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿ليس﴾. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسم ﴿ليس﴾ مؤخر، وجملة ﴿ليس﴾ من اسمها وخبرها جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿أَن تَقْصُرُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿مِنَ﴾ زائدة على مذهب الأخفش. ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾: مفعول به، و﴿من﴾: تبعيضية على مذهب الجمهور من عدم زيادتها في الإثبات، متعلقة بـ﴿تَقْصُرُوا۟﴾، وصفة لمحذوف عند سيبويه؛ أي شيئاً من الصلاة، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: فليس عليكم جناح في قصر الصلاة.

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾: حرف شرط وفعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إِنْ﴾ معلوم مما قبلها، تقديره: فليس عليكم جناح في قصر الصلاة، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية قيد لا مفهوم لها، ومستأنفة لا محل لها. ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعل، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إن خفتم فتنة الذين كفروا إياكم، ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ﴾ حرف نصب واسمها، ﴿كَانُواْ﴾ خبرها. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بكان أو حال من ﴿عَدُوًّا﴾ وهو خبر كان، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة ﴿عَدُوًّا﴾، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِمْ﴾: خبره، وجملة كان في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، ﴿فَأَقَمْتَ﴾: عاطف وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة كان، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق بـ﴿أقمت﴾، ﴿الصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به، ﴿فَلْتَقُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿لتقم طائفة﴾: جازم وفعل وفاعل، ﴿مِّنْهُم﴾: جار ومجرور صفة ﴿طَآئِفَةٌ﴾، ﴿مَّعَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه حال من ﴿طَآئِفَةٌ﴾ لوصفه بالجار والمجرور، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ﴾: جازم وفعل وفاعل، ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلْتَقُمْ﴾ على كونها جواب ﴿إذا﴾، ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿سَجَدُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿يكونوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر كان، وجملة كان جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة

﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ﴾: جازم وفعل وفاعل، ﴿أُخْرَىٰ﴾: صفة لـ﴿طائِفَةٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾، ﴿لَمْ يُصَلُّواْ﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة صفة ثانية لـ﴿طَآئِفَةٌ﴾ أو حال منها؛ لأنها تخصصت بالصفة، ﴿فَلْيُصَلُّواْ﴾: عاطف وجازم، وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلْتَأْتِ﴾، ﴿مَعَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يصلوا﴾، ﴿وَلْيَأْخُذُواْ﴾: جازم وفعل وفاعل معطوف على ﴿فَلْيُصَلُّواْ﴾، ﴿حِذْرَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: معطوف على ﴿حِذْرَهُمْ﴾.

﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَدَّ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿لَوْ﴾: حرف مصدر ﴿تَغْفُلُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَغْفُلُونَ﴾، ﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَسْلِحَتِكُمْ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية، ﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ود الذين كفروا غفلتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم، ﴿فَيَمِيلُونَ﴾: عاطف وفعل وفاعل، ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق به، ﴿مَّيْلَةً﴾: مفعول مطلق، ﴿وَاحِدَةً﴾: صفة لـ﴿مَّيْلَةً﴾ والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿تَغْفُلُونَ﴾ على كونها صلة لـ﴿لَوْ﴾: المصدرية، والتقدير: ود الذين كفروا غفلتكم عن أسلحتكم فميلهم عليكم، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لا﴾: نافية، ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبرها، والجملة مستأنفة. ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، ﴿بِكُمْ﴾: جار ومجرور، خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها، ﴿أَذًى﴾: اسم ﴿كَانَ﴾، ﴿مِّن مَّطَرٍ﴾: صفة لـ﴿أَذًى﴾، والتقدير: إن كان أذى من مطر واقعاً بكم، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجزم فعل شرط لـ﴿إن﴾، وجوابها معلوم مما قبلها، تقديره: إن كان بكم أذى من مطر فلا جناح عليكم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾،

فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على قوله: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾، ﴿أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في وضعكم أسلحتكم، والجار المحذوف حال من الضمير المستكن في خبر ﴿لا﴾، أو خبر ثان لـ﴿لَا﴾، والتقدير: لا جناح كائن هو عليكم حالة كونه في وضعكم أسلحتكم، ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمها، ﴿أَعَدَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾ أو حال من ﴿عَذَابًا﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿مُّهِينًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم كيفية صلاة الخوف، وأردتم بيان ما هو أصلح لكم بعد الفراغ من الصلاة.. فأقول لكم، ﴿إذا قضيتم﴾: ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، ﴿فَٱذْكُرُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿اذكروا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿قِيَٰمًا﴾ حال من فاعل ﴿اذكروا﴾، ﴿وَقُعُودًا﴾: معطوف عليه، ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾: متعلق بمحذوف معطوف على ﴿قِيَٰمًا﴾ على كونه حالاً من فاعل ﴿اذكروا﴾ تقديره: ومضطجعين على جنوبكم، ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت على شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما تشتغلون بعد قضاء الصلاة وانتهائها، وأردتم بيان ما هو لازم لكم بعد الاطمئنان، وزوال الخوف عنكم.. فأقول لكم، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في

محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، ﴿فَأَقِيمُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿أقيموا﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَتۡ﴾: فعل ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: حال من ﴿كِتَٰبٗا﴾، ﴿كِتَٰبٗا﴾: خبر كان، ﴿مَّوۡقُوتٗا﴾: صفة لـ﴿كتابا﴾ وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لا تهنوا﴾: جازم وفعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَهِنُواْ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿تَكُونُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿تَأۡلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر كان، ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ وجوباً، ﴿إنهم﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَأۡلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معللة للنهي السابق قبلها، أعني قوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾، ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿تَأۡلَمُونَۖ﴾: فعل وفاعل، صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كإيلامكم، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: فإنهم يألمون، إيلاماً كائناً كإيلامكم. ﴿وَتَرۡجُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿ترجون﴾، ﴿لَا يَرۡجُونَۗ﴾: فعل وفاعل، صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما لا يرجونه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لها، ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من الكتاب، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، ﴿لِتَحْكُمَ﴾: ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿تحكم﴾: منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تحكم﴾، ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تحكم﴾ أيضاً، وجملة ﴿تحكم﴾ صفة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: لحكمك بين الناس، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَنزَلْنَآ﴾، ﴿أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: أراكه الله، وهو العائد على ﴿ما﴾ الموصولة والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، ﴿وَلَا تَكُن﴾: جازم وفعل ناقص، واسمه ضمير يعود على محمد، ﴿لِّلْخَآئِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿خَصِيمًا﴾، ﴿خَصِيمًا﴾: خبر ﴿تَكُن﴾، وجملة ﴿تَكُن﴾ مستأنفة. ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول أول، والثاني محذوف، تقديره: ذنبك، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿لا تكن﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول لـ﴿كَانَ﴾، ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾: جازم وفعل، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ﴾: متعلق به، ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب ومنصوب، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر معللة للنهي السابق

قبلها، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿خَوَّانًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿أَثِيمًا﴾: صفة له، أو خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿يَسْتَخْفُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: متعلق به، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ﴾: ناف وفعل وفاعل، معطوف على ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿مَعَهُمْ﴾: خبره، والجملة حال من لفظ الجلالة، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿يُبَيِّتُونَ﴾: فعل وفاعل، مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول لـ﴿يُبَيِّتُونَ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾، والمفعول محذوف، تقديره: يرضاه، وهو العائد على ﴿مَا﴾ الموصولة، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: حال من الضمير المحذوف، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: متعلق بـ﴿مُحِيطًا﴾ وهو خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾: ﴿ها﴾: حرف تنبيه، ﴿أنتم﴾: مبتدأ، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء معترضة، لاعتراضها بين المبتدأ والخبر، ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾، ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾: متعلق بـ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ أيضاً، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة، ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿من﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿يُجَٰدِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُ﴾، والجملة الفعلية

خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ﴾ على كونها مستأنفة، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُ﴾، ﴿أَم﴾: منقطعة تعطف جملة على جملة، ﴿مَّن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿مَّن﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿وَكِيلًا﴾ وهو خبر ﴿يَكُونُ﴾، وجملة ﴿يَكُونُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿مَّن﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ﴾.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾: فعل ومفعول، مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿يَعْمَلْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول أول، معطوف على ﴿يَظْلِمْ﴾ أو على ﴿يَعْمَلْ﴾، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ذنبه، ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول أول، مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿غَفُورًا﴾: مفعول ثان، ﴿رَّحِيمًا﴾: صفة لـ﴿غَفُورًا﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿يَكْسِبْ إِثْمًا﴾: فعل ومفعول، مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾، ﴿إنما﴾ أداة حصر، ﴿يَكْسِبُهُۥ﴾: فعل ومفعول، ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة

على جملة ﴿من﴾ الأولى، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لها، ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢)﴾.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾: جازم ومجزوم ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾: معطوف على ﴿خَطِيٓـَٔةً﴾، ﴿ثُمَّ يَرْمِ﴾: معطوف على ﴿يَكْسِبْ﴾، مجزوم بحذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يرم﴾، ﴿بَرِيٓـًٔا﴾: مفعول به، ﴿فَقَدِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ وجوباً، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ٱحْتَمَلَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿بُهْتَـٰنًا﴾: مفعول به، ﴿وَإِثْمًا﴾: معطوف عليه، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾

﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: معطوف على ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً؛ لقيام جواب ﴿لولا﴾ مقامه، تقديره: موجودان، ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لولا﴾ ﴿همت طائفة﴾: فعل وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿طَّآئِفَةٌ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مع جوابها مستأنفة استئنافاً نحوياً، والمعنى: انتفى ضلالك الذي هموا به لوجود فضل الله عليك بالعصمة والحفظ، ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول به، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة

المتعلقة بـ﴿همت﴾ تقديره: لهمت طائفة منهم باضلالهم إياك، ﴿وَمَا﴾: الواو استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يُضِلُّونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَضُرُّونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿شَىْءٍ﴾: منصوب على المفعولية، بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف جر زائد؛ أي: ما يضرونك شيئاً من الضرر لا قليلاً ولا كثيراً، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَعَلَّمَكَ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أنزل﴾، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿علم﴾، ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَكُن﴾: فعل ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، واسمه ضمير يعود على محمد، ﴿تَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، ومفعوله محذوف، تقديره: ما لم تكن تعلمه، وهو بمعنى عرف يتعدى إلى مفعول واحد، وجملة ﴿تَعْلَمُ﴾ في محل النصب خبر ﴿تَكُن﴾، وجملة ﴿تَكُن﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف، ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أو حال منه، ﴿عَظِيمًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: يقال قصرت الشيء من باب نصر، إذا جعلته قصيراً بحذف بعض أجزائه، فمتعلق القصر جملة الشيء لا بعضه، فإن البعض متعلق الحذف، والقصير ضد الطويل، والقصر بالفتح من القصر ـ كعنب ـ ضد الطول، و﴿الجناح﴾: التضييق من جنح البعير إذا انكسرت جوانحه ـ أضلاعه ـ لثقل حمله، ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: في «المصباح» قال في «مختصر العين» يقع العدو بلفظ واحد على الواحد المذكر والمؤنث والمجموع انتهى. ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾:

والأسلحة جمع سلاح، وهو كل ما يتحصن الإنسان ويدافع به عن نفسه في الحرب، ويقاتل به، من سيف وخنجر ورمح ومسدس وبندقية، ومن جميع أسلحة العصر الحاضر، وقال الليث: يقال للسيف وَحْدَه سلاح، وللعصا وَحْدَها سلاح، وقال ابن دريد: يقال سلاح على وزن حمار، وسلح على وزن ضلع، وسلح على وزن صرد، وسلحان على وزن سلطان، ويقال: رجل سالح إذا كان معه سلاح، والسلح نبت إذا رعته الإبل.. سمنت وغزر لبنها، وما يلقيه البعير من جوفه يقال له: سُلاح بوزن غُلام، ثم عبر به عن كل عذرة.

﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ﴾ والحذر بفتحتين وبكسر فسكون التحرز والاحتياط، يقال: حذر حذراً وحذراً من باب تعب. ﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾: جمع متاع، وجمع الجمع أماتع وأماتيع، والمتاع كل ما ينتفع به من عروض الدنيا كثيرها وقليلها، سوى الفضة والذهب، وكل ما يلبسه الإنسان ويبسطه، وما ينتفع به انتفاعاً قليلاً غير باق بل ينقضي عن قريب، يقال: إنما الحياة الدنيا متاع؛ أي: بلغة يتبلغ به لابقاء له.

﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾: جمع مريض، كقتلى جمع قتيل، وجرحى جمع جريح. ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾: اسم فاعل من أهان يهين إهانة - نظير أعان - إذا أذله، فهو مهين وذاك مهان. ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ جمع قائم وقاعد، ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾: الهمزة فيه أصلية، ووزن الكلمة افعلل، والمصدر الطمأنينة كالقشعريرة، والاطمئنان كالاقشعرار، والطمأنينة سكون النفس من الخوف، وأما قولهم طامن رأسه فأصل آخر. ﴿مَّوْقُوتًا﴾: مفعول من وقت بالتخفيف، كمضروب من ضرب، ولم يقل موقوتة بالتاء مراعاة لكتاباً، فإنه في الأصل مصدر.

﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾: يقال وهن يهن من باب وعد، وهنا يقال وهنه إذا أضعفه، ووَهُنَ يَوْهُن وهناً بإسكان العين، ووهناً بالتحريك، من باب فعل المضموم، إذا ضعف في الأمر أو العمل أو البدن، ويقال: وَهِنَ يَهِن بكسر العين في الماضي والمضارع وَهْناً ووَهَناً، ووَهِنَ ويَوْهَن على وزن وَجِلَ يَوْجَل، وهنا بالتحريك بمعنى: وهن بضم العين. ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ﴾: ويقرأ ﴿تيلمون﴾ بكسر التاء وقلب

الهمزة ياء، وهي لغة تميم. ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾: الهمزة[1] ههنا معدية، والفعل من رأيت الشيء إذا ذهبت إليه، وهو من الرأي، وهو متعد إلى مفعول واحد، وبعد الهمزة يتعدى إلى مفعولين، أحدهما الكاف، والآخر محذوف؛ أي: أراكه، وقيل المعنى: علمك، وهو متعد إلى مفعولين، وهو قبل التشديد متعد إلى واحد، كقوله: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾، ﴿لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾: فعيل بمعنى مفاعل؛ أي: مخاصماً لهم واللام على بابها؛ أي: لأجل الخائنين، وقيل: هي بمعنى عن وليس بشيء، لصحة المعنى بدون ذلك، ومفعول ﴿خَصِيمٗا﴾ محذوف، تقديره: خصيماً البرىء، ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾: المجادلة أشد المخاصمة، ﴿خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾: هما صيغتا مبالغة؛ أي: كثير الخيانة والإثم ﴿وَكِيلٗا﴾ الوكيل هو الذي يوكل إليه الأمر في الحفظ والحماية ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ استفعل من الاستغفار، والاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى، مع الشعور بقبح الذنب والتوبة منه، ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ﴾: الكسب هو ما يجر منفعة أو يدفع مضرة، ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ﴾: ولولا ضابطها هي كلمة موضوعة للدلالة على امتناع وجود مضمون الجواب لوجود مضمون الشرط.

البلاغة

وتضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع[2]:

منها: الاستعارة في قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿فَيَمِيلُونَ﴾ استعار الميل للحرب.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿جُنَاحَ﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ لاختلاف متعلقهما، وفي قوله: ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ ﴿وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ﴾، وفي الحذر والأسلحة، و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، و﴿تَأۡلَمُونَ﴾، وفي اسم ﴿ٱللَّهِ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ﴾ وفي قوله: ﴿كَفَرُوٓاْ

(١) العكبري. (٢) البحر المحيط.

إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ و﴿تختانون﴾ و﴿خَوَّانًا﴾ و﴿يَسْتَغْفِرِ﴾ و﴿غَفُورًا﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿فَأَقَمْتَ﴾ ﴿فَلْتَقُمْ﴾، وفي قوله: ﴿لَمْ يُصَلُّوا۟﴾ ﴿فَلْيُصَلُّوا۟﴾، وفي قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ﴾، وفي قوله: ﴿جَـٰدَلْتُمْ﴾ ﴿فَمَن يُجَـٰدِلُ﴾، وفي قوله: ﴿يَكْسِبْ﴾ و﴿يَكْسِبْ﴾، وفي قوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ و﴿تَعْلَمُ﴾.

ومنها: العام يراد به الخاص في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهره العموم، وأجمعوا على أن المراد بها صلاة الخوف خاصة؛ لأن السياق يدل على ذلك، ولذلك كانت أل فيه للعهد انتهى. وإذا كانت أل للعهد.. فليس من باب العام المراد به الخاص؛ لأن أل للعموم وأل للعهد، فهما قسيمان، فإذا استعمل لأحد القسيمين.. فليس موضوعاً للآخر.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

ومنها: خطاب عين ويراد به غيره في قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ فإنه ﷺ محروس بالعصمة عن أن يخاصم عن المبطلين.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ للإنكار عليهم، والتغليظ لقبح فعلهم؛ لأن حياء الإنسان ممن يصحبه أكثر من حيائه وحده، وأصل المعية في الإجرام، والله تعالى منزه عن ذلك، فهو مع عبده بالعلم والإحاطة.

ومنها: إطلاق وصف الإجرام على المعاني في قوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا﴾.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ
الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ
بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا
مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ
وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ
الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ
بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ
أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها ظاهرة؛ لأنه لا يزال الحديث[1] في الذين يختانون أنفسهم، ويستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، وهم طعمة بن أبيرق ومن أراد مساعدته من بني جلدته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ....﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما

(١) المراغي.

أنزل قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ في شأن طعمة بن أبيرق سارق الدرع، ورميه اليهودي بسرقته، وأنزل أيضاً قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ...﴾ إلخ، في ارتداده عن الدين، ولحوقه بالمشركين.. ذكر هنا أنه لو لم يرتد لم يكن محروماً من رحمة الله، ولكنه بارتداده صار بينه وبين رحمته حجاب أيما حجاب، فإن كل ذنب يجوز أن يغفره الله للناس إلا ذنب الشرك، فإن صاحبه مطرود من عفوه ورحمته.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما بين في الآيات السالفة أن الشيطان يعدهم ويمنيهم، ويدخل في تلك الأماني ما كان يمنيه أهل الكتاب، من الغرور بدينهم، إذ كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص، ويقولون إنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، وقد سرى لهم هذا الغرور من اتكالهم على الشفاعات، وزعمهم أن فضلهم على غيرهم من البشر بمن بعث فيهم من الأنبياء، فهم يدخلون الجنة بكرامتهم لا بأعمالهم.. حذرنا هنا في هذه الآيات الكريمات أن نكون مثلهم، وكانت هذه الأماني قد دبت إلى المسلمين في عصر النبي ﷺ، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ...﴾ الآية، فلضعفاء الإيمان من المسلمين في الصدر الأول ولأمثالهم في كل زمن أنزلت هذه الموعظة، ولو تدبروها لما كان لهذه الأماني عليهم من سلطان.

أسباب النزول

قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ...﴾ الآية، روي في سبب نزولها[2]: أن طعمة بن أبيرق لما رأى أن الله تعالى هتك ستره، وبرأ اليهودي عن تهمة السرقة.. ارتد وذهب إلى مكة، ونقب جدار إنسان لأجل السرقة، فتهدم الجدار عليه ومات، فنزلت هذه الآية.

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما روي[1] عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن شيخاً من العرب جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني شيخ منهمك في الذنوب، إلا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنت به، ولم أتخذ من دونه ولياً، ولم أواقع المعاصي جراءة على الله تعالى، وما توهمت طرفة عين أني أعجز الله هرباً، وإني لنادم تائب مستغفر، فما ترى حالي عند الله تعالى، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قالت اليهود والنصارى: لا يدخل الجنة غيرنا، وقالت قريش: إنا لا نبعث، فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وأخرج ابن جرير عن مسروق قال[3]: تفاخر النصارى وأهل الإسلام، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم، وقال هؤلاء: نحن أفضل منكم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وأخرج نحوه عن قتادة والضحاك والسدي وأبي صالح، ولفظهم: تفاخر أهل الأديان، وفي لفظ: جلس ناس من اليهود، وناس من النصارى، وناس من المسلمين، فقال هؤلاء: نحن أفضل، وقال هؤلاء: نحن أفضل، فنزلت. وأخرج أيضاً عن مسروق قال: لما نزلت ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.. قال أهل الكتاب نحن وأنتم سواء، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَّا خَيْرَ﴾: ولا ثواب، ﴿فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: في كثير من نجوى الناس بعضهم لبعض ومحادثتهم معاً، أو لا خير في نجوى أولئك الذين

(١) المراح.
(٢) لباب النقول.
(٣) لباب النقول.

يسرون الحديث من غيرهم، من جماعة طعمة الذين أرادوا مساعدته على اتهام اليهودي وبهته، والنجوى هي المحادثة من بعض القوم لبعض، اثنين فما فوق، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ . . .﴾ الآية، فهي ضد السر، وهو محادثة الإنسان نفسه. ﴿إِلَّا﴾: في نجوى ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ واجبة أو مندوبة، ﴿أَوْ﴾ نجوى من أمر بـ﴿مَعْرُوفٍ﴾ وهو كل[1] ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل، فينتظم فيه أصناف الجميل، وفنون أعمال البر، كالكلمة الطيبة، وإغاثة الملهوف، والقرض، وإعانة المحتاج، فهو أعم من الصدقة، فيكون قوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ﴾ من عطف الخاص على العام. ﴿أَوْ﴾ نجوى من أمر بـ﴿إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ عند وقوع المشاحنة والمعاداة بينهم، من غير مجاوزة حدود الشرع في ذلك.

والحكمة في تخصيص هذه الثلاثة بالذكر[2]: أن عمل الخير المتعدي للناس، إما إيصال منفعة، أو دفع مضرة، المنفعة إما جسمانية وإليها الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، وإما روحانية وإليها الإشارة بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، ودفع المضرة أشير إليه بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، وإنما قال[3]: ﴿فِي كَثِيرٍ﴾ لأن من النجوى ما يكون في الشؤون الخاصة، كالزراعة والتجارة مثلاً، فلا توصف بالشر، ولا مقصودة من الخير، وإنما المراد بالنجوى الكثيرة المنفي عنها الخير هي النجوى في شؤون الناس، ومن ثم استثنى منها الأشياء الثلاثة التي هي جماع الخير للناس. والكتاب الحكيم يجعل النجوى مظنة الإثم والشر، ومن ثم خاطب الله المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. والسر في كون النجوى مظنة الشر في الأكثر أن العادة قد جرت بحب إظهار الخير، والتحدث به في الملأ، وأن الشر والإثم هو الذي يذكر في السر والنجوى، وفي الأثر: «الإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس». وقد استثنى الله سبحانه وتعالى من النجوى التي لا خير في أكثرها أموراً ثلاثة؛ لأن خيريتها أو

---

(١) الفتوحات.
(٢) أبو السعود.
(٣) المراغي.

كمالها تتوقف على الكتمان، وجعل التعاون عليها سراً والحديث فيها نجوى.

فالصدقة وهي من الخير قد يؤذي إظهارها المتصدَّق عليه، ويضع من كرامته، ومن ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وقد يكون الجهر بالأمر بها والحث عليها أشد إيذاء وإهانة من إيتاءه إياها جهراً، ولو مع الإخلاص وابتغاء مرضاة الله تعالى.

وكذلك الأمر بالمعروف على مسمع من الناس، فكثيراً ما يستاء منه المأمور به، ولا سيما إذا كان الآمر من أقرانه، لأنه يرى في أمره إياه استعلاء عليه بالعلم والفضل، واتهاماً له بالتقصير أو الجهل، فمن ثم كانت النجوى به أبعد عن الإيذاء، ومثله الإصلاح بين الناس، فإنه ربما ترتب على إظهاره والتحدث به كثير من الشر، ألا ترى أن بعض الناس إذا علم أن ما يطالَب به من الصلح كان بأمر فلان من الناس.. لا يستجيب ولا يقبل، أو يصده عن الرضا به ذكره بين الناس، وعلمه بأنه كان بسعي وتواطؤ. أخرج البيهقي عن أبي أيوب الأنصاري أن النبي ﷺ قال له: «يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم»، فقال: بلى يا رسول الله، قال: «تصلح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقرب بينهم إذا تباعدوا»، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة إصلاح ذات البين»، وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة»، قالوا بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، وأن فساد ذات البين هي الحالقة» أخرجه الترمذي وأبو داود، وقال الترمذي: ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدِّين».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله ﷺ، فقال: «إذهبوا بنا نصلح بينهم». رواه البخاري.

وعن أم مكتوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين اثنين»، أو قال: «بين

الناس، فيقول خيراً أو ينمي خيراً» متفق عليه، زاد مسلم في رواية له قالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس، إلا في ثلاث: يعني الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل زوجته، وحديث المرأة زوجها.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمور الثلاثة: الصدقة والمعروف والإصلاح؛ أي: فعل واحداً من هذه الثلاثة أو كلها؛ لأنه لما ذكر أولاً أن الخير في مَنْ أمر.. ذكر هنا ثواب من فعل، ويحتمل كون المعنى: ومن يفعل ذلك المذكور من الأمر بواحد من هذه الثلاثة فكأنه قال: ومن يأمر بذلك المذكور ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾؛ أي: لأجل طلب رضوان الله سبحانه وتعالى، لا لغرض دنيوي، كالرياء والسمعة والمحمدة.. ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾؛ أي: فسوف يعطي الله سبحانه وتعالى ذلك الفاعل في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثواباً جسيماً وأجراً جزيلاً، جزاء على عمله ذلك، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن المطلوب من الأعمال الظاهرة رعاية أحوال القلب في إخلاص النية، وتصفية القلب عن داعية الالتفات إلى غرض سوى رضوان الله تعالى.

والخلاصة: أن ابتغاء مرضاة الله تعالى إنما يكون بالإخلاص، وعدم إرادة السمعة والرياء، كما يفعل المتأخرون من الأغنياء والدول، خصوصاً في هذا العصر الفاسد أهله، تصدقنا كذا وكذا، ومنحنا كذا وكذا، وساعدنا كذا وكذا، وبنينا المساجد والقناطر كذا وكذا، وأنفقنا في كذا من الخيرات ملايين كذا وكذا، فهؤلاء إنما يبتغون الربح بما يبذلون أو يعملون، لا مرضاة الله تعالى، ولذلك يشق عليهم أن يكون عملهم خفياً، وأن يخلصوا في الحديث عنه نجياً؛ لأن الاستفادة منه بجذب القلوب إليهم، وتسخير الناس لخدمتهم، ورفعهم لمكانتهم، إنما تكون بإظهاره لهم، ليتعلق الرجاء فيهم. وقرأ أبو عمرو وحمزة[1]: ﴿يؤتيه﴾ بالياء، والباقون بالنون، على سبيل الالتفات، ليناسب ما بعده من قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ﴾ فيكون إسناد الثواب والعقاب إلى ضمير المتكلم العظيم، وهو أولى من إسناده إلى ضمير الغائب، ومن قرأ بالياء..

(١) البحر المحيط.

لاحظ الاسم الغائب في قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

وبعد أن وعد اللّه سبحانه وتعالى بالجزاء الحسن لمن فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى، أوعد الذين يتناجون بالشر، ويبيتون ما يكيدون به للناس فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ؛ أي: يخالفه بارتداده عن الإسلام، وإظهار عداوته له، كطعمة بن أبيرق، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: من بعد ما ظهرت له الهداية على لسان الرسول، وقامت عليه الحجة ﴿وَيَتَّبِعْ﴾ سبيلاً ﴿غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: غير سبيل الموحدين.. ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: نجعله والياً لما تولى من الضلال، ومباشراً له، ونخلي بينه وبين ما اختاره، ونتركه وما اختاره لنفسه في الدنيا، ونكله إلى ما توكل إليه، ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: وندخله في الأخرة نار جهنم فيحترق فيها، ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾؛ أي: قبحت جهنم مرجعاً له، والمخصوص بالذم هي. وقرىء[1]: ﴿ونصله﴾ بفتح النون، من صلاه، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿يوله﴾ و﴿يصله﴾ بالياء فيهما، جرياً على قوله: ﴿فسوف يؤتيه﴾ بالياء، وفي هاء ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿نصله﴾ الإشباع والاختلاس والإسكان.

وفي هذه الآية[2]: بيان لسنة الله في عمل الإنسان، وإيضاح لما أوتيه من الإرادة والاستقلال والعمل بالاختيار، فالوجهة التي يتولاها ويختارها لنفسه يوليه الله إياها؛ أي: يجعله والياً لها، وسائراً على طريقها، فلا يجد من القدرة الإلهية ما يجبره على ترك ما اختاره لنفسه، بحسب الاستعداد والإدراك وعمل ما يرى أنه خير له وأنفع في عاجله أو آجله، أو فيهما معاً، ثم ندخله جهنم ونعذبه أشد العذاب؛ لأنه استحب العمى على الهدى، وعاند الحق، واتبع الهوى، وما أقبحها عاقبة لمن تفكر وتدبر، وقد اشترط في هذا الوعيد أن يتبين له الهدى، أما من لم يتبين له فلا يدخل فيه، وهم أصناف:

فمنهم: من نظر في الدليل ولم يظهر له الحق، وبقي متوجهاً إلى طلبه

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) المراغي.

بتكرار النظر والاستدلال مع الإخلاص، وهذا معذور غير مؤاخذ، ومنهم: من لم تبلغه الدعوة الإسلامية، أو بلغته مشوهة معكوسة ككثير من أهل أوروبا في العصر الحاضر، وحال هؤلاء كحال من سبقهم، ومنهم: من اتبع الهدى تقليداً لمن يثق به كآبائه وخاصة أهله، وهذا لم يتبين له الهدى، ولذلك يتركه إلى كل ما يقره عليه أهله ورؤساؤه من البدع والضلالات والخرافات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾؛ أي: لا يغفر البتة لأحد أشرك به سواه، إذا مات على الشرك ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: وإنه قد يغفر لمن يشاء من المذنبين، ما دون الشرك من الذنوب، فلا يعذبهم عليه، ذاك أن الشرك هو منتهى فساد الأرواح، وضلال العقول، فكل خير يلابسه لا يقوى على إضعاف مفاسده وأثامه، والعروج بها إلى جوار ربها، إذ أنها تكون موزعة بين شركاء يحولون بينها وبين الخلوص إليه عز وجل، والله لا يقبل إلا ما كان خالصاً له.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى شيئاً فيدعوه معه، ويذكر اسمه مع اسمه، أو يدعوه وحده، ملاحظاً أنه يقربه إليه زلفى.. ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن القصد، وبعد عن سبيل الرشد ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ في سبيل الغواية، لأنه ضلال يفسد العقل، ويكدر صفاء الروح، ويجعله يخضع لعبد مثله، ويخضع أمام مخلوق يحاكيه، ويكون عبداً للخرافات والأوهام، أما من لم يشرك بالله.. لم يكن ضلاله بعيداً، فلا يصير محروماً عن الرحمة.

وخلاصة ما تقدم[1]:

١ ـ أن الشرك في العبادة الذي يتجلى في الدعاء هو أقوى أنواع الشرك؛ لأنه يكون باعتقاد ناشىء عن وجدان حاكم على النفس مستعبد لها.

٢ ـ أن الجزاء في الآخرة يكون تابعاً لما تكون عليه النفس في الدنيا، من سلامة العقيدة، ومقدار درجة الفضيلة التي يلازمها فعل الخيرات، أو فساد

---

(١) المراغي.

الفطرة، وخطأ العقيدة، والتدنس بالرذيلة التي يلازمها فعل السيئات.

٣ ـ أن الناس متفاوتون فيما بين ذلك من درجات ودركات، أخسها الشرك، وأعلاها التوحيد، ولكل منهم صفات تناسبها، فلو جاز أن يغفر الشرك، ويجعل صاحبه مع النبيين والصديقين والملائكة المقربين.. لكان ذلك نقضاً لسنة الله التي لا تبديل فيها ولا تغيير.

واعلم: أنه قد تقدم نص هذه الآية بعينها في غرض آخر من هذه السورة، وأعادها هنا مرة أخرى للتأكيد، ولتكون راسخة في نفوس السامعين، لأنه إنما ترجى الهداية والموعظة بإبراز المعاني التي يراد إيداعها في نفوس السامعين في كل سياق يقصد فيه توجيها إليها، وإعدادها لقبولها، ولن يتم ذلك إلا بتكرار المقاصد الأساسية، فالذين عرفوا سنن الاجتماع، وفهموا طبائع البشر وأخلاقهم، يكررون في خطبهم ومقالاتهم أغراضهم ومقاصدهم التي ينشرونها في الصحف والكتب، فإن الذهن إذا تكرر عليه مدح الشيء أو ذمه.. أثر فيه، إلا أن[1] آخر ما تقدم: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وآخر هذه: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، ختمت كل آية بما يناسبها، فتلك كانت في أهل الكتاب، وهم مطلعون من كتبهم على ما لا يشكون في صحته من أمر الرسول ﷺ، ووجوب اتباع شريعته، ونسخها لجميع الشرائع، ومع ذلك فقد أشركوا بالله، مع أن عندهم ما يدل على توحيد الله، والإيمان بما نزل، فصار ذلك افتراءً واختلاقاً مبالغاً في العظم والجرأة على الله، وهذه الآية في ناس مشركين، ليسوا بأهل كتب ولا علوم، ومع ذلك فقد جاءهم الهدى من الله، وبان لهم طريق الرشد، فأشركوا بالله، فضلوا بذلك ضلالاً يستبعد وقوعه، أو يبعد عنه الصواب، ولذلك جاء بعده: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ وجاء بعد تلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، وقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد بهم اليهود، وإن كان اللفظ عاماً، ولما كان الشرك أعظم

(١) النهر.

الكبائر. . كان الضلال الناشيء عنه بعيداً عن الصواب، لأن غيره من المعاصي وإن كان ضلالاً لكنه قريب من أن يراجع صاحبه الحق؛ لأن له رأس مال يرجع إليه وهو التوحيد، بخلاف المشرك، ولذلك قال تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُـرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ وناسب هنا أيضاً ذكر الضلال لتقدم الهدى قبله، ذكره أبو حيان في «النهر».

ثم بين الله تعالى كون الشرك ضلالاً بعيداً فقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾؛ أي: ما يعبد هؤلاء المشركون[1] من أهل مكة وغيرهم إلا أوثاناً يسمونها باسم الإناث، كقولهم: اللات والعزى ومناة، واللات تأنيث الله، والعزى تأنيث العزيز، ومناة تأنيث المنان، أو لأنهم يزينونها على هيئات النسوان. أو المعنى[2]: هؤلاء المشركون لا يدعون لقضاء حاجتهم وتفريج كربهم إلا أمواتاً، فقد كانوا يعظمون الموتى ويدعونها، كما يفعل ذلك كثير من أهل الكتاب أو إلا إناثاً كاللات والعزى، وقد كان لكل قبيلة صنم يسمونه أنثى بني فلان.

وقرأ أبو رجاء[3]: ﴿إن تدعون﴾ بالتاء على الخطاب، ورويت عن عاصم. وفي مصحف عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ﴿إلا أوثاناً﴾ جمع وثن وهو الصنم، وقرأ بذلك أبو السوار والهنائي، وقرأ الحسن: ﴿إلا أنثى﴾ على التوحيد، وقرأ ابن عباس وأبو حيوة والحسن وعطاء وأبو العالية وأبو نهيك ومعاذ القاريء: ﴿أُنثاً﴾ جمع أنيث كغرير وغرر، والأنيث: المخنث الضعيف من الرجال، وقرأ سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأبو المتوكل وأبو الجوزاء: ﴿إلا وثناً﴾ بفتح الواو والثاء من غير همزة، وقرأ ابن المسيب ومسلم بن جندب، ورويت عن ابن عباس وابن عمر وعطاء: ﴿إلا أنثاً﴾ يريدون وَثَناً، وقرأ أبو أيوب السجستاني: ﴿إلا وثناً﴾ بضم الواو والثاء من غير همزة كشُقُق، وقرأت فرقة:

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

﴿إلا أثناً﴾ بسكون المثلثة، وأصله وثناً، فاجتمع في هذا اللفظ ثمان قراءات ﴿إناثاً﴾ و﴿أنثى﴾ و﴿أنثاً﴾ و﴿أوثاناً﴾ و﴿وَثَناً﴾ و﴿أَثَناً﴾ و﴿أُثُناً﴾.

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾؛ أي: وما يعبدون بعبادتها إلا شيطاناً، شديد التمرد والبعد عن طاعة الله، إذ هو الذي أمرهم بعبادتها، وأغراهم بها، فكانت طاعتهم له في ذلك عبادةً له، ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: طرده الله عن كل خير، وأبعده عن رحمته وفضله، فإنه داعية كل شر وباطل في نفس الإنسان، بما يوسوس في صدره ويعده ويمنيه ﴿وَقَالَ﴾؛ أي: الشيطان عندما لعنه الله تعالى: وعزتك ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾؛ أي: لأجعلن لنفسي من عبادك حظاً مقدراً معيناً، وهم الذين يتبعون خطوات الشيطان ويقبلون وساوسه، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كل ألف واحد لله، وسائره للناس ولإبليس». وقيل: النصيب المفروض هو ما للشيطان في نفس كل أحد من الاستعداد للشر، إذ ما من إنسان إلا يشعر من نفسه بوسوسة الشيطان، فإن لم يكن بالشرك فبالمعصية والإصرار عليها، أو الرياء في العبادة، لكن الله أخبر أنه ليس له سلطان على عباده المخلصين، وقد جاء في القرآن والحديث ما يدل على هذا.

والخلاصة: أن الشيطان خلق متمرداً على الحق، بعيداً من الخير، مغرى بإغواء البشر وإضلالهم.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن طريق الهدى، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾؛ أي: ولألقين في قلوبهم الأماني الكاذبة، وهي تورث شيئين: الحرص والأمل، وهما يستلزمان أكثر الأخلاق الذميمة، ويلازمان للإنسان، وفي الحديث: «يهرم ابن آدم ويشبُّ معه اثنان: الحرص والأمل». فالحرص يستلزم ركوب الأهوال، فإذا اشتد حرصه على الشيء.. فقد لا يقدر على تحصيله إلا بمعصية الله وإيذاء الخلق، وإذا طال أمله.. نسي الآخرة، وصار غريقاً في الدنيا، فلا يكاد يقدم على التوبة، ولا يكاد يؤثر فيه الوعظ، فيصير قلبه كالحجارة أو أشد قسوة.

وقيل: إضلال الشيطان لمن يضلهم هو صرفهم عن العقائد الصحيحة،

وشغلهم عن الدلائل الموصلة إلى الحق والهدى، وتمنيته لهم تزيينه لهم الاستعجال باللذات الحاضرة، والتسويف بالتوبة والعمل الصالح.

والخلاصة: أن من شأن الشيطان ومقتضى طبعه: إضلال العباد، وشغلهم بالأماني الباطلة، كرحمة الله للمجرمين بغير توبة، والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة، وتزيين لذات الحياة العاجلة على ثواب الآجلة ونعيمها.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ بالتبتيك؛ أي: شق آذان الناقة ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾؛ أي: فليقطعن ﴿ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ ويشقونها بموجب أمري لهم، والمراد به: ما كانوا يفعلونه من قطع آذان بعض الأنعام لأصنامهم، كالبحائر التي كانوا يقطعون آذانها أو يشقونها شقاً واسعاً، ويتركون الحمل عليها إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وهذا من سخيف أعمالهم الوثنية الدالة على ضعف عقولهم، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ بتغيير خلق الله، ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ صورة أو صفة، بموجب أمري لهم، كخصاء العبيد، وفقء العيون، وقطع الآذان، والوشم والوشر، ووصل الشعر، فإن المرأة تتوصل بهذه الأفعال إلى الزنا، وكانت العرب إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً.. عوَّروا عين فحلها، ويدخل في هذه الآية التخنث والسحاقات، لأن التخنث عبارة عن تشبه الذكر بالأنثى، والسحق عبارة عن تشبه المرأة بالذكر، وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقاً، لكن الفقهاء رخصوا في البهائم للحاجة، فيجوز في المأكول الصغير، ويحرم في غيره، وأما خصاء بني آدم فحرام.

وقال الشوكاني(١): واختلف العلماء في هذا التغيير ما هو، فقالت طائفة: هو الخصاء، وفقء الأعين، وقطع الآذان، وقال آخرون: إن المراد بهذا التغيير هو: أن الله سبحانه وتعالى خلق الشمس والقمر والأحجار والنار ونحوها من المخلوقات لما خلقها له، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة، وبه قال الزجاج، وقيل: المراد بهذا التغيير، تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور، حملاً شمولياً أو بدلياً، انتهى.

---

(١) فتح القدير.

وعلى هذا القول الأخير فالمراد[1] بخلْق الله دينَه لأنه دين الفطرة، وهي الخلقة قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: إنه يراد به تغيير الفطرة الإنسانية عما فطرت عليه، من الميل إلى النظر والاستدلال، وطلب الحق، وتربيتها، وتعويدها الأباطيل والرذائل والمنكرات، فالله قد أحسن كل شيء خلقه، وهؤلاء يفسدون ما خلق الله، ويطمسون عقول الناس.

والخلاصة: أن الدين الفطري الذي هو من خلق الله وآثار قدرته ليس هو مجموع الأحكام التي جاء بها الرسل ليبلغوها للناس، بل هو ما أودعه في فطرة البشر من توحيده والاعتراف بقدرته وجلاله، وهو ما أشار إليه في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة».

ومن أهم أسس هذا الدين: فطرية العبودية للسلطة الغيبية، التي تنتهي إليها الأسباب، وتقف دون الوصول إلى حقيقتها العقول، وقرأ أبو عمرو[2]: ﴿ولأمرنهم﴾ بغير ألف كذا قاله ابن عطية، وقرأ أبي: ﴿وأضلنهم وأمنينهم وآمرنهم﴾ وتكون جملاً مقولة، لا مقسماً عليها.

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن يجعل الشيطان المطرود ولياً وناصراً له متولياً عليه، أو يجعله رباً يطيعه من دون الله، ويتبع وسوسته وإغواءه، وهو البعيد من أسباب رحمة الله وفضله.. ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾؛ أي: خسراناً ظاهراً في الدنيا والآخرة، بتضييع رأس ماله وهو الدين الفطري، وذلك لأن طاعة الله تفيد المنافع العظيمة الدائمة، وطاعة الشيطان تفيد المنافع القليلة المنقطعة، ويعقبها العذاب الأليم؛ إذ أنه يكون أسير الأوهام والخرافات يتخبط في عمله على غير هدى، ويفوته الانتفاع التام بما وهبه الله من العقل والمواهب الكسبية التي أوتيها الإنسان وميز بها من بين أصناف الحيوان، ﴿يَعِدُهُمْ﴾؛ أي: يعد الشيطان الناس الفقر إذا هم أنفقوا شيئاً

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

من أموالهم في سبيل الله، ويوسوس لهم بأن أموالهم تنفد أو تقل، ويصبحون فقراء أذلاء، ويعدهم الغنى والثروة حين الإغراء بالقمار، ويعد من يغريه بالتعصب لرأيه وإيذاء مخالفه فيه من أهل دينه للجاه والشهرة وبعد الصيت ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾؛ أي: يلقي في قلوبهم أنه ستطول أعمارهم، وينالون من الدنيا آمالهم ومقاصدهم، ويوقع في قلوبهم أن الدنيا دول، فربما تيسرت لهم كما تيسرت لغيرهم، ويعدهم أيضاً بأن لا قيامة ولا جزاء، فاجتهدوا في استيفاء اللذات الدنيوية.

ويدخل في وعد الشيطان وتمنيته ما يكون من أوليائه من الإنس، وهم قرناء السوء، الذين يزينون للناس الضلال والمعاصي، ويمدونهم في الطغيان، وينشرون مذاهبهم الفاسدة، وآراءهم الضالة التي يبتغون بها الرفعة والجاه والمال، وهؤلاء يوجدون في كل زمان ومكان، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: وما يعدهم الشيطان إلا باطلاً يغترون به، ولا يملكون منه ما يحبون، فيزين لهم النفع في بعض الأشياء، وهي مشتملة على كثير من الآلام والمضار، فالزاني أو المقامر أو شارب الخمر يخيل إليه أنه يتمتع باللذات، بينما هو في الحقيقة يتمتع بلذائذ وقتية، تعقبها آلام دنيوية طويلة المدى وخيمة العواقب، إلى عذاب أخروي لا يعلم كنهه إلا من أحاط بكل شيء علماً. وقرأ الأعمش: ﴿وما يعدهم﴾ بسكون الدال، خفف لتوالي الحركات.

وبعد أن بين حال أولياء الشيطان.. ذكر عاقبتهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يعبث بهم الشيطان بوسوسته، أو بإغواء دعاة الباطل من أوليائه ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: مسكنهم ومنازلهم في الآخرة ومرجعهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا﴾؛ أي: عن جهنم ﴿مَحِيصًا﴾؛ أي: معدلاً ومهرباً يفرون إليه، إذ هم بطبيعتهم ينجذبون إليها، ويتهافتون عليها تهافت الفراش على النار، فتصلى وجوههم وجنوبهم وظهورهم. ثم بعدئذ ذكر عاقبة من لا يستجيب دعوة الشيطان وأولياءه، ولا يصيخ لأمره ونهيه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: وامتثلوا المأمورات واجتنبوا المنهيات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛

أي: بساتين ﴿تَجْرِي﴾؛ أي: تسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ من الماء واللبن والخمر والعسل، حالة كونهم ﴿خَـٰلِدِينَ﴾؛ أي: ماكثين ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في تلك الجنات ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: أمداً لا نهاية له ولا انقضاء، لا يموتون ولا يخرجون منها، وذلك هو الفوز العظيم لمن سمت نفسه عن دنس الشرك، فلم تجعل للَّهِ أنداداً، ولم تحط بها الخطيئة في صباحها ومسائها، في غدوها ورواحها، وقرىء: ﴿سيدخلهم﴾ بالياء.

ولما ذكر أن وعد الشيطان هو غرور باطل.. ذكر أن هذا الوعد منه تعالى هو الحق الذي لا ارتياب فيه، ولا شك في إنجازه فقال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وعدهم الله تعالى بذلك الإدخال وعداً لا خلف فيه، وحق ذلك الإدخال، ﴿حَقًّا﴾ فالأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾؛ أي: لا أحد أصدق من الله قولاً فيما وعده لعباده الصالحين، وهذا توكيد ثالث، وفائدة هذه التوكيدات: معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة، وترغيب العباد في تحصيل ما وعده الله تعالى.

والمعنى: ذلك الذي وعدكم الله به هو الوعد الحق، فهو القادر على أن يعطي ما وعد بفضله وجوده وواسع كرمه ورحمته، وأما وعد الشيطان فهو غرور من القول وزور، إذ هو عاجز عن الوفاء، فهو يدلي إلى أوليائه بباطله، فحقه أن لا يستجاب له أمر ولا نهي، ولا تتبع له نصيحة، فوساوسه أباطيل وسراب بقيعة، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

﴿لَّيْسَ﴾ الثواب الذي تقدم الوعد به في قوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ حاصلاً ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾؛ أي: بتمنياتكم يا معشر المؤمنين أن يغفر لكم وإن ارتكبتم الكبائر؛ أي: فإنكم تمنيتم أن لا تؤاخذوا بسوء بعد الإيمان ﴿وَلَآ﴾ حاصلاً بـ﴿أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ أي: بتمنيات اليهود والنصارى، فإنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ فلا يعذبنا، وقالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، وليس الأمر كذلك، فإنه تعالى يخص بالعفو أو الرحمة من يشاء؛ أي: ليس يستحق

ذلك الثواب بالأماني، وإنما يستحق بالإيمان والعمل الصالح. أو المعنى: ليس فضل الدين وشرفه ولا نجاة أهله به حاصلاً بأن يقول القائل منهم إن ديني أفضل وأكمل، بل عليه أن يعمل بما يهديه إليه، فإن الجزاء إنما يكون على العمل، لا على التمني والغرور، فليس أمر نجاتكم ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطاً بالأماني في الدين، فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهي، ولا تحصل فائدتها بالانتساب إليها دون العمل بها.

وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وشيبة بن نصاح، والحكم، والأعرج: ﴿بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ بتخفيف الياء ساكنة، جمعاً على فعالل، كما يقال: قراقر وقراقير في جمع قرقور ـ بوزن عصفور ـ: السفينة الطويلة.

ثم أكد ذلك وبينه بقوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا﴾ ويرتكب ذنباً أيَّ ذنب كان، سواء كان مؤمناً أم كافراً ﴿يُجۡزَ بِهِۦ﴾؛ أي: يجازى بذلك الذنب الذي ارتكبه، فالمؤمن يجزى عند عدم التوبة، إما في الدنيا بالمصيبة، أو بعد الموت قبل دخول الجنة، أو بإحباط ثواب طاعته بمقدار عقاب تلك المعصية، والكافر يجزى بالمحن والبلاء في الدنيا وفي الآخرة دائماً، فعلى الصادق في دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله، ويجعل ذلك المعيار في سعادته، لا أن يجعل تكأته أن هذا الكتاب أكمل، ولا أن ذلك الرسول أفضل.

وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ شق ذلك على المسلمين، وبلغت منهم مبلغاً شديداً، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «سددوا وقاربوا، فإن في كل ما أصاب المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها»، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة، ومن ثم يرى عامة العلماء الأمراض والأسقام ومصايب الدنيا وهمومها يكفر الله بها الخطايا.

﴿وَلَا يَجِدۡ﴾ الذي يعمل السوء، ويستحق العقاب عليه ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لنفسه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَلِيّٗا﴾ غير الله يتولى أمره، ويدفع الجزاء عنه، ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ ينصره، وينقذه مما يحل به، لا من الأنبياء الذين تفاخر بهم، ولا

من غيرهم من المخلوقات التي اتخذها بعض البشر آلهة وأرباباً من دون اللّه، فكل تلك الأماني تكون أضغاث أحلام، وإنما يكون المدار في ذلك على الإيمان والأعمال، وأما شفاعة الأنبياء والملائكة في حق العصاة فإنما تكون بإذن الله تعالى، وإذا كان الأمر كذلك.. فلا وليَّ لأحد ولا نصير لأحد إلا الله تعالى.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يَجِدْ﴾ بالجزم عطفاً على الجزاء، وروى ابن بكار عن ابن عامر: ﴿ولا يجدُ﴾ بالرفع على الاستئناف.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: بعضها[1]، حالة كونه ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ أو خنثى، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: وحالة كونه مؤمناً، فالحال الأولى لبيان من يعمل، والحال الثانية لإفادة اشتراط الإيمان في كل عمل صالح، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ العاملون المتصفون بالإيمان ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ جزاءً على عملهم الصالح، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾؛ أي: ولا ينقصون من جزاء أعمالهم الصالحة شيئاً قليلاً ولا كثيراً، ولو قدر نقرة النواة.

ويستفاد من الآية: أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة، وأما النعم التي يعطاها المؤمن في الدنيا من عافية ورزق وغير ذلك، فليست جزاء لأعماله الصالحة، بل تكفل الله بها لكل حي في الدنيا مسلماً أو كافراً، وإذا لم[2] ينقص ثواب المطيع، فلأن لا يزاد عقاب العاصي أولى وأحرى، كيف لا والمجازي أرحم الراحمين، وهو السر في الاقتصار على ذكره عقيب الثواب.

ومعنى الآية: أي ومن[3] يعمل كل ما يستطيع عمله من الأعمال التي تصلح بها النفوس، في أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية، سواء كان العامل ذكراً أو أنثى، وهو مطمئن القلب بالإيمان.. فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة، بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم، ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئاً، ولو حقيراً كالنقير.

---

(١) الشوكاني والمراح.
(٢) أبو السعود.
(٣) المراغي.

وفي هذه الآية وما قبلها من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأماني التي يأوي إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين، الذين يظنون أن الله يحابي من يسمي نفسه مسلماً، ويفضله على اليهودي والنصراني لأجل هذا اللقب، فالذين يفخرون بالانتساب إليه وقد نبذوه وراء ظهورهم، وحرموا الاهتداء بهديه، هم في ضلال مبين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿يدخلون﴾ بضم حرف المضارعة مبنياً للمفعول هنا، وفي مريم، وفي أولى غافر، وقرأ كذلك ابن كثير وأبو بكر في ثانية غافر، وقرأ كذلك أبو عمرو في فاطر، وقرأ الباقون بفتحها مبنيا للفاعل.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن النجاة والسعادة منوطان بصالح الأعمال مع الإيمان.. أردف ذلك بذكر درجات الكمال فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾؛ أي: لا أحد أحسن ديناً وطريقة ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: نفسه ﴿لِلَّهِ﴾ وعبر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء؛ أي: ممن عرف ربه بقلبه، وأقر بربوبيته وبعبودية نفسه، وجعل قلبه خالصاً لله وحده، فلا يتوجه إلى غيره في دعاء ولا رجاء، ولا يجعل بينه وبينه حجاباً من الوسطاء والشفعاء، ولا يرى في الوجود إلا هو، ويعتقد أنه سبحانه وتعالى ربط الأسباب بالمسببات، فلا يطلب شيئاً إلا من خزائن رحمته، ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها، وهي السنن والأسباب التي سنها في الخلائق، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: والحال أنه آت بالحسنات تارك للسيئات؛ أي: والحال أنه مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص محسن للعمل، مُتَحَلٍّ بأحسن الأخلاق والفضائل.

وقد عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه؛ لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس، من إقبال وإعراض وسرور وكآبة، وما فيه هو الذي يدل على ما في السريرة، ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ معطوف على أسلم، وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ إما حال من إبراهيم.

والمعنى: أي واتبع ذلك المسلم الذي أسلم وجهه لله، إبراهيم الخليل عليه السلام في دينه وملته الحنيفية، حالة كون إبراهيم حنيفاً، ومائلاً عن الوثنية وأهلها، ومتبرئاً مما كان عليه أبوه وقومه، إلى الدين الحق، والصراط المستقيم

الذي هو عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ وإما حال من المتبع، والمعنى: حالة كون ذلك المتبع مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، الذي هو ملة إبراهيم.

قال ابن عباس[1]: ومن دين إبراهيم عليه السلام الصلاة إلى الكعبة، والطواف، ومناسك الحج، والختان ونحو ذلك. فإن قلت: ظاهر هذه الآية يقتضي أن شرع محمد ﷺ هو نفس شرع إبراهيم عليه السلام، وعلى هذا لم يكن لمحمد ﷺ شرع يستقل به، وليس الأمر كذلك فما الجواب؟.

قلت: إن شرع إبراهيم وملته داخلان في شرع محمد ﷺ وملته، مع زيادات كثيرة حسنة خص الله بها محمداً ﷺ، فمن اتبع ملة محمد ﷺ.. فقد اتبع ملة إبراهيم؛ لأنها داخلة في ملة محمد ﷺ، وشرع إبراهيم داخل في شرع محمد ﷺ، وإنما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لأن إبراهيم عليه السلام كان يدعو إلى توحيد الله وعبادته، ولهذا خصه بالذكر؛ لأنه كان مقبولاً عند جميع الأمم، فإنَّ العرب كانوا يفتخرون بالانتساب إليه، وكذا اليهود والنصارى، وإذا ثبت هذا، وأن شرعه كان مقبولاً عند الأمم، وأن شرع محمد ﷺ وملته هو شرع إبراهيم وملته.. لزم الخلق عموماً الدخول في دين محمد ﷺ، وقبول شرعه وملته.

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾؛ أي: صفياً بالرسالة والنبوة، محباً له خالص الحب؛ أي: اصطفاه الله سبحانه وتعالى من أهل أرضه بالنبوة والرسالة، لإقامة دينه، وتوحيده في بلاد غلبت عليها الوثنية، وأفسد الشرك عقول أهلها، وقد بلغ من الزلفى عند ربه ما صح به أن يسمى خليلاً وصفياً، فقد اختصه بكرامة ومنزلة تشبه الخليل لدى خليله، ومن كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تُتبع ملته وتؤتسى طريقته.

---

(١) الخازن.

والخلاصة: أنه مَنَّ عليه بسلامة الفطرة، وقوة العقل، وصفاء الروح، وكمال المعرفة، وفنائه في التوحيد.

وإنما سمي[1] إبراهيم خليلاً لأنه انقطع إلى الله في كل حال، وقيل: لأنه والى في الله وعادى في الله، وقيل: لأنه تخلق بأخلاق حسنة وخلال كريمة، وقيل: الخليل المحب الذي ليس في محبته خلل، وسمي إبراهيم خليل الله لأنه أحبه محبة كاملة ليس فيها نقص ولا خلل، وأُنشد في معنى الخلة التي هي بمعنى المحبة:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ ٱلرُّوحِ مِنِّيْ ... وَبِهِ سُمِّيَ ٱلْخَلِيْلُ خَلِيْلاَ

ومعنى خلة العبد لربه: جعل فقره وفاقته وحاجته إلى الله تعالى، ومعنى خلة الله للعبد: هي تمكينه من طاعته وعصمته وتوفيقه وستر خلله ونصره والثناء عليه، فقد أثنى الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام، وجعله إماماً للناس يقتدى به.

ثم ذكر ما هو كالعلة لما سبق بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا لغيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً؛ أي: إن كل ما في السموات والأرض ملك له ومن خلقه، مهما اختلفت صفات المخلوقات.. فجميعها مملوكة عابدة له، خاضعة لأمره، يصطفي من يشاء منها بما شاء من كرمه وجوده، لا اعتراض عليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أهل السموات والأرض وغيرهما ﴿مُّحِيطًا﴾ إحاطة قهر وتسخير، وإحاطة علم وتدبير، وإحاطة وجود؛ لأن هذه الموجودات ليس وجودها من ذاتها، ولا هي ابتدعت نفسها، بل وجودها مستمد من ذلك الوجود الأعلى، فالوجود الإلهي هو المحيط بكل موجود، فوجب أن يخلص له الخلق، ويتوجه إليه العباد، فهذه الجملة مقررة لمعنى الجملة التي قبلها؛ أي: أحاط علمه بكل شيء، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد جاءت هذه الآية خاتمة لما تقدم لفوائد:

---

(١) الخازن.

منها: بيان الدليل على أنه المستحق وحده لإسلام الوجه له، والتوجه إليه في كل حال؛ لأنه هو المالك لكل شيء، وغيره لا يملك لنفسه شيئاً.

ومنها: نفي ما يتوهم في اتخاذ إبراهيم خليلاً من أن هناك شيئاً من المقاربة في حقيقة الذات والصفات.

ومنها: التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده في الآيات التي قبلها، إذ من له ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً فهو أكرم من وعد، وفي «الفتوحات»: وهذه الجملة مستأنفة، مقررة لوجوب طاعة الله تعالى، وقيل: لبيان أن اتخاذه لإبراهيم خليلاً ليس لاحتياجه إلى ذلك، كما هو شأن الآدميين، وقيل: لبيان أن الخلة لا تخرج إبراهيم عن رتبة العبودية، وقيل: لبيان أن اصطفائه إبراهيم للخلة بمحض مشيئته تعالى اهـ.

فصل

وقد اتخذ الله تعالى محمداً ﷺ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فقد ثبت في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي.. لاتخذت أبا بكر خليلاً».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً.. لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً» أخرجه مسلم، فقد ثبت بهذين الحديثين الخلة للنبي ﷺ، وزاد على إبراهيم عليه السلام بالمحبة، فمحمد ﷺ خليل الله وحبيبه، فقد جاء في الحديث عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر» أخرجه الترمذي بأطول منه.

الإعراب

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

﴿لَّا﴾: نافية عاملة عمل إن، ﴿خَيْرَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿فِي

﴿كَثِيرٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، والجملة مستأنفة، ﴿مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿كَثِيرٍ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ولكنه على حذف مضاف تقديره: إلا نجوى من أمر، أو في محل الجر بدل من ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾، ﴿أَمَرَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿بِصَدَقَةٍ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ﴾: معطوفان على ﴿صدقة﴾، ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿إِصْلَٰحٍ﴾، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: فعل ومفعول، مجزوم على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله مضاف، ﴿مَرْضَاتِ﴾: مضاف إليه، وهو مضاف، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة تسويفية، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس، ﴿نُؤْتِيهِ﴾: فعل مضارع، ومفعول أول، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ﴿أَجْرًا﴾ وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجزم جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿من يشاقق الرسول﴾: جازم ومجزوم ومفعول، و﴿مَنْ﴾: في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُشَاقِقِ﴾، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماض، ﴿لَهُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد تبين الهدى له، ﴿وَيَتَّبِعْ﴾: معطوف على ﴿يُشَاقِقِ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿نُوَلِّهِۦ﴾: فعل ومفعول أول، مجزوم بـ﴿من﴾

على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى أو مستأنفة، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لولى، ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ومفعوله محذوف تقديره تولاه، وهو العائد على ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿وَنُصْلِهِۦ﴾: فعل ومفعول أول، معطوف على ﴿نُوَلِّهِۦ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿جَهَنَّمَ﴾: مفعول ثان، ﴿وَسَآءَتْ﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير يعود على ﴿جَهَنَّمَ﴾، ﴿مَصِيرًا﴾: تمييز، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا يَغْفِرُ﴾: ناف وفعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يُشْرَكَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بـ﴿أنْ﴾، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: لا يغفر الإشراك به، ﴿وَيَغْفِرُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَا يَغْفِرُ﴾، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف صل لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَغْفِرُ﴾، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ومفعوله محذوف، تقديره: لمن يشاء غفران ذنوبه، والجملة صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يُشْرِكْ﴾: فعل شرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على

﴿من﴾، ﴿ضَلَٰلًۢا﴾: منصوب على المصدرية، ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾﴾.

﴿إن﴾: نافية، ﴿يَدۡعُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَدۡعُونَ﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿إِنَٰثٗا﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: نافية، ﴿يَدۡعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿شَيۡطَٰنٗا﴾: مفعول به، ﴿مَّرِيدٗا﴾: صفة له. ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب صفة ثانية لـ﴿شَيۡطَٰنٗا﴾، ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أتخذن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، ﴿مِنۡ عِبَادِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أتخذن﴾ أو حال من ﴿نَصِيبٗا﴾، ﴿نَصِيبٗا﴾: مفعول به، ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾: صفة له، والجملة الفعلية مع القسم المحذوف في محل النصب مقول القول.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أضلن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب، و﴿الهاء﴾: مفعول به، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة مع القسم المحذوف في محل النصب معطوفة على

جملة قوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لأمنينهم﴾: لام قسم وفعل ومفعول ونون توكيد، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لآمرنهم﴾: لام قسم وفعل ومفعول ونون توكيد، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة مع القسم المحذوف معطوفة على جملة ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾، ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: زائدة زيدت لتأكيد القسم المذكور قبله، ﴿يبتكن﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿آمرن﴾ على كونها جواباً للقسم المحذوف، وأصله: والله لآمرنهم فيبتكونن، ﴿ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ مفعول به ومضاف إليه وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ مع القسم المحذوف معطوف على قوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: زائدة زيدت لتأكيد القسم المذكور قبله، ﴿يغيرن﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والأصل: ولآمرنهم بالتغيير فيغيرونن، والجملة معطوفة على جملة ﴿آمرنهم﴾، ﴿خَلْقَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿يَتَّخِذِ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿مَنْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾: مفعول أول، ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول ثان، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿وليا﴾، ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿خَسِرَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿خُسْرَانًا﴾: مفعول مطلق، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة لـ﴿خُسْرَانًا﴾، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿يَعِدُهُمْ﴾: فعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: يعدهم

طول العمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ويمنيهم نيل الآمال، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَعِدُهُمۡ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿غُرُورًا﴾: مفعول ثان لـ﴿يعد﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يَعِدُهُمۡ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢١﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول، ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾: مبتدأ ثان ومضاف إليه، ﴿جَهَنَّمُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنۡهَا﴾: حال من ﴿مَحِيصٗا﴾: وهو مفعول به لوجد، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة المبتدأ الثاني، على كونها خبراً للمبتدأ الأول، أو معطوفة على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿جَنَّٰتٖ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَجۡرِي﴾، ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٖ﴾، ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من هاء ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾، ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿أَبَدٗاۖ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾: مصدر مؤكد لمضمون جملة قوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ منصوب بفعل محذوف، تقديره: وعدهم الله ذلك الإدخال وعداً، لأن قوله:

﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ بمنزلة وعدهم، ﴿حَقًّا﴾: حال من المصدر المذكور قبله، أو منصوب بفعل محذوف، تقديره: حق ذلك حقاً، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أَصْدَقُ﴾، ﴿قِيلًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على المفهوم من المقام، تقديره: ليس الأمر من الثواب والفضل، ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف، تقديره: ليس الأمر منوطا بأمانيكم، وجملة ﴿لَّيْسَ﴾ مستأنفة، ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ﴾: معطوف على ﴿أمانيكم﴾ وهو مضاف، ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه، ﴿مَن﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يَعْمَلْ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿سُوٓءًا﴾: مفعول به، ﴿يُجْزَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب الشرط، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَا يَجِدْ﴾: معطوف على ﴿يُجْزَ﴾ مجزوم بـ﴿مَنْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من ﴿وَلِيًّا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول ﴿يَجِدْ﴾، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: معطوف عليه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يَعْمَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾، ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: متعلق به، ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَعْمَلْ﴾، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة حال أيضاً من فاعل ﴿يَعْمَلْ﴾، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾

﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿نَقِيرًا﴾: مفعول ثان، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَدْخُلُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿دِينًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، والجملة مستأنفة، ﴿مِّمَّنْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَحْسَنُ﴾ ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾: فعل ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ والجملة صلة الموصول، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَسْلَمَ﴾، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة حال من فاعل ﴿أَسْلَمَ﴾، ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ معطوف على ﴿أَسْلَمَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿مِلَّةَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه، ﴿حَنِيفًا﴾: حال من فاعل ﴿اتبع﴾، أو حال من إبراهيم المضاف إليه لوجود شرطه، كما قال ابن مالك:

وَلاَ تُجِزْ حَالاً مِنَ ٱلْمُضَافِ لَهْ ... إلاَّ إِذَا ٱقْتَضَىٰ ٱلْمُضَافُ عَمَلَهْ

أَوْ كَانَ جُزْءَ مَالَهُ أُضِيفَا ... أَوْ مِثْلَ جُزْئِهِ فَلا تَحِيفَا

فإن الملة لا تفارق الشخص، فهي كجزئه من هذه الجهة، ومتى كان المضاف جزءاً أو كالجزء من المضاف. صار كأنه صاحب الحال، فيصح توجه عامله للحال، ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿خَلِيلًا﴾: مفعول ثان، أو حال من إبراهيم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والجملة

الاسمية مستأنفة، ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُّحِيطًا﴾: وهو خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾: النجوى[1] مصدر كالدعوى، يقال نجوت الرجل أنجوه نجوى، من باب دعا، إذا ناجيته، قال الواحدي: ولا تكون النجوى إلا بين اثنين، وقال الزجاج: النجوى ما انفرد به الجماعة، أو الاثنان سراً كان أو ظاهراً انتهى. وقال ابن عطية: النجوى المسارة بالحديث، وتطلق النجوى على القوم المتناجين؛ أي: المتسارين، وهو من باب قوم عدل وصف بالمصدر، وقال الكرماني: النجوى جمع نجي، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾، ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ المعروف هو ما تعرفه النفوس وتقره، وتتلقاه بالقبول. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ مصدر ابتغى الخماسي من باب افتعل، ثلاثية بغى ـ من باب رمى ـ يبغى بغاء، بضم أوله، وبغياً وبغية إذا طلب الشيء، ﴿مَرْضَاتِ﴾ مصدر ميمي بمعنى الرضوان؛ لأنه على وزن مفعلة، فأصله مرضوة فألفه بدل من الواو، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ شاقق من باب فاعل، والمشاقة المعاداة والمخالفة، مأخوذة من الشق، كأن كل واحد من المتعاديين يكون في شق غير الذي فيه الآخر، وإنما جاز إظهار القاف الأولى هنا؛ لأن الثانية سكنت بالجزم، وحركتها عارضة لالتقاء الساكنين. ﴿مَّرِيدًا﴾ المَريدُ العاتي المتمرد، من مَرُدَ ـ من باب ظرف ـ إذا عتا وتجبر، والمرِّيد ـ بوزن السكِّيت ـ الشديد المرادة والعتو، قال الأزهري: يقال مرد الرجل إذا عتا وخرج عن الطاعة، فهو مارد ومريد، ويقال مرد الرجل إذا عتا وعلا في الحذاقة وتجرد للشر والغواية، قال ابن عيسى: وأصله التملس يقال شجرة مرداء؛ أي: ملساء تناثر ورقها، وغلام أمرد لا نبات بوجهه، وصرح ممرد مملس، لا يعلق به شيء لملاسته، والمارد الذي لا يعلق بشيء من الفضائل.

---

(١) البحر المحيط.

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ من البتك وهو الشق والقطع، ومنه سيف باتك؛ أي: قاطع، يقال بتك يبتك ـ من بابي ضرب ونصر ـ بتكاً إذا شقه أو قطعه، وبتَّك بالتشديد للتكثير، كما في الآية. والبِتَكُ بكسر أوله وفتح ثانيه بوزن عنب القطع من الشيء واحدها بتكة، بفتح أوله وسكون ثانيه قال الشاعر:

حَتَىٰ إِذَا مَا هَوَتْ كَفُّ ٱلْوَلِيْدِ لَهَا ... طَارَتْ وَفِيْ كَفِّهِ مِنْ رِيْشِهَا بِتَكُ

﴿مَحِيصًا﴾، المحيص مفعل من حاص يحيص ـ من باب باع ـ حيصاً وحيوصاً ومحاصاً ومحيصاً، وحيصاناً بفتح الياء إذا حاد وعدل عنه، أو زاغ بنفور، ومنه فحاصوا حيصة حمر الوحش، ومنه قول الشاعر:

وَلَمْ نَدْرِ أَنَّ حِصْنَاً مِنَ ٱلْمَوْتِ حِيْصَةٌ ... كَمِ ٱلْعُمْرُ بَاقٍ وَٱلْمَدَا مُتَطَاوِلُ

ويقال ما منه محيص؛ أي: محيد ومهرب، والمحاص مثل المحيص قال الشاعر:

تَحِيْصُ مِنْ حُكْمِ ٱلْمَنِيَّةِ جَاهِدَاً ... مَا لِلرِّجَالِ عَنِ ٱلْمَنُوْنِ مَحَاصُ

وفي المثل: وقعوا في حيص بيص، وحاص باص إذا وقع في أمر لا يقدر على التخلص منه، ويقال حاص يحوص ـ من باب قال ـ حوصاً وحياصاً إذا نفر وزايل المكان الذي فيه، والحوص في العين ضيق مؤخرها. ﴿قِيلًا﴾ القيل مصدر كالقول والقال، وقال ابن السكيت: القيل والقال اسمان لا مصدران، ونصبه هنا على التمييز كما مر.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الأماني واحدها أمنية، وهي الصورة التي تحصل في النفس من تمني الشيء وتقديره، وكثيراً ما يطلق التمني على ما لا حقيقة له، ومن ثم يعبرون به عن الكذب، كما قال عثمان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت منذ أسلمت، ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف فعيل بمعنى فاعل، فالحنيف المائل عن الزيغ والضلال إلى الحق والعدل. ﴿خَلِيلًا﴾ الخليل فعيل من الخلة بفتح الخاء، وهي الفقر والفاقة؛ لأنه جعل فقره وحاجته إلى الله، أو من الخلة بضم الخاء وهي المودة والمحبة التي تتخلل النفس وتمازجها، أو من الخَلَل، قال ثعلب: إنما

سمي الخليل خليلاً؛ لأن محبته تتخلل القلب، فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته وأنشد قول بشار:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ ٱلرُّوْحِ مِنِّيْ وَبِهِ سُمِّيَ ٱلْخَلِيْلُ خَلِيْلاَ

وخليل إما فعيل بمعنى فاعل، كالعليم بمعنى العالم، وإما بمعنى مفعول، كالحبيب بمعنى المحبوب، وقد كان إبراهيم عليه السلام محبوباً للّه ومحباً له. ﴿مُّحِيطًا﴾ اسم فاعل من أحاط الرباعي يحيط إحاطة، كأعان يعين إعانة؛ أي: عالماً بكل شيء من الجزئيات والكليات، فهو يجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها قليلها وكثيرها.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع[1]:

منها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا﴾، وفي قوله: ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا﴾، وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ و﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿لَا يَغْفِرُ﴾ و﴿يَغْفِرُ﴾، وفي قوله: ﴿يُشْرِكْ﴾ ﴿وَمَن يُشْرِكْ﴾، وفي ﴿لآمرنهم﴾، وفي: اسم الشيطان، وفي قوله: ﴿يَعِدُهُمْ﴾ و﴿ما يعدهم﴾، وفي الجلالة، في مواضع، وفي قوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ﴾، وفي قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ﴾، وفي ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.

ومنها: الطباق المعنوي في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾، و﴿ٱلْهُدَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، و﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ يعني المؤمن، وفي قوله: ﴿سُوٓءًا﴾ و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ﴾ وفي قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ و﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وفي قوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

ومنها: التأكيد بالمصدر في قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، عبر به عن القصد أو الجهة، وفي قوله: ﴿مُّحِيطًا﴾ عبر به عن العلم بالشيء، من جميع جهاته.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ لتفخيم شأنه، والتنصيص على أنه متفق على مدحه.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى
ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن
تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ
بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ
ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ
أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن
تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا
فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ
بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ
بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ
مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها ظاهرة بالنظر[1] إلى ما كانت عليه العرب من تربيع كلامها، أنها تكون في أمر ثم تخرج منه إلى شيء، ثم تعود إلى ما كانت فيه أولاً، وهكذا كتاب الله سبحانه وتعالى، يبين فيه أحكام تكليفه، ثم يعقب بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ثم يعقب

(١) البحر المحيط.

ذلك بذكر المخالفين المعاندين الذين لا يتبعون تلك الأحكام، ثم بما يدل على كبرياء الله تعالى وجلاله، ثم يعود لتبيين ما تعلق بتلك الأحكام السابقة، وقد عرض هنا في هذه السورة أن بدأ بأحكام النساء والمواريث وذكر اليتامى، ثم ثانياً بذكر شيء من ذلك في هذه الآية، ثم أخيراً بذكر شيء من المواريث أيضاً، ولما كانت النساء مطروحاً أمرهن عند العرب في الميراث وغيره، وكذلك اليتامى.. أكد الحديث فيهن مراراً ليرجعوا عن أحكام الجاهلية.

وعبارة المراغي هنا: لما كان الكلام[١] أول السورة في الأحكام المتعلقة بالنساء واليتامى والقرابة، ومن قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى هنا في أحكام عامة في أسس الدين وأصوله، وأحوال أهل الكتاب والمنافقين والقتال.. عاد الكلام هنا إلى أحكام النساء، لشعور الناس بالحاجة إلى زيادة البيان في تلك الأحكام، فالآيات السالفة أوجبت مراعاة حقوق الضعيفين المرأة واليتيم، وجعلت للنساء حقوقاً مؤكدة في المهر والإرث، وحرمت ظلمهن، وأباحت تعدد الزوجات، وحددت العدد الذي يحل منهن حين عدم الخوف من الظلم، ولكن ربما يحدث لهم الاشتباه في بعض الوقائع المتعلقة بها، كأن يقع الاشتباه في حقيقة العدل الواجب بين النساء، هل يدخل العدل في الحب أو في لوازمه من زيادة الإقبال على المحبوبة، والتبسط في الاستمتاع بها، أو لا؟ وهل يحل للرجل أن يمنع اليتيمة ما كتب الله لها من الإرث حين يرغب في نكاحها؟ وبماذا يصالح امرأته إذا أرادت أن تفتدي منه؟ كل هذا مما تشتد الحاجة إلى معرفته بعد العمل بتلك الأحكام، فمن ثم جاءت هذه الآيات مبينة أتم البيان لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[٢] وتعالى لما أمر أولاً بالعدل والإحسان إلى اليتامى والمساكين.. بين هنا أنه ما أمر بهذه الأشياء لاحتياجه إلى أعمال العباد؛ لأن كل ما في السموات والأرض

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

ملكه، فهو مستغن عنهم، وقادر على تثبيتهم على طاعته فيما شرعه لخيرهم ومصلحتهم، بل ليزدادوا بتدبرها إيماناً يحملهم على العمل بها والوقوف عند حدودها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر النساء والنشوز والمصالحة.. أعقبه بالقيام بأداء حقوق الله تعالى، وفي الشهادة حقوق لله، أو لأنه لما ذكر تعالى طالب الدنيا، وأنه عنده ثواب الدنيا والآخرة.. بين أن كمال السعادة أن يكون قول الإنسان وفعله لله تعالى، أو لأنه ذكر في هذه السورة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ والإشهاد عند دفع أموال اليتامى إليهم، وأمر ببذل النفس والمال في سبيل الله، وذكر قصة بن أبيرق، واجتماع قومه على الكذب والشهادة بالباطل، وندب للمصالحة.. أعقب ذلك بأن أمر عباده المؤمنين بالقيام بالعدل والشهادة لوجه الله سبحانه وتعالى، وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ حتى لا يكون منهم جور ما.

وقيل: المناسبة أن الله سبحانه وتعالى لما أمر(١) بالقسط في اليتامى والنساء، في سياق الاستفتاء فيهن؛ لأن حقهن آكد، وضعفهن معهود.. عمم الأمر هنا بالقسط بين الناس؛ لأن قوام أمور الاجتماع لا يكون إلا بالعدل، وحفظ النظام لا يتم إلا به، وبما فيه من الشهادة لله بالحق، ولو على النفس والوالدين والأقربين، وعدم محاباة أحد لغناه أو لفقره؛ لأن العدل مقدم على حقوق النفس وحقوق القرابة وغيرها، وقد كانت سنة الجاهلية محاباة ذوي القربى؛ لأنه يعتز بهم، كما كانوا يظلمون النساء واليتامى لضعفهن وعدم الاعتزاز بهن.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها(٢): أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالقيام بالقسط والشهادة لله.. بين أنه لا يتصف بذلك إلا من كان راسخ القدم في الإيمان بالأشياء المذكورة في هذه الآية، فأمر بها.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية، قالت[1]: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها، قد شركته في مالها حتى في المذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجها رجلاً فيشركه في مالها، فيعضلها، فنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي: كان لجابر بنت عم دميمة، ولها مال ورثته عن أبيها، وكان جابر يرغب عن نكاحها، ولا يُنكِحها خشية أن يذهب الزوج بمالها، فسأل النبي ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري (ج ٩/ ص ٣٣٤) عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية في ذلك. الحديث رواه مسلم (ج ٨/ ص ١٥٧).

وقد أخرج أبو داود والترمذي والطيالسي، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي وابن جرير: أنها نزلت في شأن سودة، أخرجه الترمذي والطيالسي وابن جرير من حديث ابن عباس، وأخرجه أبو داود والحاكم وابن جرير أيضاً من حديث عائشة، ولفظ أبي داود: قالت عائشة لعروة: يا ابن أختي كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى التي هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله يومي لعائشة، فقبل رسول الله ﷺ ذلك منها، قالت: تقول في ذلك أنزل الله عز وجل وفي أشباهها، أراه قال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾.

---

(١) لباب النقول.

وأخرج الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي عن رافع بن خديج أنه كان تحته امرأة قد خلا من سنها، فتزوج عليها شابة، فآثر البكر عليها، فأبت امرأته الأولى أن تقر على ذلك، فطلقها تطليقة حتى إذا بقي من أجلها يسير.. قال: إن شئت راجعتك وصبرت على الأمر، وإن شئت تركتك حتى يخلو أجلك، قالت: بل راجعني أصبر على الأثرة، ثم آثر عليها فلم تصبر على الأثرة، فطلقها الأخرى، وآثر عليها الشابة، قال: فذلك الصلح الذي بلغنا أن الله قد أنزل فيه: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ﴾.

وأخرج الحاكم[1] عن عائشة قالت: نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ﴾ في رجل كانت تحته امرأة قد ولدت له أولاداً، فأراد أن يستبدل بها، فراضته على أن تقر عنده ولا يقسم لها.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: جاءت امرأة حين نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: إني أريد أن تقسم لي من نفقتك، وقد كانت رضيت أن يدعها فلا يطلقها ولا يأتيها، فأنزل الله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[2] ابن أبي حاتم عن السدي قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ حين اختصم إليه رجلان غني وفقير، وكان النبي ﷺ مع الفقير يرى أن الفقير لا يظلم الغني، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾؛ أي: يستخبرك ويسألك يا محمد جماعة من الصحابة ما أشكل عليهم ﴿فِى﴾ شؤون ﴿ٱلنِّسَآءِۖ﴾ وحقوقهن، ويطلبونك ببيان ما غمض وخفي عليهم من أحكامهن، من جهة حقوقهن المالية والزوجية، كالعدل في المعاشرة

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

وحين الفرقة والنشوز، والاستفتاء طلب الفتوى، وهو إظهار ما أشكل من الأحكام الشرعية وكشفه وتبيينه، قال المفسرون: والذي استفتوه فيه هو ميراث النساء والصغار، وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار من الأولاد، فلما نزلت آية الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾.. قالوا: يا رسول الله كيف ترث المرأة والصغير، وكيف نعطي المال من لا يركب فرساً، ولا يحمل سلاحاً، ولا يقاتل عدواً؟ فأجابهم بهذه الآية فقال: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد في جواب استفتائهم ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُفۡتِيكُمۡ﴾؛ أي: يبين لكم ما أشكل عليكم ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: في حقوقهن وشؤونهن من الميراث والمعاشرة وغير ذلك، بما يوحيه إليك من الأحكام المبينة في الأحاديث، وبما سيأتي من الآيات الكريمة المتعلقة بشؤون النساء، ﴿وَ﴾ يبين لكم أيضاً ﴿ما يتلى﴾ ويقرأ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: في القرآن مما نزل في أول هذه السورة ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: في بيان حقوق اليتامى من النساء، وقرىء[1] ﴿في ييامى النساء﴾ بيائين والأصل أيامى النساء، فأبدلت الهمزة ياء، كما قالوا: فلان ابن أعصر ويعصر، ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾؛ أي: اللاتي لا تعطونهن ما وجب لهن من الميراث أو الصداق، وذلك لأنهم يورثون الرجال دون النساء، والكبار دون الصغار، فإنهم لا يعطونهن ما كتب لهن من الإرث إذا كان في أيديهم لولايتهم عليهن، ﴿وَتَرۡغَبُونَ﴾؛ أي: تطمعون في ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ وتتزوجوهن لمالهن وجمالهن بأقل من صداقهن، أو ترغبون وتعرضون عن أن تنكحوهن وتتروجوهن لدمامتهن، وتمسكوهن رغبة في مالهن، فلا تنكحوهن ولا تُنكحوهن غيركم حتى يبقى مالهن في أيديكم، وقد كان الرجل منهم يضم اليتيمة ومالها إلى نفسه، فإن كانت جميلة.. تزوجها وأكل المال، وإن كانت دميمة.. عضلها عن التزوج حتى تموت فيرثها، والمراد بالذي يتلى في يتامى النساء هو قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ...﴾ الآية، وقوله: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ معطوف على يتامى النساء؛ أي: ويبين لكم ما يتلى

---

(١) العكبري.

ويقرأ عليكم أيضاً في شأن المستضعفين من الولدان والصغار، الذين لا تعطونهم نصيبهم من الميراث، وقد كانوا يورثون الرجال دون الأطفال والنساء، والمراد بالذي يتلى في حق المستضعفين قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾، وقوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ معطوف أيضاً على يتامى النساء؛ أي: ويبين لكم ما يتلى ويقرأ عليكم أيضاً في أن تقوموا لليتامى بالقسط؛ أي: يتلى عليكم في طلب قيامكم بالقسط والعدل في شؤون اليتامى من هؤلاء النساء والولدان المستضعفين، بأن تهتموا بهم اهتماماً خاصاً، وتعتنوا بشأنهم، ويجري العدل في معاملتهم على أكمل الوجوه وأتمها، فإن ذلك هو الواجب الذي لا هوادة فيه، ولا خيرة في شأنه، والمراد بالذي يتلى في ﴿أن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾.

والخلاصة: أن الذي يتلى في الضعيفين ـ المرأة واليتيم ـ هو ما تقدم في أول السورة، وأن الله يذكرهم بتلك الآيات المفصلة ليتدبروها ويتأملوا معانيها، ثم يعملوا بها، إذ قد جرت طباع البشر أن يتغافلوا عن دقائق الأحكام والعظات التي ترجعهم عن أهوائهم، وتؤنبهم على اتباع شهواتهم.

واعلم: أن المفهوم من الآية كون المفتي اثنين:

أحدهما: الله سبحانه وتعالى، يفتي ويبين بما يوحي إلى رسوله ﷺ من الأحاديث الواردة في حقوق النساء واليتامى وشؤونهن، وبما سيأتي من الآيات الكريمة، كالآية التالية لهذه الآية من قوله: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا﴾، وغيرها من الآيات المتعلقة بشؤون النساء.

والثاني: الكتاب يفتي ويبين بما يتلى منه في أول هذه السورة من الآيات النازلة في شؤونهن، والله أعلم بمعنى كتابه، فتأمل، وفيه مزيد اعتناء بتلك الفتوى.

ثم رغبهم في العمل بما فيه فائدة لليتامى، وحبب إليهم النصفة فقال تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾؛ أي: وما تفعلوا من الخير أو الشر ففيه اكتفاء لليتامى، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الخير المفعول ﴿عَلِيمٗا﴾ لا يعزب عن علمه شيء، ولا يضيع عنده شيء، فيجازيكم عليه، وهذا وعد لمن آثر الخير لهم.

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ﴾؛ أي: وإن خافت وتوقعت امرأة وزوجة ﴿مِنۢ بَعۡلِهَا﴾ وزوجها ﴿نُشُوزًا﴾؛ أي: ترفعاً عليها بما لاح لها من قرائن وأمارات، بأن منعها نفسه ونفقتها، والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة، أو آذاها بسبٍّ أو ضرب أو نحو ذلك، ﴿أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ عنها بوجهه، بأن قلل من محادثتها ومؤانستها، لبعض أسباب من طعن في سن، أو دمامة، أو شيء في الأخلاق والخلق، أو ملال لها، أو طموح إلى غيرها، أو نحو ذلك.

ولكن الواجب عليها أن تتثبت فيما تراه من أمارات الإعراض، فربما كان الذي شغله من مسامرتها والرغبة في مباعلتها عوارض من مشاكل الحياة الدنيوية أو الدينية، وهي أسباب خارجية لا دخل لها فيها، ولا تعلق لها بكراهتها والجفوة عنها، وحينئذ عليها أن تعذره وتصبر على ما لا تحب من ذلك، أما إذا استبان لها أن ذلك لكراهته إياها ورغبته عنها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ﴾؛ أي: فلا حرج ولا إثم على الزوج والمرأة حنيئذ في ﴿أَن يُصۡلِحَا﴾ ويتوافقا فيما ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ ويفعلا ﴿صُلۡحًاۚ﴾؛ أي: أمراً فيه صلاح وموافقة لهما عليه، كأن تسمح له ببعض حقها عليه في النفقة، أو المبيت معها، أو بحقها كله فيهما، أو في أحدهما لتبقى في عصمته مكرمة، أو تسمح له ببعض المهر ومتعة الطلاق، أو بكل ذلك ليطلقها كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ وإنما يحل له ذلك إذا كان برضاها، لاعتقادها أن الخير لها في ذلك؛ بلا ظلم ولا إهانة.

وقد روي أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها، وكان لها منه ولد، فقالت له: لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي وتقسم لي في كل شهرين، فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إلي، فأقرها على ما طلبت بعد ما أتى رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك، وأنزلت الآية فيه.

وهذا من جملة ما أخبر الله تعالى أنه يفتيهم به في النساء، مما لم يتقدم ذكره في هذه السورة، وقرأ الكوفيون[1]: ﴿يصلحا﴾ من أصلح الرباعي على وزن

---

(١) البحر المحيط.

أكرم، وقرأ باقي السبعة: ﴿يُصْلِحَا﴾ وأصله يتصالحا وأدغمت التاء في الصاد، وقرأ عبيدة السلماني ﴿يصالحا﴾ من المفاعلة، وقرأ الأعمش: ﴿أن أصالحا﴾، وهي قراءة ابن مسعود جعل ماضياً، وأصله تصالح على وزن تفاعل، فأدغم التاء في الصاد، واجتلبت همزة الوصل، والصلح ليس مصدراً لشيء من هذه الأفعال التي قرئت، فإن كان اسما لما يصلح به كالعطاء من أعطى.. فيحتمل أن يكون انتصابه على إسقاط حرف الجر؛ أي: يصلح،؛ أي: بشيء يصطلحان عليه، ويجوز أن يكون مصدراً لهذه الأفعال على حذف الزوائد. ﴿وَٱلصُّلْحُ﴾؛ أي: والمسامحة والمصالحة على شيء مما سبق ذكره ﴿خَيْرٌ﴾ من سوء العشرة وكثرة الخصومة، أو خير من التسريح والفراق؛ لأن رابطة الزوجية من أعظم الروابط، وأحقها بالحفظ، وميثاقها من أغلظ المواثيق، وعروض الخلاف بين الزوجين، وما يترتب عليه من نشوز وإعراض وسوء معاشرة من الأمور الطبيعية التي لا يمكن زوالها، وأفعل التفضيل في قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ ليس على بابه.

وأجمل ما جاء في الإسلام لمنع الخلاف بين الزوجين هو المساواة بينهما في كل شيء، إلا القيام برياسة الأسرة، لأنه أقوى من المرأة بدناً وعقلاً، وأقدر على الكسب، وعليه النفقة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فيجب على الرجل أن يعاشرها بالمعروف، وأن يتحرى العدل بقدر المستطاع، ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾؛ أي: جعلت الأنفس عرضة وهدفاً للشح والبخل، وجعل الشح حاضراً لها لا يغيب عنها، ولا ينفك عنها أبداً، والفعل فيه مبني للمفعول، والمعنى: أحضر الله الأنفس الشح؛ أي: جبلها عليه، فمتى تعلقت الأنفس بشيء منه.. فلا ترجع عنه إلا بمشقة، يعني: أن أنفسهما بل أنفس كل إنسان طبعت وجبلت على البخل بما يلزمها، أو بما يحسن فعله من الخيرات، فإذا عرض لها داع من دواعي البذل.. ألم بها الشح والبخل، ونهاها أن تبذل ما ينبغي بذله لأجل الصلح، فالنساء حريصات على حقوقهن في القسم والنفقة وحسن العشرة، والرجال حريصون على أموالهم أيضاً، فينبغي أن يكون التسامح بينهما كاملاً؛ إذ هما قد ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بذلك الميثاق العظيم، وأفضى بعضهما إلى بعض،

وقرأ العدوي[1]: ﴿الشح﴾ بكسر الشين، وهي لغة.

ثم رغب في بقاء الرابطة الزوجية جهد المستطاع، فقال: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ﴾ أيها الأزواج العشرة مع نسائكم، وإن كرهتموهن، بأن تسووا بين الشابة والعجوز في القسم والنفقة، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ما يؤدي إلى الأذى والخصومة من الجور والميل، وتجتنبوا أسباب النشوز والإعراض، وما يترتب عليهما من الشقاق.. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه يجازيكم على ذلك الإحسان والتقوى، ويثيبكم عليهما، لأنه تعالى: ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان وغيره ﴿خَبِيرًا﴾؛ أي: عالماً لا يخفى عليه شيء منه، فيجازيكم عليه الجزاء الأوفى، وكان عمران بن حطان الخارجي من أُدم الناس، وامرأته من أجملهن، فأجالت في وجهه نظرها، ثم تابعت الحمد لله، فقال: ما لَكِ؟ فقالت: حمدت الله على أني وإياك من أهل الجنة، قال: كيف؟ قالت: لأنك رزقت مثلي فشكرت، ورزقت مثلك فصبرت، وقد وعد الله الجنة الشاكرين والصابرين.

ثم بين أن العدل بين النساء في الميل القلبي في حكم المستحيل، فعلى الرجل أن يفعل جهد المستطاع، فقال: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ﴾؛ أي: ولن تقدروا أيها الأزواج على ﴿أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: على العدل والتسوية بين الزوجات في الحب وميل القلب، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وجهدتم وتحريتم وبالغتم، وكلفتم أنفسكم على التسوية بينهن في الحب والميل القلبي، حتى لا يقع ميل إلى إحداها بلا زيادة ولا نقص، ولو قدرتم لما قدرتم على إرضائها به، ومن ثم رفع الله ذلك عنكم، وما كلفكم إلا العدل فيما تستطيعون، بشرط أن تبذلوا فيه وسعكم، لأن الباعث على الكثير من هذا الميل هو الوجدان النفسي والميل القلبي الذي لا يملكه المرء، ولا يحيط به اختياره، ولا يملك آثاره الطبيعية، ولهذا خفف الله ذلك عنكم، وبين أن العدل الكامل غير مستطاع، ولا يتعلق به تكليف ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾؛ أي: وإذا كان ذلك غير مستطاع لكم، فعليكم أن لا تميلوا كل الميل إلى من تحبون منهن في القسم والنفقة، وتعرضوا عن الأخرى ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾؛ أي: فتتركوا التي أعرضتم عنها فتجعلوها كأنها ليست

---

(١) البحر المحيط.

بالمتزوجة ولا بالمطلقة، لا أيِّماً ولا ذات بعل، كالشيء المعلق، لا هو في السماء ولا هو على الأرض، بل هو في تعب، وقيل معناه: كالمسجونة، لا هي مخلصة فتتزوج، ولا هي ذات بعل فيحسن إليها، فإن الذي يُغفر لكم من الميل ويسامَح لكم هو ما لا يدخل تحت اختياركم، ولا يكون فيه تعمد التقصير أو الإهمال، أما ما يقع تحت اختياركم، فعليكم أن تقوموا به إذ لا هوادة فيه.

والمعنى[1]: أنكم لستم منهيين عن حصول التفاوت في الميل القلبي؛ لأن ذلك خارج عن قدرتكم ووسعكم، ولكنكم منهيون عن إظهار ذلك الميل في القول والفعل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما.. جاء يوم القيامة وشقه ساقط» أخرجه الترمذي.

وعند أبي داود: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما.. جاء يوم القيامة وشقه مائل».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل، فيقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»، يعني: القلب، أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي.

وقرأ أبي[2]: ﴿فتذروها كالمسجونة﴾، وقرأ عبد الله: ﴿فتذروها كأنها معلقة﴾. ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ في معاملة النساء ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ظلمهن، وتفضيل بعضهن على بعض، فيما يدخل في اختياركم كالقسم والنفقة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: فإن الله تعالى يغفر لكم ما دون ذلك، مما لا يدخل في اختياركم كالحب وزيادة الإقبال وغير ذلك، أو المعنى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ ما مضى من ميلكم، وتتداركوه بالتوبة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ في المستقبل عن مثله.. غفر الله لكم ذلك، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيغفر ما حصل في القلب من الميل إلى بعضهن دون البعض، ويتفضل عليكم برحمته.

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

وفي الآية عظة وعبرة لمن يتأمل من عباد الشهوات، الذين لا يقصدون من الزوجية إلا التمتع باللذات الحيوانية، دون مراعاة أهم أسس الحياة الزوجية التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، ولا يلاحظون أمر النسل وصلاح الذرية، هؤلاء السفهاء الذواقون الذين يكثرون من الزواج ما استطاعوا، ولا باعث لهم إلا حب التنقل، والملل من السابقة، ولا يخطر لهم أمر العدل في بال، عليهم أن يتقوا الله تعالى، ويفكروا في ميثاق الزوجية، وفي حقوقها المؤكدة، وفي عاقبة نسلهم، وشؤون ذريتهم، وفي حال أمتهم التي تتألف من هذه البيوت المبنية على أسس الشهوات والأهواء، وفي حال ذريتهم التي تنشأ بين أمهات متعاديات.

ثم بين الله سبحانه وتعالى أن الفراق قد يكون فيه الخير إذا لم يمكن الوفاق، فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾؛ أي: وإن يتفرق الزوجان اللذان يخافان أن لا يقيما حدود الله، بأن كره الرجل امرأته لدمامتها أو كبرها، وأراد أن يتزوج غيرها، أو كان عنده زوجتان ولم يقدر على العدل بينهما.. ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كُلًّا﴾ منهما عن صاحبه ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾؛ أي: بسعة فضله، ووافر إحسانه وجوده، فقد يسخر للمرأة رجلاً خيراً منه، كما يهيء له امرأة أخرى، تحصنه وترضيه وتقوم بشؤون بيته وأولاده، ويكون عيشه أهنأ من عيشه الأول بفضله تعالى، ولن يكون كل منهما جديراً بعناية الله تعالى وإغنائه عن الآخر إلا إذا التزما حدود الله، بأن اجتهدا في الوفاق والصلح، وظهر لهما بعد التفكير والتروي في الأسباب أنه غير مستطاع، فافترقا وهما حافظان لكرامتهما عما يجعلهما عرضة للنقد ونهش العرض، فإن ذلك مما يرغب الناس فيهما، لما يرونه فيهما من الأخلاق الفاضلة وعدم التلاحي والتنابذ والتهاجي واختلاق الأكاذيب، فالرجل ذو الخلق الكريم إذا علم أن امرأة اختلفت مع بعلها لأنها لم تقبل أن تعيش مع من يعرض عنها، أو يترفع عليها، بل أحبت أن تعيش معه بطريق عادلة.. رأى فيها أفضل صفات الزوجية، وكذلك كرائم النساء وأولياؤهن يرغبون في الرجل إذا علموا أنه يمسك المرأة بمعروف، أو يسرحها بإحسان، ولا

يلجؤه إلى الطلاق إلا الخوف من عدم إقامة حدود الله، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَٰسِعًا﴾ في العلم والقدرة والرحمة والفضل والجود ﴿حَكِيمًا﴾؛ أي: متقناً في أفعاله وأحكامه التي شرعها لعباده وفق مصالحهم.

فصل فيما يتعلق بهذه الآيات من الأحكام

واعلم أن الرجل إذا كان تحته امرأتان فأكثر يجب عليه التسوية بينهن في القسم، فإن ترك التسوية بينهن في فعل القسم.. عصى الله عز وجل في ذلك، وعليه القضاء للمظلومة، والتسوية في البيتوتة واجب، أما في الجماع فلا، لأن ذلك يدور على النشاط وميل القلب، وليس ذلك إليه، ولو كان في نكاحه حرة وأمة.. قسم للحرة ليلتين وللأمة ليلة واحدة.

وإذا تزوج جديدة على قديمات كن عنده.. فإنه يخص الجديدة بأن يبيت عندها سبع ليال، إن كانت الجديدة بكراً، وإن كانت ثيباً.. خصها بثلاث ليال، ثم إنه يستأنف القسم بينها وبينهن، ويسوي بينهن كلهن، ولا يجب عليه قضاء عوض هذه الليالي للقديمات، ويدل على ذلك ما روى أبو قلابة عن أنس رضي الله عنه قال: من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعاً وقسم، وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثاً وقسم، قال أبو قلابة: ولو شئت لقلت: إن أنساً رفعه إلى النبي ﷺ، أخرجاه في «الصحيحين».

وإذا سافر الرجل إلى سفر حاجة جاز له أن يحمل معه بعض أزواجه، بشرط أن يقرع بينهن، ولا يجب عليه أن يقضي للباقيات عوض مدة سفره وإن طالت إذا لم يزد مقامه في البلد على مدة المسافرين، ويدل على ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه. أخرجه البخاري مع زيادة فيه. وإذا أراد الرجل سفر نُقلَةٍ.. وجب عليه أخذ نسائه معه.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له جميع ما فيهما من المخلوقات خلقاً وعبودية وملكاً، فهو مدبر الأكوان، فلا يتعذر عليه

الإغناء بعد الفقر، ولا الإيناس بعد الوحشة، إلى نحو هذا مما ينبىء بعظيم القدرة، وكمال الجود والإحسان، فهذه الجملة مستأنفة لتقرير كمال سعته سبحانه وشمول قدرته، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أمرنا الذين من قبلكم من اليهود والنصارى، وغيرهم من سالف الأمم، فيما أنزلناه عليهم من الكتب ﴿و﴾ أمرنا ﴿إياكم﴾ يا أهل القرآن، في كتابكم المنزل على محمد ﷺ؛ أي: أمرناهم وإياكم جميعاً بـ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وخافوا عقابه بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، فبتقوى الله تعالى ترقى معارفكم، وتزكوا نفوسكم، وتنتظم مصالحكم الدينية والدنيوية، ﴿و﴾ قلنا لهم ولكم: ﴿إن تكفروا﴾ نِعَمَ الله عليكم، وتجحدوا فضله وإحسانه لكم.. ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى جميع المخلوقات لا يضره كفركم ومعاصيكم، كما لا ينفعه شكركم وتقواكم، وقد وصاكم وإياهم بهما؛ لرحمته لكم، لا لحاجته إليكم؛ لأنه سبحانه وتعالى غني عنكم، لأن له تعالى ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المخلوقات والخزائن.

وفائدة[1] هذا التكرير التأكيد، ليتنبه العباد على سعة ملكه وينظروا في ذلك، ويعلموا أنه غني عن خلقه، ثم زاد ما سلف توكيداً فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَنِيًّا﴾ عن خلقه، وعن عباداتهم، فلا يزداد جلاله بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي والسيئات، ﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله؛ أي: مستحقاً لأن يحمد لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد منكم فهو لا يحتاج إلى شكركم، لتكميل نفسه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. وفي الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم.. ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم.. ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته.. ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في

---

(١) الشوكاني.

البحر، يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً.. فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك.. فلا يلومن إلا نفسه». رواه مسلم.

ثم أعاد ما سلف لزيادة التوكيد فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا لغيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، يتصرف فيهما كيفما شاء، إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: وكفى به سبحانه وتعالى قيماً وكفيلاً يوكل به، ويفوض إليه أمر العباد في أرزاقهم وأقواتهم وسائر شؤونهم، ﴿إِن يَشَأْ﴾؛ أي: إن يرد الله سبحانه وتعالى إعدامكم واستئصالكم.. ﴿يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يستأصلكم ويعدمكم بالمرة أيها المشركون من الأرض ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾؛ أي: ويوجد قوماً آخرين من الإنس، أو من غيره، موحدين له، يحلون محلكم في الحكم والتصرف، فهو قادر على ذلك؛ لأن كل ما في السموات والأرض فهو تحت قبضته وخاضع لسلطانه.

والمعنى: إن يشاء إفناءكم بالكلية وإيجاد قوم آخرين يشتغلون بعبوديته وتعظيمه يفنكم بالمرة ويوجد مكانكم قوماً خيراً منكم وأطوع لله تعالى.

والخلاصة: أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم، ولأن مشيئته لم تتعلق بهذا الإفناء لحكم ومصالح أرادها سبحانه، لا لعجز عن ذلك تعالى الله علواً كبيراً.

وفي هذه الآيات تهديد للمشركين الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ ويقاومون دعوته، وتنبيه للناس إلى التأمل في سنن الله تعالى التي جرت في حياة الأمم وموتها، وإن هذه السنن إذا تعلقت بها المشيئة.. وقعت لا محالة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: على إهلاككم وإذهابكم من الأرض وإخلاف غيركم مكانكم ﴿قَدِيرًا﴾؛ أي: قادراً إذ بيده ملكوت كل شيء، لكنه لحكم يعلمها لم تتعلق إرادته بذلك، ﴿مَّن كَانَ﴾ منكم أيها الناس ﴿يُرِيدُ﴾ ويقصد بسعيه وجهاده في حياته ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ ونعيمها ومتاعها بالمال والجاه ونحوهما، فلا يقتصر عليه، وليطلب الثوابين من الله تعالى ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: بيده ثوابهما، فلا يضيع نفسه بالاقتصار على الثواب

الفاني، فإن العاقل يطلب ثواب الآخرة حتى يحصل له ذلك، ويحصل له ثواب الدنيا على سبيل التبع.

والمعنى: فعند الله تعالى ثواب الدارين جميعاً، بما أعطاكم من العقل والشعور وهداية الحواس، فعليكم أن تطلبوهما معاً، ولا تكتفوا بما هو أدناهما وهو ما يفنى، وتتركوا أعلاهما وهو ما يبقى، مع أن الجمع بينهما هين ميسور لكم، وهو تحت قدرتكم وسلطانكم، فمن خطل الرأي أن تتركوا ذلك، وترغبوا عنه، بل عليكم أن تقولوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

والخلاصة: أن من أراد بعمله الدنيا.. آتاه الله منها ما أراد، وصرف عنه من شرها ما أراد، وليس له ثواب في الآخرة يجزى به، ومن أراد بعمله وجه الله وثواب الآخرة.. فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، يؤتيه من الدنيا ما قدر له، ويجزيه في الآخرة خير الجزاء ذكره في «الخازن».

وفي الآية[1] إيماء إلى أن الدين يهدي أهله إلى السعادتين، وإلى أن ثواب الدنيا والآخرة من فضله تعالى ورحمته، وفي الآية أيضاً[2] تعريض بالكفار الذين كانوا لا يؤمنون بالبعث، وكانوا يقولون: ﴿ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾، وظاهر[3] الآية العموم، وقال ابن جرير الطبري: إنها خاصة بالمشركين والمنافقين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعًۢا﴾ لأقوال عباده حين مخاطباتهم ومناجاتهم ﴿بَصِيرًا﴾ بجميع أمورهم في سائر حالاتهم، فعليهم أن يراقبوه في الأقوال والأفعال، وبذلك تزكو نفوسهم، وتقف عند حدود الفضيلة، التي بها تستقيم أمورهم في دنياهم، ويستعدون لحياة أبدية في آخرتهم يكون فيها نعيمهم وثوابهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ﴾؛ أي: مبالغين في القيام ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ والعدل وإثباته، ومديمين القيام، فمن عدل مرة أو مرتين. لا

---

(١) المراغي. (٢) الواحدي. (٣) الشوكاني.

يكون في الحقيقة قواماً؛ أي: فلتجعلوا العناية بإقامة القسط على وجهه صفة ثابتة لكم، راسخةً في نفوسكم، والعدل كما يكون في الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان، أو يحكمه الناس فيما بينهم، يكون في العمل، كالقيام بما يجب بين الزوجات والأولاد من النصفة والمساواة بينهم، ولو سار المسلمون على هدى القرآن.. لكانوا أعدل الأمم، وأقومهم بالقسط وقد كانوا كذلك ردحاً طويلاً من الدهر، حين كانوا مهتدين بهديه، ولكن قد خلف من بعدهم خلف نبذوا تلك الهداية وراء ظهورهم، وسلكوا مسالك اليهود والنصارى، فصارت تضرب بهم الأمثال في ظلم حكامهم وسوء أحوالهم، وكانوا ﴿شُهَدَآءَ﴾ بالحق مخلصين ﴿لِلَّهِ﴾ بأن تتحروا الحق الذي يرضاه ويأمر به، من غير مراعاة أحد ولا محاباته، ﴿وَلَوْ﴾ كانت الشهادة ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فاشهدوا عليها، بأن تقروا بالحق ولا تكتموه، فإن من أقر على نفسه بحق.. فقد شهد عليها، لأن الشهادة إظهار الحق ﴿أَوِ﴾ كانت الشهادة على ﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ لكم؛ أي: ولو كانت الشهادة على والديكم، أو على أقرب الناس إليكم كأولادكم وإخوانكم، إذ ليس من بر الوالدين ولا من صلة ذوي الرحم أن يعاونوا على ما ليس بحق لهم، بالإعراض عن الشهادة عليهم أوليها والتحريف فيها، بل البر والصلة في الحق والمعروف، والشهادة على الوالدين بأن يشهد عليهما بحق للغير، وكذلك الشهادة على الأقربين، وذكر الأبوين لوجوب برهما، وكونهما أحب الخلق إليه، ثم ذكر الأقربين؛ لأنهم مظنة المودة والتعصب. وليس من شك في أن الحياة قصاص، فالذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق الناس، يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم، فتكون المحاباة من أسباب فشو الظلم والعدوان والمفاسد التي لا يؤمن شرها، ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه من الوالدين والأقربين وغيرهم وهم الأجانب ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ وسواء كان المشهود له غنياً أو فقيراً، فلا تمتنعوا من الشهادة عليهما، طلباً لرضى الغني، أو ترحماً على الفقير، ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ منكم؛ أي: فإن الله سبحانه وتعالى أولى وأحق برعاية مصالحهما، وإصلاح شؤونهما منكم؛ أي: إن يكن المشهود عليه غنياً أو فقيراً.. فليشهد عليه، فالله أولى وأقرب بجنس الغني والفقير منكم، وشرعه

أحق أن يتبع فيهما، فحذار أن تحابوا غنياً طمعاً في بره، ولا خوفاً من أذاه وشره، ولا فقيراً عطفاً عليه، وشفقةً به، فمرضاة كل منهما ليست خيراً لكم ولا لهما من مرضاة الله، ولستم أعلم بمصلحتهما من ربهما، ولولا أنه يعلم أن العدل وإقامة الشهادة بالحق خير للشاهد والمشهود عليه.. لما شرع ذلك ولا أوجبه.

وقرأ عبد الله: ﴿إن يكن غني أو فقير﴾ على أن كان تامة، وفي قراءة أبي: ﴿فالله أولى بهم﴾ فالضمير عليها عائد على الأغنياء والفقراء، فالمراد حينئذ بالغني والفقير الجنس، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ والشهوات إرادة ﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ عن الحق وتميلوا عنه، وتجوروا فيه، فهو حينئذ من العدول بمعنى الميل عن الحق، أو المعنى: فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا بين الناس، فهو حينئذ من العدل ضد الجور، والمعنى على الأول: فلا تتبعوا الهوى والتشهي لئلا تعدلوا عن الحق إلى الباطل إذ في الهوى الزلل، ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر وأبو عمرو وعاصم والكسائي: بإسكان اللام وبعدها واوان، الأولى مضمومة والثانية ساكنة، من اللي، والمعنى على هذه القراءة: وإن تلفوا ألسنتكم عن الشهادة بالحق إلى الباطل، وتحرفوها عنه بأن شهدتم بالباطل على خلاف ما يعلم من الدعوى، ﴿أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ وتمتنعوا عن أداء الشهادة بالكلية، وتنكروها من أصلها، فالعطف مغاير، خلافاً لمن قال بالترادف، فالمراد من اللّيّ هنا: أداء الشهادة على غير وجهها الذي تستحق الشهادة أن تكون عليه. ومن الإعراض: أن لا يقوم بها أصلاً بوجه ما.

والحاصل: أن اللفظين يختلفان باختلاف المتعلق، وقيل: إن اللّيّ مثل الإعراض في المعنى، قال تعالى: ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾؛ أي: أعرضوا. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: فإن الله تعالى خبير بأعمالكم، لا يخفى عليه قصدكم، فهو مجازيكم بما تعملون، فيجازي المحسن المقبل بإحسانه، والمسيء المعرض بإساءته.

وعبر[1] بالخبير ولم يعبر بالعليم؛ لأن الخبرة: العلم بدقائق الأمور

---

(١) المراغي.

وخفاياها، والشهادة يكثر فيها الغش والاحتيال، حتى لقد يغش الإنسان فيها نفسه، ويلتمس المعاذير في كتمان الشهادة أو تحريفها، فليتدبر المسلمون ذلك، و﴿ليعلموا﴾ بهدي كتابهم، ويقيموا الشهادة، ففي ذلك فلاحهم في دينهم ودنياهم، وقرأ حمزة وابن عامر: ﴿وإن تلوا﴾ بلام مضمومة وواو واحدة ساكنة من الولاية، والمعنى: وإن وليتم إقامة الشهادة فأديتموها أو تعرضوا عن أدائها.. فإن الله كان بما تعملون خبيراً.

وقيل[1]: الخطاب على كلا القراءتين للحاكم، والمعنى على القراءة الأولى: وإن تلووا أيها الحكام؛ أي: تميلوا مع أحد الخصمين دون الآخر، أو تعرضوا عنه بالكلية. وعلى القراءة الثانية: وإن تلوا أيها الحكام أمور المسلمين وتضيعوهم، أو تعرضوا عنهم بالكلية.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب[2] لكافة المسلمين، وذكر ذلك عقب الأمر بالعدل؛ لأنه لا يكون عدل إلا بعد الاتصاف بالإيمان، فهو من ذكر السبب بعد المسبب، وقوله فيما يأتي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ...﴾ إلخ، بيان للطريق التي تفسد الإيمان، وهي الردة لتجتنب، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: داوموا على ما أنتم عليه من الإيمان بالله، وازدادوا فيه طمأنينة ويقيناً، ﴿و﴾ آمنوا بـ﴿رسوله﴾ محمد ﷺ خاتم النبيين، بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه ﴿و﴾ آمنوا بـ﴿الكتاب الذي نزل﴾ الله سبحانه وتعالى بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة؛ لأن صيغة التفعيل تفيد التكرير كما قاله الزمشخري، ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ، بالعمل بما فيه من الأوامر والنواهي وهو القرآن الكريم ﴿و﴾ آمنوا بـ﴿الكتاب الذي أنزل من قبل﴾؛ أي: وبجنس الكتب التي أنزل الله تعالى من قبل القرآن على الرسل السالفة من قبل محمد ﷺ، كتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود وغيرها؛ أي: آمنوا بأنها حقة منزلة من عند الله تعالى، فإنه سبحانه وتعالى لم يترك عباده في زمن ما محرومين من البينات والهدى، وقرأ[3] ابن كثير وأبو

---

(١) الخازن بتصرف. (٢) الفتوحات. (٣) البحر المحيط.

عمرو وابن عامر: ﴿نزل﴾ و﴿أنزل﴾ بالضم مبيناً للمفعول، وقرأ الباقون: بالفتح فيهما مبيناً للفاعل.

وبعد أن أمر بالإيمان بما ذكر، توعد من كفر بذلك فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ ويجحد ﴿بِـ﴾ وجود ﴿اللَّه﴾ سبحانه وتعالى ﴿و﴾ بوجود ﴿ملائكته و﴾ بإنزال ﴿كتبه﴾ السماوية، وقرئ: ﴿وكتابه﴾، ﴿و﴾ بإرسال ﴿رسله و﴾ بمجيء ﴿اليوم الآخر﴾ مع ما فيه من الحساب والميزان والجزاء والجنة والنار؛ أي: من يكفر بواحد من هذه المذكورات، وهذه كلها أسس الإيمان وأركانه.. ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ عن صراط الحق، الذي ينجي صاحبه في الآخرة من العذاب الأليم، ويمتعه بالنعيم المقيم، ﴿ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ بحيث يعسر العود من الضلال إلى سواء الطريق.

ومن فرق بين كتب الله ورسله، فآمن ببعض وكفر ببعض كاليهود والنصارى.. فلا يعتد بإيمانه؛ لأنه إما يتبع الهوى، أو يقلد عن جهل وعمى، ذلك أن سر الرسالة هي الهداية، ولم يكن بعض النبيين فيها بأكمل من بعض، فإذا كفر ببعض الكتب أو الرسل.. كان كفره بها دليلاً على أنه لم يؤمن بشيء منها إيماناً صحيحاً مبنياً على فهم حقيقتها والبصر بحكمتها، وكل ذلك من الضلال البعيد عن طرق الهداية.

وإنما ذكر[1] الرسول فيما سبق؛ لذكر الكتاب الذي أنزل عليه، وذكر الرسل هنا؛ لذكر الكتب جملة.. فناسبه ذكر الرسل جملة، وتقديم الملائكة على الرسل؛ لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله.

الإعراب

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

(١) الشوكاني.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿فِي ٱلنِّسَآءِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قُلِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿يُفْتِيكُمْ﴾: فعل ومفعول، ﴿فِيهِنَّ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع معطوفة على الضمير المستتر في ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ على كونه فاعلاً لـ﴿يفتيكم﴾، وسوغ العطف عليه جريان الجار والمجرور مجرى التأكيد، ﴿يُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المستتر في ﴿يُتْلَىٰ﴾، ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُتْلَىٰ﴾، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في ﴿يُتْلَىٰ﴾، ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بما[1] تتعلق به الجار والمجرور قبله، لأن معناهما مختلف، فالأولى ظرف، والثانية بمعنى الباء؛ أي: بسبب اليتامى، كما تقول جئتك في يوم الجمعة في أمر زيد، وقيل: الثانية بدل من الأولى، ويجوز أن تكون الثانية تتعلق بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: ما كتب في حكم اليتامى، ويجوز أن تكون الأولى ظرفاً والثانية حالاً فتتعلق بمحذوف ذكره أبو البقاء، والإضافة ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ على معنى من أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، ﴿ٱلَّٰتِي﴾: صفة لليتامى، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تُؤْتُونَهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لآتى؛ لأنه بمعنى أعطى، ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، ﴿لَهُنَّ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾ على كونه صلة الموصول، عطف جملة مثبتة على جملة منفية؛ أي: لا تؤتونهن واللاتي ترغبون

---

(١) العكبري.

أو تنكحونهن، كقولك: جاء الذي لا يبخل ويكرم الضيفان، ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف؛ لأن حذف الجار مع أنَّ وأن مطرد، تقديره: وترغبون في نكاحهن، والجار المحذوف متعلق بـ﴿ترغبون﴾، ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: معطوف على يتامى النساء، ﴿مِنَ الْوِلْدَانِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿المستضعفين﴾، ﴿وَأَن﴾ الواو: عاطفة، ﴿أن تقوموا﴾: ناصب وفعل وفاعل، ﴿لِلْيَتَامَىٰ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقُومُوا﴾، ﴿بِالْقِسْطِ﴾: متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾، تقديره: وما يتلى عليكم في قيامكم لليتامى بالقسط، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدم، ﴿تَفْعَلُوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿ما﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المحذوف، ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿اللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمًا﴾، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾.

﴿وَإِنِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿امْرَأَةٌ﴾: فاعل بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: وإن خافت امرأة خافت من بعلها نشوزاً، ﴿خَافَتْ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿امْرَأَةٌ﴾: فاعل، ﴿خَافَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿امْرَأَةٌ﴾، والجملة مفسرة للمحذوف لا محل لها من الإعراب، ﴿مِنْ بَعْلِهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَافَتْ﴾، ﴿نُشُوزًا﴾: مفعول به، ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾: معطوف عليه.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿لا﴾: نافية، ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿عَلَيْهِمَآ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، تقديره: فلا جناح كائن عليهما، وجملة ﴿لا﴾: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة، ﴿أَن يُصْلِحَا﴾: ناصب وفعل وفاعل، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿صُلْحًا﴾؛ لأنه نعت نكرة قدمت عليها، ﴿صُلْحًا﴾: منصوب على المصدرية، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: فلا جناح عليهما في صلحهما بينهما، والجار المحذوف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿لا﴾، ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة معترضة، لاعتراضها بين جملتي الشرط، كالتي بعدها، ﴿وَأُحْضِرَتِ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿الْأَنفُسُ﴾: نائب فاعل، وهو المفعول الأول لـ﴿أحضر﴾، ﴿الشُّحَّ﴾: مفعول ثان، والجملة مستأنفة، ﴿وَإِن تُحْسِنُوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل لها، ﴿وَتَتَّقُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف عليه، ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إنَّ﴾ حرف نصب، ﴿اللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَبِيرًا﴾، ﴿خَبِيرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجزم جواب ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا﴾: فعل وفاعل وناصب، والجملة مستأنفة، ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾: فعل وفاعل وناصب، ﴿بَيْنَ النِّسَاءِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تعدلوا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ولن تستطيعوا العدل بين النساء، ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: اعتراضية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿حَرَصْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة

فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لو﴾ معلوم مما قبله، تقديره: ولو حرصتم فلن تستطيعوا، وجملة ﴿لو﴾؛ جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تَمِيلُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟﴾، ﴿كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾: منصوب على المصدرية؛ لأن ﴿كل﴾ لها حكم ما تضاف إليه، فإن أضيفت إلى المصدر.. كانت مصدراً، وإن أضيفت إلى ظرف.. كانت ظرفاً، ذكره أبو البقاء العكبري. ﴿فَتَذَرُوهَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿تذروها﴾: فعل وفاعل ومفعول، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، والجملة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: ولن تستطيعوا العدل بين النساء، فلا يكن منكم ميل كل الميل، فتركها كالمعلقة. ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾: جار ومجرور حال من الهاء في ﴿تذروها﴾، وإن شئت قلت: ﴿الكاف﴾: اسم بمعنى مثل في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تذر﴾؛ لأنها بمعنى ترك، فترك يتعدى إلى مفعولين، ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾: فعل وفاعل وجازم، مجزوم على كونه فعل الشرط، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾: معطوف عليه، ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول لها، ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل الجزم جواب ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾: فعل وفاعل، مجزوم على كونه فعل الشرط، ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾: فعل وفاعل ومفعول، مجزوم على كونه جواب الشرط، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُغْنِ﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿وَٰسِعًا﴾: خبر أول لها، ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان

لها، وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة معللة لمضمون الجملة التي قبلها

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١)﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة معللة لقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ معطوفة على: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾. ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿وَصَّيْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿الَّذِينَ﴾: في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة، ﴿أُوتُوا﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿الْكِتَابَ﴾: مفعول ثان؛ لأن أتى بمعنى أعطى يتعدى لمفعولين، الأول منهما نائب فاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أُوتُوا﴾، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾: في محل النصب معطوف على الموصول، ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول وناصب، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم بتقوى الله، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿إنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إنَّ﴾ على اسمها. ﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب اسم ﴿إنَّ﴾ مؤخر، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوفة على ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ وجملة ﴿إنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة القسم أو مستأنفة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾: فعل ناقص واسمها وخبرها، والجملة مستأنفة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا

﴿ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾: معطوف عليه، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَكِيلًا﴾: تمييز، والجملة مستأنفة. ﴿إِن يَشَأْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة، ﴿أَيُّهَا﴾: ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء و﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لـ﴿أيُّ﴾ تابع للفظه، وجملة النداء جملة معترضة؛ لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه، ﴿وَيَأْتِ﴾: معطوف على ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، ﴿بِـَٔاخَرِينَۚ﴾: متعلق به، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرًا﴾، ﴿قَدِيرًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿مَّن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَّن﴾، ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾، ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿عند اللَّه﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم، ﴿ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، ﴿وَٱلْءَاخِرَةِۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب ﴿مَّن﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَّن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿سَمِيعًۢا﴾: خبر أول لها، ﴿بَصِيرًا﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ

وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أيُّ﴾، وجملة النداء مستأنفة، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿كُونُواْ﴾: فعل أمر ناقص، والواو: اسمها، ﴿قَوَّٰمِينَ﴾: خبرها، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: متعلق بـ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، ﴿شُهَدَآءَ﴾: خبر ثان لـ﴿كُونُواْ﴾، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به ﴿وَلَوۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر لكان المحذوفة مع اسمها، تقديرها: ولو كانت الشهادة كائنة على أنفسكم، وجواب ﴿لو﴾ محذوف، تقديره: ولو كانت الشهادة على أنفسكم فاشهدوا عليها، وجملة ﴿لو﴾: مستأنفة، ﴿أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾: معطوفان على ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يَكُنۡ﴾: فعل ناقص مجزوم بـ﴿إن﴾، واسمها محذوف جوازاً، تقديره: إن يكن المشهود عليه، ﴿غَنِيًّا﴾: خبرها، ﴿أَوۡ فَقِيرٗا﴾: معطوف عليه، ﴿فَٱللَّهُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿اللَّه﴾: مبتدأ، ﴿أَوۡلَىٰ﴾: خبره، ﴿بِهِمَاۖ﴾: متعلق بـ﴿أَوۡلَىٰ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تَتَّبِعُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾: فعل وفاعل وناصب، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً لأجله، ولكنه على حذف مضاف، تقديره: فلا تتبعوا الهوى كراهية العدل بين الناس. ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾: معطوف عليه، ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب بالشرط، ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٗا﴾: وهو

خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أيُّ﴾، وجملة النداء مستأنفة، ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿ءَامِنُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة جواب النداء، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ءَامِنُواْ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ﴾: معطوفان على لفظ الجلالة، ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للكتاب، ﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: والكتاب الذي نزله على رسوله محمد ﷺ، ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: متعلقان بـ ﴿نزَّل﴾ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾: معطوف على الجلالة أيضاً، ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة لـ﴿الكتاب﴾، ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: والكتاب الذي أنزله من قبل، ﴿وَمَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل شرط مجزوم بها، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوفات على الجلالة، ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾: صفة لـ﴿اليوم﴾، ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقترانه بـ﴿قد﴾، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿ضَلَٰلًۢا﴾: منصوب على المصدرية، ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية: مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾: من باب استفعل السداسي وبناؤه للطلب، يقال استفتى

يستفتي استفتاء، والاستفتاء طلب الإفتاء، ويقال: أفتاه يفتيه إفتاء وفتوىً وفتياً، وأفتيت فلاناً في رؤياه عبرتها له، ومعنى الإفتاء: إظهار المشكل على السائل، وأصله من الفتى وهو الرجل الشاب الذي قوي وكمل.

فالمعنى كأنه بيان ما أشكل فيثبت ويقوى، والاستفتاء ليس في ذوات النساء، وإنما هو عن شيء من أحكامهن، ولم يبين، فهو مجمل، ومعنى ﴿يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حال ما سألتم عنه، وحكمه ذكره أبو حيان في «البحر»، وفي «المصباح»[١]: والفتوى بالواو وفتح الفاء وبالياء فتضم، وهي اسم من أفتى العالم إذا بين الحكم، واستفتيته سألته أن يفتي، والجمع الفتاوى بكسر الواو على الأصل: وقيل يجوز الفتح للتخفيف.

﴿وَأَن تَقُومُوا﴾؛ أي: تعنوا عناية خاصة، ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل، ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾؛ أي: توقعت ما تكره بوقوع بعض أسبابه، أو ظهور بعض أماراته، قيل: الخوف هنا على بابه، وهو حالة تحدث في القلب عند حدوث أمر مكروه، أو عند ظن حدوثه، وقيل: المراد بالخوف هنا العلم، ﴿نُشُوزًا﴾؛ أي: ترفعاً وتكبراً، قال ابن فارس: يقال نشزت المرأة: استعصت على بعلها، ونشز بعلها إذا ضربها وجفاها، ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾؛ أي: ميلاً وانحرافاً، قال النحاس: الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز: التباعد، والإعراض: أن لا يكلمها ولا يأنس بها.

﴿الشُّحَّ﴾ قال ابن فارس[٢]: الشح البخل مع الحرص، ويقال: تشاح الرجلان في الأمر لا يريدان أن يفوتهما، وهو بضم الشين وكسرها، وقال ابن عطية: الشح الضبط على المعتقدات والإرادة، ففي الهمم والأموال، ونحو ذلك مما أفرط فيه، وفيه بعض المذمة، وما صار إلى حيز الحقوق الشرعية وما تقتضيه المروءة فهو البخل، وهو رذيلة، لكنها قد تكون في المؤمن، ومنه الحديث: قيل: يا رسول الله أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم»، وأما الشح ففي كل أحد، ويدل عليه: ﴿وَأُحْضِرَتِ

(١) المصباح المنير. (٢) البحر المحيط.

﴿ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾، ومن يوق نفسه أثبت لكل نفس شحاً، وقول النبي ﷺ: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح»، ولم يرد به واحداً بعينه، وليس يحمد أن يقال هنا: أن تصدق وأنت صحيح بخيل، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، وفي «المصباح» حرص عليه حرصاً ـ من باب ضرب ـ إذا اجتهد، والاسم الحرص بالكسر، وحرص على الدنيا من باب ضرب أيضاً، وحرص حرصاً ـ من باب تعب لغة ـ إذا رغبت رغبة مذمومة، ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ تذر هي من الأفعال التي ليس لها التصرف التام، بل لها المضارع والأمر، كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ فليس لها ماض، ولا اسم فاعل ولا مفعول، وهو بمعنى الترك، المعلقة: هي التي ليست مطلقة ولا ذات بعل، ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ جمع قوام صيغة مبالغة؛ أي: ليتكرر منكم القيام بالقسط، وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم مثلاً، وفي «المصباح» قسط قسطاً ـ من باب ضرب ـ وقسوطاً: جارَ، وعدلَ أيضاً، فهو من الأضداد، قاله ابن القطاع، وأقسط بالألف عدل، والاسم القسط بالكسر. اهـ. ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ جمع شهيد، أو شاهد على غير قياس.

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾ بواوين[1]، أصله تلويون بوزن تضربون، نقلت ضمة الياء إلى ما قبلها وهو الواو بعد سلب حركتها، فسكنت الياء ثم حذفت لالتقاء الساكنين، وحذفت نون الرفع للجازم؛ لأنه من الأفعال الخمسة، وهذه الياء التي حذفت هي لام الكلمة، فصار ﴿تَلْوُۥٓا۟﴾ بوزن تفعوا، وعلى القراءة الثانية: ﴿تلوا﴾ فعل به ما تقدم ثم نقلت ضمة هذه الواو التي هي عين الكلمة إلى الساكن قبلها، وهو اللام التي هي فاء الكلمة، فسكنت الواو ثم حذفت، فصار ﴿تلوا﴾ بوزن تفوا، إلا أن فيه حينئذ إجحافاً بالكلمة إذ لم يبق منها إلا فاءها.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبديع فنوناً[2]:

منها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، وفي قوله:

---

(١) الفتوحات. (٢) البحر المحيط.

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾، وفي قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ و﴿يُفْتِيكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿صُلْحًا﴾ و﴿وَالصُّلْحُ﴾.

ومنها: التكرار في لفظ ﴿النساء﴾، وفي لفظ ﴿يتامى﴾ و﴿اليتامى﴾، و﴿رسوله﴾، ولفظ ﴿الكتاب﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

ومنها: اللفظ المحتمل للضدين في قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿نُشُوزًا﴾، وفي قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾، لأن الشح لما كان غير مفارق للأنفس ولا متباعد عنها.. كان كأنه أحضرها، وحمل على ملازمتها، فاستعار الإحضار للملازمة، وفي قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا﴾، وفي قوله: ﴿قَوَّامِينَ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾، وهذه كلها للأجسام استعيرت للمعاني.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ خص العمل.

ومنها: الحذف في مواضع.

ومنها: الطباق بين ﴿غنياً﴾ و﴿فقيراً﴾.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿آمِنوا﴾ و﴿آمنوا﴾ لتغيير الشكل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما أمر الله سبحانه وتعالى أولاً بالعدل والإحسان إلى اليتامى والمساكين، ثم عمم الأمر بالقسط بين الناس، الذي أساسه الإيمان الصادق.. ذكر في هذه الآيات حال قوم من أهل الضلال البعيد، آمنوا في الظاهر نفاقاً، وكان الكفر قد استحوذ على قلوبهم، ولم يجعل فيها مكاناً للاستعداد للفهم، ومن ثم لم يمنعهم ذلك من الرجوع إلى الكفر مرة بعد أخرى، إذ هم لم يفقهوا حقيقة الإيمان، ولا ذاقوا حلاوته، ولا أشربت قلوبهم حبه، ولا عرفوا فضائله ومناقبه، ثم أوعد بعدئذٍ المنافقين بالعذاب الأليم، وذكر أنهم أنصار الكافرين

على المؤمنين، فلا ينبغي للمؤمنين أن يتخذوا منهم أولياء، ولا أن يبتغوا عندهم جاهاً ولا منزلة.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذم المنافقين بأنهم مذبذبون، لا يستقر لهم قرار، فهم تارة مع المؤمنين، وأخرى مع الكافرين.. حذر المؤمنين أن يفعلوا فعلهم، وأن يوالي بعض ضعفائهم الكافرين دون المؤمنين، يبتغون عندهم العزة، ويرجون منهم المنفعة، كما فعل حاطب بن أبي بلتعة، إذ كتب إلى كفار قريش يخبرهم بما عزم عليه النبي ﷺ في شأنهم؛ لأنه كان له عندهم أهل ومال.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قيل نزلت هذه الآية في اليهود، وهو قول قتادة، وأختاره الطبري، والمعنى: إنَّ الذين آمنوا بموسى، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ بعبادة العجل، ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟﴾ بعد رجوع موسى إليهم من المناجاة، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ، وقيل نزلت في المنافقين، آمنوا بألسنتهم ثم ارتدوا، ثم آمنوا ثم ارتدوا وثم ماتوا على الكفر، ويؤيد هذا القول قوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾، قال ابن عباس: دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد النبي ﷺ في البر والبحر، وقال ابن كثير: يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد إلى الإيمان، ثم رجع واستمر على ضلاله، وازداد حتى مات على الكفر، فإنه لا توبة له بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ أي: ليسامح لهم ولا ليعفو عنهم، ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾؛ أي: طريقاً إلى الجنة، وذلك لأن من تكرر منه الإيمان مرات كثيرة يدل على أنه لا وقع للإيمان في قلبه، ومن كان كذلك لا يكون مؤمناً بالله إيماناً كاملاً صحيحاً، لأن يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر، ويثبتوا قلوبهم على الإيمان؛ لأن قلوبهم قد تعودت الكفر، وتمرنت على الردة، وكان الإيمان عندهم أهون شيء وأدونه، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم

يقبل منهم ولم يغفر لهم.

والمعنى: أنَّ هؤلاء قد استبان من ذبذبتهم واضطراب أحوالهم من إيمان إلى كفر ثم من كفر إلى إيمان وهكذا، إنهم قد فقدوا الاستعداد لفهم حقيقة الإيمان، وفقه مزاياه وفضائله، ومثلهم لا يرجى لهم بحسب سنن الله في خليقته أن يهتدوا إلى الخير، ولا أن يسترشدوا إلى نافع، ولا أن يسلكوا سبيل الله، فجدير بهم أن يمنع الله عنهم رحمته، ورضوانه ومغفرته وإحسانه؛ لأن أرواحهم قد دنست، وقلوبهم قد عميت، فلم تكن محلاً للمغفرة، ولا للرجاء في ثواب، والله أرحم الراحمين واسع المغفرة، لم يكن ليحرم أحداً المغفرة والهداية بمحض الخلق والمشيئة وإنما مشيئته مقترنة بحكمته، وقد جرت سنة الله وحكمته الأزلية بأن يكون كسب البشر لعلومهم وأعمالهم مؤثراً في نفوسهم، فمن طال عليه أمد التقليد.. حجب عن عقله نور الدليل، ومن طال عليه عهد الفسوق والعصيان.. حرم من أسباب الغفران التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ ولا شك أن المغفرة وهي محو أثر الذنب من العبد إنما تكون بتأثير التوبة والعمل الصالح، الذي يزيل ما علق في النفس من تلك الآثام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

﴿بَشِّرِ﴾؛ أي: أخبر يا محمد ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وأنذرهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: مؤلماً، البشارة لا تستعمل غالباً إلا في سارِّ الأخبار، إذ هي مأخوذة من انبساط بشرة الوجه، فاستعمالها في الأخبار السيئة يكون من باب التهكم والتوبيخ؛ أي: بشر المنافقين بالعذاب المؤلم، الذي لا يقدر قدره ولا يحيط بكنهه إلا علام الغيوب، ثم بين بعض صفاتهم التي تستوجب لهم الذم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: هؤلاء المنافقون هم الذين يتخذون ويجعلون الكافرين المجاهرين بالكفر المعادين للمؤمنين أولياء وأنصاراً لأنفسهم ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَتَّخِذُونَ﴾؛ أي: يتخذون الكفرة أنصاراً حالة كونهم متجاوزين في اتخاذهم اتخاذ المؤمنين؛ أي: قاصرين في الموالاة والمناصرة على الكافرين، معرضين عن موالاة المؤمنين، وتاركين لها، ويمالؤون

الكافرين عليهم، اعتقاداً منهم أن أمر محمد لا يتم، وأن الدولة والغلبة للكافرين، وأن العزة لهم، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾؛ أي: أيطلبون بموالاة الكفار الغلبة والقوة عندهم، والاستفهام إنكاري؛ أي: لا عزة للكفار، فكيف تبتغي عندهم العزة، ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ والغلبة والقوة كائنة هي ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، حالة كونها ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، يؤتيها من يشاء، فعليهم أن يطلبوها من الله تعالى بصادق إيمانهم، واتباعهم هدايته التي أرشد إليها أنبياءه، وبينوا لهم أسبابها، وقد آتاها المؤمنين حينما اهتدوا بكتابه، وساروا على سننه، ونهجوا نهجه، فلما أعرضوا عن هذه الهداية التي اعتز بها أسلافهم.. ذلوا وخضعوا لأعدائهم، وصار منهم منافقون، يوالون الكافرين، يبتغون عندهم عزة وشرفاً، وما هم لها بمدركين، والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله تعالى.

وبعدئذ نهى المؤمنين أن يجلسوا مع من ينتقص الدين، ويزدري بأحكامه فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: في القرآن في سورة الأنعام في مكة ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾؛ أي: أنزل عليكم أنه إذا سمعتم آيات الله مكفوراً بها ومستهزأ بها؛ أي: سمعتم القرآن يكفر به الكافرون، ويستهزىء به المستهزؤون.. ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟﴾؛ أي: فلا تجلسوا ﴿مَعَهُمْ﴾؛ أي: مع الكافرين الذين يستهزؤون، ويسخرون بالقرآن ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾؛ أي: حتى يشرعوا ويشتغلوا بحديث في غير القرآن، ويتركوا الخوض فيه ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِذًا﴾؛ أي: إذا قعدتم معهم، واستمعتم حديثهم في استهزاء القرآن ﴿مِّثْلُهُمْ﴾؛ أي: مثل الكافرين في الاستهزاء والكفر به؛ أي: تكونون شركاء لهم في الكفر، لأنكم رضيتم به، ووافقتموهم عليه. قال البيضاوي: إذا هنا ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر، ولذلك لم يذكر بعدها الفعل، وإفراد ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ لأنه كالمصدر، أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع انتهى. وهذه الجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي غير داخلة تحت التنزيل. وقرىء شاذاً: ﴿مثلهم﴾ بالفتح، وهو مبني لإضافته إلى المبهم، كما بني في قوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، ويذكر في موضعه إن شاء الله

تعالى، وقيل نصب على الظرف كما قيل في بيت الفرزدق:

وَإِذْ مَا مِثْلُهُمْ بَشَرُ

أي: إنكم في مثل حالهم، ذكره أبو البقاء، والمعنى: إنكم مشاركون لهم في الإثم قال بعضهم:

وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ ٱلْقَبِيْحِ كَصَوْنِ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلنُّطْقِ بِهْ
فَإِنَّكَ عِنْدَ سَمَاعِ ٱلْقَبِيْحِ شَرِيْكٌ لِقَائِلِهِ فَٱنْتَبِهْ

والمراد بالذي نزله في الكتاب هو قوله تعالى في سورة الأنعام المكية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾، وقد كان بعض المسلمين يجلسون مع المشركين، وهم يخوضون في الكفر، وذم الإسلام والاستهزاء بالقرآن، ولا يستطيعون الإنكار عليهم، لضعفهم وقوة المشركين، فأمروا بالإعراض عنهم وعدم الجلوس معهم في هذه الحال.

ثم إن يهود المدينة كانوا يفعلون فعل مشركي مكة، وكان المنافقون يجلسون معهم، ويستمعون إليهم، فنهى الله المؤمنين عن ذلك.

والخلاصة: أنكم إذا سمعتم الكلام الذي يتضمن جعل الآيات في موضع السخرية والاحتقار.. فابتعدوا عنهم، ولا ترجعوا إليهم حتى يعودوا إلى حديث آخر.

وفي الآية[1] دليل على وجوب اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقيص والاستهزاء للأدلة الشرعية والأحكام الدينية، كما يقع ذلك كثيراً من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء العلماء بالكتاب والسنة، ولم يبق في أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا، وقال فلان من أتباعه بكذا، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوي.. سخروا منه، ولم يرفعوا إلى ما قاله رأساً، ولا بالوا به بالة، وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع، وخالف

(١) الشوكاني.

مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع، بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيه الفائل واجتهاده الذي هو عن المنهج مائل مقدماً على كتاب الله وسنة رسوله، فهذه مصيبة يا لها مصيبة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي الآية[١] إيماء إلى أن من يقر المنكر ويسكت عليه. يقع في الإثم، وإلى أن إنكار الشيء يمنع من انتشاره بين الناس، وقد وقع في هذا المنكر كثير من المسلمين، فإنهم يرون الملحدين في البلاد يخوضون في آيات الله ويستهزؤون بالدين، وهم يسكتون عن ذلك، ولا يبدون إنكاراً ولا اشمئزازاً ولا صداً ولا إعراضاً.

قال بعض أهل العلم[٢]: هذه الآية تدل على أن من رضي بالكفر.. فهو كافر، ومن رضي بمنكر يراه، وخالط أهله، وإن لم يباشر.. كان في الإثم بمنزلة المباشر، أما إذا كان ساخطاً لقولهم وفعلهم، وإنما جلس على سبيل التقية والخوف، فالأمر ليس كذلك، فالمنافقون الذين كانوا يجالسون اليهود ويطعنون في الرسول والقرآن مع اليهود هم كافرون مثل أولئك اليهود، أما المسلمون الذين كانوا بمكة يجالسون الكفار الذين كانوا يطعنون في القرآن.. فإنهم باقون على الإيمان؛ لأنهم إنما يجالسون الكفار للضرورة والتقية منهم، وأما المنافقون في المدينة فلا ضرورة لهم إلى الجلوس مع اليهود.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ أي: منافقي أهل المدينة، عبد الله بن أبي وأصحابه وغيرهم، ﴿وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: كفار أهل مكة أبي جهل وأصحابه، وكفار أهل المدينة كعب بن الأشرف وغيرهم، ﴿فِى﴾ نار ﴿جَهَنَّمَ﴾ وقعرها حالة كونهم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين فيها؛ أي: فكما أنهم اجتمعوا في الدنيا على الاستهزاء بآيات الله تعالى.. فكذلك يجتمعون في عذاب جهنم يوم القيامة، ولا يخفى ما في هذا من الوعيد للكفار والمنافقين، وهذه الجملة[٣]

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) أبو السعود.

تعليل لكونهم مثلهم في الكفر، ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم في العذاب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ مشدداً مبنيا للمفعول، وقرأ عاصم: ﴿نَزَّل﴾ مشدداً مبنياً للفاعل، وقرأ أبو حيوة وحميد: ﴿نزَل﴾ مخففاً مبنياً للفاعل، وقرأ النخعي: ﴿أنزل﴾ بالهمزة مبنياً للمفعول، ومحل ﴿أَنْ﴾ رفع أو نصب، على حسب العامل فنصب على قراءة عاصم، ورفع على الفاعل على قراءة أبي حيوة وحميد، وعلى المفعول الذي لم يسم فاعله على قراءة الباقين، وهي مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن.

ثم بين بعض أحوال المنافقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ بدل من: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ﴾ أو صفة للمنافقين والكافرين؛ أي: الذين ينتظرون ما يحدث بكم من خير أو شر؛ أي: إن هؤلاء المنافقين ينتظرون أمرهم وما يحدث لكم من كسر أو نصر وشر أو خير، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فَتْحٌ﴾ ونصر ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ تعالى على الكافرين وظفر وغنيمة ﴿قَالُوٓا﴾؛ أي: قال المنافقون للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أيها المؤمنون في الدين والجهاد، والاستفهام فيه وفيما بعده تقريري؛ أي: لتقرير ما بعد النفي على حد: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾؛ أي: كنا معكم واستحوذنا عليكم ومنعناكم، فأعطونا من الغنيمة؛ أي: فإن نصركم الله وفتح عليكم.. ادعوا أنهم كانوا معكم، فيستحقون مشاركتكم في النعمة وإعطاءهم من الغنيمة، وإنما سمى[2] ظفر المسلمين فتحاً، وظفر الكافرين نصيباً تعظيماً لشأن المسلمين، وتحقيراً لحظ الكافرين لتضمن الأول نصرة دين الله وإعلاء كلمته، ولهذا أضاف الفتح إليه تعالى، وحظ الكافرين في ظفر دنيوي سريع الزوال ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ من الظفر عليكم ﴿قَالُوٓا﴾؛ أي: قال المنافقون للكافرين: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ألم نغلب عليكم، ونتمكن من قتلكم وأسركم، وأبقينا عليكم ورحمناكم، فرجعتم سالمين غانمين ﴿و﴾ ألم ﴿نمنعكم من المؤمنين﴾؛ أي: ألم نحمكم ونمنع المؤمنين من قتلكم وأسركم وظفرهم عليكم بتخذيلهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) كرخي.

والتواني في الحرب معهم، وإلقاء الكلام الذي تضعف به عزائمهم عن قتالكم، ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأسرارهم، وإلا لكنتم نهبة للنوائب، فاعرفوا لنا هذا الفضل، وهاتوا لنا نصيباً مما أصبتم. وقرأ أبي: ﴿ومنعناكم من المؤمنين﴾ وهذا معطوف على معنى مقدر، لأن المعنى: أما استحوذنا عليكم ومنعناكم، كقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا﴾ إذا المعنى: أما شرحنا لك صدرك ووضعنا عنك، والجمهور على جزم ﴿ونمنع﴾ عطفاً على ما قبله، وقرأ ابن أبي: بنصب العين وهي ظاهرة، فإنه على إضمار أن بعد الواو المعية الواقعة في جواب الاستفهام، وقيل المعنى: إن[1] أولئك الكفار قد هموا بالدخول في الإسلام، والمنافقون حذروهم عن ذلك، وأطمعوهم أنه سيضعف أمر محمد، وسيقوى أمركم، فإذا اتفقت لهم صولة على المسلمين.. قال المنافقون للكفار: ألسنا غلبناكم على رأيكم في الدخول في الإسلام ومنعناكم منه، وقلنا لكم سيضعف أمر محمد، ويقوى أمركم، فلما شاهدتم صدق قولنا.. فادفعوا إلينا نصيباً مما أصبتم وغنمتم منهم.

والسر[2] في التعبير عن ظفر المؤمنين بالفتح، وأنه من الله، وعن ظفر الكافرين بالنصيب، كما مر الإيماء إلى أن العاقبة للحق دائماً، وأن الباطل ينهزم أمامه، مهما كان له أول أمره من صولة ودولة، وقد يقع أثناء ذلك نصيب من الظفر للباطل، ولكن تنتهي بغلبة الحق عليه كما قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما دام أهله متبعين لسنة الله، بأخذ الأهبة وإعداد العدة، كما أمر بذلك الكتاب العزيز بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

وإنما غلب المسلمون في هذه العصور على أمرهم، وفتح الكافرون بلادهم، التي فتحوها من قبل بقوة إيمانهم؛ لأنهم تركوا أخذ الأهبة وإعداد العدة، وقام أعداؤهم بكل ما تستدعيه الحروب الحاضرة، فأنشؤوا البوارج[3]

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

(٣) **البوارج** - جمع بارجة -: وهي السفينة الكبيرة للقتال.

والمدافع والدبابات المدرعة والغواصات المهلكة والطائرات المنقضة، إلى نحو ذلك من آلات التدمير والهلاك في البر والبحر والجو، ووسائل ذلك من علوم طبيعية أو آلية ميكانيكية أو رياضية.

﴿فَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ أيها المؤمنون الصادقون، وبين المنافقين الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ حكماً يليق بشأن كل من الثواب والعقاب، فيثيب أحباءه ويعاقب أعداءه، أما في الدنيا فأنتم وهم سواء في عصمة الأنفس والأموال، كما جاء في الحديث: «فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم»،

والحاصل: أن المنافقين[١] يميلون مع من له الغلب والظفر من الطائفتين، ويظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة، وهذا شأن المنافقين أبعدهم الله تعالى، وشأن من حذا حذوهم من أهل الإسلام، من التظهر لكل طائفة بأنه معها على الأخرى، والميل إلى من معه الحظ من الدنيا في مال أو جاه، فيلقاه بالتملق والتودد والخضوع والذلة ويلقى من لاحظ له من الدنيا بالشدة والغلظة وسوء الخلق ويزدري به، ويكافحه بكل مكروه، فقبح الله أخلاق أهل النفاق وأبعدها، وهذا مما ابتلي به المسلمون كثيراً في عصرنا هذا، الذي تذهب فيه النحاس، وتنحس فيه الذهب وَعُدَّ العلم فيه جهلاً والجهل علماً، ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾؛ أي: غلبة وسلطة ما داموا مستمسكين بدينهم؛ أي: إن المؤمنين ما داموا مستمسكين بدينهم متبعين لأمره ونهيه، قائمين بعمل ما يستدعيه الدفاع عن بيضة الدين، من أخذ الأهبة وإعداد العدة.. لن يغلبهم الكافرون، ولن يكون لهم عليهم سلطان، وما غُلب المسلمون على أمرهم.. إلا بتركهم هدي كتابهم، وتركهم أوامر دينهم وراءهم ظهرياً، فذلوا بعد عزة، وأجلب الكفار عليهم بخيلهم ورجلهم، ودخلوا عليهم في عقر دارهم، وامتلكوا بلادهم، واقتسموا أراضيهم، وضربوا عليهم الجزية،

---

(١) الشوكاني.

واستعبدوهم بالأعمال الشاقة، كما استعبدت الفراعنة بني إسرائيل، كما هو مشاهد في شرقي أفريقيا في الشعوب الأرميا وأشباهها.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ هذا كلام مستأنف[1]، يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين وفضائحهم، ومعنى مخادعتهم لله هي أنهم يفعلون فعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطال الكفر، ومعنى كون الله خادعهم أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه، وذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظهر بالإسلام في الدنيا، فعصم به أموالهم ودماءهم، وأخر عقوبتهم إلى الدار الآخرة، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل؛ أي: إن المنافقين يخادعون رسول الله، فيظهرون له الإيمان ليدفعوا عنهم أحكام الإسلام الدنيوية من قتلهم، ويبطنون الكفر، ونسب ذلك إلى الله من جهة أن معاملة الرسول بذلك كمعاملة الله به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ وفي جعل ذلك خداعاً للَّه تنبيه إلى شيئين: فظاعة فعلهم فيما تحروه من الخديعة، إذ هم بمخادعتهم للرسول إنما يخادعون الله، وعظم شأن المقصود بالخداع وهو الرسول ﷺ، وأن معاملته بذلك كمعاملة الله به. وسمي المنافق منافقاً أخذاً من: نافقاء اليربوع، وهو جحره، فإنه يجعل له بابين يدخل من أحدهما، ويخرج من الآخر، فكذلك المنافق يدخل مع المؤمنين بقوله: أنا مؤمن، ويدخل مع الكفار بقوله: أنا كافر، وجحر اليربوع يسمى: النافقاء والسامياء والداماء، فالساماء: هو الجحر الذي تلد فيه الأنثى، والداماء: هو الذي يكون فيه الذكر، والنافقاء: هو الذي يكونان فيه «كرخي» اهـ.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَٰدِعُهُمْ﴾؛ أي: مجازيهم على خداعهم، وسمي ذلك مخادعة مشاكلة للفظ الأول، ونظيره: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ وإنما جعل كذلك؛ لأنه قد استعمل في المعاني المذمومة التي تتضمن الكذب، أو تدل على ضعف صاحبها وعجزه غالباً.

---

(١) الشوكاني.

قلتُ: هذا إذا كان الخداع صفة لمخلوق، والمذهب الأسلم الذي نلقى الله عليه إثبات صفة الخداع لله تعالى؛ لأنه وصف نفسه به، فيجب علينا أن نصفه بما وصف به نفسه، فنقول الخداع صفة ثابتة لله تعالى، لا نكيفه ولا نمثله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقرأ مسلمة بن عبد الله النحوي: ﴿خادعهم﴾ بإسكان العين على التخفيف واستثقال الخروج من كسر إلى ضم.

وخلاصة المعنى[1]: أنه عبر عن سنة الله عاقبة أمرهم في العاجل والآجل، من حيث إنها جاءت على غير ما يحبون، بلفظ مأخوذ من المخادعة، إذ أنهم بمخادعتهم للرسول والمؤمنين يسيرون في طريق يضلون فيه، وينتهون إلى الخزي والوبال من حيث هم يطلبون السلامة والنجاة، فمخادعتهم لأنفسهم بسوء اختيارهم لها هو مخادعة الله لهم، إذ جرت سنته تعالى فيمن يعمل مثل عملهم أن يلاقي الخزي في الدنيا، والنكال في الآخرة، وهكذا حال المنافقين في كل أمة وملة، يخادعون ويكذبون ويكيدون ويغشون، ويتولون أعداء أمتهم، يبتغون بذلك يداً عندهم يمتون ـ يتقربون ـ بها إليهم، إذا دالت دولتهم، وكتب التاريخ ملأى بأخبار هؤلاء الأشرار، ويكثر عددهم في الأمم في أطوار الضعف وقوة الأعداء، إذ هم طلاب منافع، يلتمسونها من كل فج، ويسلكون لها كل طريق، ولو فيما يضر أمتهم والناس أجمعين.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: خداعه تعالى لهم: أن يعطيهم نوراً يوم القيامة يمشون به مع المسلمين، فإذا وصلوا إلى الصراط.. انطفأ نورهم، وبقوا في ظلمة، ودليله قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾

﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟﴾ معطوف على خبر إن، أخبر عنهم بهذه الصفات الذميمة؛ أي: وإذا قام المنافقون إلى الصلاة ﴿قَامُوٓا۟﴾ إليها حالة كونهم ﴿كُسَالَىٰ﴾ عنها؛ أي: متكاسلين متباطئين متثاقلين، ليست لديهم رغبة تبعثهم على عمل، ولا نشاط

---

(١) المراغي.

يدفعهم على فعل؛ لأنهم لا يرجون ثواباً في الآخرة، ولا يخشون عقاباً، إذ لا إيمان لهم وإنما يخشون الناس، فإذا كانوا بمعزل عن المؤمنين.. تركوها، وإذا كانوا معهم.. سايروهم بالقيام بها، ومن كانت هذه حاله.. وقع عمله على وجه الكسل والفتور. وقرأ الجمهور[1]: ﴿كُسَالَىٰ﴾ بضم الكاف، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ الأعرج: ﴿كسالى﴾ بفتح الكاف، وهي لغة تميم وأسد، وقرأ ابن السميقع: ﴿كسلى﴾ على وزن فعلى، وصف بما يوصف به المؤنث المفرد، على مراعاة الجماعة كقراءة: ﴿وترى الناس سكرى﴾، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ بها؛ أي: يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة، وأن يراهم المؤمنون مسلمين فيعدوهم منهم، وقرىء[2]: ﴿يرءون﴾ بهمزة مضمومة مشددة بين الراء والواو، ونسب الزمخشري هذه القراءة لابن أبي إسحاق، إلا أنه قال: قرأ ﴿يرءونهم﴾ بهمزة مشددة، مثل يرعُّونهم؛ أي: يبصرونهم أعمالهم، ويراؤونهم كذلك.

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: لا يصلون إلا قليلاً بمرأى من الناس، وإذا لم يكن معهم أحد.. لم يصلوا، وإذا كانوا مع الناس.. راؤوهم وصلوا معهم، ولا يذكرون الله إلا باللسان، وسميت الصلاة ذكراً لاشتمالها عليه، حالة كونهم ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: مضطربين مترددين بين كفر السر وإيمان العلانية ﴿لَآ﴾ هم منسوبين ﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنين لإسرارهم الكفر ﴿وَلَآ﴾ هم منسوبين ﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكافرين لإظهارهم الإيمان، والمعنى: ذبذبهم وقلقلهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر، يترددون بينهما متحيرين، لا يخلصون إلى أحد الفريقين، لأنهم طلاب منافع، ولا يدرون لمن تكون له العاقبة، فمتى ظهرت الغلبة لأحدهما.. ادعوا أنهم منه، كما بين ذلك فيما سلف، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يخذله ويسلبه التوفيق ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً يوصله إلى الحق؛ أي: ومن قضت سنته أن يكون ضالاً عن الحق، موغلاً في الباطل بما قدم من عمل، وتخلق به من خلق.. فلن تجد له سبيلاً للهداية باجتهادك والمبالغة في إقناعه بالحجة والدليل، فإن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول.

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

وقرأ ابن عباس وعمرو بن فائد[1]: ﴿مذبذبين﴾ بكسر الذال الثانية، جعلاه اسم فاعل؛ أي: مذبذِبين أنفسهم، أو دينهم، أو بمعنى متذبذبين، كما جاء صلصل وتصلصل بمعنى واحد، وقرأ أبي ﴿متذبذبين﴾ اسم فاعل من تذبذب؛ أي: اضطرب، وكذا في مصحف عبد الله، وقرأ الحسن: ﴿مذبذبين﴾ بفتح الميم والذالين، قال ابن عطية: وهي قراءة مردودة انتهى، والحسن البصري من أفصح الناس، يحتج بكلامه، فلا ينبغي أن ترد قراءته ولها وجه في العربية، وهو أنه أتبع حركة الميم حركة الذال، وقرأ أبو جعفر: ﴿مدبدبين﴾ بالدال غير معجمة، كأن المعنى أخذتهم تارة بدبة وتارة في دبة، فليسوا ماضين على دبة واحدة، والدبة الطريقة.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة». متفق عليه. قوله كمثل الشاة العائرة ـ بالعين المهملة ـ ومعناه: المتحيرة المترددة، لا تدري لأي الغنمين تتبع، ومعنى تعير تتردد وتذهب يميناً وشمالاً مرة إلى هذه ومرة إلى هذه، لا تدري إلى أين تذهب، وهذا مثل المنافق مرة مع المؤمنين ومرة مع الكافرين، أو ظاهره مع المؤمنين وباطنه مع الكافرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وبرسوله سراً وعلانية ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: المجاهرين بالكفر ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أنصاراً وأصدقاء ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين، كما فعل المنافقون، ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ يا معشر المؤمنين المخلصين ﴿أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ باتخاذكم الكفار أولياء من دون المؤمنين ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؛ أي: حجة واضحة على استحقاقكم العذاب؛ إذا اتخذتموهم أولياء من دون المؤمنين، فإن عملاً كهذا لا يصدر إلا من منافق، والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ، والمراد[2] بالولاية هنا النصرة بالقول أو بالفعل، بما يكون فيه ضرر

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

للمسلمين، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أما استخدام الذميين منهم في الحكومة الإسلامية فليس بمحظور، والصحابة رضوان الله عليهم استخدموهم في الدواوين الأميرية، وأبو إسحاق الصابي جُعل وزيراً في الدولة العباسية، والمعنى[1]: أتريدون أيها المتخذون الكفار أولياء أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة، باتخاذكم الكفار أولياء من دون المؤمنين، فتستوجبوا بذلك النار.

ثم بيَّن مقر النار مِنَ المنافقين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: في الطبقة السفلى من النار، وهي الهاوية لغلظ كفرهم وكثرة غوائلهم، وأعلى الدركات جهنم، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقد تسمى كلها باسم الطبقة العليا أعاذنا الله من عذابها.

سميت طبقات جهنم دركات لأنها متداركة متتابعة، وقيل الدرك بيت مقفل عليهم، تتوقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم، وقيل: هي توابيت من حديد مقفلة عليهم في النار، وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار، لأنهم شر أهلها، إذ هم جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة الرسول والمؤمنين وغشهم، فأرواحهم أسفل الأرواح، ونفوسهم أحط النفوس، ومن ثم كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل منها، أما أكثر الكفار فقد غلب عليهم الجهل بحقيقة التوحيد، فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره من صنم أو وثن، يتخذونه شفيعاً عنده ووسيطاً بينهم وبينه، وقد قاسوا ذلك على معاملة الملوك المستبدين والأمراء الظالمين.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾؛ أي: ولن تجد يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿نَصِيرًا﴾؛ أي: ناصراً ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم، وينقذهم من ذلك العذاب، أو يخففه عنهم، فيرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها.

وقرأ الحرميان[2]: نافع وابن كثير، والعربيان: أبو عمرو وابن عامر: ﴿في

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

الدرك﴾ بفتح الراء، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي والأعمش ويحيي بن وثاب بسكونها، واختلف عن عاصم، وروى الأعمش والبرجمي الفتح، وغيرهما الإسكان، وقال أبو علي: وهما لغتان كالشمْع والشمَع، ثم استثنى الله سبحانه وتعالى من المنافقين الذين استحقوا الدرك الأسفل من النار فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: تمسكوا بدين الله وكتابه، ووثقوا بوعده ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ﴾ وعملهم وعبادتهم ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وأرادوا به وجه الله تعالى، ولم يريدوا رياء ولا سمعة، فهذه الأمور الأربعة إذا حصلت فقد كمل الإيمان، ولما[1] كان المنافق متصفاً بنقائض هذه الأوصاف من الكفر، وفساد الأعمال، والموالاة للكافرين، والاعتزاز بهم، والمراءاة للمؤمنين.. شرط في توبتهم ما يناقض تلك الأوصاف، وهي التوبة من النفاق، وهو الوصف المحتوي على بقية الأوصاف من حيث المعنى، ثم فصل ما أجمل فيها، وهو الإصلاح للعمل المستقبل المقابل لفساد أعمالهم الماضية، ثم الاعتصام بالله في المستقبل، وهو المقابل لموالاة الكافرين والاعتماد عليهم في الماضي، ثم الإخلاص لدين الله، وهو المقابل للرياء الذي كان لهم في الماضي، ثم بعد تحصيل هذه الأوصاف جميعها، أشار إليهم بأنهم مع المؤمنين فقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ التائبون الموصوفون بهذه الصفات المذكورة من المنافقين كائنون ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين، الذين لم يصدر منهم نفاق أصلاً منذ آمنوا؛ أي: فأولئك مصحبون بالمؤمنين في أحكام الدنيا والآخرة، وفي الدرجات العالية من الجنة، لأنهم آمنوا كإيمانهم، وعملوا كعملهم، فيجزون جزاءهم، ولم يحكم عليهم بأنهم المؤمنون ولا من المؤمنين، وإن كانوا قد صاروا مؤمنين، تنفيراً مما كانوا عليه من عظم كفر النفاق، وتعظيماً لحال من كان ملتبساً بها، ومعنى مع المؤمنين رفقاؤهم ومصاحبوهم في الدارين كما مر آنفاً.

والخلاصة[2]: أن هذا الجزاء الشديد ـ الذي أعده الله للمنافقين ـ لا يكون للذين تابوا من النفاق والكفر، وندموا على ما فرط منهم وأتبعوا ذلك بأمور ثلاثة:

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

١ ـ اجتهادهم في صالح الأعمال التي تغسل أدران النفاق، بأن يلتزموا الصدق في القول والعمل، مع الأمانة والوفاء بالوعد، ويخلصوا النصح لله ورسوله، ويقيموا الصلاة مع الخشوع والخضوع، ومراقبة الله في السر والعلن.

٢ ـ اعتصامهم بالله، بأن يكون غرضهم من التوبة وصلاح العمل مرضاة الله مع التمسك بكتابه، والتخلق بآدابه، والاعتبار بمواعظه، والرجاء في وعده، والخوف من وعيده، والائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

٣ ـ إخلاصهم لله بأن يدعوه وحده، ولا يدعوا من دونه أحداً لكشف ضر، ولا لجلب نفع، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة خالصاً له وحده، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ وكما جاء في قوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ويعطي ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثواباً جزيلاً في الآخرة، ودرجات عالية في الجنة، لا يقدر قدره، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

فائدة: وحذفت[1] الياء من ﴿يُؤْتِ﴾ في الخط مع عدم الجازم كما حذفت في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها، ومثله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ و﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ و﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ ونحوها، فإن الحذف في الجميع لالتقاء الساكنين، والقراء يقفون عليه دون ياء اتباعاً للخط الكريم، إلا يعقوب: فإنه يقف بالياء نظراً إلى الأصل، وروي ذلك عن الكسائي وحمزة.

ثم بين أن تعذيبهم إنما كان لكفرهم بأنعم الله عليهم فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ والاستفهام فيه إنكاري، بمعنى النفي؛ أي: لا يعذبكم إن حصل منكم الشكر والإيمان، والمعنى: أي منفعة له في عذابكم إن

---

(١) الشوكاني والسمين.

شكرتم وآمنتم، فإن ذلك لا يزيد في ملكه، كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه، فهل[1] يعذبكم الله لأجل التشفي من الغيظ أم لطلب النفع أم لدفع الضر، كما هو شأن الملوك، وكل ذلك محال في حقه تعالى، وإنما التعذيب أمر يقتضيه كفركم، فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر انتفى التعذيب، وتقديم الشكر على الإيمان لأن الإنسان إذا نظر في نفسه.. رأى النعمة العظيمة حاصلة في تخليقها وترتيبها، فيشكر شكراً مجملاً، ثم إذا تمم النظر في معرفة المنعم.. آمن به، ثم شكر شكراً مفصلاً، فكان ذلك الشكر المجمل مقدماً على الإيمان.

والخلاصة: أنه تعالى لا يعذب أحداً من خلقه انتقاماً منه، ولا طلباً لنفع،، ولا دفعاً لمضرة، لأنه تعالى غني عن كل أحد، منزه عن جلب منفعة له، وعن دفع مضرة عنه، بل ذلك جزاء كفرهم بأنعم الله عليهم، فهو قد أنعم عليهم بالعقل والحواس والجوارح والوجدان، لكنهم استعملوها في غير ما خلقت لأجله من الاهتداء بها، لتكميل نفوسهم بالفضائل والعلوم والمعارف، كما كفروا بخالق هذه القوى، فاتخذوا له شركاء، ولا ينفعهم تسميتهم شفعاء أو وسطاء، حتى فسدت فطرتهم، ودنست أرواحهم، ولو آمنوا وشكروا.. لطهرت أرواحهم، وظهرت آثار ذلك في عقولهم، وسائر أعمالهم التي تصلحهم في معاشهم ومعادهم، واستحقوا بذلك رضوان الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَاكِرًا﴾؛ أي: قابلاً لأعمالكم مثيباً عليها، موفياً أجوركم، وأتى[2] في صفة الشكر باسم الفاعل بلا مبالغة؛ ليدل على أنه يتقبل ولو أقل شيء من العمل وينميه ﴿عَلِيمًا﴾ بشكركم وإيمانكم، فيجازيكم، وفي قوله: ﴿عَلِيمًا﴾ تحذير وندب إلى الإخلاص لله تعالى.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾ الثاني، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾ الأخير، ﴿كُفْرًا﴾: مفعول به لـ﴿ٱزْدَادُوا﴾، وإنما عطفنا كلاً من المعطوفات على ما قبله جرياً على القاعدة: أن المعطوفان إذا كثرت، وكان العطف بمرتب.. يعطف كل على ما قبله، وإن كان العطف بواو.. كان العطف على الأول دائماً، ذكره الشيخ الحامدي على «شرح الكفراوي».

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَكُنِ﴾: مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وهو من الأفعال الناقصة، ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها، ﴿لِيَغْفِرَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود، ﴿يغفر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يغفر﴾ ومفعول ﴿يغفر﴾ محذوف، تقديره: كفرهم، وجملة ﴿يغفر﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لم يكن الله لغفرانهم، الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف؛ لوقوعه خبراً لـ﴿يكن﴾ تقديره: لم يكن الله مريداً لغفرانهم، هذا على مذهب البصريين وهو الراجح، وجملة ﴿يَكُنِ﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد نفي ما قبلها، ﴿اللام﴾ حرف جر وجحود، ﴿يهدي﴾ منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، و﴿الهاء﴾: ضمير الغائبين في محل النصب مفعول أول، ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول ثان، وجملة ﴿يهدي﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله، والتقدير: لم يكن الله مريداً لغفرانهم، ولا مريداً لهدايتهم سبيلاً.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ،

والجملة مستأنفة، ﴿بِأَنَّ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم لـ﴿أنَّ﴾، ﴿عَذَابًا﴾: اسمها مؤخر، ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بكون عذاب أليم لهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَشِّرِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، ﴿يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول، ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يَتَّخِذُونَ﴾، تقديره: يتخذون الكافرين أنصاراً حالة كونهم متجاوزين في اتخاذهم اتخاذ المؤمنين، ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿يبتغون﴾: فعل وفاعل، والجملة جملة استفهامية إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿عِندَهُمُ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يبتغون﴾، ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾: مفعول به، ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾: اسمها، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿لِلَّهِ﴾ لاعتماده على المبتدأ، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف، مفهوم من الاستفهام الإنكاري، تقديره: لا ينبغي ابتغاء العزة عند غير الله تعالى، لكون العزة لله سبحانه وتعالى جميعاً وفي «الفتوحات»[١] قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ دخلت ﴿الفاء﴾ لما في الكلام من معنى الشرط، إذ المعنى: إن تبتغوا من هؤلاء عزة اهـ «سمين». وعبارة أبي السعود: وهذه الجملة تعليل لما يفيده الاستفهام الإنكاري من بطلان رأيهم، وخيبة رجائهم، فإن انحصار جميع أفراد العزة في جنابه عز وعلا بحيث لا ينالها إلا أولياؤه الذين كتب لهم العزة والغلبة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ يقتضي

(١) الجمل.

بطلان الاعتزاز بغيره سبحانه جل وعلا، واستحالة الانتفاع به، وقيل: هي جواب شرط محذوف، كأنه قيل: إن تبتغوا عندهم عزة فإن العزة للّه جميعاً اهـ.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾، وكذا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾، ﴿أَنْ﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، تقديره: أنه، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿سَمِعْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿يُكْفَرُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل أصله: يكفر بها أحد، فحذف الفاعل، وأقيم الجار والمجرور مقامه، والجملة في محل النصب حال من ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾، ﴿وَيُسْتَهْزَأُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿بِهَا﴾: نائب فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾، على كونها حالاً من ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: حالة كونها مكفوراً بها ومستهزءاً بها، ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ وجوباً لكون الجواب جملة طلبية، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تَقْعُدُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَقْعُدُوا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الرفع خبر ﴿أَنْ﴾ المخففة، وجملة ﴿أَنْ﴾ المخففة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية على قراءة ﴿نَزَّلَ﴾ بالبناء للفاعل، أو مرفوع على النيابة عن الفاعل على قراءة البناء للمفعول، تقديره: على القراءة الأولى: وقد نزل عليكم في الكتاب عدم قعودكم مع الكفار والمنافقين وقت سماعكم آيات الله يكفر بها ويستهزء بها، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يَخُوضُوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد

﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، ﴿فِى حَدِيثٍ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿غَيْرِهِۦٓ﴾: صفة لـ﴿حَدِيثٍ﴾ على تأويله بمشتق؛ أي: مغاير إياه، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، بمعنى إلى، تقديره: إلى خوضهم في حديث غيره، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَقْعُدُوا۟﴾ ﴿إِنَّكُمْ﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿الكاف﴾ اسمها، ﴿إِذًا﴾: ههنا[1] ملغاة، لوقوعها بين الاسم والخبر، ولذلك لم يذكر بعدها الفعل، ﴿مِّثْلُهُمْ﴾: خبر ﴿إن﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر مسوقة لتعليل النهي المذكور قبله. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿جَامِعُ﴾: خبرها، ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: مضاف إليه، ﴿وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَامِعُ﴾، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر مسوقة لتعليل ما قبلها؛ أي[2]: معللة لكونهم مثلهم في الكفر ببيان ما يستلومه من شركتهم لهم في العذاب.

• ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، والمعنى: بشر الذين يتربصون بكم، ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿بِكُمْ﴾: متعلق به، ﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: تفصيلية، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كان﴾، ﴿فَتْحٌ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿فَتْحٌ﴾؛ أي: فإن كان فتح من الله كائنا لكم، ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جملة مفصلة لجملة الصلة لا محل لها من الإعراب، ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإن شئت قلت ﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم، ﴿نَكُن﴾: فعل ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾

(١) العكبري. (٢) أبو السعود.

واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾. ﴿مَّعَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿نَكُن﴾ تقديره: ألم نكن كائنين معكم، والجملة في محل النصب مقول القول.

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كان﴾، ﴿نَصِيبٌ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ التي قبلها. ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿نَسْتَحْوِذْ﴾: فعل مضارع مجزوم لـ﴿لم﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿وَنَمْنَعْكُم﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿نَسْتَحْوِذْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق به، ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿اللَّه﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْكُمُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَحْكُمُ﴾، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: متعلق أيضاً بـ﴿يَحْكُمُ﴾، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَجْعَلَ﴾، ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق أيضاً بـ﴿يَجْعَلَ﴾ أو حال من ﴿سَبِيلًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها فيعرب حالاً ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول،

والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ أو من مفعوله. ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قَامُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾: متعلقان بـ﴿قَامُوٓاْ﴾ الأولى. ﴿قَامُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿كُسَالَىٰ﴾: حال من فاعل ﴿قَامُوٓاْ﴾، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الرفع معطوفة على خبر ﴿إِنَّ﴾ أخبر عنهم بهذه الصفات الذميمة، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿كُسَالَىٰ﴾، أو بدل من ﴿كُسَالَىٰ﴾، كما قاله أبو البقاء، وفيه نظر لأن الثاني ليس كلاً للأول ولا بعضه، ولا مشتملاً عليه، أو الجملة مستأنفة، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرَآءُونَ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿قَلِيلًا﴾: نعت لمصدر محذوف، تقديره: إلا ذكراً قليلاً.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يُرَآءُونَ﴾، أو منصوب على الذم، ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾، ﴿لَآ﴾: نافية، ﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير المستكن في ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾، تقديره: حالة كونهم لا منسوبين إلى هؤلاء المؤمنين، ولا منسوبين على هولاء الكافرين، ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَآ﴾: نافية، ﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب، ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَلَن﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿لن﴾: حرف نصب، ﴿تَجِدَ﴾: منصوب بـ﴿لن﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به، ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به، لأنه

من وجدان الضالة، فله مفعول واحد لا من وجد بمعنى علم، وجملة ﴿تَجِدَ﴾ في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾: ناف وفعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول، ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾. ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، ﴿تريدون﴾: فعل وفاعل، والجملة جملة انشائية مستأنفة، ﴿أَن تَجْعَلُواْ﴾ ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: أتريدون جعلكم لله سلطاناً مبينا عليكم، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَجْعَلُواْ﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿سُلْطَٰنًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿سُلْطَٰنًا﴾: مفعول به، ﴿مُّبِينًا﴾ صفة له.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: اسمها، ﴿فِى ٱلدَّرْكِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿ٱلْأَسْفَلِ﴾: صفة لـ﴿ٱلدَّرْكِ﴾، ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلدَّرْكِ﴾، والعامل فيه معنى الاستقرار في الجار والمجرور لاعتماده على المخبر عنه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لن﴾: حرف نفي ونصب، ﴿تَجِدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به أو حال من ﴿نَصِيرًا﴾، ﴿نَصِيرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على خبر ﴿إن﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب على

الاستثناء من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، أو من الضمير المجرور في ﴿لَهُمْ﴾، ﴿تَابُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟﴾: معطوفان على ﴿تَابُوا۟﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿اعتصموا﴾، ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَابُوا۟﴾، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أخلصوا﴾، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية لأن الفاء بعد الاستثناء تكون للتعليل غالباً، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر المبتدأ، تقديره: فأولئك كائنون مع المؤمنين، والجملة الاسمية في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية المعللة بمعلول محذوف، تقديره: وإنما استثنينا هؤلاء لكونهم مع المؤمنين، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿وَسَوْفَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس، ﴿يُؤْتِ﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين، وحذفت الياء في خط المصحف العثماني تبعاً للفظ، ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول أول، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان لأتى لأن أتى هنا بمعنى أعطى يتعدى إلى مفعولين، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ﴿أَجْرًا﴾.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

﴿مَّا﴾: اسم استفهام في محل النصب مفعول مقدم وجوباً لكونه مما يلزم الصدارة، ﴿يَفْعَلُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والاستفهام هنا للإنكار بمعنى النفي، كما مر في بحث التفسير؛ أي: لا يفعل الله عذابكم، ﴿بِعَذَابِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَفْعَلُ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿شَكَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿وَءَامَنتُمْ﴾: معطوف عليه، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها، تقديره: إن شكرتم وآمنتم لا يعذبكم الله، والجملة مستأنفة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كان اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمها، ﴿شَاكِرًا﴾: خبر أول لها، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا﴾ ازداد بمعنى زاد، لازماً ومتعدياً، يقال ازداد الشيء إذا طلب منه الزيادة، أصله ازتيد على وزن افتعل، قلبت تاء الافتعال دالاً فصار ازديد، فيقال تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار ازداد. ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ العزة والعز بكسر أولهما مصدران لعزه يعزه عزاً وعزة إذا غلبه، والعزة الغلبة والقوة. ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ﴾ يقال خاض خوضاً من باب قال، والخوض[1] الاقتحام في الشيء، تقول خضت الماء خوضاً وخياضاً، وخضت الغمرات اقتحمتها، وخاضه بالسيف حرك سيفه في المضروب، وتخاوضوا في الحديث إذا تفاوضوا فيه، والمخاضة موضع الخوض، والخوضة بفتح الخاء اللؤلؤة، واختاض بمعنى خاض، وتخوض إذا تكلف الخوض.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ في «المصباح» يقال: تربصت الأمر تربصاً انتظرته، والربصة وزان الغرفة، اسم منه وتربصت الأمر بفلان انتظرت وقوعه به، ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ وقولهم نستحوذ واستحوذ مما شذ قياساً، وفصح استعمالاً، لأن من حقه نقل حركة حرف علته إلى الساكن قبلها، وقلبها ألفاً، كاستقام، واستعان، واستبان، وبابه، والاستحواذ: التغلب على الشيء والاستيلاء عليه، ومنه: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، يقال: حاذ وأحاذ بمعنى والمصدر الحوذ.

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ والخادع اسم فاعل من خادعته فخدعته، إذا غلبته وكنت أخدع منه، ﴿كسالى﴾ بضم الكاف على قراءة الجمهور جمع كسلان، كسكارى جمع سكران، والضم لغة أهل الحجاز، وفعلان[2] هذا يجمع على فعالى كهذا، وعلى فعالى كغضبان وغضابى، والكسل الفتور عن الشيء والتواني فيه، وهو ضد النشاط، وأكسل إذا جامع وفتر ولم ينزل، وقال بعضهم في ذم الفلاسفة:

وَمَا ٱنْتَسَبُوْا إِلَىٰ ٱلإِسْلاَمِ إِلاَّ لِصَوْنِ دِمَائِهِمْ أَنْ لاَ تُسَالاَ
فَيَأْتُوْنَ ٱلْمَنَاكِرَ فِيْ نَشَاطٍ وَيَأْتُوْنَ ٱلصَّلاَةَ وَهُمْ كُسَالَىٰ

---

(١) البحر المحيط. (٢) النهر.

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ وأصل يراؤون يُرائِيُون، فأُعل كنظائره، والجمهور على أن يراؤون من المفاعلة، قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى: وهي مفاعلة من الرؤية؟

قلت: أن المرائي يريهم عمله، وهم يرونه إستحسانه.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ جمع مذبذب اسم مفعول من ذبذب، وفي «المصباح» ذبذبه ذبذبة إذا تركه حيران متردداً، وفي «أبي السعود»: حقيقة المذبذب ما يذب ويدفع عن كلا الجانبين مرة بعد أخرى، وعبارة البيضاوي: والمعنى مرددين بين الإيمان والكفر، من الذبذبة وهي جعل الشيء مضطرباً، وأصل الذب بمعنى الطرد، وقرىء بكسر الذال بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم، أو يذبذبون كقولهم: صلصل بمعنى تصلصل، وزلزل بمعنى تزلزل، وفي «الشوكاني»: الذبذبة الاضطراب، يقال ذبذبه فتذبذب ومنه قول النابغة:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱلـلَّـهَ أَعْـطَـاكَ سُـوْرَةً   تَـرَىٰ كُـلَّ مُـلْـكٍ دُوْنَـهَـا يَـتَـذَبْـذَبُ

قال ابن جني: المذبذب القلق الذي لا يثبت على حال اهـ. وقرىء: بالدال المهملة بمعنى أخذوا تارة في دبة وتارة في دبة، وهي الطريقة، ومنه ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: اتبعوا دبة قريش؛ أي: طريقتهم اهـ «زكريا».

﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ السلطان يذكر ويؤنث، فتذكيره باعتبار البرهان، وتأنيثه باعتبار الحجة، إلا أن التأنيث أكثر عند الفصحاء، وقال الفراء: التذكير أشهر، وهي لغة القرآن.

﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾ قرأ الكوفيون بخلاف من عاصم: الدرك بسكون الراء، والباقون بفتحها، وفي ذلك قولان:

أحدهما: أن الدَّرْك والدَّرَك لغتان بمعنى واحد، كالشَّمْع والشَّمَع، والغَدْر والغدر.

والثاني: أن الدرك بالفتح جمع دركة، على حد بقر وبقرة، والدرك مأخوذ من المداركة وهي المتابعة، والدركات بالكاف منازل أهل النار، والدرجات

بالجيم منازل أهل الجنة، وسميت طبقات النار دركات لأن بعضها مدارك لبعض؛ أي: متابعه، فالدرك ما كان إلى أسفل، والدرج ما كان إلى فوق.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة[1]:

فمنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ و﴿خَٰدِعُهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿شَكَرْتُمْ﴾ و﴿شَاكِرًا﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿جَامِعُ﴾ و﴿جَمِيعًا﴾، وفي قوله: ﴿كَفَرُوا﴾ و﴿كَفَرُوا﴾، وفي ﴿وَإِذَا قَامُوٓا﴾ و﴿قَامُوا﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾، وفي قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿ٱزْدَادُوا كُفْرًا﴾، وفي قوله: ﴿لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾، وفي قوله: ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾، وفي قوله: ﴿فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾، وفي قوله: ﴿سَبِيلًا﴾، وهذه كلها للأجسام استعيرت للمعاني.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ و﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار تهكماً.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ والغرض منه التقريع والتوبيخ.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ إذا كان الخطاب للمنافقين.

ومنها: التكرار أيضاً في: اسم الله، وفي قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ و﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الإشارة في مواضع.

ومنها: الاستعارة في: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ استعار اسم الخداع للمجازاة، وفي ﴿سَبِيلًا﴾، وفي ﴿سُلْطَٰنًا﴾ لقيام الحجة، والدرك الأسفل لانخفاض طبقاتهم في النار، واعتصموا للالتجاء.

ومنها: الحذف في مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بمعنى كلامه وبمراده به

* * *

(١) وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى لي من تفسير الجزء الخامس من القرآن الكريم، فالحمد لله على توفيقه، والشكر له على تنسيقه، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته صلاةً وسلاماً دائمين متلازمين على سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.
وكان الفراغ من مسودة هذا المجلد السادس في اليوم الرابع والعشرين قبيل المغرب من شهر الله المحرم المبارك، من سنة تسع وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، بحارة الرشد من المسفلة من مكة المكرمة، زادها الله شرفاً، وختم عمرنا فيها، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين.
تم بعون الله تعالى المجلد السادس من شرح حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ويليه المجلد السابع، وأوله قوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ رقم (١٤٨) من الآيات سورة النساء. وما أحسن قول العلامة الحريري في ملحمة الإعراب:

وَإِنْ تَجِدْ عَيْباً فَسُدَّ الْخَلَلاَ فَجَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا

الفهرس